

ناتج العرب

(مَطْوَل)

بقلم

الدكتور فيليب حتي

الدكتور أودور دجرجي الدكتور جبرائيل جبور

الجزء الثالث

١٩٥١

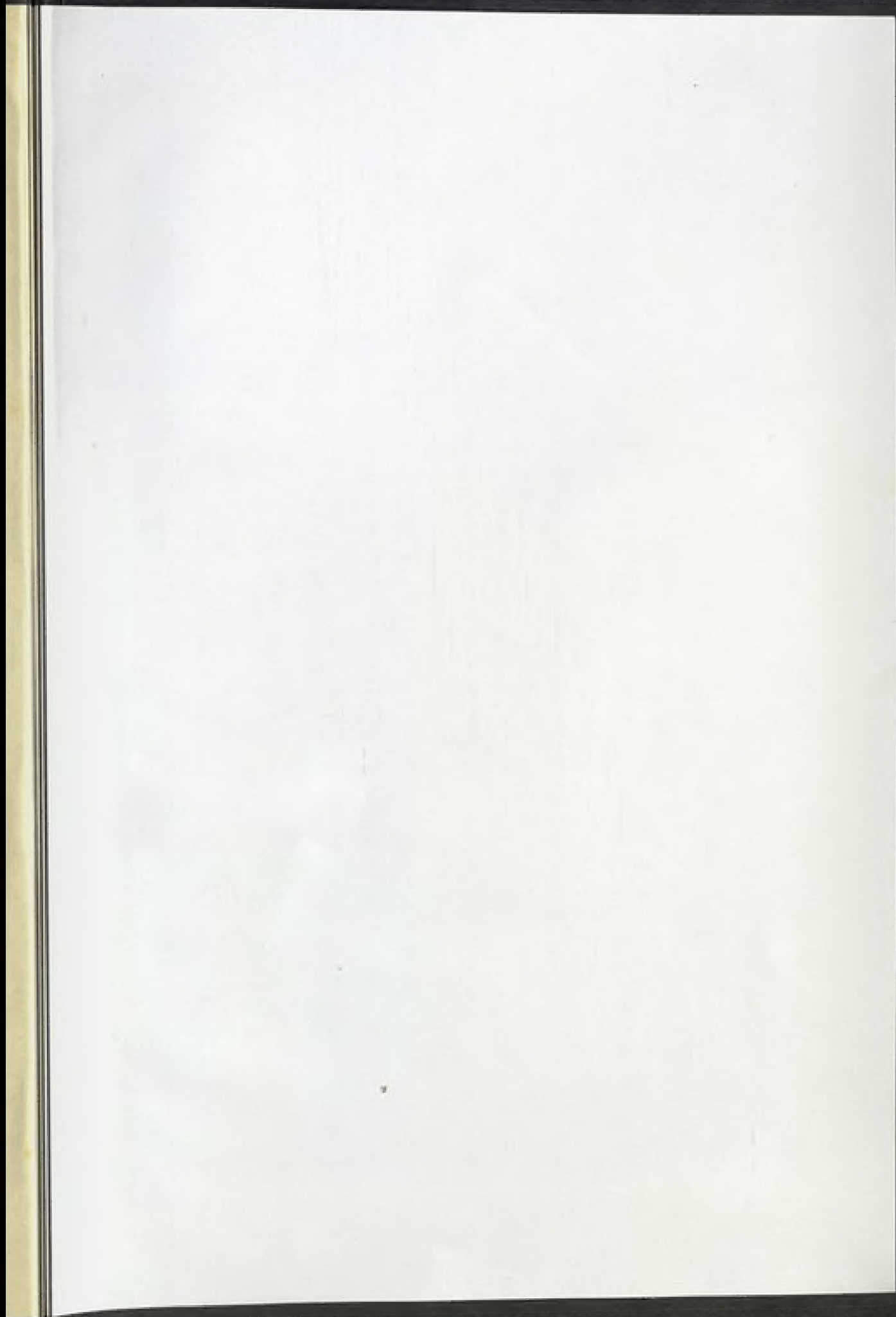
دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



U.S. LIBRARY



952
H37

953
H676tA
V.3
C.1

ناتج العرب

(مُطَوَّل)

بقلم

الدكتور فيليب حتي

الدكتور أدور دجرجي الدكتور جبرائيل جبور

الجزء الثامن

١٩٥١

دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع

شعاع

فوق

68

فهرس المحتويات

القسم الرابع - العرب في اوربا : اسبانية وصقلية

الفصل الرابع والثلاثون - فتح الاندلس ٥٨٩ - ٦٠٠
تدمير مملكة القوط - موسى يعبر المضيق - موكب الظفر - اذلال موسى - كيف
تم الفتح - ما وراء البرنة - معركة تور - الحروب الاهلية - الامارة .

الفصل الخامس والثلاثون - الامارة الاموية في الاندلس ٦٠١ - ٦٠٨
نجاة مدعشة رائعة - الاستيلاء على قرطبة - توحيد الاندلس ونشر السلم في ارجائها -
عبدالرحمن كفو لمناهضة شارلمان - امارة مستقلة - معاملة النصارى - ثورة المسلمين المستجدين

الفصل السادس والثلاثون - اضطرابات أهلية ٦٠٩ - ٦١٨
وقعة الحفرة - التسابق الى الاستشهاد - فلورا وبولوغيسوس - الثورة في مختلف امصار
الاندلس - ابن حفصون

الفصل السابع والثلاثون - الخلافة الاموية في قرطبة ٦١٩ - ٦٢٥
الخليفة عبد الرحمن الناصر - الزهراء

الفصل الثامن والثلاثون - المنشآت السياسية والاقتصادية والعلمية ٦٢٦ - ٦٣٨
قرطبة - الانظمة الحكومية - الصناعة - الزراعة - التجارة - الخليفة في عهده -
الحركة العلمية - الدكتاتورية العامرية - انحلال السلطة الاموية .

الفصل التاسع والثلاثون - ملوك الطوائف : سقوط غرناطة ٦٣٩ - ٦٦٠
بنو عباد اصحاب اشيلية - المعتمد - المرابطون - النقود - الاضطهاد - المستعربون -
السيد الكنييطور - سقوط المرابطين - الموحدون - مؤسس دولة الموحدين - المنصور -
بنو نصر - الحمراء - ايام غرناطة الاخيرة - اضطهاد المورسكو .

الفصل الاربعون - المآثر الفكرية ٦٦١ - ٧٠١
اللغة والادب - الشعر - الموشح - التربية - الكتب - الورق - كتابة التاريخ -
الجغرافية - الاسفار - اثر هذه الدراسات الجغرافية في الغرب - الفلك والرياضيات -
النبات والطب - ابن البيطار - الطب - الزهراوي - ابن زهر - انتقال العلوم الى
اوربا - الفلسفة - ابن جبيرول - ابن باجة - ابن طفيل - ابن رشد - ابن ميمون -
ابن عربي الصوفي - طليطلة مركز الترجمة .

الفصل الحادي والاربعون - الفن وهندسة البناء ٧٠٢ - ٧١٣
صناعة الخزف - المنسوجات - صناعة العاج - هندسة البناء - الجراء - القنطرة -
الموسيقى - اثرها في اوربا .

الفصل الثاني والاربعون - العرب في صقلية ٧١٤ - ٧٢٧
في ايطاليا - عبر الألب - الانسحاب من ايطاليا - الامارة الصقلية - الفتح
النورمندي - الثقافة العربية النورمندية - الادريسي - فردريك الثاني - مقام صقلية في
نقل الفكر - عن طريق ايطاليا .

القسم الخامس - آخر الدول الاسلامية في المعصور الوسطى

الفصل الثالث والاربعون - خلافة شيعية في مصر : الفاطميون ٧٣١ - ٧٣٩
الدعاية الاسماعيلية - شخصية سعيد الغامضة - الفاطمي الاول - الاسطول - جوهر
الصقلي - سلطة الفاطميين في ذروتها - الخليفة الحاكم - دور الانحطاط - السقوط .

الفصل الرابع والاربعون - الحياة في مصر الفاطمية ٧٤٠ - ٧٤٨
حياة البذخ - الادارة - تقدم العلم والادب - دار العلم - الفلك وعلم البصريات -
المكتبة الملكية - الفن وهندسة البناء - الفنون الزخرفية والصناعية .

الفصل الخامس والاربعون - علاقات عربية بين الشرق والغرب : الحروب الصليبية ٧٤٩ -

٧٧٩

سلاجقة سورية - تعدد الاسباب والبواعث وتعقيدهما - ١ . حقبة الظفر - بيزنطة
تسترجع آسية الصغرى - الامارة اللاتينية الاولى - سقوط انطاكية - احتلال بيت
المقدس - الاساطيل الايطالية تخضع مدن الساحل - بلدوين الاول ملك القدس - قيام
امارة افرنجية ثالثة - العلاقات الاجتماعية - ٢ . رد الفعل الاسلامي : قيام زنكي ونور
الدين - ظهور صلاح الدين - حطين - حصار عكا - ٣ . حقبة الحروب الاهلية والمناوشات :
الايوبيون - معسكر الفرنج - مصر نقطة الاهتمام - الفديس لويس - الايوبيون
يتخلون للمماليك - الضربات الاخيرة : بيبرس - قلاوون - عكا .

الفصل السادس والاربعون - العلاقات الثقافية ٧٨٠ - ٧٩٢
مآثر نور الدين وخلفائه - آثار الايوبيين - في العلم والفلسفة - الآداب - فن الحرب
- البارود - في هندسة البناء - الزراعة والصناعة - النواعير - التجارة - الحكم -
امتزاج الشعبين .

الفصل السابع والاربعون - الممالك آخر دول العالم العربي في العصور الوسطى ٧٩٣ - ٨٠٦
نشوء الدولة - الممالك البحرية والبرجية - صد الأيوبيين - بيبرس - مسألة الخلافة -
فلاوون - مستشفى فلاوون المعروف بالمارستان المنصوري - الاشرف - صد المغول -
مصر في اوج ثقافتها - المجاعة والطاعون - سقوط الممالك البحرية .

الفصل الثامن والاربعون - الحركة الفكرية والفنية ٨٠٧ - ٨١٨
الخدمة العلمية - الطب - اطباء يهود - امراض العين - تاريخ الطب - علم الاجتماع :
السير - التاريخ - الاسلاميات وعلوم اللغة - القصص - خيال الظل - العمارة وهندسة
البناء - الفن - زخرفة المخطوطات - حياة البذخ .

الفصل التاسع والاربعون - انتهاء دور الممالك ٨١٩ - ٨٣١
نماذج من السلاطين البرجية - ازدياد الحالة الاقتصادية سوءاً - وقوف التجارة الهندية -
أبنية رائعة - العلاقات الاجنبية - فتح قبرس - تيمور - التيموريون - الترك
العثمانيون - الصفويون - معركة مرج دابق الحاسمة - فتح مصر - الخلافة العثمانية .

القسم السادس - تحت الحكم العثماني

الفصل الخمسون - البلاد العربية تصبح ايلات تركية ٨٣٦ - ٨٤٦
افريقيا الشمالية - دول القراصنة - عظمة القسطنطينية - الثقافة العثمانية - نظام
الامبراطورية - عوامل الضعف الداخلية - ضياع دول افريقيا الشمالية .

الفصل الحادي والخمسون - مصر والهلل العربي ٨٤٧ - ٨٧٥
الممالك اصحاب السلطة - علي بيك يصبح سلطاناً في مصر - نابوليون بوناپوت - محمد
علي مؤسس مصر الحديثة - سورية - الادارة الاقليمية - التدهور الاقتصادي - فخر الدين
امير لبنان المثقف - آل العظم في سورية - وفلسطين حكامها المستبدون - بشير الشهابي -
الاعتراف باستقلال لبنان دولياً - العراق - الجزيرة العربية - الوهابيون - عبد العزيز
ابن سعود - النشاط الفكري .

الفصل الثاني والخمسون - المشهد المتغير : تأثير الغرب ٨٧٦ - ٨٩١
الثقافة تنفذ الى مصر - الى سورية ولبنان - النفوذ السياسي - البريطانيون يحتلون
مصر - الانتداب الفرنسية والبريطانية - مصلح مصري - القومية - النزعة نحو الاتحاد .

فهرس عام ٨٩٢ - ٩٥٢

بيان الخرائط والرسوم والجداول ٩٥٣ - ٩٥٥

القِسْمُ الرَّابِعُ
العَرَبُ فِي أَوْرَبَا: إِبْطَانِيَّةٌ وَصَقْلِيَّةٌ

12
1871

الفصل الرابع والثلاثون

فتح الأندلس

تدبير مملكة القوط

كانت حملة المسلمين على شبه جزيرة ايبيريا، مدخل أوروبا الجنوبي، كما يقدّم سابقاً آخر العمليات الحربية التي قام بها العرب واروعها . وقد بلغ بها التوسع الاسلامي اقصى مداه كما بلغ التوسع الاسيوي المصري هذه الاقصى عند احتلال تركستان .

ولهذه الحملة من حيث السرعة التي تمت فيها والنجاح الباهر الذي لاقته مكانة فريدة في تاريخ الحروب في العصور الوسطى . وكان اول ما نهض المسلمون الى الاندلس في تموز من سنة ٧١٠ . فقد صير موسى ابن نصير عامل بني أمية الشهير على افرقية مولى له يدعى طريقاً (١) في اربع مئة رجل ومئة فارس من البربر للاستكشاف فاحتلوا شبه جزيرة صغيرة هسبى آخر نقطة جنوبية من القارة الاوربية وقد عرفت فيما بعد باسمه جزيرة طريف (٢) (تريفا اليوم) .

وكان موسى بعد ان تولى الامارة نحو سنة ٦٩٩ قد لوغل في المناطق التي كان يحكمها البيزنطيون فكشفهم عن الاراضي الواقعة غربي قرطاجنة واغزى عساكر المسلمين حتى وصلت المحيط الاطلسي واحتلت بقعة كانت كنقطة ارتكاز يستطيع ان يشن هجومه منها على أوروبا . وقد شجعه الآن نجاح طريق والزاع بين رجال الحكم في مملكة اسبانيا القوطية وحسنت في

(١) لا تدري أكان عربياً أم من البربر . قابل القرني (لندن) ج ١ ص ١٠٩ + ابن خلدون ج ٤ ص ١١٠ + ابن عذاري ج ٢ ص ٦ + اخبار مجموعة في فتح الاندلس ، نشر الكنتارا (مدريد ١٩٦٧) ص ٦ .

(٢) ذكرها الإدريسي في ذكر الاندلس (منشورات من ترجمة النفاذ) نشر كوندري وترجمته (مدريد ، ١٩٩١) ص ١١٩ + ١٢٠ .

عينه الفخام فارسيل سنة ٧١١ مولى له بربرياً يدعى طارق ابن زياد الى اسبانية في سبعة آلاف رجل معظمهم من البربر . ونزل بهم طارق قرب جبل الفتح الذي عرف به منذ ذلك العهد فخلد اسمه ، اي جبل طارق (١) . وتذهب الاخبار الى ان الغزاة جازوا المضيق حيث لا يزيد عرضه عن ثلاثة عشر ميلاً الى الاندلس في مراكب قدمها لهم أليان (٢) امير سبته (٣) .

ثم وصلت الى طارق الامداد فاصبح في ١٢ الف مقاتل واشتبك في ١٩ تموز سنة ٧١١ بجيش الملك لذريق عند مصب وادي بككة (٤) على شاطئ بحيرة جاندا . وكان لذريق قد خلع سلفه ابن غيطاسة واغتصب العرش (٥) . ودارت الدائرة على القوط برغم انهم كانوا خمسة وعشرين الفا . وكان سبب انكسارهم خيانة اعداء الملك الذين كان يتزعمهم الاسقف اباس اخو غيطاسة . اما لذريق الذي اجتمعت الاخبار الاسبانية والعربية على انه اختفى فلا ندري كيف انتهى امره .

ومن بعد هذا النصر الحاسم انقطعت دعوة الاسبان وتقدم المسلمون الاندلس وتغلبوا عليها بحيث كاد يكون زحف الجيش في البلاد اشبه بالهزة . ولم تقف بوجوههم الا المدن التي تحصن فيها فرسان القوط . وزحف طارق ومعه اكثر الجيش الى ضليطة عاصمة الاسبان ماراً

(١) الإدريسي ، صفة من ٣٦ .

(٢) البلاذري من ٢٣٠ . أليان في اخبار مجموعة ج ١ من ٤٤ ابن عذاري ج ١ من ١٦ القرني ج ١ من ١٥٩ ؛ ابن عبد الحكم ، ندر ترمي من ٢٠٦ ؛ بوليان في ابن الأثير ج ٤ من ٥٤٤ . وتوجب ماوصل اليه كودورا كان اسمه الصحيح أرين الوالين ، انظر - *Estudios críticos de his-toria árabe española*, ser. 2 (Saragossa, 1903), p. 17 .

فلورندا قد اختصها لذريق وان هذا الامر هو الذي دفعه الى التعاون مع العرب فهي من قبيل الاساطير . والواقع ان الاخباريين من العرب والاسبان قد بالغوا في تزويق حوادث الفتح .

(٣) ومنها لفظة « سوتنا » الاسبانية والاصل هو لفظة سبتم (سبعة) اللاتينية . واسم المدينة الكامل هو سبتم فراترس (Septem Fratres) اي الاخوة السبعة . وهي على رأس جبل ابلا المعروف وهو من سلسلة الجبال المعروفة بالاخوة السبعة أيضاً ؛ الإدريسي ، ترمي من ١٢ .

(٤) نهر صغير يسمى اليوم « سلاو » . وقد سمته العرب وادي بككة (بككة) ثم حرفه الاسبان الى كواديبكا والنيس بينه وبين كواديت قابل : Stanley Lane-Poole & Arthur Gilman, *The Moors in Spain* (New York, 1911), pp. 11, 23 .

(٥) القرني ج ١ من ١٦١ ، ١٦١ ؛ ابن عبد الحكم من ٢٠٦ ؛ ابن عذاري ج ٢ من ١٨ ابن خلدون ج ٤ من ١١٧ ؛ اخبار مجموعة ج ١ من ٨ ؛ المسعودي ج ١ من ٣٥٩ .

بطريق استبحة وانفذ العساكر الى المدن المجاورة واعرض عمداً عن اشبيلية في الجنوب لمقاومة حصونها . وقصد فريق من الجيش ارجذونة فسلمت طوعاً واحتل فريق آخر البيرة وهي قرب الموضع الذي تقوم فيه غرناطة اليوم . وسير طارق مغيثاً الرومي في سبع مئة فارس على قرطبة فحاصرها وصمدت هذه المدينة التي اصبحت فيما بعد عاصمة المسلمين وقاومته نحو شهرين ثم فتحها بعد ان دله فيما يقال راعي غنم هناك على ثغرة في سورها (١) . وفتحت . الفة بلا حرب وجرت اشد معركة في هذه الحملة عند استبحة وكان القتل فيها من نصيب المسلمين . وسقطت طليطلة ايضاً بخيانة بعض سكانها اليهود . وهكذا استنطاع طارق وقد قصد الاندلس ربيع سنة ٧١١ على رأس حملة بسيطة لغزو ان يحتل في صيف السنة نفسها نصف اسبانية ويصبح سبدها الامر المطاع . لقد قضى في بضعة أشهر على مملكة أسرها .

موسى بن عبد المصنوع

وحسد موسى طارقاً مولاه على هذا الانتصار الرائع الذي لم يكن منتظراً فشحخص في حزيران سنة ٧١٢ الى الاندلس على رأس عشرة آلاف (٢) من العرب وأهل الشام وقصد المدن والحصون التي تجنّبها مولاه كمدينة شذونة وفرمونة واشبيلية . وقد كانت اشبيلية اكبر مدن الاندلس ولرقي المراكز الفكرية فيها وكانت فوق ذلك قاعدة الرومان قبل تغلب القوط على البلاد فقاومت الحصار حتى آخر حزيران سنة ٧١٣ . غير ان اشد مقاومة لاقاها موسى كانت في ماردة فقد خرج أهلها الى حربه فحاربهم ثم حاصرهم سنة كاملة وفتحها في اول حزيران سنة ٧١٣ (٣) .

ولقد اتفق أكثر الرواة على ان موسى التقى بطارق في طليطلة او قريباً منها فوبخه وضر به بالسوط وسار به مشدود الوفاق لتقدمه دون رأيه وهو مولاه (٤) . ولكن الحملات لم

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٠-١١ : اخبار مجموعة من ١٠ : قابل للتقري ج ١ ص ١٦٤-١٦٥ .

(٢) الضيري ج ٢ ص ١٢٥٣ . وتعمل بعض المصادر الأخرى عددهم ثمانية عشر ألفاً .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ١٥-١٦ : ابن الأثير ج ٤ ص ٤٤٧ : التقري ج ١ ص ١٧٠-١٧١ : قابل ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس (مدريد ١٨٦٨) ص ٩-١٠ .

(٤) ابن عبد الحكم ص ٢١٠ : ابن عذاري ج ٢ ص ١٨-١٩ .

تقف عند هذا الحد بل سار موسى شمالاً الى سر قسطة ففتحها ثم غزت جنوده مرتفعات اراغون
وايون واستوريا وجليقية . وفي خريف السنة نفسها ورد اليه كتاب الخليفة الوايد من دمشق
يأمره بالعودة متهدداً اياه بمنزل ما انهم هو مولاه وعاقبه عليه الا وهو استقلاله بالأمر دون مراجعة
امير المؤمنين . ولم يكن على موسى بصفته حاكم افر بقية من رئيس سوى الخليفة نفسه .

مركب الظفر

وخرج موسى من الاندلس بعد ان استخلف عليها ابنه عبد العزيز وسار بالغنائم والهدايا
سلكاً طريق البر حتى قدم الشام وكان يصحبه عدا ضباط الجيش ووجود القبائل اربعة أمير
من القوط على رؤوسهم التيجان وعلى اوساطهم مناطق ذهبية يتبعهم عدد لا يحصى من الغلمان
والرقيق حسانين مفادير عظيمة من الغنائم (١) . ويتناول مؤرخو العرب خبر خروج هذا
المركب الفخم من الاندلس الى شمالى افر بقية فالشام بشيء عظيم من المعبطة والاعجاب . وان
وصفهم له ليعيد ذكرى مواعيد المركب الظفر التي كان يسير فيها قواد الرومان القدماء . وكانت اخبار
المركب الفخم قد بلغت دمشق قبل وصول المركب نفسه . وعندما بلغ المركب طبرية تلقى
موسى ابن بصير الأوامر من سليمان ابن عبد الملك ولي العهد يطلب منه فيها ان يؤخر دخوله
الى العاصمة وكان غرض سليمان من ذلك ان يوافق وصول هذا المركب وقت ارتقائه العرش
بعد اخيه الوايد الذي كان مرابطاً (٢) .

ودخل موسى دمشق في شباط سنة ٧١٥ يصحبه امراء القوط بملايهم الرسمية وعليهم
الحلى والجواهر . ويظهر ان الوايد ابن عبد الملك سار بهذا المركب ورحب بموسى في احتفال
مهذب في بهو الجامع الأموي . ويمكن اعتبار هذا الاحتفال الرسمي اعلى قمة من قمم الفخار في
تاريخ الفتوح الاسلامية . وقد شاهد المسلمون لأول مرة مئات من ابناء الأوس الملكية القرية

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢١-٢٢ ابن عبد الحكم ص ٢١٠-٢١١ ابن الفوطي ص ١٠ : قصة فتح
الاندلس (من كتاب الامام والسياسة المنسوب لابن قتيبة) للشذوذة كنعاني لكتاب ابن الفوطي ص ١٣٨ .
١٢٠ ومايلي .

(٢) قابل عهد الواحدة المراكشي : الموجب في تلخيص اخبار العرب : الطبعة الثانية دار دوزي (لبنان)
١٨٨١ ص ٨ .

والوقت من الأرقاء الأوربيين مطأطئي الرؤوس يعلنون خضوعهم لأمير المؤمنين . وكان من جملة التحف النفيسة التي وفد بها موسى على الوليد المائدة المعجبية التي نسجت الخرافات صنعها لمجن الذين كانوا في خدمة سليمان ابن داود فيما يزعمون وذهبت الى ان الرومان نقاوها من بيت المقدس الى عاصمتهم ومنها أخذها القوط فيما بعد وصار ملوكهم يتنافسون واحداً بعد الآخر في ترصيعها وتحليتها بالحجارة الكريمة . وقد حفظت المائدة في الكاتدرائية بطليطلة حتى ظهر بها طارق ولعلها أخذها من الاستغ الذي حاول الحرب بها من عاصمة القوط . وتذهب القصة الى ان طارق كان قد اخفى رجلاً من الرجال المائدة عندما طلبها موسى منه في طليطلة حتى اذا صار في حضرة الخليفة اخرج الرجل الدلالة على انه هو الذي اصابها فصدقوه الوليد وأعظم جازته (١) .

الزلازل موسى

واصاب موسى ما اصاب الكثيرين من قواد العرب المبرزين . فقد ساهم سليمان خليفة الوليد اوان العذاب وانزله الى لحد وكانت المذلة فقد اقامه في الشمس يوماً كاملاً في خمار صائف حتى خر مغشياً عليه ثم جرده من سلطته وصادر امواله . وآخر ما سمع عن هذا القائد الكبير فاتح افريقية والاندلس انه شوهد في شيخوخته يستعطي في قرية نائية في وادي القرى من اعمال الجباز (٢) .

كيف نم الفتح

لقد أصبحت اسبانية بعد ان فتحها العرب مصراً من امصار الخلافة وصارت بالاندلس (٣) . ولم يبق امام خلفاء موسى سوى انحاء صغيرة في شمالي الجزيرة وشرقها كان عليهم ان يفتحوها

١ ابن خلدون ج ٣ ص ٢٦-٢٧ ابن الأثير ج ٢ ص ٤٨-٤٩ القرطبي ج ١ ص ١٦٧، ١٦٨ ابن عبد الحكم ص ٢١١ نسخة من اخبار فتح الاندلس (مأخوذة من الرسالة الشريفة الى الافطار الاندلسية ونشرت كتريل الكتاب ابن القومية ، مدريد ١٨٦٨) ص ٢١٣، ١٩٣ . وانظر « الف ليلة وليلة » ص ٢٧٢ .

٢ القرطبي ج ١ ص ١٨٠ . قابل ابن خلدون ج ٣ ص ٢٧ .

٣ ترجع هذه الملاحظة اشتقاقاً الى اسم « فاندال » (Vandals) الذين احتلوا البلاد قبل العرب .

وقد تم فتح الجزيرة كلها في مدة لا تزيد عن سبع سنوات وكسب العرب بذلك قطراً من اكبر اقطار اوربا في العصور الوسطى واجعلها . وقد استطاع الفاتحون بعد هذا ان يثبتوا اقدمهم في البلاد ويظلوا فيها قروناً طويلة .

اما الاسباب التي مهدت السبيل لهذا الفتح الذي لم يسبق له نظير فليس من الصعب ادراكها حتى من الاخبار الموجزة التي ذكرنا . فقد كانت هناك اولاً فوارق قومية بين القوط الغربيين الذين دخلوا اسبانية في اوائل القرن الخامس وهم من برايرة الطوطون وبين اهل البلاد الاسبان الرومانيين . وكانت اثر هذه الفوارق لا يزال بيتاً عند دخول المسلمين . وقد جاهد القوط كثيراً في النزاع مع السوفي والفاندال من الاقوام الجرمانية المعروفة التي كانت قد احتلت البلاد قبلهم وحاولوا ان يحلوا محلهم . واقروا ، بعد ان دانت لهم الجزيرة ، الحكم المطلق وكان ملوكهم في الغالب من العتاة المستبدين في الحكم . واعتنق هؤلاء الملوك النصرانية على المذهب الآري وحافظوا عليه حتى ظهر منهم ريكارد قبل الكتلركة مذهب اهل البلاد . وكانت البلاد قبل زمنه تعتبر مذهب ملوكها القوط بدعة . وكان كثير من السكان الاصليين من طبقة العبيد او المأجورين لزراعة الاراضي وكانوا يضمرون البغضاء لأسيادهم ويتذمرون من سوء المعاملة . ومن هنا لم يكن غريباً على مثلهم ان يتعاونوا مع الفاتحين ويهدوا لهم سبل الفتح . وكان اليهود المنتشرون في انحاء البلاد معادين كذلك للطبقة الحاكمة لمسا اصابهم من اضطهاد على ايدي ملوك القوط الذين حاولوا تنصيرهم قسراً فقد بلغ باحد هؤلاء الملوك سنة ٦١٢ ان اصدر امراً يقضي على كل يهودي بالمعمودية والا صودرت امواله وتعرض للثقي وهذا ما يعلل ثقة المسلمين باليهود وكيف كانوا يعدون اليهم في بعض المدن التي يفتحونها ان يتسلموا ادارتها بينما يواصل الجيش الاسلامي اعمال الفتح .

ويجب ان نذكر ان الخلاف السياسي بين الاسرة القوطية المالكية وبين قبلاء القوط انفسهم والنزاع الداخلي العنيف قد زعزعا اركان الدولة . ففي آخر القرن السادس كان النبلاء قد اتخذوا يسيطرون على المقاطعات التي كانوا فيها بحيث اصبحوا اسيادها . وقد وافق دخول جيش المسلمين الى الاندلس قيام احد هؤلاء النبلاء واغتصابه العرش ولكنه ما لبث طويلاً

حتى خانه اقارب الملك الخلع . وعند فتح طليطلة كانت اخيلا ابن غيطاسة الملك القوطي الخلع يعتبر ان العرب يحاربون قنصرته ولكنه قطع آخر الأمر ان تعاد اليه املاكه في تلك المدينة وعاش فيها محفوفاً بما يريد من مظاهر الابهة . وجعل معه الاسقف ابن اسقف على ارضية العاصمة . اما اوليان فلم يكن الدور الذي لعبه في حركة الفتح كبيراً بهذه الدرجة التي ذكرتها الاخبار .

ما وراء البرنة

قد ازال سقوط سرقطة احدى المعينات الاخيرة التي كانت تحول بين الغزاة في اسبانية و بين فرنسا . ولكن جبال البرنة لم تزل امامهم وقد وقفت حاجزاً منيعاً في وجوههم . والظاهر ان موسى لم يقطع هذه الجبال مع ان بعض مؤرخي العرب ينسبون اليه ذلك ويؤمنون انه كان يعني نفسه باجتياز بلاد الفرنجة الى المشرق عن طريق القسطنطينية الى ان يصل الى دار الخلافة في دمشق (١) . ومع ما يبدو من غرابة في هذا الخبر فليس بعيداً ان تكون نفوس الفاتحين العرب قد صبت الى شيء من ذلك لان معرفتهم بجغرافية اوروبا لم تكن عظيمة . والواقع ان اول من قطع جبال البرنة هو الحرث بن عبد الرحمن الثقفي (٢) الخلف الثالث بعد موسى وكان ذلك سنة ٧١٧ او ٧١٨ .

وكان الذي حدا بالحرث الى هذه المغامرة أمل الاستيلاء على كنوز الدير والكنائس في غاليا (فرنسا) وقد شجعه على الأمر النزاع والفتن الداخلية بين قواد البلاط المروفي ودوقات اكونانيا . وقد بدأ غاراته واستمر بها بعده خلفه السمع ابن مالك الخولاني . وفي سنة ٧٢٠ في عهد الخليفة عمر الثاني استطاع السمع ان يستولي على سبانيا التي كانت تابعة لملكة القوط المنحلة ثم نزل اربونة التي جعلها العرب بعدئذ حصناً منيعاً فيه دار للصناعة ومستودع لاعدات الحرب ومؤن الجيش . ولكن حملته التي قام بها في السنة التالية على تولوز مقر دوق اكونانيا انتهت بالفشل بسبب المقاومة العنيفة التي ابداها المدافعون . وقد استشهد (٣) فيها السمع وتم

١ - انقري ح ١ ص ١٧٥ : ابن خلدون ج ٢ ص ١١٧-١١٨ .

٢ - ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٤-٢٤٥ : ابن الأثير ج ٢ ص ٢٧٣ .

٣ - انقري ح ١ ص ١٧٥ : تاريخ رجال الاندلس : نشر كودرا ورييرا (مطبعة ١٨٨٠-٨١) ص ٣٠٣ .

بها أول انتصار لأمر جرمانى على جيش عربي ولم تكن غارات العرب التالية وراء جبال البرية موقعة بعد هذا العهد .

معركة تور

وقد قاد آخر الحملات وأخطرها عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي خلف السمع في إمارة الأندلس . وقد تقدم عبد الرحمن فقطع سلسلة البرية الغربية في مطلع الربيع سنة ٧٣٢ فجهز دوق أكونانيا على ضفتي نهر السكارون ثم أخذ يوردو عنوة واشعل النار في كنائسها . وبعد أن أحرق الباسيليكا (الكنيسة) القائمة خارج أسوار يواتيه زحف شمالا حتى جوار مدينة تور . وكان لتور أهمية دينية عند سكان البلاد فقد كانت مرقء القديس مارتين الذي نصر الغالين فيما يزعمون . وليس من شك في أن الطرف والصنور النفيسة التي عرفت فيها كانت من العوامل التي حركت الفاتحين لمهاجمتها (١) .

وهنا بين تور ويواتيه على ملتقى نهري كلان وفين التقى عبد الرحمن بشارل مارتل رئيس البلاط المروفي الذي كان دوق أكونانيا قد استنجد به . وكان شارل - وقد لقب بمارتل أي المنطرق لشدة وبلائه - شجاعاً جريئاً أخضع أعداء كثيرين واضطر دوق أكونانيا الذي كان مستقلاً في مقاطعته أن يعترف بزعامة الفرنجة الشماليين وسيطرتهم الاسمية . ومع أنه لم يكن ملكاً وهو ابن غير شرعي لبيبين الهرستالي فقد تصرف بالفعل تصرف الملوك .

وأقام الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن نحو سبعة أيام يرحد قوات الفرنجة وعلى رأسها شارل المذكور وهم بالأكثر من المشاة وقد لبسوا جلود الدواب وتدلّت شعورهم الملبدة على اكتافهم ولاتقب الفريقان التحام المعركة . واستمرت المناوشات البسيطة حتى كان يوم سبت من أيام تشرين الأول سنة ٧٣٢ قهلاً القائد العربي المجهوم . ووقف جند الفرنجة عند اشتداد المعركة بشكل مربع هندي محووف كثفاً إلى كثف فصدوا - فيما يقول مؤرخ شرقي - كنيان مرصوص أو كركام من جايد (٢) لا تبرزه الحوادث . وأغار فرسان العرب الخفيفة

(١) الذي . بقية الأس من ٣٥٣ .

(٢) An. fr. Duchesne, *Historiae Francorum Scriptores*, vol. 1 (Paris, 1636), p. 786. (٢)

فلم تجد سبيلاً إلى كشف هذا الجمع . ولم تزعزع صفوف الفرنجة بل صارت وثبتت في مراكزهم . وكانت كلها دماً منها مهاجم جنداته . وكان بين من سقطوا في تلك المعركة عبد الرحمان بن حماد . ثم اسدل الظلام حجاباً على المتحاربين فستر الجوع وحال بينهم ولم يطلع فجر اليوم التالي حتى خيل لشارل أن السكينة التي كانت تخيم على معسكر العرب إنما هي خدعة . فربط عبونه يتحققون جليلة الأمر وأدرك أخيراً أن العرب انتهزوا الفرصة في حالك الليل فدخلوا مضاربهم وقادروا . وهكذا حقق النصر لشارل .

وقد أسبغت الأساطير الغربية المتأخرة على يوم يواتيه ثوباً من الزخرف والخيال وأسرفت في الأيهام بظهوره . أما المسلمون فلم يشيروا إليه كثيراً وقد سموه « بلاط الشهداء » (١) . ويعتبر النصارى الفرنجة بدء عهد سعيد صدوا فيه عدوهم الأيدي . فالمؤرخ الانكليزي غيل (Gibbon) (٢) وبعض المؤرخين الذين اتوا بعده ذهبوا إلى أنه لودريج العرب تلك المعركة فكانت باريس و لندن موطنين تقام فيهما المساجد لا البيع التي تقوم اليوم وتسمع فيهما القرآن يفسر في الجامعات كالمسجود وغيرها من مراكز العلم لا الكتاب المقدس كما يجري اليوم . ويعتبر عدد من المؤرخين الحديثين أن معركة تور هي إحدى المعارك القاصدة في التاريخ (٣) . ولكن الواقع أنها لم تفصل شيئاً . فقد كانت موجة الهجوم التي قامت على العرب والبربر قد استنفذت قوتها حين بلغت على بعد نحو ألف ميل من جبل طارق وقد وصلت الآن إلى نهاية طبيعية وفتت عندها . وكان الخلاف الداخلي بين العنصرين العربي والبربري قد أخذ يظهر قرنه وظاهر التحاسد بينهما فتضعفت قوة الجيش المعنوية . حتى العرب أنفسهم فإنه لم يكن بينهم كما سنرى شعور موحد عام . ومع أن العرب قد صدوا وأوقفوا عند هذه النقطة فإن

(١) انظر مقدمة ص ٢٥ : القرني ج ١ ص ١٤٦ . وكلمة « بلاط » مأخوذة بواسطة العربية عن اللاتينية أو اليونانية - بلاتو أو بلاتيم - وهي مأخوذة في أسماء للوالمع وخاصة بالاسبانية (الأندلسي) . ترجمة من (١٩١٢) . وقد سمي ميدان القتال هنا « بلاط » لأن المعركة جرت على طريق رومانية مباشرة - فسان يوحنا ١٩ : ١٣ .

(٢) Decline and Fall, ed. Bury, vol. vi, pp. 15 seq ; Lane - Poole, pp. 29 - 30 . (٣) Edward Creasy, The Fifteen Decisive Battles of the World, new ed. (New York, 1918), pp. 159 seq ; S. P. Scott, History of the Moorish Empire in Europe (Philadelphia, 1904), vol. i, p. 306, Henry Coppee, History of the Conquest of Spain by the Arab - Moors (Boston, 1881), vol. ii, pp. 19 seq

جيوشهم لم تقف عن مواصلة الجهاد في جهات أخرى . فقد احتلوا مثلاً سنة ٧٣٥ أفنيوت وغزوا بعد ذلك بتسع سنين ليون وانتهبوها ولم ينسحبوا من اربونة قاعدتهم الحربية التي كانوا يشنون منها الغارات حتى سنة ٧٥٩ . على ان هذا الانكسار بالقرب من تور وان لم يكن السبب الحقيقي لتوقف الفتوحات العربية فقد تدعى به الحد الأقصى الذي بلغته جيوش الاسلام الظاهرة . وبعد وفاة النبي بمئة سنة كانت امبراطورية خليفته في دمشق امبراطورية عالمية قد امتدت من حدود الصين حتى غالية .

الحرب الراهية

بدور تاريخ الحقبة التي تبدأ بمعركة تور في سنة ٧٣٢ وتنتهي بوصول البطل الاموي عبد الرحمن الاول ارض الاندلس في سنة ٧٥٥ حول النزاع بين حزبين في صفوف المسلمين في الاندلس وهو النزاع المأثوف بين عرب الشمال الذين يعرفون بالمضرية (١) وبين عرب الجنوب البليانية . وكانت النزاعات الشيعية قد تعاقبت بنفوس البليانيين في مختلف البقاع التي حدها اما المضرين فقد حافظوا على تعاليم السنة . وعند تأسيس الدولة العباسية كانت من الطبيعي ان يشايها البليانيون بصفتهم علويين ويمطقوا على قضيتهم . بينما ظل الحزب المضرى موالياً للبيت الاموي البائد . ثم ان معاشر البر الذي طعن سيلهم على الجزيرة الاندلسية بعد الفتح قدمين اليها من افريقية قد اصبحوا اشد الاحزاب ضرراً وذلك بعد ان اعتنق كثيرون منهم مذهب الخوارج ونشطوا الى الدفاع عنه مناوئين الامويين والعلويين معاً . وقد اخذ البر يتقدمون زاعمين انهم وابناء جلدتهم الذين ساهموا بالفتح قد تحملوا اعباء الحروب واهوالها ولم يقطعوا من الارض في الاندلس غير قواحل المرتفعات الوسطى بينما سبق العرب لانفسهم اخصب بقاع الاندلس وابهجها .

ولم يلبث التذمر ان ادى الى اشتعال نار الثورة . وقد كانت نار الفتنة التي اشعلها البر بين ٧٣٥ و ٧٤٢ من مراكش الى الفيروان قد اخذ يدلع لجها الآت في الاندلس نفسها بحيث كانت تقضي على هذه الممثلة من المستعمرين العرب . وفي سنة ٧٤١ سير الخليفة هشام

(١) صدر وربيعة من عرب الشمال من قبائل معد .

ابن عبد الملك جيشاً من ٢٧ ألفاً من أهل الشام لتهدئة الثورة الإفريقية (١). وسار بليغ ابن
أش ببقية هذا الجيش الباقية نحو ثلثه إلى الأندلس فغير المضيق وحصل بهم فيها. وأصبح
السوريون مستعمرين. وبسبب طموحهم ومطامعهم وولائهم الشديد للبيت الأموي خلفوا
في الأندلس مشكاة جديدة أضاف إلى مشكاته. وتسلم بليغ زمام الحكم وقبض على ناصية
الأمر وأقر رجاله في العاصمة قرطبة. ولفرق بعد ذلك أكثر السوريين في المدن الأندلسية
فقرأت فرقة خمس بأشبيلية وفرقة فلسطين في مقاطعة شذونة والجزيرة الخضراء وفرقة دمشق في
مقاطعة البيرة وفرقة قنشرين في مقاطعة جيان (٢). وليس أدل على القوضى التي كانت أسود
هذه الحقبة بين سنة ٧٣٢ و ٧٥٥ من أنه قد تعاقب على حكم الأندلس في المدة نفسها ما لا يقل
عن ثلاثة وعشرين أميراً. وليس يمكن في الأحوال كذلك أن يكون هناك توسع أو تقدم في
أرض العدو برغم أنه قد سيرت بعض الحملات التي استشهد فيها عدد من الأمراء (٣).

الإمارة

وكانت إدارة حكومة الجزيرة تستند إلى أمير فكان يحكم البلاد مستقلاً كل الاستقلال
تقريباً مع أنه كان تابعاً بالاسم للحاكم العام الذي يعينه الخليفة على المغرب (أي شمال إفريقية
والأندلس) ومقره القيروان. وكان يجري في بعض الحالات تعيين الأمير مباشرة من لدن
الخليفة في دمشق. وقد اتخذ عبد العزيز ابن موسى ابن نصير أشبيلية دار إمارته وكانت أول
أمراء الأندلس. وتزوج بعد خروج أبيه أرملة لذريق وأصبحت تعرف بأم عاصم. وقد
استطاعت أم عاصم - فيما يذهب إليه المؤرخون العرب - (٤) أن تعمل زوجها على لبس الخارج

١ الخبار مجموعة من ٣٦ : قال ابن القوطية من ١٥-١٠ : ابن عذاري ج ١ من ١-٢ : ج ٢ من ٣٠ : القزويني من ٩.

٢ ابن القوطية من ٢٠ : ابن عذاري ج ٢ من ٣٣ : ابن خلدون ج ٢ من ١١٩ : ابن الأثير ج ٥ من ٢٠٠ : ابن الخطيب . مخطوطة في كتاب دوزي *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne*, 3rd ed. (Paris, 1881), vol. I, app. II, pp. vii-viii. وراجع بشأن التشابه بين المبعثات العربية في إسبانيا والشام مقالاً لتكيب أرسلان عنوانه علاقة التاريخ بالأدب العربي المقطع ج ٥٠ (١٩٠٢) من ٣٨-٤٤ : ١٣٩١ : ١٥-٣٢٣٠ : ٧.

٣ ابن خلدون ج ٢ من ١١٥-١١٩ : المقرئ ج ١ من ١٥٥-١٦٠.

٤ الخبار مجموعة من ٢٠ : ابن عبد الحكم من ٢١٢ : ابن القوطية من ١١ : ابن الأثير ج ٤ من ١٤ : ابن عذاري ج ٢ من ٢٢-٣٠ : المقرئ ج ١ من ١٧٨ : وقال الكتاب المنسوب إلى ابن قتيبة من ١٦٩ وما يلي.

على عادة ملوك القوط وان يجعل باب قصره واطناً بحيث لا يدخل الداخل عليه الا مضطراً .
الرأس خشوعاً واحتراماً . وقد حملته كذلك هذه المرأة النصرانية فيما يزعمون ان يجعل لها في
القصر معبداً له مثل ذلك الباب بحيث اذا دخل عليها عبد العزيز نفسه انحنى امامها صنيعة
بسجد . وراحت شائعات تتصل بهذه الأخبار وبلغت مسامع الخليفة سليمان بعد ان يطلع فيها
بحيث ذهبوا الى ان الأمير اعتنق النصرانية . وكان من نتيجة ذلك ان اغتيل الأمير عبد العزيز
سنة ٧١٦ بالقرب من اشبيلية في دير سانتا روفينا (Santa Rufina) الذي كان قد تحول فيما يظهر
الى مسجد . وقد اختزن القشة رأس الأمير وارساوه الى دمشق فعرض على ابيه الحرم المنكوب
موسى ابن نصير .

وبعد ذلك بثلاث سنوات نقل السمع ابن مالك الخولاني دار الامارة الى قرطبة (١)
التي قبض لها ان تكون مقراً زاهياً لدولة الأمويين الغربية قروناً طويلة . وكان السمع الأمير
الرابع في سلسلة هؤلاء الامراء الضعفاء الذين حكموا الاندلس وقد اعداد بناء الجسر في قرطبة
على نهر الوادي الكبير على بقايا جسر قديم كما انه امر بتمسح البلاد من جديد وحدث نظاماً
للضرائب . ولم تنقض مدة طويلة بعد عهد السمع حتى أصبحت الامارة مثار فتن
دموي بين المضربة والبيانية . واخيراً اتفق الفريقان على حل اعتداه موقفاً وهو ان تكون
الامارة لفريق سنة وللفريق الآخر سنة اخرى .

وكان اول من ناب عن المضربة يوسف ابن عبد الرحمان الفهري (٢) وهو من ذرية
عقبة الفهري مؤسس القيروان ووافق الخليفة مروان الثاني (٧٤٦) على العقد له (٣) . ولم يأت
آخر الخول حتى تمتع يوسف عن تسليم زمام الحكم مرشح البيانية واصر على البقاء في دست
الولاية نحو عشر سنين (٤) . وفي اواخر سنة ٧٥٥ بيتاً هو منصرف الى قسيع دابر الثورة في
نواحي الشمال نحي اليه ان عبد الرحمان ابن معاوية قد وخطا الشاطئ الاندلسي جنوبي غرناطة
وهو يزحف شمالاً لاستلام الامارة . وهكذا فقد بذت طلائع فصل جديد خفي في تاريخ اسبانية .

(١) القادة ص ٢٠٦-٢٠٧ ابن القوطية ص ١٢-١٣ . قابل ابن عذاري ج ٢ ص ٢٢٥ القري ج ٩ ص ١٠٠ .

(٢) اخبار مجموعة ص ٥٧ وما يلي : ابن الأثير ج ٤ ص ٢٨٦ . ٧ .

(٣) قابل الكتاب المنسوب الى ابن قتيبة ص ١٨٨ .

(٤) ابن الأثير : الحلة السيرة : نشر دوزي (اليد ١٨٤٧-٥١) ص ٥٥ : ابن الأثير ج ٤ ص ٢٨٦ .

الفصل الخامس والثلاثون

الإمارة الأموية في الأندلس

رد مدحها رابعة

عندما دشن العباسيون عهدهم في سنة ٧٥٠ بمذبحة عامة أزدوا بها أكثر أفراد الأسرة الأموية كان عبد الرحمن أحد القلائد الذين نجوا ، وهو حفيد هشام ابن عبد الملك عاشر خليفة في دمشق . وتعتبر قصة نجاة هذا الفتى من الموت وهو في الحادية والعشرين من عمره وغراره على وجهه منكرامدة خمس سنوات منتفلاً من فلسطين الى مصر فشالي افرريقية حيث أوت غير مرة من ايدي الرقباء العباسيين من اروع الحوادث الروائية في تاريخ العرب . فقد كان عبد الرحمن مخبئاً اول الامر في مضرب خيام ليدو على ضفة الفرات واذا برأيات العباسيين السود تبدو فجأة قرب الخيم ففر الحال ورمى بنفسه الى القرات وتبعه اخوه الاصغر وهو ابن الات عشرة سنة ولكن هذا عجز عن السباحة وهو في وسط النهر واعطاه مطارده الامسان فسه فهم وقتل راجعاً فالخذوه وقتلوه وعبد الرحمن ينظر اليهم ويتحرق الماء واندفع عبد الرحمن حتى بلغ الضفة الأخرى ثم توارى في غبضة حتى انقطع عن النظر (١) .

وسار متخفياً نحو الجنوب الى فلسطين حيث لحق به بدر مولاه الأمين . وقصد افرريقية وسار بها ليج عبد الرحمن الفهري عاملاً في طلبه وهو من اقرباء يوسف الفهري امير الاندلس فهرب منه طريداً شريداً معهما ينتقل مع مولاه بدر من قبيلة الى اخرى ومن بلدة الى بلدة حتى دخل سبنة سنة ٧٥٥ . ثم ان اخواله وهم من البربر الذين كانوا يقيمون في تلك الانحاء حسبوا استقباله . ومن هناك أخذ في مكانة المستعمرين من جند الشام وهم أهل دمشق

(١) الخوارزمية ص ٥٢ - ٥٣ : ابن الاثير ج ٥ ص ٢٧٧ .

وقنسرين النازلين في البيرة وجيان ووجه بدرأ اليهم يدعوهم اليه فاجابه كثيرون من زعمائهم الذين كانوا يوالون البيت الأموي ويتوقون الى ان يلتفوا حول زعيم من اقاربه . وتوفى أهل الشام في اسبلة البائسين الى حزبهم فمالوا اليهم لا حباً بعبد الرحمان ولكن بغضباً بيوسف القهري امير الاندلس يومئذ . وارسلوا لعبد الرحمان مركباً وابغوه طاعتهم ثم قدموا به زعيماً الى الاندلس . وكان عبد الرحمن طويل القامة نحيف الجسم اقنى الأنف بارزه اصهب خفيف العارضين (١) . وكان سريع النهضة حازماً مقداماً يتصف بافضل ما كان يتصف به بتوامية من مزايا توغل صاحبها للقبض على دفة الامور في مثل تلك الاحوال المضطربة . وسعى يوسف الى استحقاق عبد الرحمان به بما اوتي من حيلة فاغدى عليه الصلات وقطع له اليهود ورضي بان يزوجه من ابنته . الا ان هذه كلها لم تجد نفعاً . وفتحت مدن الجنوب لالامير القادم اولها فدخل ارخدونة (٢) وفيها أهل الاردن . ثم توجه الى مقاطعة شذونة وفيها أهل فلسطين فدخلها وهكذا حتى بلغ اشبيلية حيث كان يقيم عرب حمص فبايعته طوعاً ورحب أهلها به أجل ترحيب (٣) .

الاستيلاء على قرطبة

وسار عبد الرحمان واتباعه نحو قرطبة وتقدم يوسف نحو اشبيلية . وقبل نشوب المعركة لاحظ القوم ان عبد الرحمان لا راية له يعرف بها فاقبل ابو الصباح يحيى اليحصبي زعيم البايعة في اشبيلية بفتاة فرفع عليها عمامة خضراء (٤) فكانت اول راية للامويين في الاندلس فيما يزعمون .

ونشب القتال صباح ١٤ ايار سنة ٧٥٦ فاشتبك الفريقان على ضفتي الوادي الكبير وصبر الفريقان الى الصباح . وكان اكثر المحاربين فرساناً رغم ندرة الخيل في الاندلس في ذلك

(١) ابن عديم ج ٢ ص ٥٠٠ ابن الأثير ج ٦ ص ٧٦ .

(٢) عاصمة ربه (رجيرو) المقاطعة الجبلية في باقوت ج ١ ص ١٩٥ ، ٢٠٧ .

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٧٨ ابن عديم ج ٢ ص ٤٨٨ القفري ج ١ ص ٢١٢ .

(٤) أخبار حمزة ص ٨٤ . قابل ابن قوطبة ص ٢٦ .

العهود وبذل عبد الرحمان فرساً كان يركبه يهمل لابي الصباح (١) حين عرف ان بعض الناس من اتباعه كانوا يظنون انه سيتخلف عن القتل ويهرب. ولم تطل المعركة كثيراً وفر يوسف وقائد جيشه ودخل عبد الرحمان قرطبة ظافراً وحال دون نهب العاصمة واعلان اماناً عاماً ووضع جميع اهل يوسف وماله تحت رعايته.

توحيد الاندلس ونشر السلام في ارباضها

على ان استيلاء عبد الرحمان على قرطبة لم يمن التغلب على الاندلس كلها. فقد اخذ يوسف صاحب الاندلس يدأب على نشر الفساد في شمالي الاندلس وخلق الفوضى في وجه الامير الاموي الى ان قتل بالقرب من طليطلة (٢). اما المدينة نفسها فلم تسقط في يد عبد الرحمان حتى سنة ٧٦٤. واعاقبت الثورات والفتن التي اضربها عمال العباسيين في صفوف الياوية والشيعة. ولم يتم اخضاع البربر الا بعد انقضاء عشر سنين على دخول عبد الرحمان. وكانت هؤلاء البربر بولاق الامير الاموي اول الامر ثم تقدموا على العرب استئثارهم بالاراضي الخصبة والغنائم فناروا عليه واضطروا الى معاملتهم بالتأديب والقسوة. كذلك فان ابا الصباح اليحصبي الشيخ الاشبيلي صاحب الراية الخضراء والبهل الذي ركه عبد الرحمان في معركة قرطبة القاب على سيده وشق عصا الطاعة فقتل في الثورة التي قام بها. ومثل ذلك اصاب بداراً مولى عبد الرحمان ويده اليمنى.

وكانت لاعداء عبد الرحمان الداخلين اشباح في الخارج. ففي سنة ٧٦٦ تجرأ المنصور الخليفة العباسي بشي من الطميش ان يبعث العلاء ابن مغيث أميراً على الاندلس فاعطاه سبجاً وتواء وقال له: « ان كان فيك محل لمناصفة عبد الرحمان والا فابعت اليك بن يعينك » (٣). فلم تمض الا سناتان حتى قتل العلاء فاخذ رأسه وحشي بالمخ وبعثه معه السجول والواء في سنفط وبعث به الى المنصور فبلغه وهو في طريقه الى الحج فصاح المنصور: « الحمد لله »

(١) اخبار بخرقة من ٨٨ - ٩٩ ابن الاثير ج ٥ ص ٣٧٨.

(٢) ابن الأثير، الحلة ص ٥٥.

(٣) ابن القوطية ص ٣٣.

فه الذي جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحراً» (١). وكان المنصور نفسه هو الذي لقب
عبد الرحمان الداخل بصقر قریش (٢). وقد بنيت بعيد الرحمان جراً أنه وطموحه فيما يقال إلى
أن يهبط بحيرة بحرية قاصداً غزو سورية وانترامها من أيدي العباسيين ولكن الفتن الأهلية
في الأندلس أقعدته عن تنفيذ هذه الخطة.

عبد الرحمان كثر طائفة شارطانه

وفي سنة ٧٧٧ الثمر زعماء العرب في الشمال الشرقي من الأندلس والقوا كتيبه قوية
ترأسه زعيمين هما والي ترشالونة وصهر يوسف القهري وانتفضوا على عبد الرحمان وبلغ بهم
التكيد إلى أن عقدوا حلفاً مع شرمان الذي كان يعد نصيراً للخليفة العباسي على عبد الرحمان
الداخل. وقد زحف شرمان (٧٧٨) فقطع نخوم اسبانية حتى سرقطة (٣) إلا أنه اضطر إلى
الانسحاب عندما أغلقت تلك المدينة أبوابها في وجهه وتهدد أعداء امبراطور بته الداخلين
ساحته. وقد هجم على جيشه المنسحب في مضائق البرية سكان الجبال من أهالي بلاد البشكنش
(الباسك) وغيرهم ففقد كثيراً من جيشه وممتلكاته (٤). وكان في عداد القواد الذين قتلوا في
هذه المضائق القائد رولان الذي دافع دفاعاً مجيداً ذكره في الأشعار المعروفة بـ «شاسون
ده رولان» (Chanson de Roland) وتعتبر هذه الأشعار على أنها ليست من بواكر كنوز
الشعر الفرنسي فحسب بل هي من الملاحم الأولى الممتازة في العصور الوسطى. والخلاصة أن
عبد الرحمان أثبت أنه كنز مجابهة أقوى ملوك الغرب كما أثبت أنه ند لا عظم حاكم في الشرق (٥).

امانة مستفاد

وقد استعان عبد الرحمان في سبيل الضرب على أيدي مناوئيه بجيش نظامه احسن تنظيم

(١) ابن القوطية ص ٢٣ - ٢٤ الفريج ج ١ ص ٢١٥.

(٢) ابن عمار ج ٢ ص ٦٦ الفريج ج ١ ص ٢١٣.

(٣) أخبار مجموعة ص ١١٣.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ - ١٢٤ ابن الأثير ج ٦ ص ٨٥. وانظر Eginhard, Charlemagne,

ed. and tr. Dalphen, pp. 22-31

(٥) راجع Coppée, vol. I, pp. 167-8

ودربه على القتال بلغ أربعين ألف مقاتل أو أكثر من البربر استجلبهم من إفريقية واعتمد على ولائهم لتوطيد عرشه . وقد تمكن من الاحتفاظ بوفاء هذا الجيش بما اغدقه من الاعطيات على أفرادهِ . وكان في سنة ٧٧٣ قد ابطال الخطبة للخليفة العباسي ولكنه لم يفتح لنفسه لقب الخلافة . فقد اكتفى هو ومن خلفه من الأمراء حتى عبد الرحمن الثالث بلقب أمير أو سلطان . وهكذا فقد كانت الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل أول الأمصار التي أعلنت عدم اعترافها بسلطة الخليفة .

ولما توحدت المملكة واستتب الأمن فيها في تلك الأيام أخذ عبد الرحمن يوجه انتباهه نحو الفنون التي تزدهر في السلم فأنشأ في فنون الحرب . فلقد جعل مدن مملكته وأنشأ قناة توصل الماء العذب إلى العاصمة وابتنى حول العاصمة سوراً وشيد منية (١) الرصافة بظاهر قرطبة على غرار القصر الذي كان جده هشام قد بناه في شمال شرقي سورية . ولقد جر الماء إلى هذه المنية وأدخل إليها ضروباً من الأغراس الأجنبية كالدراقن والرمان . وروى أنه استجلب أول نخلة من الشام فغرسها في الرصافة فلما رآها فريدة فيها أنشد يقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تدامت بأرض المغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في المغرب والنوى	وطول الثنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض است فيه غريبة	فمثلك في الأقصاء والمنتأى مني
سقتك غواصي الزمن من صوبها الذي	يسبح ويستعري السماكين بالو بلى (٢)

وأسس عبد الرحمن سنة ٧٨٦ قبل وفاته بعامين جامعة الكتشبير بقرطبة (٣) مضارعاً به حرمي الإسلام الكبيرين في مكة وبيت المقدس . وقام خلفاؤه بعده فوسعوا هذا الجامع وأصبح قبلة أنظار المسلمين في المغرب وعمازاده روعة وجمالاً الأعمدة البديعة واليهو الخارجي الواسع

(١) كلمة مستعارة من اليونانية (وهي قبطية أيضاً) بمعنى حديقة .

(٢) ابن الأثير ص ٤٤٤ : ابن الأثير ج ٦ ص ٢٧٧ : القرطبي ج ٢ ص ٣٧ . أما شجر النخل فقد أدخله إلى إسبانية أول الأمر القبطيون . ثم جاءها العرب فيها بعد فأوجدوا فيها أنواعاً جديدة نقلوها إليها وعمدوها بواسطة الماشاتل بينها كانت زراعة النخل القديم بالنوى .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٦٠ وقابل ص ٢٤٥ : القرطبي ج ١ ص ٢١٢ .

الملاصق لقبناه الفخيم . وعندما اخذ الاندلسيون النصراني يسترجعون بلادهم من ايدي العرب حول فردناند الثالث هذا الجامع في سنة ١٢٣٦ الى كاتدرائية لا تزال تعرف الى يومنا الحاضر باسم « لا مسكيتا » (المسجد) . واذا استثنينا الجامع فقد كان في قرطبة جسر عظيم قائم على الوادي الكبير وسع فيها بعد فامتد على سبع عشرة قنطرة . ولم تنحصر جهود مؤسس الدولة الأموية الأندلسية في دائرة الأمور المادية لصالح رعيته بل بذل جل عنايته في الجمع بين عناصر رعيته والتوحيد بين العرب والسوريين والبربر واهل نوميديا والعرب الاسبان والقوط وجعلهم أمة واحدة على ما في الامر من صعوبة . وهو يعد من اعتبارات كثيرة منشى الحركة الفكرية التي جعلت الأندلس من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر احد المراكز الهامة في الثقافة العالمية .

ولقد عاشت الدولة التي أنشأها عبد الرحمن الداخل قرنين وثلاثة ارباع القرن (٧٥٦ - ١٠٣١) . وبلغت اوجها في عهد الامير الثامن عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) اعظم أمراء هذه الأسرة وأول من تسمى بالخلافة في الأندلس (٩٢٩) . وفي الواقع ان عهد الخليفة عبد الرحمن كان العهد الذي بلغ فيه التقدم العربي ذروته في الأندلس . وظلت قرطبة طيلة الحقبة الأموية عاصمة للدولة وادركت عهداً من العمارات والازدهار والعظمة ضارعت فيه بغداد عاصمة المشرق .

وقد بدأ دور انحطاط الخلافة الأموية بعد وفاة الحاجب المنصور (١٠٠٢) فقد كان هذا « بيزنك القرن العاشر » بل لعله كان أعظم سياسي وقائد عرفته اسبانية العربية . ثم لم تلبث هذه الخلافة ان تلاشت سنة ١٠٣١ فنشأ على أنقاضها دويلات صغيرة وامارات كان اكثرها في تنازع وتناحر بعضها مع بعض أدى آخر الأمر الى ان تندثر أمام النفوذ الاسباني لاسيما في الشمال . وبسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ زال آخر أثر للحكم العربي في الأندلس .

مهاجرة النصارى

كان اول المهام التي انصرف اليها خلفاء عبد الرحمن الداخل اقرار السلم في البلاد . والعناية بالمساكن المعقدة الناشئة عن اختلاف الأديان في الجزيرة والعصبيات والحزازات بين

المسلمين العرب والمسلمين المستعبدين . أما الخطة التي سلكها الفاتحون العرب في معاملة رعاياهم في الأندلس فلم تختلف كثيراً عن خططهم في البلدان الأخرى التي فتحوها . فقد وضعت الجزية على النصارى واليهود دون غيرهم وكانت ثمة أوج بين اثني عشر وأربعة وعشرين وثمانية وأربعين درهماً في السنة وذلك بالنسبة لمقدرة المكاف المالية . وقد أعفي من الجزية النساء والأحداث والشيخوخ والمعوذون ومثلهم الرهبان والمصابون بالأمراض المزمنة . وقد كلف أهل الذمة بدفع الخراج أيضاً وهو بمعدل عشرين بالمئة مما تنتجه الأرض ويختلف عن الجزية في أنه لا يسقط بالاسلام . وصودرت المناطق التي أخذت عنوة والأراضي التي تخص الكنائس وأمالك الذين فروا من البلاد عند الفتح فجعلت كلها قطائع للمسلمين . وأبقى للفلاحين المستعبدين للعمل في الأرض عملهم الزراعي على أن يؤدوا أربعة أخماس حاصلاتهم لأسيادهم الجدد المسلمين ولكن الدولة لم تستملك من الأراضي التي غنمها الفاتحون سوى الخمس ولم تطالب الفلاحين المستعبدين بالعمل الزراعي بغير الثلث من الغلال . وقد أقطعت بعض أراضي الدولة لأهل الشام والعرب الذين جيء بهم لتميع الثورات .

وكان الرقيق إذا أسلم اعتق إذ « لا رق في الاسلام » . وكان أتباع الطوائف النصرانية المختلفة أحراراً في ممارسة دينهم كل جماعة على الطريقة التي نالها تابعة نظامها السكهنوتي في أمور القضاء والشرعية . ولتضاد كل جماعة صلاحية النظر في أمور أفرادها إلا إذا كانت في القضية مسائل بحق السلم أو قدح في الاسلام . ولهذا فلم يكن الاحتلال العربي بوجه عام مجحفاً بحق أهالي البلاد الأصليين ولا هو وضع عليهم أعباء جديدة بل إنه قد أفاد اسبانية من بعض الوجوه كما يقول دوزي (١) فقد قضى على سطوة الطبقة المتمتعة بالامتيازات على حساب الشعب ومن هذه الطبقة النبلاء والأكابروس . وحسن أحوال المستخدمين والمسال ومنح الملاك النصراني حقوقاً كحرية التخلي عن عقايد وهو أمر لم يعهده في حكم القوط .

(١) Dozy, *Histoire des Musulmans d'Espagne*, ed. E. Lévi-Provençal (Leyden, 1932), vol. I, p. 278 ; cf. Francis G. Stokes, *Spanish Islam* (New York, 1913) p. 236 .

ثورة المسلمين المستعبدين

ومع ذلك فقد أقبل النصارى على الاسلام ولا سيما في المدن . وقد حافظ أهل الجبال والمناطق الريفية على نظامهم القومي القديم وثقافتهم التقليدية الموروثة أما أهل المدن فلم يفعلوا . وقد شكل هؤلاء المسلمون المستعبدون طبقة اجتماعية خاصة وعرفهم العرب باسم المولدين ودعاهم الاسبان مولاديس (Muladies) . وأصبح هؤلاء المستجدون على مر الزمن أكثر طبقات الشعب انتفاضاً على الحكومة القائمة . وكان أكثرهم قبل اسلامهم ينتمون الى طبقة الفلاحين المستعبدين للعمل في الأرض والعيبد المعتقدين وأبنائهم الذين انصرفوا الى الحراثة أو الأعمال اليدوية . وقد ظل بعضهم يبطن النصرانية رغم اعتناقهم الاسلام (١) وكانوا يعملون ما ينزله الشرع الاسلامي من عقاب صارم محتم بالمرند . وجدير بالذكر أن المسلمين العرب كانوا ينظرون الى المولدين على أنهم من طبقة دنيا مع ان بعض هؤلاء قد تحدروا من عائلات عريقة في الشرف . ولم يأت آخر القرن الأول بعد الفتح حتى أصبح المولدين أكثرية السكان في كثير من المدن وكانوا أول من حمل السلاح وأعلن الثورة على النظام الجديد .

Eulogius , « *Memoriale sanctorum* » , BK. II , in A. Schottus , *Hispaniae* (١)
illustratae, vol. iv (Frankfurt , 1608) p. 293 .

الفصل السادس والثلاثون

اضطرابات أهلية

كان أكثر أهل الرض (١) وهي ضاحية قرطبة الجنوبية من المسلمين المستجدين الذين اعتبرهم الأسبان النصارى مرتدين . وقد تولى زعامتهم ثمر من الفقهاء وطلاب الفقه الذين نزل العاصمة منهم نحو أربعة آلاف . ولم يكن هناك ما يدعو إلى الفتنة أو الاضطراب في عهد هشام الأول (٧٨٩ - ٩٦) الذي خلف والده عبد الرحمن فقد كان ورعاً محباً للعلم (٢) . ولكن الموقف قد تغير في إمارة الحكم الأول (٧٩٦ - ٨٢٢) الذي شغف باللهو والصيد والحمر . فقد أخذ الناس يذمون سيرته وينقمون عليه اتخذاه حرساً ملكياً من الزنوج والمرزقة الاعاجم (٣) . وبدأ الشعب بقرطبة سنة ٨٠٥ فيما كان الأمير سائراً في أحد شوارعها وأخذ الأهليون يرمونه بالحجارة بينما كان الفقهاء يصفقون رضياً وتحميداً فعظم الخطب واضطر الأمير آخر الأمر أن يأنفي القبض على زعماء هذه الفتنة وعددهم اثنتان وسبعون ويزجهم في السجن . ولما تبين له أنهم كانوا قد تأمروا على خلعه أمر بصلبهم . ولم تبدأ الفتنة فقد توالت الثورات في الرض إلى أن انقضت إلى هياج عام سنة ٨١٤ (٤) بزعامه أحد فقهاء البربر . وانقض المانجون على الحكم فحاصروه في قصره ولكن فرسانه تألبوا حوله وانقذوه من أيدي الثائرين ثم احاطوا بهم من الامام والوراء وانقضوا عليهم وقتلوا بهم فتكاً ذريعاً . وقبض على

(١) ابن عسكاري ج ٣ ص ٧٧١ - ٧٧٢ ابن الأنبر ج ٦ ص ٢٠٩ وما يلي : العقد ج ٢ ص ٣٦٤ ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ .

(٢) ابن الأنبر ج ٦ ص ١٠١ - ١٠٢ ابن القوطية ص ٤٢ .

(٣) لهذا قيل لهم : الحرس : ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ : القرطبي ج ١ ص ٢٢٠ .

(٤) سنة ٢٠٢ / ٨١٧ - ٨ في ابن عسكاري ج ٢ ص ٧٧ : قابل ابن قوطية ص ٤١ - ٢ .

ثلاثمائة رجل من أهل الربض فصلبوا على الوادي الكبير صفاً واحداً وقد علقوا بأرجلهم وروؤسهم مدلاة من تحت . وأمر الحكم بعد ذلك بأجلاء جميع أهل الربض في مدة ثلاثة أيام وهدم منازلهم فخرجوا أفواجاً بأهلبيهم وأولادهم وهدمت الربض ولم يسمح لأحد بالبناء فيها من بعد (١) . ونفر القوم قاوي ثمانية آلاف أسرة منهم إلى مراكش ونزلوا بلدة فاس التي كان إدريس الثاني من آل علي يبنها آنذاك عاصمة جديدة له فسمى موضع نزولهم عدوة الأندلس . وسار آخرون وعددهم نحو خمسة عشر ألف نفس (٢) فبلغوا الإسكندرية فنزلوها واستطاع هؤلاء اللاجئون فيما بعد أن يملكوا زمام الأمر فيها حتى سنة ٨٢٧ حين أقبلهم عنها قائد الخليفة المأمون فنجحوا إلى إفريطش (كريت) وكان قسم منهم لا يزال تحت حكم البيزنطيين فتغلبوا على الجزيرة كلها وأنشأ زعيمهم فيها دولة بقيت نافذة الحكم إلى أن استعاد اليونان هذه الجزيرة سنة ٩٦١ (٣) .

وقعة الحفرة

وكان من مسلمي الأسبان من حاقوا العرب ورضوا أن يكونوا يداً معهم في إخضاع أبناء دينهم السابق . ومن هؤلاء عمرو بن يوسف الذي قلده الحكم سنة ٨٠٧ ولاية طليطلة - مدينة الملوك - (٤) وهي في نظر الأسبان أهم مدن البلاد سياسياً ودينياً . ولم تكن طليطلة أيام السيطرة الإسلامية هادئة مطمئنة فقد شهدت سلسلة ثورات متصلة الخلفاء خرج فيها المسلمون المستجدون والنصارى على السلطة العربية . فلما أعفى الحكم أمرهم استقدم عمرو بن يوسف هذا وولاه عليهم . وزار المدينة ولي العهد عبد الرحمن ابن الحكم وله من العمر أربع عشرة سنة ونزل بدار عمرو فأنشد له هذا بناء على إشارة الحكم نفسه وليمة كبرى تكريماً له

(١) ونذكر أيضاً لهذه الحادثة الهائلة أطلق على الحكم اسم « الرضي » . ابن الأبار ، حلة ص ٣٨ .

(٢) ابن القوطية ص ٥١ .

(٣) ابن الأبار ص ٣٩ - ٤٠ ؛ القرطبي ج ١ ص ٢١٦ ؛ الراكشي ص ١٣ - ١٤ ؛ الكندي ، ولاية ص

١٦٦ - ١٨٤ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٦١ ؛ ياقوت ج ١ ص ٣٣٧ .

(٤) القرطبي ، آثار ص ٣٦٦ ؛ وأخر : Isidorus Pacensis ، « Del chronicon » in :

Espana sagrada : Theatro geographico - historico d la iglesia de Espana , ed. Fr. Henrique Florez , vol. viii (Madrid , 1733) , p. 297.

بقصره الجديد دعا اليها مثلث من نبلاء المدينة وكان في ساحة قصره حفرة طويلة استعمل
تراها في البناء وقف عليها جلال فكان عمروس يدخل النبلاء من باب ويخرجهم من آخر
حتى يصل بهم الى هذه الحفرة في أول ساحة القصر فتضرب رقابهم عليها الى ان قتل معظمهم
وفطن الباقون فنفروا وفروا ودفنت القتلى في الحفرة نفسها . وانقطعت الثورات في طليطلة بعد
هذه المذبحة (١) عدة سنين (٢) ولكن مدناً أخرى كإردة بقيت في غليان داخلي حتى قيام
عبد الرحمن الثاني (٣) . وكانت عبد الرحمن من بناء الوحدة الأموية الأندلسية ومن رعاية
الموسيقى وعلم الفلك .

وكان عبد الرحمن الثاني هذا (٨٢٢ - ٥٢) وقد عرف فيما بعد باللاوسط (٤) قد غلب
عليه أربعة أشخاص : امرأة وخفي وبقية ومغن . اما المرأة فزوجته السلطانة طروب ذات

(١) « وقعة الحفرة » ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٥ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ .

(٢) ابن الفوطي ص ٤٥ - ٩ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ٧١ - ٢ .

(٣) الأمراء الأمويون بقرطبة :

(١) عبد الرحمن الأول (٧٥٦ - ٨٨)

(٢) هشام الأول (٧٨٨ - ٩٦)

(٣) الحكم الأول (٧٩٦ - ٨٢٢)

(٤) عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٥٢)

(٥) محمد الأول (٨٥٢ - ٨٦)

(٦) المنصور (٨٨٦ - ٩٠٨) (٧) عبد الله (٨٨٨ - ٩١٢)

محمد

(٨) عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٢٩ ، خليفة ٩٢٩ - ٦١)

(٩) متوسط عهده بين عهد عبد الرحمن الأول وعهد عبد الرحمن الثالث . ابن الأبار ص ٦١ ؛ ابن
خلدون ج ٤ ص ١٢٧

الحيلة والمكر . وأما الخصي فمولاه نصر خادمه القدير الاسباني الأصل وكانت ظروف تمل إليه (١) . وكان الفقيه هو زعيم الفتنة نفسه التي قام بها الفقهاء من المسلمين المستعبدين يوم زحفوا على قرطبة واسمه يحيى ابن يحيى (المتوفى ٨٤٩) وأصله من البربر من قبيلة مصمودة وكان قد رحل الى الشرق وهو ابن ثمان وعشرين فسمع من الامام مالك ابن انس ببغداد ثم عاد الى الاندلس فنشر مذهب مالك فيها (٢) وتفق بهذا المذهب جماعة لا يحصرون عدداً فكان الناس يقبلون عليه قائلين : لا نعرف الا كتاب الله وموطأ مالك (٣) . بقي المغني وهو زرياب الفارسي البغدادي الأصل .

كان زرياب (٤) واحداً من رجال الموسيقى الذين ازدان بهم من قبل بلاط هارون الرشيد وابنائهم ولم يكن مغنياً وموسيقياً ممتازاً فحسب بل كان من رجال العلم والأدب . وكان نبوغه سبباً في أن يحسده استاذاه الموسيقي المشهور اسحاق الموصلي وينقم عليه فاضطر زرياب الى ان يهرب الى شمال افريقية فاسبانية . وكان عبد الرحمن راعياً في ان يعمل من قرطبة بغداداً ثانية فانفق الاموال على بلاطه الفخم وسعى الى محاكاة ما كان فيه هارون الرشيد من بذخ وترف . وقد روي عنه انه خرج سنة ٨٢٢ من عاصمته لملاقاة زرياب (٥) وانه اسكنه معه وكان يجري عليه ثلاثة آلاف دينار في السنة وأعطاه عقاراً بقرطبة قيمته اربعون ألف دينار وقر به اليه وشمله بصداقته حتى فاقت منزلته جميع أهل الموسيقى في البلاد . وكان تقدم زرياب في الصناعة عظيماً قيل انه كان يعرف عشرة آلاف صوت باشعارها وألحانها التي كان يزعم كغيره من أرباب الموسيقى ان الجن كانت تعلمها اياها أثناء الليل . وقد لمع زرياب ايضاً

(١) القري ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٣ ص ١٧٣ . قابل ابن القوطية ص ٣٤ . وروى ابن خلكان ان مالكاً كان يسمى يحيى « عاقل أهل الاندلس » وسبب ذلك انه كان جالساً الى مالك يسمع مع نفر من أصحاب مالك ثم قيل في الشارع فخرجوا جميعاً لينظروا اليه الا يحيى .

(٣) المقدسي ص ٢٣٦ .

(٤) من « زر » الفارسية بمعنى ذهب و « آب » بمعنى ماء . وهو لقب هذا الذي اما اسمه فابو الحسن علي ابن قانع . العقد ج ٣ ص ٢٤١ يجعل زرياب زنجياً .

(٥) قابل ابن خلدون المقدمة ص ٣٥٧ . وقد اقتبس عنه القري ج ١ ص ٢٢٢ .

بالشعر وكان عالماً بالفلك والجغرافيا (١) . وعرف فوق ذلك كله باتقانه فن الغراف وحسن
الأدب والنكتة حتى عد من أبرز أهل الذوق والبراعة في عصره بل صار مرجعاً في أمور
الزّي . وكان الرجال حتى يومه يرسلون شعورهم طويلة ويغرفونها في مقدم الرأس فيبدع لهم
طريقة جديدة وأصبح الزّي الرائج بعده أن يقصر الشعر وينحسر الجبين . وكان المساء يسقى
بآنية معدنية فعلام أهل الأندلس أن يشربوه بأقداح من زجاج . وكان من الطعام ألوان غير
معروفة أو مستطابة عند الأندلسيين فحببها إليهم منها الهليون الذي أخذ الأندلسيون يأكلونه
امثالاً به . (٢)

الناسير الى الاستشهاد

وفي أواخر عهد عبد الرحمن ازداد شأن اللغة والأدب والدين وسواها من الأغنية التي
جاء بها القاتحون - ومنها نظام الحرّيم - بحيث أن كثيراً من سكان المدن استعربوا وإن لم
يكونوا قد أسلموا بالفعل . وابقن المواطنون النصارى بعد أن بهرت أعينهم بهرجة المدنية
العربية واحسوا بأنحطاطهم في الفن والشعر والفلسفة والعلم أنهم مغلوبون على أمرهم لا محالة
فاخذوا يماشون العرب في طرق معيشتهم . وازداد عدد هؤلاء المقربين بحيث نشكت منهم
طبقة اجتماعية قائمة بذاتها أطلق على أفرادها اسم المستعربين المعاهدين (mozarabs) . ويجب أن
نذكر أن اسبانية كانت من الدول الأخيرة التي قبلت النصرانية وكانت بعض انحطالاتها
تزال على وثنياتها عند الفتح الاسلامي . وكان في المذهب الآريوسي الذي اعتنقه القوط وما
ينطوي عليه من تعليم بشأن طبيعة السيد المسيح ما يلائم العقائد الاسلامية . وقد نرى أحد
كتّاب النصارى من أهل قرطبة على ابناء دينه انصرفهم عن مؤلفات الآباء اللاتين وذكر أنهم
قد تسمموا بالفصاحة العربية (٣) . ومنذ حوالي سنة ٧٢٥ وضع الاسقف يوحنا رئيس
أخبار اشييلية ترجمة عربية للتوراة لتتكون في متناول النصارى المستعربين ومن شاء

(١) المقرئ ج ٢ ص ٨٧ ؛ ابن القوطية ص ٦٨ .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) Álvaro , « Iudiculus luminosus » , in *Espana sagrada* , vol . xi , p. 274 . (٤)

من المسلمين (١).

وظهرت حركة غربية بين جماعة من النصارى المتحمسين الغيورين في قرطبة ، ضد حركة الاستعراب والاسلام التي أشرفنا اليها . وقد أفضت هذه الحركة الى حوادث استشهد فيها اختياراً عدد من الرجال والنساء . وكانت زعيم هذه الحركة أحد الكهنة الزهاد واسمه يولوجيوس (Eulogius) وقد زوده بالمال صديقه المثري الفارو (Alvaro) وكان الفارو هو الذي كتب سيرة الكاهن المذكور (٢) . وكان أن قتل كاهن بقرطبة في رمضان سنة ٨٥٠ اسمه يرفكتس (Perfectus) اتهم بأنه شتم النبي وطعن بالاسلام (٣) فكانت قتله من أعظم العوامل لتقوية هذه الحركة وانماها . ولم يلبث الشعب وعلى رأسه أسقف قرطبة أن نادى بهذا الشهيد يرفكتس قديماً وأخذ ينسب له الكرامات . فقد ذكروا عنه انه تنبأ قبل ان يقطع رأسه قاتلاً بأن نصرأ الطحفي الجلاد الذي كان ينفذ الاعدام في الشهداء سيلاقي حتفه عن قريب . والظاهر أن نصرأ كان قد تأمر مع طروب على ان يسم زوجها الأمير لكي يؤول الملك الى ابنها عبد الله دون محمد المولود من امرأة أخرى . وكان محمد أكبر أنجال عبد الرحمان الحفي والأربعين . ونعي الى عبد الرحمان الأمير فلما دخل نصر عليه ومعه الدواء قال له « ان نفسي قد بشعته فاشربه أنت فوجم فأقسم عليه فلم يسمه خلافة فشر به وركب مسرعاً الى داره فهلك لحينه » (٤) .

ولم يمض وقت طويل على حادثة يرفكتس حتى مثل راهب اسمه اسحاق امام قاض مدعياً انه يريد اعتناق الاسلام وما لبث أن أطلق لسانه بشتم النبي فقطع رأسه كما قطع رأس يرفكتس واعتبره أصحابه من القديسين (٥) وهنا اخذ النصارى المتحمسون يتسابقون الى الاستشهاد . وقد عمد افراد من الكهنة وسواهم الى الطعن بالاسلام قصداً وتعمداً لكي يقتلوا

Primera cronica general , estoria de Espana que mundo compoier :
Alfonso el Sabio , ed . Ramon Menéndez Pidal (Madrid , 1906) , vol . i , p . 326 .

Espana sagrada , vol . x , pp . 543 — 63 ; p . 411 seq . (٢)

Espana sagrada , vol . xi , pp . 225 — 6 . (٣)

(٤) ابن القوطية ص ٧٦ — ٧٧ : ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ .

Espana sagrada , vol . xi , pp . 237 — 8 . (٥)

فيعتبروا شهداء . ولم يمض أكثر من شهرين حتى قضى نحو احد عشر شخصاً على هذا النحو.

فلورا وريولوغيوس

ولم يرق لعبد الرحمان هذا الأمر فأشار على اعيان الكنيسة ان يعتقدوا جميعاً بالنظر فيه فعدوا المجمع بعد تردد وحظروا على النصارى - رغم اعتراض يولوغيوس - ان يستهويهم مثل هذا الموت في سبيل ايمانهم . ولكن مساعيهم لم تجد نفعاً . وظهرت أخيراً حسناء من اتباع يولوغيوس اسمها فلورا وهي من ام مسيحية وأب مسلم واشتركت في جريمة الشتم والطعن مع راهبة صبية اسمها ماري كان أخوها في عداد من أعدموا من قبل . ومثلت فلورا امام القاضي فاشفق عليها وعلى صاحبها وحكم عليها بالسجن بدل الاعدام . غير ان السجن جمعها مرة أخرى بيولوغيوس الذي كان يحبها ويحلمها فشجعها بما أوتيته من حجة وبيان على التضحية بنفسها هي ورفيقتها لتكونا في عداد الشهداء ولم يكن بعد هذا مجال للتردد فوطنت الفتاة النفس هي وصاحبها على سلوك السبيل الذي يوصلها الى الاستشهاد فقتلتا في ١٤ تشرين الثاني سنة ٨٥١ (١) ولم ينته هذا الشوق المستعير الى التضحية بالنفس حتى أعدم اسقف قرطبة يولوغيوس نفسه سنة ٨٥٩ بامر محمد الاول (٨٥٢ - ٨٦٠) الذي اتهم سياسة صارمة مع هؤلاء . وكان عدد الذين استشهدوا نحو اربعة واربعين .

الثورة في مختلف امصار الاندلس

وانقلبت الفتنة فيما بعد الى الامصار حيث تميزت بشدة وان لم يقع فيها شيء من حوادث الاستشهاد الغريب . ويجب ان نذكر اولاً ان محمداً وابنيه اللذين خلفاه المنذر (٨٨٦ - ٨٨٨) وعبد الله (٨٨٨ - ٩١٢) - لم يتصفا بالتميزات السامية التي عرفت في البيت الأموي من تسامح ولين وحنكة واقتدار . وفوق ذلك فقد ظهرت المشاكل المألوفة التي كانت تلازم قضية الاستخلاف وكانت العادة الاسلامية المرعية في تعاقب الخلفاء هي ان يلي العرش أكبر افراد الأسرة المالكة أو اقدرهم ومن هنا كثرت المتنازعات على السلطة فلم تمض على خلافة المنذر سوى سنتين حتى ستم بحيلة من خلفه الذي واطأ عليه حجامه بان سمم له المبيض الذي فصدته

به (١) . وفي الوقت نفسه كانت الثورات التي قام بها المولدون والمستعمرون تستمر في أكثر أنحاء البلاد بل إن بعض المقاطعات أخذت تتسلخ عن جسم الامارة وتعلن استقلالها تحت حكم البربر أو حكم الأسبان المسلمين . وكانت هذه النزعات الانفصالية التي تزعمها المسلمون المستجدون الذين اعتبروا انفسهم حماة الوطن تظهر في الامصار التي كانت بالاسم تابعة لقرطبة وقد كابد الامراء الامويون عناء في مكافحتها حتى اوائل القرن العاشر .

ففي الجنوب انفصلت عن الدولة مقاطعة الرية (٢) الجبلية وعاصمتها ارجذونة وعقدت معاهدة في سنة ٨٧٣ مع محمد افرها فيها بالاستقلال لقاء جزية سنوية . وكان أكثر سكان هذه المقاطعة من الأسبان الذين أسلموا . وفي الشمال كانت مقاطعة الاراغون مستقلة تحت امرة بني قسي (٣) وهم أسرة قوطية قديمة اعتنقت الاسلام ثم ما لبثت أن اضافت الى مناطقها في منتصف القرن التاسع سرقةسطة وتطيلة وسواهما من المدن الخطيرة الواقعة على الحدود (٤) . وكانت بنو قسي على ولاء مع جيرانهم في الغرب اي ملوك ليون . اما الاراضي التي احاطت بطليطلة مدينة القتن والثورات - فقد ظهر فيها بنو ذي النون - وهم من البربر - والتف حولهم عصابات من الاشقياء واخذوا يعيشون في الارض فسادا . واما أشيلية التي كانت أهم مراكز الثقافة الرومانية في زمن القوط الغربيين والتي كانت أكثر سكانها متحدرين من الرومان والقوط فقد كانت السيادة فيها لبني الحجاج (٥) . وكانت هؤلاء الحكام يرجعون بأنسابهم من ناحية الأم الى سارة حفيدة غيطاسة التي تزوجت من رجل عربي . وكذلك كانت المؤرخ ابن القوطية من نسل سارة هذه ايضا (٦) .

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٦٠ - ١٢٢ : ٦١ ج ١ (تصدير دوزي لكتاب المذكور) ص ٤٤ - ٦ . قابل ابن القوطية ص ١٠٢ : ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٢ : اخبار مجموعة ص ١٥٠ .
(٢) خطأ ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٢ وقابل ص ١٣٤) وكثيرون غيره في جعلها بلدة وخطأوا بينها وبين مالقة عاصمة المقاطعة في زمن القوط الغربيين وبعد ولاية عبد الرحمن الثالث . انظر الادريسي ص ٦٨ .
(٣) *Espana Sagrada*, vol. xiii, p. 487.
(٤) ابن القوطية ص ١١٣ : ٨٥ - ١٤ . وقد جاء ذكرهم في ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٤ حيث استعملت كلمة « موسى » بدل « قسي » .
(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٨ وما يلي : ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٦ .
(٦) ابن القوطية ص ٤ - ٦ .

ولما خاب أماله في تحقيق فكرته عن طريقهم أظهر النصرانية دين آبائه سنة ٨٩٩ وكانت قبل ذلك يسرها (١) واتخذ اسم صموئيل اسماءه بالمعمودية وفر عن العرب وناشد الأمويين وجاهدتهم حتى كاد يثل عرشهم من أسائه . وشعر المسلمون ان السيادة التي وضع دعائمها عبد الرحمن الأول في الأندلس وثبتها خلفاؤه قد أخذت تضمحل وانها تقتصر الى من يعيدها .

الفصل السابع والثلاثون

الخلافه الأموية في قرطبة

الحفيظ عبد الرحمن الناصر

كانت عبد الرحمن الثالث حين خلف جده الأمير عبد الله سنة ٩١٢ شاباً لا يزيد عمره على الثلاثة والعشرين . وكانت عبد الله قد حرص أحد ابنه على قتل الآخر وهو محمد والد عبد الرحمن بتهمة الخيانة (١) . ثم واطأ بعضهم على الفتك بالقاتل فلم يبق له ابن يخلفه . وكانت الدولة الإسلامية الكبرى التي نظمها عبد الرحمن الداخل قد تقلصت عند ارتقاء عبد الرحمن الثالث أريكة الملك فلم يكن لها سلطة الا على قرطبة والأندلس المجاورة .

على ان الأمير الشاب الذي ازدانت بصفت العزم والشجاعة والصراحة التي يتميز بها قادة الأمم في كل عصر اثبت انه رجل الساعة ونشط لاسترداد الضائع من الأمصار ببطء وثبات فأنهت الفتوحات في عهده الذي بالغ نحو نصف قرن (٩١٢ - ٩٦١) (٢) . وكانت مدينة استجة أول مدينة استسلمت له وذلك في اليوم الأخير من سنة ٩١٢ (٣) . ثم حقت بها البيرة . أماجيات فلم تقاوم ، وقبيل أوجذونة أن تودي الجزية ، وفتحت اشبيلية إرهاباً لعبد الرحمن في آخر سنة ٩١٣ . وتم له بالتدريج ان يتغلب على ربة التي كانت جبالها معقلاً لأبطال الثورة من رجال ابن حفصون . وكانت ابن حفصون

(١) ابن عساري ج ١ المقدمة بقلم دوزي ص ٢٧ - ٥٠ ابن الأبار ص ٩١ .

(٢) ابن الأبار ص ٩٩ وقد اصاب ابن الأبار في قوله ان حكم عبد الرحمن كان أملاً حكم في الاسلام حتى عهده . انظر حاشي ص ٥٧٧ من الجزء الثاني من هذا الكتاب .

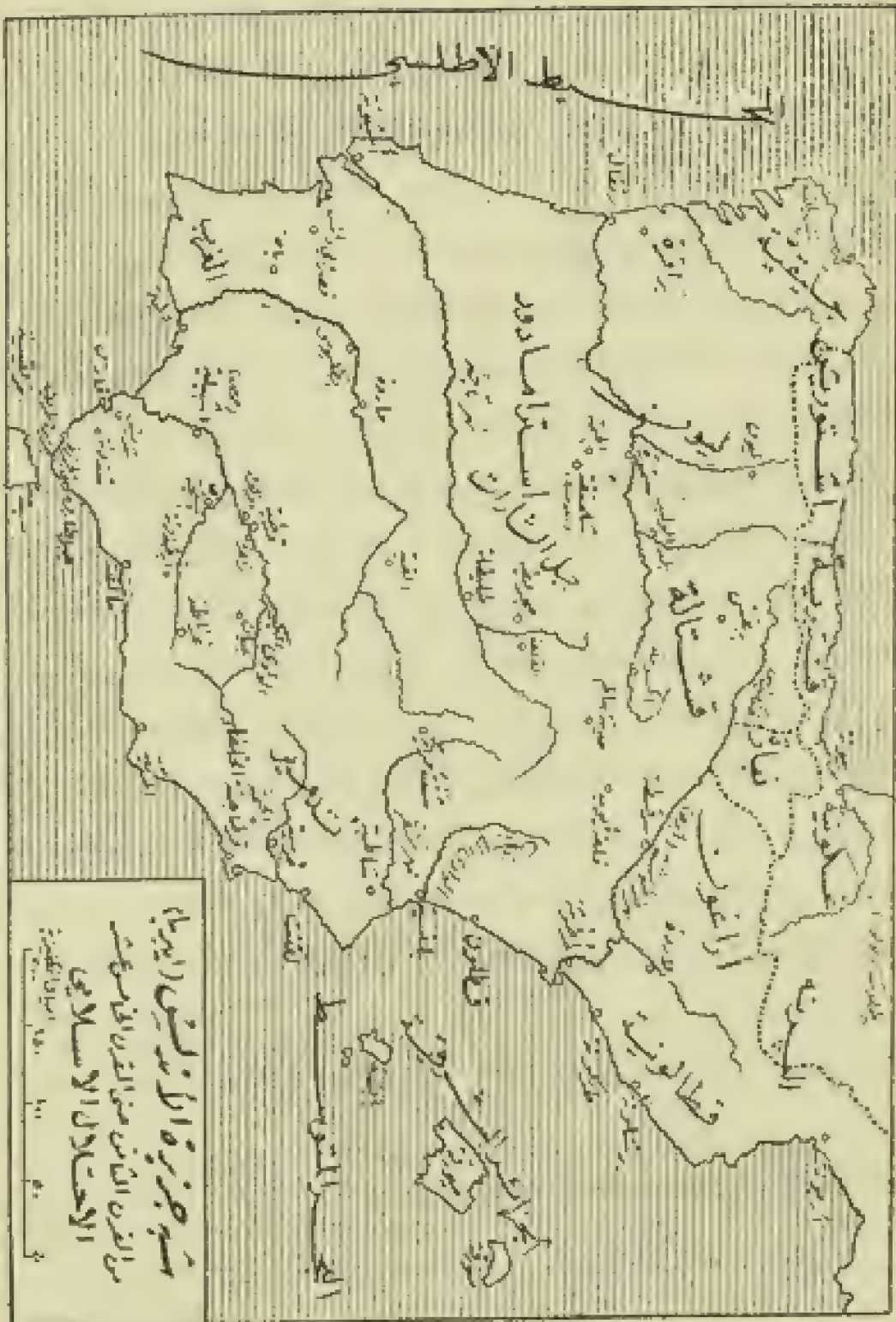
(٣) ابن عساري ج ٢ ص ١٦٥ .

يتزعج هذه الثورة وظل صامداً يقاوم في بيشتر الشيعة حتى وفاته سنة ٩١٧ وقد دامت حركته العدائية مدة سبع وثلاثين سنة . ولم يبق أمام عبد الرحمان سوى طليطلة ولكنها لم تلبث أن وقعت في أيدي رجاله سنة ٩٣٢ بعد أن قاست هول الجوع والحصار . وبذلك تم للعرب القساط على جميع البلاد فأعادوا السلم إليها ووجدوا أجزائها تحت لواء أمير كريم مطلق السيادة .

بعد أن الأعداء من الخارج كانوا يهددون كيف هذه الدولة وكانت أشدهم القاطميون في الجنوب وملوك ليون النصراني في الشمال . أما القاطميون فقد أرحموا أساليبهم إلى فاطمة ابنة الرسول ولم يسلموا بأي زعامة إسلامية غير زعامتهم . وكانت عبيد الله المهدي مؤسس الدولة القاطمية في تونس سنة ٩٠٩ قد عقد حلفاً مع ابن حفصون وأخذ الدقة والأرصاء عبر مضيق طارق . وقد عهد القاطميون فيما يظهر إلى ابن مسرة القرطبي (٨٨٣ - ٩٣١) من أصحاب الفلسفة المنسوبة خطأ إلى أمبدوكليس أن يؤسس سراً حزباً قاطمياً في إسبانية وراء ستار الطرق الصوفية فأدخل إلى الغرب نظاماً قاطمياً في التصنيف جعل فيه للكلام معنى خفياً . وأدرك عبد الرحمان بعد أن أخذ ينشر سيادته في مراكش منذ سنة ٩١٧ أو ٩١٨ أن أمره في الأندلس نفسها لا يستوي إلا بعد إخضاع أعدائه في أفريقية فحمل على سبعة في سنة ٩٣١ واستأحق جانياً عظيماً من العدو الأفريقية التابعة لملك البربر (١) . ثم زاد أسطولاً قوة (٢) بحيث أصبح لا يفوقه أسطول آخر في ذلك العصر وكانت أهم مراحله المراتية واستطاع أن يتنافس أسطول القاطميين على السيادة في غربي البحر المتوسط . وفي سنة ٩٥٦ أخرج عبد الرحمان أسطولاً الأندلسي وفيه سبعون مركباً إلى سواحل أفريقية فأصرم رجاله النار في بعض أنحائها وعانوا فيها منتقمين

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ - ٨ وقد نقل عنه القاري ج ٦ ص ٢٢٧ .

(٢) لقد اشتبك الأسطول الأندلسي غير مرة بمرسان البحر السكندنافيين والنورمان الفرنسيين ولندركين وكان العرب يسمون هؤلاء جميعاً « الخوس » وقد حاول بعض هؤلاء القزول في الأندلس أول مرة سنة ٨٤٤ في عهد عبد الرحمان الثاني فأرسل نحو ٨٠ مركباً أمام أشبونة واحتلوا أشبونة . وفي عهد عبد الأول حاول الخوس بين ٨٥٨ و ٨٦٩ القزول في مواضع كثيرة من شبه الجزيرة . ابن الفوطيس ص ٦٣ : ابن خلدون ج ٢ ص ٨٩ - ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢



سنة جزيرة العرب (الجزيرة)
من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر
الاحتلال الإسلامي

بذلك لانفسهم من الفاطميين للقرارة التي كانت قد قام بها الاسطول الصليبي على الساحل الاسباني بأمر من الخليفة الفاطمي (١).

وبما كانت هذه الحركات الحربية تجري في الداخل وفي وجه الاعداء الخارجيين كان عبد الرحمن - وهو ابن أمة نصرانية - يجاهد من لم يكن قد خضع له بعد من نصارى الشمال. وكانت ارض الباشكنى (٢) في تلك الانحاء اهم معاقلهم وهي تحترق سلسلة جبال اليرنة. وإلى الشرق منها دويلتا نبارة (نافار) والاراغون اللتان لم تكونا قد استكملتا قوتها بعد. وإلى الغرب منها المقاطعات التي نشأت فيها مملكتا قشتالة وليون. ومنذ سنة ٩١٤ كان ارفزون الثاني (٣) ملك ليون الجري. قد انتهر فرصة القلاقل في المملكة الاسلامية فيأمر الأعمال العدائية وأعلن الفتنة في أنحاء الشمال. وبعد ثلاث سنوات أفلح في القبض على أحد قواد عبد الرحمن فقتله وعلق رأسه على جدار إلى جانب رأس خنزير بري في أحد قلاع الحدود المعروفة بشانت اشتبان (San Esteban) التي كان القائد نفسه يحاصرها. وتعاقت الغارات التي قام بها هؤلاء الاعداء في الشمال. وفي سنة ٩٢٠ خرج عبد الرحمن فحاصر قلعة شانت اشتبان وضرب عدداً من الحصون الأخرى (٤) على الحدود في البقاع كانت تتنازعها قوات النصرانية والاسلام. ثم لقي جيوش ارفزون الثاني الأكبر ملك نبارة (نافار) وجيوش شانجة (٥) مجتمعة عند بلدة خنكيراس (Junqueras) فانزل بهم شر السكار. وبعد ان تغلب عبد الرحمن على مناطق نافار وسواها من البقاع النصرانية عاد ظافراً إلى عاصمته. وبعد ذلك بأربع سنين زحف شمالاً إلى نبلوية (٦) عاصمة نافار وخربها. أما ملكها المستبد فكان

- (١) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٦.
- (٢) في الكتاب المنسوب إلى ابن قتيبة ص ١٢١، ١٣٢؛ ابن الأثير ج ٧ ص ١٨؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠.
- (٣) ارفزون في السعدي ج ٣ ص ٥٧؛ القرني ج ١ ص ٢٣٣؛ ارفزون في ابن عذاري ج ٢ ص ١٧٩-١٨٧.
- (٤) ابن عذاري ج ٢ ص ١٨٣ وما يلي. ويشير ابن عبد ربه شاعر عبد الرحمن إلى ان العرب منعوا سببين حصناً في هذه الحملة، المقتد ج ٢ ص ٢٦٨.
- (٥) «شانجه» في ابن القوطية ص ١١٤؛ «شهنه» في القرني ج ١ ص ٢٢٣؛ «سانجه» في ابن خلدون ج ٤ ص ١١١.
- (٦) نبلوية في القرني ج ١ ص ٢٣٤؛ ابن عذاري ج ٢ ص ١٩٦-١٩٩.

حامى النصرانية في شرق الأندلس إلا أنه ظل مكسور الجانح مدة طويلة وفيه قال ابن عذاري (١) : « وتظاهر الكلب في أعلى الجبل واستجاش بحدود الله » . وفي هذه الغزوات مات أرذون وهو زعيم أسباني آخر ووقعت المنازعات الأهلية فكانت سبباً لايقاف الحركات الحربية .

وتتميز بقية السنين الطويلة من عهد عبد الرحمن بتظاهر اذارته الرشيدة ومقدرته ونشاطه . ومن أهم هذه المظاهر أنه اتخذ الأمر بأن تكون الخطبة باسمه ابتداء من يوم الجمعة في ١٦ كانون الثاني سنة ٩٢٩ وأن تكون الدعوة له بأمر المؤمنين في المنابر وتخرج الكتب عنه وترد إليه بذلك . واتخذ لنفسه لقب « الخليفة الناصر لدين الله » (٢) . وحق له بعد أن نشر سلطان المسلمين بالأندلس حيث لم يكن معروفاً من قبل أن ينسب بأمر المؤمنين لاسبيا وقد انحطت الخلافة الشرقية الى مستوى وضع .

وباعتبار أن الخليفة حامى دمار الدين تابع عبد الرحمن الحملات على أمراء النصرانية الذين كانوا لا يزالون يسعون لاسترجاع المناطق الجنوبية التي كانت لأبنائهم . واستمرت حملاته حتى سنة ٩٣٩ حين نازله وأمير الثاني ملك ليون وطوطه (٣) لرملة شاذبة الكبير القائمة بأمر الملك في نافار فغلبه عند الخندق (٤) جنوبي سلامنكا وهي أول مرة في مدة سبع وعشرين سنة لاقى الناصر فيها فشلاً في حروبه . وقد فني جيشه الكبير واضطر الى الفرار ولم ينج من الموت إلا بحيلة . ووفدت طوطه هذه بعد ذلك على بلاط الناصر ومعه ابنها البدين ملك ليون سابقاً ملقبة بنفسها تطالب عقد السلم لها وراجية استشارة الأطباء في أمر شاذبة والاعانة الحربية له لكي يستعيد عرشه (٥) . واحتفل الناصر بلقيا الضيوف الملكيين فشهدت العاصمة الإسلامية أفراد الأسرة المالكة النصرانية يطرقون باب الخليفة ملتهبين

(١) ج ٢ ص ٦٠٠ .

(٢) المقذ ج ٢ ص ٣٦٩ ، ٣٦٩ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٦٢ ؛ ابن خلدون ج ١

ص ١٢٧ وقد نقله القرطبي ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣) ابن خلدون ج ١ ص ١٤٢ - ٣ .

(٤) قرطبي ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٥) ابن خلدون ج ١ ص ١١٣ وقد نقله القرطبي ج ١ ص ٢٢٥ .

مساعدته وهو في مجده امير عظيم الشأن قد اصبحت اوامره شرايع مرعية من مصب نهر الابرو الى المحيط الاطلسي ومن سفح جبال البرنس الى جبل طارق . ثم ان طيب البلاط اليهودي حسداي ابن شبروط الشهير بمقدرته الطبية والسياسية استطاع ان يشفي شاة من البدانة الزائدة التي كانت قد افقدته التاج وساعده الخليفة على استرجاع سلطانه فرد عليه ملكه سنة ٩٦٠ .

الزهراء

وكان بلاط الخليفة في ذلك الوقت من افخم ما عرفته اوربا فقد وفدت اليه رسل امبراطور بيزنطة وملوك المانيا وايطاليا وفرنسا^(١) . وبنيت قرطبة العاصمة اوج مجدها فكان سكانها نصف مليون وكان فيها سبعة مسجدا^(٢) وثلاثة حمام لا يسبقها رقياً الا بغداد والقسطنطينية . وكان في قصر الخليفة في قرطبة اربعمئة غرفة ومقصورة يسكنها الوف العبيد والحرس وهو قائم في الشمال الغربي من المدينة على احدى هضاب جبالها (سيرا مورنا) المشرف على الوادي الكبير . وكان عبد الرحمن قد شرع في بنائه سنة ٩٣٦ . وكان يتفق على بنائه فيما تقول الاساطير من مال خلفته احدى الجوارى . وكان اول ما قصد ان يصنعه بهذا المال هو اقتداء الاسرى من ايدي النصارى ولما لم يجد منهم احداً اخذ باشارة جارية تانية اسمها الزهراء وابنى هذا الصرح وسماه باسمها . وجاء بالرخام من نوميديا وقرطجة واما السواري والاحواض المزودة بالتماثيل المذهبة فمن الهدايا القادمة من القسطنطينية . واشتغل في بناء الزهراء عشرة آلاف صانع والف وخمسة دابة مدة عشر سنين^(٣) . ثم قام بعد الفاصر اثنان من خلفائه عنيا بالزهراء فوسعاها وحسنها بحيث اصبحت نواة لاضاحية ملكية لا تزال آثارها ماثلة للعيان وقد اجريت فيها الحفريات سنة ١٩١٠ .

وفي الزهراء أحاط الخليفة نفسه بحرس من الصقالبة عدده ثلاثة آلاف وسبعة

(١) ابن عساري ج ٢ ص ٢٢٩ : ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ - ٤٣ : القرني ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) ثلاثة آلاف في ابن عساري ج ٢ ص ٢٤٧ ، قابل القرني ج ١ ص ٢٢٠ .

(٣) ابن عساري ج ٢ ص ٢٢٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ - ٤٥ : ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ : القرني ج ١ ص ٣٤٤ - ٤٧ : ابن خلدون ج ٢ ص ١١٣ .

وخسون (١) قام على رأس جيش نظامي بلغ مئة ألف (٢) . وكان الصقالية في اول الامر أسرى من قبائل السلاف قبض عليهم الالمان وسواهم فباعوهم من العرب ثم اطلق هذا الاسم على جميع الاسرى الاجانب سواء اكانوا من الافرنج ام الجليقيين او اللامباردين ومن حاكهم من الذين كانوا يؤسرون احياناً ثم يستعربون . وبمعاونة هؤلاء المالك باسبانية استطاع الخليفة ان يستأصل دابر قطاع الطرق والخوة في البلاد بل ان يتضي على الارستقراطية العربية القديمة . ومن هنا فقد زهت سوق التجارة والزراعة وتوافرت مصادر الدخل من اموال الدولة . وقد بلغ دخل خزانة الخليفة ما يقارب ستة ملايين ومائتين وخمسة واربعين الف دينار فسكان ثلث هذا المال يكفي لسد نفقات الجيش وثلثه للمشاريع العامة والثالث الاخير يذخر في الخزانة احتياطاً (٣) . ولم تعرف قرطبة من قبل زمناً بلغ فيه غناها هذه القمة ولم تكن الاندلس قط على مثل هذه الثروة ولا الدولة على مثل هذا الظفر وقد تم ذلك كله على يد رجل فرد مات مرتوباً من الايام وقد عاش ثلاثاً وسبعين سنة . وعلى هذا فقد ذكر انه كان يقول في اواخر حياته انه لم تصف له الدنيا الا اربعة عشر يوماً (٤) .

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) السعدي ج ٣ ص ٧٤ ، ٧٨ . كان السعدي مؤلفاً معاصراً لهذه الحوادث وان يكن بعيداً عن مسرحها .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٧ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٣ . قابل ابن حوقل ص ٧٧ .

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٨ .

الفصل الثامن والثلاثون

المنشآت السياسية والاقتصادية والعلمية

بلغت السلطة الإسلامية في الغرب في عهد عبد الرحمان الثالث وخلفه الحكم الثاني (٩٦١ - ٧٦) وديكتاتورية الحاجب المنصور (٩٧٧ - ١٠٠٢) أوج مجدها . فلا قبل ولا بعد تنبئ إبلاد الأندلس الإسلامية ما نسي لها حينذاك من التأثير السياسي في شؤون أوروبا وإفريقية .

قرطبة

في هذه الحقبة استمرت العاصمة الأموية مركزاً سامياً جعلها أعظم مدن أوروبا ثقافة فكانت هي والقسطنطينية وبغداد المراكز الثلاثة للثقافة العالمية . واعتبرت قرطبة بما حوت من مظاهر الثقافة فقد كان فيها مئة وثلاث عشرة داراً (١) وواحد وعشرون ريفاً (٢) وسبعون خزانة كتب وحوالي ثلثي تباع فيها الكتب ، ومساجد وقصور اكتسبت شهرة في الخلفاء فاحذت من الرواد وأهل الأسفار بتجامع القلوب . وزهت بشوارع تمتد بضعة أميال مضادة بقناديل تطل عليها من المنازل المحاذية (٣) . بينما « لم يتحقق للندن أن يكون فيها قنديل واحد عمومي حتى ما بعد ذلك بسبع مئة سنة » و « وأما في باريس بعد بضعة قرون فقد كان الذي يتخطى عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن الخوض في لجة من الوحل » (٤) . وبينما كانت جامعة أكسفورد تحسب الاستحمام عادة وثنية كان علماء قرطبة قد مر عليهم زمن طويل وهم يتممون بحمامات شيقة . وتعلل نظر العرب إلى النوردين الهمج يشله قول صاعد ابن أحمد (٥)

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٧ . وقال القرني ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) القرني ج ١ ص ٣٠٤ و ٢٩٩ . وقال ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٧ - ٨ .

(٣) القرني ج ١ ص ٢٩٨ . وكانت تعلق هذه القناديل أمام زوايا المنازل أو فوق أبوابها .

(٤) John W. Draper, A History of the Intellectual Development of Europe, 4th rev. ed. (London, 1910), vol. II, p. 31.

(٥) طبقات الأمم ص ٩٠ - ٨ .

(المتوفى ١٠٧٠) القاضي الطليطلي : « فافراط بعد الشمس عن مسامحة رؤوسهم برّد هواءهم وكثف جوهم فصارت كذلك امزجتهم بآردة واخلاقهم فجأة فعضمت ابدانهم واييضت الوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة » . وكان كلما احتاج امراء ليون اوناغار او برشلونة جراحاً او مهندساً او مغنياً او خياطة وجهوا طلبهم لقرطبة فسار صيت العاصمة الاسلامية حتى اقاصي المانيا حيث وصفت راهبة سكسونية قرطبة بانها « جوهرة العالم » (١) .

النظم الحكومية

لا يختلف تنظيم الحكومة في خلافة الغرب اختلافاً وضعياً عنه في الشرق . فالامامة وراثية وتوران القواد والخاصة كثيراً ما كانوا يبايعون من ارادوه . واذا وجد حاجب فمركزه فوق مركز الوزراء ، وكان الوزراء في مثل تلك الحالة يتصلون بالخليفة بواسطة . وبلي الوزراء مرتبة الكتاب ويتألف الديوان منهم ومن الوزراء . وكانت هناك امصار ستة غير قرطبة بلي كلاً منها أمير ذو صفة مدنية وحرية يسمى الوالي . ويسمى حكام المدن الكبرى ولاة ايضاً . أما زمام العدل فييد الخليفة يفوض به القضاة وعلى رأسهم قاضي القضاة المقيم بقرطبة . ويناط النظر في الدعاوي الجنائية وحفظ الأمن بصاحب الشرطة وهو قاض ذو صلاحية خاصة . واصحاب المظالم نظر خاص في الشكاوي المقامة على اهل المناصب . وتشمل العقوبات الغرامات والجلد والخبس وقطع احد الاعضاء . اما جزاء الزندقة والارتداد او شتم شيء من شعائر الذين فالموت . وكانت من رجال العدل ايضاً المحتسب الذي كانت تسند اليه الرقابة على البيع والشراء والأسواق وتعهد المعايير والاقيسة والاشراف على مشاكل النيسر والمحافظة على الاخلاق ومقاومة الخلاعة في الملايس فضلاً عن ادارة الشرطة نفسها (٢) .

Hrotsvitha in *Scriptores rerum Germanicarum: Hrotsvithae opera*, ed. Paulus (v de Winterfeld (Berlin, 1902), p. 52.

(٢) انظر للمزجي ج ١ ص ١٣٣-١٤٠ : السقلي ، في ادب الحية . لشر كولن ولفي بروفلال (باريس ،

١٩٣١) ص ٣ وما يلي : Lévi-Provençal, *L'Espagne musulmane XI^{ème} siècle* (Paris, ١٩٣٢), pp. 79-90.

الصناعة

وكان معظم دخل الدولة مستمداً من الضريبة الموضوعة على الواردات والصادرات . وكانت اسبانية في عهد الخلافة من أكثر بلدان أوروبا ثروة واشدها ازدهاماً بالسكان . وقد ازدهت العاصمة بنحو ثلاثة عشر ألف حائك وبصناعة راقية للجلود . ومن اسبانية جرت صناعة صباغ الجلود وتشيها بالنقوش المائنة الى مراکش وانتقلت الصناعة من هذين القطرين الى فرنسا وانكلترا كما تدلنا لفظة كوردونية (قرطبي = صانع الاحذية) ومراكو (مراكشي = ضرب من الجلد) . اما الصوف والحرير فقد كانت تملك منها الانسجة ليس في قرطبة فحسب بل في مالقة والمرية وسواهما من العواصم (١) . وكان أهل الصين قد احتكروا صناعة الحرير الى أن ادخلها المسلمون الى اسبانية حيث زهت . وكانت المرية تصدر الآنية الزجاجية والنحاسية وكان موطن صناعة الخزف في باترنا من أعمال بلنسية . واشتهرت جيان والغرب بمعادن الذهب والفضة كما اشتهرت قرطبة بمعادن الحديد والبرصاص (٢) ومالقة بالياقوت . وكانت طليطلة كدمشق معروفة في آفاق المعمورة بسيوفها (٣) . اما فن تصنيع القولاذ وسواه من المعادن بالذهب والفضة وتزيينها بالنصير على شكل الزهر - وهو فن جيء به من دمشق - فقد زها في بضعة مراكز اسبانية واوربية وترك أثرها في اللغة تدل عليه الفاظ (damascene) و (damaskeen) في الانكليزية و (damasquiner) الفرنسية و (damaschini) الإيطالية .

الزراعة

ولقد ادخل العرب الى الأندلس الأساليب الزراعية المتعارفة في آسية الغربية . فاحتفروا القترع (٤) وزرعوا مختلف الأنواع من شجر الكرم وجاءوا بنباتات متنوعة وغرسوا اشجار

(١) القرني ج ١ ص ١٠٢ : ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) ابن الخطيب الأحملة في اخبار غرناطة (القاهرة : ١٣١٩) ج ١ ص ١٥ : ١٦ وله أيضاً المعجم البديعي في الدولة المصرية (القاهرة : ١٣٤٧) ص ١٣ .

(٣) لزيادة الايضاح بشأن الصناعة والمعادن راجع ابن حوقل ص ٧٨ - ٩٩ : الاصطخري ص ٤٢٢ : القرني ج ١ ص ٩٠ - ٩٢ : ١٢٣ .

(٤) اللفظة الاسبانية للقرع او القنابة هي « nequia » من لفظة « الناقية » العربية .

مشيرة منها الارز (١) والبرقوق (٢) و (الشمش) والقمح (٣) (الدراق) والرمان (٤) والبرتقال (٥) وقصب السكر (٦) والقطن (٧) والزعفران (٨) وكانت سهول الجنوب الشرقي من شبه جزيرة ايبيريا قد خصتها الطبيعة بمناخ وتربة صالحين للزراعة فنشأت فيها مراكز هامة لها في المدن والارياف. وقد تمت فيها انواع الحبوب وكذلك الزيتون وانواع الفواكه (٩) بمهدة الفلاحين الذين قاموا على جني الارض مقابل حصص يتقاضونها من الملاكين.

ويعد هذا الرقي الزراعي من مفاخر الاندلس الاسلامية. ومن مآثر العرب الخالدة في البلاد الخدائق التي لا تزال لاسبانية شهرة بها الى اليوم. ومن اشهر الخدائق «جنة العريف» وهي من آثار الدولة النصرية في اواخر القرن الثالث عشر وقد كانت ملحقة بدار فضاء واقعة في اطراف الحمراء. وقد قالوا في هذه الجنة انها «مثل المضروب في الظل الممدود والماء المسكوب والنسيم البليل» (١٠). وقد تربت اقسامها ركائب فظهرت كأنها مدرج (امفثياتر) يدع التنسيق ترويه مياه الجدول بعد ان تتساقط في عدة شلالات ثم تتوارى وراء كسبان الزهور والادغال والاشجار. وهي اليوم عبارة عن مجموعة بأشعة من السرو والاس.

التجارة

وقاضت حواصل الاندلس الصناعية والزراعية عن حاجة البلاد فكانت اشبيلية وهي أهم

- (١) منها لفظة «arroz» الاسبانية والاصل سنسكريتي.
- (٢) انظر من ٤٣٠ من ج ٢ من هذا الكتاب.
- (٣) منها لفظة «albaricoque» الاسبانية وهو نوع من الخوخ او الدراق.
- (٤) منها لفظة «romano» الاسبانية وهي تطلق على شراب يستعصر من الرمان.
- (٥) ادخل العرب الى اسبانية البرتقال المر (الارج) المعروف بالاشبيلي. اما البرتقال العادي فقد ادخله اليها البرتغاليون من الهند فيما بعد.
- (٦) انظر الفصل السادس والاربعين من هذا الكتاب تحت باب الزراعة والصناعة.
- (٧) منها لفظة «algodon» الاسبانية و «cotón» الاسبانية القديمة.
- (٨) منها لفظة «azafran» الاسبانية و «saffron» البرتغالية.
- (٩) ابن الخطيب، الاطعمة ج ١ من ١٤ - ١٥، ٢٧، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٤٤١، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦٠، ١٤٦١، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٠، ١٤٨١، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦، ١٤٩٧، ١٤٩٨، ١٤٩٩، ١٥٠٠، ١٥٠١، ١٥٠٢، ١٥٠٣، ١٥٠٤، ١٥٠٥، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١٠، ١٥١١، ١٥١٢، ١٥١٣، ١٥١٤، ١٥١٥، ١٥١٦، ١٥١٧، ١٥١٨، ١٥١٩، ١٥٢٠، ١٥٢١، ١٥٢٢، ١٥٢٣، ١٥٢٤، ١٥٢٥، ١٥٢٦، ١٥٢٧، ١٥٢٨، ١٥٢٩، ١٥٣٠، ١٥٣١، ١٥٣٢، ١٥٣٣، ١٥٣٤، ١٥٣٥، ١٥٣٦، ١٥٣٧، ١٥٣٨، ١٥٣٩، ١٥٤٠، ١٥٤١، ١٥٤٢، ١٥٤٣، ١٥٤٤، ١٥٤٥، ١٥٤٦، ١٥٤٧، ١٥٤٨، ١٥٤٩، ١٥٥٠، ١٥٥١، ١٥٥٢، ١٥٥٣، ١٥٥٤، ١٥٥٥، ١٥٥٦، ١٥٥٧، ١٥٥٨، ١٥٥٩، ١٥٦٠، ١٥٦١، ١٥٦٢، ١٥٦٣، ١٥٦٤، ١٥٦٥، ١٥٦٦، ١٥٦٧، ١٥٦٨، ١٥٦٩، ١٥٧٠، ١٥٧١، ١٥٧٢، ١٥٧٣، ١٥٧٤، ١٥٧٥، ١٥٧٦، ١٥٧٧، ١٥٧٨، ١٥٧٩، ١٥٨٠، ١٥٨١، ١٥٨٢، ١٥٨٣، ١٥٨٤، ١٥٨٥، ١٥٨٦، ١٥٨٧، ١٥٨٨، ١٥٨٩، ١٥٩٠، ١٥٩١، ١٥٩٢، ١٥٩٣، ١٥٩٤، ١٥٩٥، ١٥٩٦، ١٥٩٧، ١٥٩٨، ١٥٩٩، ١٦٠٠، ١٦٠١، ١٦٠٢، ١٦٠٣، ١٦٠٤، ١٦٠٥، ١٦٠٦، ١٦٠٧، ١٦٠٨، ١٦٠٩، ١٦١٠، ١٦١١، ١٦١٢، ١٦١٣، ١٦١٤، ١٦١٥، ١٦١٦، ١٦١٧، ١٦١٨، ١٦١٩، ١٦٢٠، ١٦٢١، ١٦٢٢، ١٦٢٣، ١٦٢٤، ١٦٢٥، ١٦٢٦، ١٦٢٧، ١٦٢٨، ١٦٢٩، ١٦٣٠، ١٦٣١، ١٦٣٢، ١٦٣٣، ١٦٣٤، ١٦٣٥، ١٦٣٦، ١٦٣٧، ١٦٣٨، ١٦٣٩، ١٦٤٠، ١٦٤١، ١٦٤٢، ١٦٤٣، ١٦٤٤، ١٦٤٥، ١٦٤٦، ١٦٤٧، ١٦٤٨، ١٦٤٩، ١٦٥٠، ١٦٥١، ١٦٥٢، ١٦٥٣، ١٦٥٤، ١٦٥٥، ١٦٥٦، ١٦٥٧، ١٦٥٨، ١٦٥٩، ١٦٦٠، ١٦٦١، ١٦٦٢، ١٦٦٣، ١٦٦٤، ١٦٦٥، ١٦٦٦، ١٦٦٧، ١٦٦٨، ١٦٦٩، ١٦٧٠، ١٦٧١، ١٦٧٢، ١٦٧٣، ١٦٧٤، ١٦٧٥، ١٦٧٦، ١٦٧٧، ١٦٧٨، ١٦٧٩، ١٦٨٠، ١٦٨١، ١٦٨٢، ١٦٨٣، ١٦٨٤، ١٦٨٥، ١٦٨٦، ١٦٨٧، ١٦٨٨، ١٦٨٩، ١٦٩٠، ١٦٩١، ١٦٩٢، ١٦٩٣، ١٦٩٤، ١٦٩٥، ١٦٩٦، ١٦٩٧، ١٦٩٨، ١٦٩٩، ١٧٠٠،

الغرض في الداخلية تصدر القطن والزيتون والزيت ويزدها النسيج والرقيق من مصر والقيان من أوروبا وآسية . وشملت صادرات مالقة وجيان الزعفران والتين والرخام والسكر . وسارت حواصل سياحية بطريق الاسكندرية والقسطنطينية قبلت اسواقاً افتحت لها في الهند واواسط آسية . واسع نطاق التجارة بين الاندلس ودمشق وبغداد ومكة بوجه خاص . وفي الألة خا التي تعبر بها لغات أوروبا الحديثة عن الصناعة البحرية ما يشير الى سيادة العرب الماضية في البحار . فمنها اميرال وارسنال والفراج وكايسل وكورفت وشلوب وتريف (١) . ومن الاخبار التي تنعكس عن الحركة البحرية الناشطة في المحيط الاطلسي (بحر الغلات) قصة اوردتها الادريسي عن ثمانية « أبناء عم مغرورين » بارحوا الشبونة في رحلة اكتشاف فوصلوا الى بحر غليظ الموج فبحروا معه خمسة وثلاثين يوماً في ناحية الغرب والجنوب فلاحت لهم جزر غريبة نزلوا فيها (٢) .

وقالت الحكومة تنظيم البريد اما النفود فانهت فيها الناذج الشرقية فكان الدينار اساس التعامل في الذهب وكان الدرهم الاساس في النضة (٣) اما الفلاس (٤) فقد كانت رائجة ايضاً وهو من نحاس وكان معروفاً في صدر الاسلام . ودرجت المسكوكات العربية في ممالك الصاري شمالاً وظلت هذه البلدان مدة اربعة مئة سنة لا تعرف من المسكوكات الا العربية والفرنسية .

الخطبة في مجده

وظلت هالة المجد التي طوقت بلاط عبد الرحمان متألقة يشع نورها في عهد ابنه وخلفه الحكم الثاني المستنصر (٩٦١ - ٩٦٦) وقد اعتبره السعودي (٥) احكم الناس سيرة .

(١) Admirat, arsenal, average, cable, corvette, shallop (Stoop), & tariff. من « امير البحر » و « دار الصناعة » و « العواري » (القصرية الموضوعة على البضائع) و « الحبل » و « غراب » سفينة حربية (و « جلبة » (قارب) و « ترفعة » .
(٢) لعلمها جزائر كاري وجزائر راس فردي .
(٣) ابن الخطيب ، الاطلة ج ١ ص ٣٧ .
(٤) من « phollis » اليونانية ، وهي لانية الاصل .
(٥) ج ١ ص ٣٦٣ .

وفي أول عهد الحكم هذا وصل العاصمة الإسلامية « الطائفة » اردون يرجو استعادة عرش
ليون الذي اخذاه بسبب تدخل عبد الرحمان وقد وفد معه الى الزهراء وليد ابن خيرزان قاضي
قرطبة النصراني وعهد الله ابن قاسم (١) جليلي طليطلة بدرجته على اصول الآداب المرعية
في البلاط الاسلامي . فتقدم اردون مرتدياً البسة بيضاء وعلى رأسه غطاء مردان بالجلوه فدخل
يقبضه النبلاء وسار بين صفوف الجند والعرب الواقفين الى جانب السدة الملكية . وكانت
الوكب النصراني ارتمش جلالة المقام فبادر من فيه الى رسم علامة الصليب على مخياهم لما
استوفى عليهم من هبة الحضرة السلطانية . وقد جالس الخليفة في ردهة الاسنابل على اربعة
يخف به افراد أسرته والقواد الى اليمين والى اليسار وخلفه . وبلغ العاهل النصراني الديوان
العالي فأنهى بوقار ثم مشى مكشوف الرأس فاكب على يد أمير المؤمنين يقبلها وطاقى يخطب
الخليفة كمولاه ويشير الى نفسه كعبد له ثم طلب منه المعونة متضرعاً . وتراجع نفاقاً خطواته
الى ابراء حتى اجتاز الباب . وهكذا فعل النبلاء في معيته . ووعده الخليفة اردون بالنصرة
على شروط اقترحها . الا ان هذه الزيارة لم تأت بشمرة (٢) .

الحركة العلمية

على أن أهم ما أثر هذه الحقبة لم تكن في حلبة السياسة بل في ميدان الثقافة ، فقد كان
الحكم علماً محباً للعلم والعلماء (٣) فجسمهم من الاقطار وأجرى عليهم المرتبات وابتنى سبعا
وعشرين مدرسة يتعلم فيها الحداث العاصمة مجاًناً (٤) . وفي عهده ازدهرت جامعة قرطبة
التي أسسها عبد الرحمان الثالث في الجامع الكبير فاصبحت في عداد معاهد العلم الراقية في العالم
العربي وجزت الازهر في القاهرة والنظامية في بغداد وقصدها الطلاب من نصارى ومسلمين لا
من اسبانية فحسب بل من بلدان اوربيسة اخرى ايضاً ومن افريقية وآسية . ووسع الحكم
نطاق المسجد الجامع الذي عقدت حلقات التدريس الجامعي فيه واجرى اليه الماء في قناة من

(١) لاحظ اقتباس الاسماء الاسلامية من قبل هذين الرجلين المسيحيين .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥١ ؛ ابن خلدون ج ١ ص ١٤٥ ؛ المقرئ ج ١ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٣) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٩٨ ؛ ابن الخطيب ، الاطلة ج ١ ص ٣٠٥ .

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٦ .

حجر متقنة البناء اودع جوفها انابيب الرصاص وزين المسجد بالفسيفساء التي كان يبعث بها ملك الروم هدية مع صناع مهرة فبلغت النفقة فيه مئتين وواحداً وستين ألفاً وخمسة وسبعة وثلاثين ديناراً ودرهماً ونصف الدرهم (١). ثم استدعى الى الجامعة اساتذة من المشرق وقف اموالاً لرتبائهم. ومن اساتذتها المؤرخ ابن الفوطية الذي درس النحو، والفقيه البغدادي الشهير ابو علي الفاي (٢) صاحب « الامالي » (٣) وهو الكتاب الذي لا يزال متداولاً في بعض ربوع العالم العربي الى اليوم. ومن الحوادث المذكورة في سيرة الفاي قيامه مرة يرتجل خطبة الاستقبال في الحفلة التي اقامها الخليفة الناصر لمرسل ملك الروم. قالوا لما ان تلا البسلة والصلاة على محمد حتى اخفق في يده لشدة الفزع وارتج عليه فلم يستطع اكمال الكلام فتاب عنه للحال منذر ابن سعيد وارتجل خطبة بديعة من النثر المسجوع ذكرها المقرئ (٤) في صنفين ونصف من كتابه.

وقد ضمت العاصمة عدا الجامعة مكتبة كبيرة واسعة. وكان الحكم محباً للكتب جماعاً فما فسر عملاءه الى الامصار يجولون بين مكاتب الاسكندرية ودمشق وبغداد قصد اتياع المخطوطات او نسخها فبلغ عدد ما جمع في هذه المكتبة من الكتب اربعمئة الف حتى كان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربعة واربعين فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة ليس فيها الا اسماء الدواوين الشعرية (٥). واستوعب الحكم - ولعله اعظم عالم بين خلفاء الاسلام قاطبة - كثيراً من هذه الكتب وكتب في حواشيه ملاحظات زادت قيمتها فيما بعد لدى العلماء الذين توارثوها. وارسل في كتاب الاغانى الى مصنفه ابي الفرج الاصبهاني الاموي الاصل الف دينار (٦) قيمت اليه بنسخة من الكتاب قبل ان يخرج به بالعراق. وقد بلغت

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٦٤٢٥٢-٦٤٢٥٣.

(٢) ابن خلدون ج ١ ص ١٣٠-١٣١؛ باقوت اديب ج ٢ ص ٣٥١؛ السمعاني ورقة ٣٩ ب.

(٣) في مجلد (بولاق ١٣٢٤).

(٤) ج ١ ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٥) المقرئ ج ١ ص ٢٤٩-٢٥٠؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٠٦.

(٦) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٦. المقرئ ج ١ ص ٢٥٠.

درجة الثقافة في الاندلس مستوىً عالياً في ذلك الزمن جداً بالعالم الفولندي الكبير دوزي^(١) إلى القول : « ان كل فرد تقريباً كان يحسن القراءة والكتابة » وقد جازاه فيما ذهب إليه علماء آخرون . هذا بينما كانت أوروبا النصرانية لا تعرف من العلوم الا مبادئ بسيطة مقصورة بالأكثر على رجال الدين .

الركائز العربية العامرية

وخلف الحكم ابنه هشام الثاني المؤيد (٩٧٦ - ١٠٠٩) وله من العمر اثنا عشرة سنة . وكانت امه صبيح^(٢) البشكنشية الجميلة غالبية على شؤون الدولة . وكان في رعايتها شاب تحبه اسمه محمد ابن ابي عامر . وكان هذا قد بدأ حياته في حالة وضيعة يتكسب من كتابة الرسائل وما زال يرقى حتى انتقل السلطان آخر الامر الى يده . وليست سيرته سوى مثل من الامثلة الكثيرة التي تثبت كيف تيسر ابواب الفلاح في الدولة لذوي الطموح والذكاء . كان جد محمد الاول يمانياً من قبيلة معافر واحد الافراد العرب القلائل الذين كانوا في جيش طارق ايام الفتح الاولى . واجتهد محمد اول امره في خدمة صبيح وملاطفتها والتودد اليها واظهار الولاء لها فالت اليه وتكفلت بشأنه واخذت تساعد حتى تحدث الناس بشغفها به . ثم اخذ محمد يرتقي برعاية صبيح الى المناصب العالية في البلاط ولصق بالحكم فصار في عداد كفاته وفاز على رؤسائه فوقع بهم بالسياسة والذهب آناً وبالقوة آناً آخر حتى جعله الحكم حاجباً ووزيراً^(٣) . ولما استتب له الأمر نكح بالصقالبة حرس الخليفة واعتاض عنهم بمرتقة مراكش المواليين واخيراً استبد بالملك في ايام هشام وأمر بالحجز على هذا الخليفة الحدث في قصره . ثم اعرض عن الزهراء وانشأ لنفسه سنة ٩٧٨ مقراً بظاهر قرطبة

Histoire des Musulmans, ed. Lévi-Provençal, vol. ii, p. 184 ; Nicholson, (*Literary History*, p. 419; Rafael Altamira in *The Cambridge Medieval History*, (New York, 1922), vol. iii, p. 434 .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٨ ؛ القرطبي ج ١ ص ٢٥٩ ؛ الرازي ج ١ ص ١٩٠١٧ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٧-٩ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧-٨ ؛ ابن اللاتيف ج ٩ ص ١٢٤-٥ .

ابن الخطيب ، الاطلة ج ٢ ص ٦٧-٩ .

في بقعة لم يستطع المنقبون معرفتها حتى الآن. وسمى ذلك المقر بالمدينة الزاهرة (١). و اراد
اكتساب مودة القهاء فامر باحراق كتب الفلسفة في خزانة الحكم وسواها من الكتب التي
استنكرها علماء الدين. اما الشعراء فاستألفهم اليه واجزل لهم العطاء. وامر بان يدعى له على
المنابر وان يكتب اسمه على النقود ولتردى الملابس المطرزة بالذهب باسمه. وهي من امتيازات
الملوك. واصبحت بعد سنة ٩٩٢ نقود الكتب عنه كما لو كان هو الخليفة (٢)، فبدل
اسمه في مظهرها هكذا: « من الخاجب المنصور ابي عامر محمد ابن ابي عامر الى فلان » (٣).
واخذ الوزراء بتقبيل يده. ولكن امراً واحداً لم يقدم عليه الا وهو خلع الخليفة الاموي
(الذي كان خليفة بالاسم) واعلان خلافة عامرية .

ولم يكن نجاح ابن ابي عامر في الامور الحربية اقل منه في المشاريع السفية . فقد اصاح
الجيش اولا والذي نظمه القديسة التي كانت تقوم على اساس الوحدة القبلية واستعاض عنها
بنظام السكائب . وكان مآثره من انتقل عاصمة الفاطميين شرقاً الى القاهرة وقد بنيت سنة
٩٦٩ ومن تغلح الدولات النصرانية في الشمال عاملاً حفزه على تسيير جيوشه لاحتلال انحاء
الساحل الشمالي الغربي من افريقية واقتطاع مناطق الشمال من شبه جزيرة ايجريه . وقد ادت
به انتصاراته الى ان اتخذ لنفسه في سنة ٩٨١ لقب « المنصور بدين الله » . وهكذا كان الخاجب
المنصور يخرج في ربيع كل سنة وخر يفها الى مقابلة النصارى في انحاء ليون وقشتالة وقطلونية .
ومن مآثره الحربية في هذه النواحي فتحه سموره سنة ٩٨١ واحتلاله برشاونة في صائفة سنة
٩٨٥ وهي الثالثة عشرة من غزواته (٤). وفي سنة ٩٨٨ دمر مدينة ليون وذلك اسوارها الجسيمة
وابراجها الشاغخة واستلحقها بملكه . وبلغت به فتوحاته مضائق جبال جاليقية ونخرت في
سنة ٩٩٧ كنيسة فخمة تسمى كنيسة شنت ياقوب (٥) كانت مزاراً يحج اليها الناس

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩٤ - ٧ .

(٢) المغربي ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٤) ابن الخطيب، الاطلة ج ٢ ص ٧٦ ؛ ويزعم البعض انها الغزوة الثالثة والمشرون .

(٥) Santiago de Compostela في الاسبانية . ابن عذاري ج ٢ ص ٣١٦ - ٣١٩ تقرري ج ١
ص ٢٧٠ - ٢٧٢ الاخرى ص ١٠٤ . ويعتبر النصارى هذه الكنيسة مرقد الرسول يعقوب ابن زبدي الذي
جمعه القديس مدخل النصرانية الى اسبانية . وقد اعين المنصور عن حدم القبر .

من أنحاء أوروبا النصرانية وعاد بمد هذه الأعمال الحربية والانتصارات الى قرطبة ومعه رعايا من الاسرى النصراني حاملين ابواب الكنائس على اكتافهم فاستعملها في ترميم الجامع الكبير بالعاصمة واستخدمهم في العمل . وجعل المسلمون اجراس الكنائس مشاعل يتبرون بها منازلهم ولم يعرف عهد في تاريخ الاندلس - اذا استثنينا عهد عبد الرحمن الثالث - تألق فيه نجم الاسلام كما تألق في هذا العصر .

وكان المنصور يسعى الى اثبات الا في ميدان الحرب فتحققت امنيته سنة ١٠٠٢ عند منصرفه من بعض غزواته في قشتالة وكانت الغزوة الحادية من غزواته (١) وقد دفن معه عملاً بوصيته وعاء كبير كان قد جمع فيه غبار ثيابه في حملاته العديدة (٢) . ونقش على قبره في مدينة سالم هذان البيتان :

آثاره تنبئك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه
تألفه لا يأتي الزمان بمثله ابداً ولا يحكي القصور سواه (٣)

أما المؤرخ الراهب الذي دون هذه الحادثة فقد علق عليها بإعجاز معبراً عن شعور نصراني اسبانية تجاهها فكتب « في سنة ١٠٠٢ مات المنصور فدفن في جهنم » (٤) .

أعمال السلطان الأموي

وغدت الاندلس في السنين الثمانين التالية لوفاة الدكتاتور العامري ساحة حرب قتال فيها البربر والعرب والصقالية والاسبان ومثل الحرس الملكي دوراً يشبه الدور الذي مثله الحرس الامبراطوري في رومة القديمة وفي بغداد حين اخذ مجدها يتداعى . وكان المنصور قد عين ابنه عبد الملك المظفر خلفاً له فجعل الولاية وراثية وقد توفى المظفر في صون واحدة المملوكة

(١) ابن خلدون ج ١ ص ١١٨ يحمل غزواته الثانية وخمسين . وقد نقل عنه القرطبي ج ١ ص ٢١٨ وجملاً منها وخمسين . وقابل القرطبي أيضاً ج ١ ص ٢٦١ ابن الخطيب : الاطلة ج ٢ ص ٦٩ ابن الاثير ج ٨ ص ٩٨ : ابن الأبار : المطلة ص ١٤٩ .

(٢) ابن الخطيب : الاطلة ج ٢ ص ٦٩ : ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٤ : الرازي ج ١ ص ٢٦ .

(٣) ابن الخطيب : الاطلة ج ٢ ص ٧٣ : ابن الأبار : المطلة ص ١٥١ .

(٤) *Hispania sagrada*, vol. xxiii, p. 308 . ١١

الغالية التي جلس على العرش فيها من هدم المدينة الزاهرة العامرية (١). وقطع رؤوس خصومه من زعماء الثغور الشمالية الذين ابوا الاعتراف بخلافته وجعل هذه الرؤوس احواضاً للزهور بصت على ضفتي النهر ازاء قصره . وقد عرف ايضاً بصنعه التبيذ في قصره ولقب بالتباز (٢) وتميزت هذه الحقبة في انه عرف فيها ثلاثة من الخلفاء الامويين التسعة ولوا الخلافة غير مرة وقد برع لاحدهم هشام الثاني مرتين وخلق مرتين ثم اختفى اختفاء غريباً لا يزال سرّاً غامضاً . وقام من بعده رجل يشبه ادى انه هو فتسم الملك في اشبيلية . وكان منهم خليفة مسكين هو عبد الرحمن الخامس المستظهر وكان افضلهم وكان وزيره ابن حزم العالم المشهور وقد ناز على عبد الرحمن الناس وطلب فهرب واختبأ في آتون الحمام فأخرج منه وهو في قبض مسود بحال قبيحة فجىء به الى محمد الثالث المستكني (٣) خلفه وضربت عنقه بين يديه . اما المستكني نفسه الذي « كان همه لا يعدو فرجه وبطنه » (٤) فقد لاقى سوء المصير بعد ذلك بسنتين . طلب فعزم على الفرار في سنة ١٠٢٥ وخرج على وجهه لباساً ثياب النساء ومات مسموماً بيد بعض رجاله (٥) . ومن بناته ولادة الشاعرة الدائمة الصيت .

وقبل حلول الاجل المحتوم بخلافة الامويين قاسمها ان تلك اماره غير الامارة العامرية تعرف بالدولة الحمودية انتحلت لنفسها امتيازات الخلافة . وقد اسس هذه الدولة علي ابن حمود (١٠١٦ - ١٨) وكان يرجع نسبه الى علي ابن ابي طالب مع انه كان نصف بربري . وقيل ان نادى بنفسه خليفة بقرطبة كان قد ولي سبعة وطنجة . وكان قد فتح مالقة ايضاً وولياها الحفاده النافية بعده من سنة ١٠٢٥ الى ١٠٥٧ (٦) وقد تلاه في الحكم بقرطبة الثائب من

(١) النويري نشر رميو ج ١ ص ٧٤ .

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ٥٠٠ .

(٣) ابن عذاري ج ٣ ص ١٣٨ - ٩ : النويري ج ١ ص ٧٨ : ابن الأبار ص ١٦٤ : ابن هشام : الفخيرة في حسان اهل الجزيرة القسم الاول ج ١ (القاهرة، ١٩٢٩) ص ٢٩ .

(٤) ابن الاثير ج ٩ ص ١٩٤ .

(٥) ابن عذاري ج ٣ ص ١٤٢ : ابن الاثير ج ٩ ص ١٩٤ : الراكشي ص ٤٠ : النويري ج ١ ص ٨٤ .

(٦) الراكشي ص ٣٧ - ٣٠ : ابن عذاري ج ٣ ص ١١٢ - ١١٩ - ١٢٠ : القرني ج ١ ص ٢٨١ - ٢٢٠ : ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٢ - ١٥٠ : ابن الاثير ج ٩ ص ١٨٨ : ابن خلدون ج ١ ص ١٠٠ : ابن خلدون ج ١ ص ١٠٠ : ابن خلدون ج ١ ص ١٠٠ .

ابناء حمود ادعوا الخلافة وتمتعوا بشيء ضئيل من السلطة بقرطبة حتى سنة ١٠٢٧ (١). وفي هذه السنة نفسها ظهر هشام الثالث المعتد (٢) فاستعاد العرش للأمويين ولكنه لم يقو على امتلاك ناصية الامور فعم الاضطراب. وسئم سكان قرطبة الفتن وأجمعوا على خلع الخليفة ودعوا الى ابطال الخلافة فنزل هشام الى الجامع المفضي الى المقصورة فيمن تأفف اليه من ولده ونسائه طارحاً نفسه على الجماعة فأعلم بكره الناس له فقال: « ليتني بقرب البحر ترمون بي في لجته » وبقي بمكانه بقية يومه وليله اسيراً ذليلاً يحتضن طفلة له سائراً لها بكمه من قر ليته وهي تشكو الجوع ذاهلة عما احاط بها. ويات الوزراء وديروا على هشام الفراغ من شأنه والقاء الخلافة ابدأ وتسليم الحكومة لمجلس الوزراء يتقدمهم ابو الخزم ابن حمود. وكان حين دخل عليه الشيوخ بهذا انظير الذي تعين به بدء عصر جديد ان نظر اليهم وسألهم احضار كسرة خبز يسد بها جوع طفله فابكى من كمله اعتباراً بعادية الدهر (٣).

(١) ابن عذاري ج ٣ ص ١٢٤-٣٥.

حمود

(١) علي (١٠١٦-١٨)
(٢) القاسم (١٠١٨-١٠٢١)
(٣) يحيى (١٠٢١-١٠٢٧)

(٢) كان ابن اربع وخمسين سنة حينذاك.

(٣) ابن عذاري ج ٣ ص ١٥٠-١٥٢ القرني ج ١ ص ٢٨٦ ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٣-١٥٤ ابن الاثير ج ٩ ص ١٩٨ المراكشي ص ٤١.

الفصل التاسع والثلاثون

ملوك الطوائف : سقوط غرناطة

نشأ على اقراض الخلافة الاموية - اتفاقاً كما يبدو - مجموعة من الدول الصغيرة كانت همها التنازع فيما بينها . وبعد أن سقطت هذه الدويلات فريسة لدولتين بربريتين من مراكش اكتسحها كلها - الواحدة تلو الاخرى - تيار الدطوة النصرانية في الشمال . وهكذا فقد شهد النصف الاول من القرن الحادي عشر لا أقل من عشرين دولة قامت في نحو عشرين مدينة او مقاطعة ساسها زعماء وامراء عرفوا في التاريخ عند العرب بـ « ملوك الطوائف » . وقد سلم الامر في قرطبة واعمالها بنو جهور فكانت لهم فيها حكومة شبيهة بالنظام الجمهوري الى ان اوقع بهم في سنة ١٠٦٨ بنو عباد اصحاب اشبيلية (١) . واصبحت الزعامة منذ ذلك العهد بين تلك الدويلات الصغيرة لأشبيلية التي ارتبط مصيرها دائماً بمصير قرطبة . وكانت غرناطة قصبة الحكم الزيري - نسبة الى ابن زيري (١٠١٢ - ١٩) وهو من البربر - الى ان خربها المرابطون المراكشيون سنة ١٠٩٠ . وغرناطة هي المدينة الاندلسية الوحيدة التي حكمها في ظل الاسلام امير يهودي هو الوزير اسماعيل ابن نقرالة (٢) (المتوفى ١٠٥٥) اما مالقة والمقاطعات المجاورة لها فقد وليها بنو حمود (٣) . الذين تسم الثلاثة الاول منهم عرش قرطبة حتى سنة ١٠٥٧ كما مر معنا . ثم انتقلت مالقة الى ايدي بني زيري ووقعت أخيراً في حوزة المرابطين (٤) . وجلس على عرش طليطلة بنو ذي النون (١٠٣٢ - ٨٥) وهم اسرة بربرية عريقة كانت في اغلب الاحيان تنور عاصية على السلطات وظلت كذلك

(١) المراكشي من ٥٠ - ٥١ .

(٢) صموئيل بن نجديله في العبرانية . ابن عذاري ج ٣ من ٢٦١ ، ٢٦٦ .

(٣) كان الجغرافي الشهير الشريف الادريسي حفيد ادريس الثاني (١٠٤٢ - ٦ ، ١٠٥٣ - ٤) الذي حكم قبل آخر امير منهم .

(٤) ابن عذاري ج ٣ من ٢٦٢ - ٦ ، ابن خلدون ج ١ من ١٦٠ - ٦١ .

حتى قضى عليها القونسو السادس ملك ليون وكاستيل^(١)، وتمتع بنو هود بالحكم في سرقطة من سنة ١٠٣٩ الى ان تغلب عليهم النصاري سنة ١١٤١^(٢). اما اقوى ملوك الطوائف على الاطلاق فبنو عباد الذين اشرفنا اليهم وهم اسرة مثقفة وليت اشبيلية^(٣). وكان لها شأن عظيم.

بنو عباد اصحاب اشبيلية

ارجع بنو عباد (١٠٢٣ - ٩١) نسبهم الى ملوك الحيرة اللخمييين القدماء. اما جد هم الاندلسي فكان قد نزل اسبانية في اهل حص من جيش سورية وذلك بعد الفتح بامد يسير^(٤). وبرزت هذه الدولة الى الوجود بمساعي قاض داهية من هذه العائلة في اشبيلية استعان رجل شديد الشبه بهشام الثاني الخليفة المفقود^(٥). وفي سنة ١٠٤٢ مات القاضي فخلقه ابنه عباد حاجباً للخليفة المزعوم المدعي انه هشام ابن الحكم آخر خلفاء بني امية الاندلسيين. ثم ما لبث ابن عباد ان اعلن للملأ حكمه واتحل لنفسه لقباً فخرياً - المعتضد^(٦). وقضى بذلك على الحكومة الموقفة التي كان ابوه قد اختلقها فكانت مهزلة من المهازل.

المعتضد

كان المعتضد شاعراً وكان من نصراء الأدب وقد جعل للشعراء يوماً يغدوون به عليه فيطارحهم الشعر ويستمع اليهم ويسبق بينهم جوائز ويميز السابق وقد أثر عنه مقطوعات من الشعر فيها طلاوة وجمال وكان فوق ذلك كلفاً بالنساء فاستوسع في اتخاذهن بحيث ذكر انه

(١) الثوري ج ١ ص ٢٨٨ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ؛ ابن عذاري ج ٣ ص ٢٧٦ - ٨٥ ؛ ابن الاثير ج ٩ ص ٢٠٣.

(٢) ابن عذاري ج ٣ ص ٢٢٩ - ٩ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ - ٤ ؛ ابن الاثير ج ٩ ص ٢٠٤.
(٣) راجع اسماء الامراء في هذه الدويلات وتاريخ قيامهم ل Lane - Poole, *Dynasties*, pp. 23-6; Dozy, *Musulmans*, ed. Levi - Provençal, vol. iii, pp. 236-41. de Zambaur, pp. 53 - 7.

(٤) كثيراً ما اشير الى اشبيلية باسم حص ؛ ابن جبير ص ٢٥٨ - ٩.

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٦ ؛ ابن الاثير ج ٩ ص ٢٠١ - ٢ ؛ ابن الخطيب، الامثلة ج ٢ ص ٧٣.

(٦) اسوة بالخليفة العباسي ؛ الثوري ج ١ ص ١٣٢.

كان في حريمه نحو ثمانية امرأة . ولكن المعتمد برأ أباه في مضمار الأدب فقد جعل بلاطه ملقى الرجال وموسم الشعراء بحيث لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من اعيان الشعراء والادباء مثل ما كان يجتمع ببابه (١) . ومن هنا قالوا فيه انه كان اندى ملوك الطوائف واحة وارخبهم ساحة (٢) . ولم يكذب يستب له الأمر حتى انبرى لمنافسيه بني جهور في قرطبة فازال سلطتهم عنها واستاحقها بملكته . على انه شأن الكثيرين من معاصريه الزعماء كان تابعاً لبعض ملوك النصارى فقد اضطر الى مصالحة غارسية ملك جليقية وتادية الفريجية له وكذلك كان موقفه مع الفونس السادس خلف غارسية (٣) .

لقد كان المعتمد كما ذكرنا ادبياً وقد أوتي من سرعة الخاطر وقوة البهاسة والاحساس الشعري ما جعله متميزاً عن غيره من الملوك والامراء في عصره ومن هنا فقد كثرت النوادر الواردة في الكتب العربية في وصف حفلاته وادبه والمجائس التي كان يشاها متذكراً . وقد زعموا انه لم يستوزر وزيراً الا ان يكون ادبياً شاعراً . وكان من جملة وزرائه ابن عمار (٤) الشاعر الكبير . اما احب زوجاته اليه فبنارية بارعة الجمال ادبية طيبة النادرة اسمها اعتماد فقيها حين خرج هو ووزيره ابن عمار الى مرج القضة على ضفة الوادي الكبير وهو مكان بهيج يجتمع فيه الرجال والنساء للترفة . قالوا فيينا المعتمد عشي على ضفة الوادي ذهبت ريح على الماء فزردته فقال المعتمد لابن عمار اجزي :

صنع الريح من الماء زرد

فلما كان ابن عمار وكان على النهر امرأة بنقرية منها فهدرته وقالت :

أي درع لقتال لوجد (٥)

فتعجب ابن عباد بحسن ما أتت به ونظر اليها فاذا هي صورة حسنة ولم تكن ذات

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٤١٢ . قابل فريدة القيع ابن خلدون في مدحه ، فلاحه الغلبان (بولاق ١٢٨٣) ص ٤ - ٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ٤١٢ . قابل ابن الغلبان ، الاشارة ج ٢ ص ٧٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٢ ص ٤١١ : ابن الانبرج ج ١٠ ص ٩٢ .

(٤) المراكشي ص ٧٧ - ٨٠ .

(٥) المغربي (مصر ١٢٩٩) ج ٢ ص ١١٠ - ١١١ . Dozy, *Scriptorum Arabum ocl de* . ١١٠٠ - ١١٠١ .
Abbadids, vol. II (Leyden, 1852), pp. 151 - 2, vol. III (Leyden, 1853), p. 225.

زوج فتزوجها واشتهرت باسم اعتماد الرميكية وأصبحت ملصكة وولدت له اولاده الامراء الذبحاء ويقال انه تلقب بالمتعمد كلقبها لما ملكها (١). وقد كانت كثيرة استجابة لرغباتها واهوائها. من ذلك انها رأت يوماً قطع الثلج تنساقط في قرطبة فتتمنت على المتعمد مثل ذلك فأمر بان تزرع اشجار اللوز في هضاب قرطبة فتزهر في آخر الشتاء فتظهر بيضاء كالثلج. ورأت ذات يوم الناس يتشون في الطين فأشتمت المشي فيه فأمر المتعمد فسحقت الطيوب وذرت في ساحة القصر ثم نصبت الثغرايل وصب فيها ماء الورد على الطيوب وعجنت بالايدي حتى عادت كالطين وخاضته مع جواربها (٢).

ودارت الايام دورتها بالمتعمد وقلب الدهر له ظهر الحزن فذاق من مر العيش في اواخر ايامه مثل ما ذاق من حلوه في اول عهده. فبعد ان كان ملوك النصارى في الشمال متشاغلين بخصوماتهم الداخلية اخذوا الآن يتفاهمون. وتوحدت مملكتا ليون وكاستيل تحت لواء فردناند الاول وولده القونس السادس واشتد الخطر على المسلمين وكان القونس قد أصبح طاغية النصارى في زمانه وخرج طامعاً في بلاد المسلمين الى الجنوب. ثم استولى على جليقية ونافار ونابقي امراء المسلمين مع اندادهم النصارى في ارضوخ له والسعي لاكتساب رضائه. فبرز وساد واشتغل لنفسه لقب « اميراطور » ومثله فعل خلفه القونس السابع الذي زاد على ذلك ايضاً في انه تسمى ملك ابناء الديانتين. وتعاقت الغزوات من الشمال حتى بلغت قدس. وفي غضون ذلك ظهر رودريغو دياز دي بيسار « Rodrigo Diaz de Bivar » الملقب بالسيد « السيد » المبارز مع اتباعه من اهل كاستيل في بلنسية واخذ يوالي الغارات على اراضي بني العباد. واراد المتعمد انهاء الخطر الذي تهدده به القونس السادس والسيد فانكب أكبر خطأ اذ طلب النجدة من يوسف ابن تاشفين (٣) زعيم المرابطين في مراکش ورتبته في الجهاد ونصرة الاسلام. ولما سفه بعض اصحابه رأيه وعارضوه في ذلك أجاب : « اولي ان اكون داعي الجهاد في افريقية من ان اكون داعي الخنازير في كاستيل » (٤).

(١) ابن الخطيب، الاطحة ج ٢ ص ٧٤. اما نسبتها الى مولاها رميكة.

(٢) القرني ج ١ ص ٢٨٧ : Dozy, Scriptorum, vol. II, pp. 152-3.

(٣) انظر صورة الكتاب الذي طلب فيه النجدة في القرني ج ١ ص ٢٧٤.

(٤) القرني ج ٢ ص ٦٧٨ : Dozy, Scriptorum, vol. II, p. 8.

وكان هؤلاء المرابطون قومًا من البربر في عروقهم بعض الدم الزنجي وكان لهم سلطان
يمتد من الجزائر الى بلاد السنغال .

وقدم يوسف بجيشه فلم يبق في سبيله حاجز حتى قطع جنوبي الاندلس فترامى له جمع
القونس عند الزلاقة (١) . بالتقرب من بطليوس فحمل عليه يوسف ومعه جنده وقد بلغوا
نحو عشرين ألفًا فانزل بهم ذلك اليوم (٢٣ تشرين الاول ١٠٨٦) أكبر هزيمة حتى ان
القونس وثلاثمائة من فرسانه لم ينجوا الا بصعوبة وقد تركوا وراءهم من الرؤوس ما كانت
كافيًا لبناء مثذنة (٢) . وارسل زعيم البربر نحو اربعين ألف رأس الى المدونة علامة للظفر
وسر المسلمون بهذا النصر وظهروا التيمّن وسرت في البلاد الاندلسية روح حماسة جديدة .
وتقدم شعراء اشبيلية بمدائحهم لابن تاشفين ولكنه لم يفهم تلك الاشعار ورجع الى افريقية
حسب عهده السابق . غير انه لم تحض فترة طويلة حتى عاد زعيم المرابطين هذا هو واتباعه
وكان هؤلاء قد سثموا البادية وقطعها وناقت انفسهم لافطاب المدينة الاندلسية التي تدوقوها
من قبل فزلزلوا الاندلس مرة ثانية ولكنهم نزلوها هذه المرة فاتحين لا متجدين . وفي تشرين
الثاني من سنة ١٠٩٠ دخل يوسف غرناطة وفي السنة التالية استولى على اشبيلية وسواها من
امهات المدن . وهكذا دوخ كل اسبانية الاندلسية خلا طليطلة التي ظلت في حوزة النصارى
وسرقطة التي اعطى بنو هود حق استبقائها ونفي المعتمد الى مراكش فاعتقل في اغصان
وكيل بالحديد ولم يرسل عنها حتى المات . وكانت معه زوجته اعتماد وبنته فسكن يفران
للناس بالاجرة (٣) . ورأى هذا العاهل المخلوع اهل البلد في بعض الايام خارجين الى المسجد
للاستسقاء فهرته شاعرته القديمة فانشد مرثجاء :

(١) تعرف بـ «سكر التباس» (Sacralias) عند الاسبان . المراكشي ص ٩٣-٩٤ : ابن خلدون ج ٦
ص ١١٦-١١٧ : ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٥ : ابن الاثير ج ١ ص ١٠١-١٠٢ : ابن ابي زرع : روض القرطاس
ج ١ ص ٩٣ وما يلي .

(٢) ابن الخطيب، المحلى الموشية في ذكر الاخبار المراكشية (تونس ١٣٢٩) ص ٤٣ يقدر عدد النصارى
بـ ٣٠٠ ألف .

(٣) ابن خلكان ، ج ٢ ص ١١٩ : ابن خلدون ص ٤٣٥ : ابن الخطيب ، الاطعمة ج ٢ ص ٨٣ . Dozy ,
Scriptorium, vol. i, pp. 63 - 4, vol. ii, p. 151 .

خرجوا ليستقوا فقلت لهم دمي يتوب لكم عن الانواء
قالوا حقيقاً في دموعك مقنع لـصـكنها مـزوجة بـدماء (١)
وتوفي المعتمد آخر بني عباد في اغات سنة ١٠٩٥. وبموته استتبعت للبربر السيادة في
اسبانية.

المرابطون

كانت حركة المرابطين في الاصل اخوية دينية حربية انشأها في القرن الحادي عشر
احد الانقياء في رباط (ومنها اسمهم) ومعناها صومعة مسلحة وهي بناحية من جزيرة باسفل
السنغال. والاول المنتسبين الى الاخوية انما كانوا بالاكثر من لتونة وهي فخذ من قبيلة
صنهاجة التي عاش اباؤها بدواً في فلولت الصحراء وكانوا كاحفادهم الطوارق الضاربين
في جنوبي الجزائر الى هذا اليوم يضيفون اللثام (٢). فاصبح اللثام سنة وسمي المرابطون
ملثمين. وتآلف جيشهم الاول من زهاء الف مجاهد فاجبروا من حولهم قبيلة قبيلة على
اعتناق الاسلام وكانت من الداخين قبائل زنجية. فلم تمر الا بضع سنوات حتى اصبح
المرابطون اسبداً لافريقيا الشمالية الغربية ثم لاسبانية (٣) وفي سيرتهم مثال رائع لما استطاع
الانبياء به في الاسلام اذا اقترنت صولة السيف بحمية الدين (٤).

وبني يوسف ابن تاشفين (١٠٦١ - ١١٠٦) مشيد اميراطورية المرابطين مدبنة مراکش
سنة ١٠٦٢ فلم تزل دار مملكة المرابطين والموحدين الى انقراض الدولة الموحدة (٥). اما في
اسبانية فكانت اشيلية القصبة لا قرطبة. وتسمى ملوك المرابطين بامراء المسلمين (٦).
واستحوذوا على السلطة الزمنية مع اعترافهم بخلافة امير المؤمنين في بغداد (٧). وهكذا فقد

(١) Dozy, Scriptorum, vol. i, p. 381.

(٢) راجع ابن الانبرج ج ٩ ص ٤٢٨ - ٩. ابن الخطيب، الخلل ص ١٠.

(٣) ان قبيلة الدليم البربرية في مراکش تنسب الى المرابطين.

(٤) ابن أبي زرع ج ١ ص ٧٥ - ٧٨ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ - ٢ : ابن الاثير ج ٩ ص ٢٥ - ٢٧.

(٥) ابن أبي زرع ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤.

(٦) ابن أبي زرع ج ١ ص ٨٨ - ٩٦ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨.

(٧) المراكشي ص ٦٤.

تجدد الدعاة بالخلافة العباسية على منابر الاندلس والمغرب بعد انقطاعه منذ زمن عبد الرحمن الداخل . وثبت عز المرابطين في الشمال الغربي من افرىقية وفي جنوبي اسبانية مدة تزيد على نصف القرن . ولأول مرة في التاريخ نشط قوم من البربر فلعبوا دوراً خطيراً على مسرح العالم .

النقود

ضرب المرابطون السكة وجددوها ونقشوا في دينارها : لا اله الا الله محمد رسول الله . وتحت ذلك : امير المسلمين فلان ابن فلان . وكشوا في ظهرها اسم امير المؤمنين الخليفة العباسي . وقيل الفونس الثامن ملك كاستيل (١١٥٨-١٢١٤) طراز هذه النقود فاحتفظ بالكتابة العربية الا انه طبق الانفذ على العقائد النصرانية فأورد نقبه هكذا : امير الفتوة بن . واسم بابا رومية جاء هكذا : امام البيعة المسيحية . وقد صدرت السكة باسم الآب والابن والروح القدس اله واحد ، بدل الشهادة ، كذلك استعملت الآية القائلة : « فمن آمن واعتمد يخلص » عوضاً عن الآية القائلة : « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلين يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (١) .

المظطرباد

وفي زمن المرابطين وهم حديثو عهد بالاسلام وحاملو التراث البربري الذي لم تكن جذوته قد ماتت فيهم بعد ، ظهرت بوادر الحمية الدينية بنادي بها غيسارى الفقهاء ، فأدت في مطلع القرن الثاني عشر الى ازال النعمة بالنصارى واليهود والمتساهلين من المسلمين ايضاً . وفي ولاية علي الورع (١١٠٦-١١٣٠) ابن يوسف وخلفه استحكم تقبيح علم الكلام فما أن دخلت كتب ابي حامد الغزالي الى المغرب حتى أمر امير المسلمين باحراقها في قرطبة وسواها من المدن (٢) لما فيها من اقوال ظن البعض انها تنقص الفقهاء ومنهم اتساع مذهب مالك وكان المرابطون يوالونه (٣) . الا ان الغزالي كان قد تقدم اعلام المشرق الذين أفتوا بالموافقة على رأي فقهاء الاندلس في ان يوسف ابن تاشفين له الحق في خلع ملوك الطوائف والتخلي عنهم وعن اليهود التي قطعها لهم وان انزع الامر من الدينهم ليس حقاً بل واجباً يتزب

(١) البقرة ٧٩ .

(٢) المراكشي ص ١٢٣ : الغزالي ، اعيان ج ١ ص ٢٨-٢٩ .

(٣) الغزالي ، اعيان ج ١ ص ٢٢-٢٣ .

عليه (١). وفي لوئدينا البلدة اليهودية في رأي الادريسي (٢) كان السكان أغنى سكان العالم الاسلامي فطالبهم مؤسس امارة المرابطين باسبانية ان يؤدوا ما يسد العجز المالي الذي اعتور خزانة الدولة . وكان الامويون قد رفعوا مقام اليهود الاسبانين فتحسنت حالهم عما كانت عليه في دور القوط وازدادوا عدداً . وفي خلافة عبد الرحمان الثالث وابنه الحكم استوزر حسداي بن شبروط فسهل لكثير من يهود المشرق سبيل الزواج الى الاندلس وبرزت قرطبة مركزاً لدراسة النفود التي اندثرت بافتتاح عصر الثقافة اليهودية في الاندلس (٣) . وكان يهود اسبانية يحسنون لغة العرب ويأخذون بآدابهم في الملابس وعاداتهم الاجتماعية .

المستعربون

اصبح المستعربون في هذا العصر عنصراً متميزاً من الشعب الاسباني بحسن لغة المسلمين القاطنين ويحري على عاداتهم الا انه احتفظ بدينه المسيحي . وبازدياد عدد هذا العنصر اصبح بنوه عرصة نفوذ مرهقة . وسكن النصارى المستعربون المدن الكبيرة في شوارع خاصة بهم . وقد جمع لهم في عصر الامويين بالحكمة امام قضاة من بني جنسهم (٤) ولم يرتدوا الملابس التي تميزهم عن سائر طبقات الشعب . ويقلب ان يكون الواحد منهم اسباني : عربي يشتهر به ولا يقي او اسباني يعرف به رسماً . وبلغ بهم استعرايبهم درجة اخذوا معها يختنون اولادهم ويطبقون نظام الحريم في بيوتهم وكان اكثر هؤلاء المستعربين يحسنون لغتين : العربية ولغتهم الاصلية لغة الرومانس المأخوذة من اللاتينية العامية ، ومن هذه نشأت اللغة الاسبانية المعروفة . وفي المدن الكبرى كطليطلة بقيت اللغة العربية يعول عليها القوم للكتابة ويستعملونها في القضاء والتجارة وهاهنا قرنين بعد رجوع النصارى اقام على يد الفونس السادس سنة ١٠٨٥ (٥) . وسلك الفونسو على غرار بعض اسلافه فكتب بالعربية على النفود التي سكبها . وكانت

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ .

(٢) صفة القرب ١ نصر دوزي ودي غويه (ليدن ١٨٦٦) ص ٢٠٥ .

(٣) ابن ابي اسبيبة ج ٢ ص ٥٠ .

(٤) واسمى المرابطين هؤلاء بواغها موطئان يسمى واحداهما قوس بالعربية (comes في اللاتينية و conde في الاسبانية) والآخر هو قاضي النصارى .

(٥) راجع بعض كتاباتهم في Ángel Gonzalez Palencia, Los Mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII, 4 vol. (Madrid 1926-30) .

بطرس الأول (المتوفى ١١٠٤) من ملوك الاراغون لا يحسن الا العربية كتابة . واستعمل المستعربون الحروف العربية لكتابة اللاتينية ايضاً . والظاهر ان التوراة نقلت الى العربية بعد الفتح الاسلامي بامد يسير . وسنة ٩٤٦ ترجم اسحاق فلاسكز القرطبي انجيل لوقا من اللاتينية ولعله ترجم الاناجيل الثلاثة الاخرى ايضاً (١) .

وتحقيقاً لفتوى الفقهاء امر يوسف سنة ١٠٩٩ بهدم الكنيسة القديمة البنيانية التي كانت قد شيدت في غرناطة في عصر القوط الغربيين ثم آلت الى المستعربين . وفي سنة ١١٢٦ اعمل السيف في رقاب هؤلاء الغرناطيين وفي سائرهم الى مراكش وسبب ذلك اتصالهم بالعاهل النصراني في الشمال . ثم جاء اجلاء المستعربين الثاني بعد احدى عشرة سنة فلم يبق منهم في الاندلس الا القليل .

اما الفارق الجنسي بين المستعربين والمسلمين في المدن العامرة فلم يكن من السهل تمييزه في هذا العصر . وكان العرب الخالص في جيش القاطنين الاول قبلي العدد كما لاحظنا وكذلك نسبتهم بين المستعربين بعدئذ وقد كانوا بالاكثري مراكز القيادة والمناصب السامية . ثم ان عدد النساء الموالي رافقن الجيش والمستعربين الاولين انما كان صغيراً بحكم انقطع . ثم اجتاحت الامراض والحروب هذه الفئات القائمة والمستعمرة فلم يأت الجيل الرابع حتى اصبح الدم العربي ضعيفاً ضاعت مزايده باختلاط العرب واهل البلاد وتزاوجهم بالنساء الوطنيات . ثم سررت عادة التسري واقتناء العبيد والاسرى فساعدت على تنعيم عملية المزج حتماً حدث في البلدان الاخرى المغلوبة . وقد اظهرت ابحاث العلامة ريبيرا (٢) . ان المسلمين انفسهم المعروفين باسم « مور » عدد القرنجة غلب فيهم الدم الاسباني . ومما يراهيه هذا الاسباني الحديث ان عروق الخليقة هشام الثاني ثالث خلفاء بني امية في الاندلس لم تكن تحتوي فيما يظن اكثر من جزء من الف من الدم العربي .

(١) Georg Graf, *Die Christlich - arabische Literatur bis zur frankischen Zeit* (Freiburg in Breisgau, 1906), 27.

(٢) Julian Ribera y Terragò, *Insertaciones y apuseculos*, (Madrid, 1928), vol. i (٢ pp. 12-35, 109-12).

السيد الكنييطور

وفي أول حقبة المرابطين نشأ أروع المستعربين سيرة وألمع الأبطال في مضمار القروسية الإسبانية رودريك دياز دي بيفار المعروف باسم « السيد » فقام بمآثره الحربية ، ورودريك هذا متحدر من أسرة نبيلة كاستيلية وقد انخرط لأول عهده في خدمة القونسو السادس الذي أقصاه (١٠٨١) عن بلاد كاستيل فجعل « السيد » الحرب دأبه وانقلب فارساً ينفار على مصلحة هذا الحرب قارة ومصلحة ذلك أخرى، يقارع المسلمين اليوم وينقلب على أبنائه دينه غداً حسبما تقوده الأحوال وهو في الأعمال التي انتهجها مسلم مثله نصراني لا يستطيع الباحث التحقق من شخصيته . أما نعتة بالسيد الكنييطور (١) فإنه أحرزه في خدمة بني هود المسلمين بمرقطة حيث نال صبتاً في المعارك . وأعلى ما وصلت إليه شجاعة السيد المبارز اقتحامه بلنسية سنة ١٠٩٤ . واسم « السيد » خالده في القصص خلوداً يجعله بطل إسبانية القومي وعنوان القروسية وحاميها من الخطر الاسلامي . وقد نسجت الاناشيد الإسبانية حول اسمه حالة القضية المقدسة مما حدا بفياض اشاني (المتوفى ١٥٩٨) أن يقترح على البابا سياسته قديماً . أما الملحمة المعروفة باسم « الكنتار دي ميوسيد » التي صيغت حول بطولة السيد في منتصف القرن الثاني عشر فهي من أمتع الأشعار الإسبانية وأقدمها وقد تركت أثراً عميقاً في الفكر الإسباني مدى الأجيال اللاحقة وساعدت في نشوء اللغة الإسبانية الحديثة وفي ربط الموصل الأمة الناشئة .

سقوط المرابطين

لم تعيش دولة المرابطين الاندلسية (١٠٩٠-١١٤٧) (٢) أكثر مما انظر لها من العمر .

(١) نقاها لفظه « المبارز » العربية ، ابن سلام الفخيرة في Decy, Recherches, vol. II, pp. ٧, ١٨ .
(٢) انظر جازر في ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠٦ (الملحق) . قال القرني ج ٢ ص ٧٤٤ .

(١) يوسف (١٠٩٠-١١٠٦)

(٢) عيسى (١١٠٦-١١٣٠)

(٣) اسحاق (١١٤٦-١١٥٠)

(٤) تاشفين (١١٤٣-١١٤٦)
(٥) إبراهيم (١١٤٦)

فقد سارت سراعاً على سنة الادوار التي سارت فيها الممالك قبلها بأسية وأفريقية : دور نشاط حربي يتلوه تكاسل وفوضى يؤديان الى التضعف والسقوط . وكانت ابناؤها من البربر قد ألفوا شغف الهداوة فما ان تم انتقالهم الى ربوع القربى في مراکش والاندلس حتى سادت عليهم ردائل المدنية فاعتدوهم الرهن . وكانت دخولهم الاندلس في زمن طال فيه اقلاع العرب عن حب الحرب والشوق الى الفتح واشتد تعلقهم بأهذاب اللذائذ الفكرية . وبهذا نسى للفاطميين الافريقيين سبيل استمرار البلاد وهؤلاء بدورهم اصابهم الدمار اذ احتكوا بمدينة راقية لم يكن عندهم الاستعداد اللازم لاكتساب مقوماتها فاستهل ابناء قريتهم الموحدون نزع شوكتهم . وما زالت اسبانية طوال القرن الثاني عشر والشاطر الاول من القرن الثالث عشر تحت حكم هاتين الدولتين من البربر فقد تعاقبتا الامر فيها وكانت عاصمتهما مراکش .

الموجودة

ان دولة الموحدين مثل دولة المرابطين هي في الاصل حركة سياسية دينية قام بها رجل من قبيلة مصمودة (١) البربرية اسمه محمد بن تومرت (نحو ١٠٧٨ - نحو ١١٣٠) اتخذ لقب « المودي » (٢) ونادى بنفسه نبياً جاء لحياء السنة الاسلامية الصحيحة فدعا ابناء قبيلته والقبائل الاخرى الجائعة من اهالي جبال الاطلس بمراكش الى مذهب التوحيد انتصاراً لعقائده السلف واحتجاجاً على التماهي في نسبة الصفات الى الله الامر الشائع بين جماعات اسلامية كثيرة آنذاك . وهذا سبب تسمية اتباعه بالموحدين . وكان ابن تومرت رجلاً ربعة اسمر عظيم الهامة فظيع الهيئة احترق ابوه اسراج القناديل بالساجد فشبه محمد هذا محباً للعلم ذاتك ورباط يتكرر آلات الملاهي واواني الخمر وسواها من مظاهر الانحطاط . ولقي في فاس يوماً وهو شاب اخت علي ابن يوسف سلطان المرابطين حاضرة قناعها على عادة قومها المسلمين في زي نسائهم فوئحها فدخلت على اخيها بأكية لما نالها من تفرج (٣) .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ . ابن الاثير ج ١٠ ص ٤٠٠ . قابل المراكشي ص ١٢٨ : ابن ابي زرع ج ١ ص ١١٠ : ابن خلدون ج ٢ ص ٤٢٦ .

(٢) ابن الخطيب ، الحلل ص ٧٨ . راجع كتاب محمد ابن تومرت : نشر غولدرير (الجزائر) ١٩٠٣ ص ٣٠٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ : قابل ابن خلدون ج ٢ ص ٤٣١ .

مؤسس دولة المرابطين

ولما قضى ابن تومرت عام ١١٣٠ خلقه في الولاية صديقه وقائد جيوشه عبد المؤمن ابن علي وابوه خراف من قبيلة زناتة (١). وهو حقاً مؤسس دولة الموحدين والخليفة الاول لاعظم امبراطورية شاهدها مراکش ولم تر افريقية اوسع منها. واعتقد الموحدون ان جماعتهم وحدها دون سواها تضم المؤمنين الحقيقيين فخرجوا بزعماء عبد المؤمن الى تدوين الرجاء مراکش والاراضي المتاخمة لها. وسنة ١١٤٤-١١٤٦ تغلبوا على المرابطين بالقرب من تلمسان ثم استولوا عليها وعلى فاس وسبتة وطنجة وانجات. وبعد حصار دام احد عشر شهراً دخل عبد المؤمن مدينة مراکش سنة ١١٤٦-١١٤٧ وانهى ملك المرابطين (٢) فكان آخر ملوكهم اسحاق ابن علي حفيد مؤسس دولتهم وكان شيوخ المسلمين يديرون شؤون دولته لصغر سنه فلم يحجم خليفة الموحدين عن ضرب عنقه بالرغم من بكانه وانتحابه (٣). ولما فتح عبد المؤمن مراکش اقام بها واستوطنها فاستقر ملكه فيها واصبحت عاصمة الموحدين. وأمر عبد المؤمن سنة ١١٤٥ بالغارة على اسبانية وقد عمتهما القوضى السياسية واختل أمنها وتماثلت شكوى سكانها فاستطاع جيشه تدوين كافة الاندلس الاسلامي في خلال خمس سنين. ولم يبق في ايدي ممثلي دولة المرابطين المقرضة الا الجزائر الشرقية (البلبار) وذلك لسنين قليلة فقط.

وبعدما دانت لعبد المؤمن مراکش واسبانية سائر جيوشه سنة ١١٥٢ الى الجزائر وسنة ١١٥٨ الى تونس وسنة ١١٦٠ الى طرابلس. وهكذا فقد توحد لأول مرة في تاريخ الاسلام الساحل الافريقي قاطبة من المحيط الاطلسي الى حدود مصر مع الاندلس تحت صولجان واحد. اما دولة المرابطين فما كانت تشمل خارج اسبانية الا مراکش وجزءاً من الجزائر. وخطب من على المنابر في هذه المملكة الواسعة المهدي او خليفته عوضاً عن الخليفة العباسي حسب

(١) ابن الي زرع ج ١ ص ١١٩.

(٢) الراكشي ص ١٤٥ - ٩٦ ابن خلدان ج ١ ص ٥٥٧ ابن أبي دينار، المؤنس له انجسار افريقية وتونس (تونس، ١٢٨٦) ص ١٢٠.

(٣) ابن الانبر ج ١٠ ص ٤١٢ - ١٣.

المألوف سابقاً (١) .

المنصور .

وبعد ولاية طويلة حافلة بالإنجاز توفي عبد المؤمن سنة ١١٦٣ . ومن أعظم خلفائه وابعدهم صيته حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور (١١٨٤ - ٩٩) . وكانت أمه شان كثيرات من أمهات أمراء البربر أم ولد رومية (٢) . وهو الذي استنفره صلاح الدين



وارسل الى بلاطه وفداً يرأسه رسول من اقارب اسامة ابن منقذ ومعه هدايا ثمينة يستجده على الفرنج الواصلين الى الديار المصرية وساحل الشام . ولما كان صلاح الدين يقر بخلافة العباسيين فرسوله لم يخاطب ابا يوسف بامير المؤمنين بل دعاه امير المسلمين فعرّ ذلك على ابي يوسف المنصور ولم يجبه الى ما طلب ويقال انه جهز له بعد ذلك اسطولاً من مائة وثمانين قطعة لمنع

(١) انظر احدى خطب المؤرخين في المراكشي ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) المراكشي ص ١٨٩ : ابن ابي زرع ج ١ ص ١٤٢ : ابن ابي دينار ص ١١٦ - ١١٧ .

النصارى من شواطئ الشام (١).

وتعد الابنية الباقية مما صنع المنصور في مقدمة الآثار من نوعها في مراکش وإسبانية .
ومنها البرج المعروف باسم الـ « جردا » الذي بناه عقب انتقاله الى اشبيلية واتخاذها إياها
عاصمة في سنة ١١٧٠ (٢) . وكانت الجردا ملحقة بالمسجد الجامع الذي بوسر في بنائه سنة
١١٧٢ وانهي سنة ١١٩٥ وتقوم على اطلاله اليوم كاتدرائية . وفي مراکش بنى المنصور
مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الاسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم واتقاف
البناء (٣) . وبنى بمدينة مراکش بيارستانا قال المراكشي فيه « ما اظن ان في
الدنيا مثله » (٤) .

واجل ما اهتم به خلفاء الموحدين في اسبانية مواصلة الجهاد فيها ولكنهم لم يفلحوا في ذلك
كله اذ اصابهم انكسار فظيع في موقعة لاس نافاس دي تولوس سنة ١٢١٢ ادت الى
إخراجهم عن شبه جزيرة الاندلس . وان هذه المعركة التي سماها العرب « العقاب » (اي
القتل) جرت على بعد سبعين ميلاً من قرطبة . وكانت قوات النصارى تتضمن جيش الاراغون
وعليه ملكها وجيش نافار بملكها وجيش البرتغال المؤلف من فرقة من الهيكانيين وسواهم من
الفرسان . وعلى هذه الوحدات كلها قام الفونسو الثامن ملك كاستيل اميراً وفي جنوده بعض المحاربين
الصليبيين الفرنسيين . اما جيش المسلمين فاستندت قيادته للخليفة محمد الناصر (١١٩٩-١٢١٤)
ابن المنصور . ولم ينج من جنود العرب الباقية « ستمائة الف » الا الف واحد (٥) . ولقد فر
الناصر الى مراکش حيث مات بعد سنتين فاصبحت الاندلس الاسلامية اقمة سائغة لفاتحها
الجدد وتقاسمها الامراء النصارى وصغار الامراء المسلمين . ومن هؤلاء الاخيرة بنو نصر في
غرناطة الذين تالفت منهم اقوى جماعة احييت معالم السلاطة الاسلامية لآخر مرة في الاندلس .

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٨١ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٦ .

(٢) المغربي ج ٢ ص ٦٩٣ .

(٣) ابن خلدون ج ٣ ص ٣٧٩ .

(٤) ص ٢٠٩ انظر وصف ابنته الاخرى في ابن ابي زرع ج ٩ ص ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ - ٢ .

(٥) المغربي ج ٢ ص ٦٩٦ . قابل المراكشي ص ٢٢٦ ابن ابي زرع ج ٩ ص ١٤٩ .

اما في مراکش فقد دام حكم خلفاء الناصر وهم تسعة كلهم من ذرية عبد المؤمن (١) حتى سقوط عاصمتهم مراکش في سنة ١٢٦٩ بيد بني مرين وكان هؤلاء قبيلة شبه بدوية من البربر متفرعة عن الزناتة (٢).

بنو نصر

كان محمد بن يوسف بن نصر مؤسس دولة بني نصر (١٢٣٢ - ١٤٩٣) وقد ارجع هؤلاء اصلهم الى قبيلة الخزرج القوية واصلها من المدينة وكان يعرف محمد بن الاحمر (٣) ومن هنا تسمية دولتهم بدولة بني الاحمر. وقد عرض ابن خلدون (٤) الذي نزل غرناطة رداً من الزمن واتصل ببلاط بني الاحمر لسيرة محمد هذا وذكر اخباره بشيء من التفصيل. وكان بعد انقراض ملك الموحدين حين كانت كاستيل تدس بين هذا الامير العربي وذلك وتطش بكل منهما منفرداً أن عقد محمد حلفاً مع النصارى وتوفى في انشاء ولاية في غرناطة وجوارها اعادت الى حد معلوم ايجاد اشبيلية الماضية ونشطت الى حماية الاسلام مدة القرنين والنصف اللاحقين فذاذت عنه ودافعت عن حوضه امام هجمات السلطة النصرانية الناشئة.

واتخذ محمد (١٢٣٢ - ٧٣) لقب الغالب وجعل غرناطة مقر حكومته. وادى الطاعة والجزية لكاستيل ومثله فعل خلفاؤه. وحسب العرب غرناطة مدينة لا تضاهيها في اتساع عمارتها وطيب قرايتها مدينة اخرى في الاندلس (٥) وشبهوها بدمشق فنزلها كثيرون من اجزاء الشام واليهود (٦).

(١) راجع وانهم في التراكيب تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس، ١٢٨٩) ٤
Lane-Poole, *Dynasties*, pp. 47-8, de Zambaur, pp. 73, 74.

(٢) ابن ابي زرع ج ١ ص ١٧٤ - ١٨٤ ٤ ٥.

(٣) طرفة بصرته وشعره في المرجع.

(٤) ج ٤ ص ١٧٠ - ٧٢. انظر ايضاً ابن الخطيب، المسحة ص ٣٠ وما يلي.

(٥) قابل ابن الخطيب، الاحاطة ج ١ ص ١٣.

(٦) المغربي ج ١ ص ١٠٩ - ٧٢١ ٤، قابل ابن جبر ص ١٦ - ١٧.

وشبه مرجها - الفيكا - الواقع في بسط تخترقه الجداول والأنهار وتزاحم فيه البسانين والجنات بغوطة الشام لانفاف دوحه وكثرة اعشابه (١). واشتملت غرناطة في نهاية العصر النصري على ما يناهز نصف المليون من السكان ضمن اسوارها. وقد ابقى لنا لسان الدين ابن الخطيب (المتوفى ١٣٧٤) بطل المقرئ والوزير في بلاط بني نصر والمؤرخ الادبي لدولتهم عدداً من الفصول في وصف ملوك غرناطة وعلماؤها فيها حقائق هامة عن امور العاصمة.

الحراء

وعلى هضبة مرتفعة في الطرف الجنوبي الشرقي من هذه المدينة الجميلة بني الغالب على انقاض قلعة اموية سابقة داره الشهيرة في الخافقين المعروفة بالحراء لحره لون الحجارة الستوق التي بنيت منها لا للقب بانيتها حسبما ظن بعضهم. ثم قام ثلاثة من خلفاء الغالب فوسعوها وزادوا في زخرفتها حتى صارت الحراء من آيات الهندسة الفنية في اسبانية. ولا تزال الحراء وهي تشرف على المرج العظيم اشرف الاكروبوليس على اثينا تبهر عيون الناظرين بما فيها من بدائع الزخرف والافايز ذات النقوش العربية وثقن الزايرين. فيها اقام بنو نصر بلاطهم الذي احيى لوقت ما مجد الاندلس الاسلامي الذي عرف زمن الامويين وبني عباد. ولقد شملوا العلوم والفنون برعايتهم فام بلاطهم علماء كثيرون لا سيما من شمال افريقية. اما تشجيعهم التجارة فتناول بالاخس تجارة الحرير التي ربطتهم بإيطاليا وجعلت غرناطة اغنى مدن اسبانية. وعلى دورهم اصبحت العاصمة ملجأ للمسلمين الفارين من فتكات النصاري كما اصبحت ايضاً وريثة قرطبة وخليفتها في رعاية الفن والعلم. على ان هذه الايام لم تسكن الا الخيوط الأخيرة من شعاع شمس الاندلس الغاربة.

ايام غرناطة الأخيرة

بدأ استرجاع النصاري للاندلس منذ سقوط الخلافة الاموية في القرن الحادي عشر - والواقع ان المؤرخين الاسبانيين يحسبون وقعة كوفادونغا سنة ٧١٨ التي صد فيها الزعيم

(١) ابن الخطيب، المعجم، الجزء ١٣.

الاشتوري بالأمر تقدم المسلمين بدء عصر الاسترجاع (دكونكستا). ولو تمكن المسلمون في القرن الثامن من القضاء على آخر بقايا السلطة النصرانية في جبال الشمال لسكانت قصة اسبانية التالية غير ما هي. وليس ينكر انه قد عاقت عملية الاسترجاع في اول الامر امور اهمها التفاؤل المتواصل بين زعماء الشمال والسكن التآزر ما لبث ان حل محل التنافر اذ توحدت كاستيل وليون سنة ١٢٣٠ ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تم استرجاع البسلاط بأسرها واصبح امراً مقصياً باستثناء غرناطة التي بقيت بأيدي المسلمين. فقد سقطت طابطة منذ سنة ١٠٨٥ وقرطبة في ١٢٣٦ وإشبيلية في ١٢٤٨.

واستهدفت الأندلس بعد منتصف القرن الثالث عشر لعمليتين: اولاهما تنصير اسبانية والثانية توحيدها. وكان تنصيرها يختلف عن استرجاعها وتوحيدها. فالقسم الوحيد من شبه جزيرة ايبيريا الذي تأصلت فيه جذور الاسلام كان ذلك الذي زهت فيه الحضارة السامية القرطاجنية من قبل. ومثل ذلك ينطبق على صقلية. وهي حقيقة على شيء من الاهمية. فقد كان الخط الفاصل بين الاسلام والنصرانية بوجه عام يطابق الحدود القديمة الفاصلة بين المدنية القينيقية والمدنية الغربية. ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان كثيرون من المسلمين قد انصروا تحت لواء النصرانية اما عنوة او صلحاً ولكنهم ظلوا متمسكين بشرائعهم ودينهم. وقد اطلق على امثال هؤلاء من المسلمين اسم المدجنين « Mudéjars » (مدخار بالاسبانية) وكان كثير منهم قد نكحوا العربيه واكتسبوا لغة الرومانس الاسبانية واخذوا ينخرطون في سلك الجماعة المسيحية ويذبون فيها.

لم يكن توحيد اسبانية النهائي سريعاً ولكنه كان اكيداً. وكانت البلدان النصرانية كلها آنذا تتألف من مملكتي كاستيل والاراغون. وجاء زواج فردناند ملك الاراغون بايزابيل ملكة كاستيل في سنة ١٤٦٩ آخر حلقة في سلسلة التوحيد النهائي الدائم. وكان اندازاً للسلطة الاسلامية في اسبانية بالدمار. ولم يكن في مكتبة السلاطين المعروفين ببني نصر^(١) ان يصمدوا لهذا الخطر المبين. وقد تورط المتأخرون منهم في صفات عائلية زادتهم ضعفاً على ضعف. واذا

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٢.

نظر الباحث الى سلاطينهم الواحد والعشرين (١) الذين ولوا الامر بين سنة ١٢٣٢ و ١٤٩٢ وجد ستة منهم يلوون الامر مرتين وواحداً هو محمد الثاني المتمسك يرتقي العرش ثلاثاً (١٤١٧ - ١٤٢٩، ٢٧ - ١٤٣٢، ٣٢ - ٤٤) بحيث جاء معدل ولاية الواحد منهم وهم ثمانية وعشرون نحو تسع سنين . وما عجل في افول نجمهم تهور السلطان التاسع عشر علي ابي الحسن (١٤٦١ - ١٤٨٣، ٨٢ - ٥) الذي لم يكثف بالاحكام عن قادية الضريبة المعتادة بل قاذته اهوازاً الى شن الفارة على منطلق كاستيل . فاقص منه فردناند في انت فاجأه في سنة ١٤٨٣ في حملة استولت على الحجة (٢) الواقعة على منبج . جبلها «السيارادي الهاماه» وكانت الحجة تحمي مدخل غرناطة في ناحية الجنوب الغربي . وعند هذا خرج محمد ابو عبد الله (والاسبان يعرفون اسمه الى يومنا هذا) علي ابيه ابي الحسن بتحرير من امه عائشة وكانت مراحل الحسد تغلي في قلب عائشة لان زوجها السلطان آثر ابناء جارية له نصرانية (٣) على ابنتها واستطاع ابو عبد الله ان يستولي في السنة نفسها على الحمراء بمؤازرة حامية غرناطة واصبح سيد غرناطة . وفي السنة التالية (١٤٨٣) تهرأ ابو عبد الله وهو الحادي عشر من امراء هذه الدولة على مهاجمة مدينة لوسنا في كاستيل فقه فيها واخذ فردناند اسيراً واستعاد ابو الحسن اذ ذاك عرش غرناطة وحكمها حتى سنة ١٤٨٥ حين اعتزل الملك وبايع اخاه محمداً الثاني عشر وهو اقدر منه ويلقب بالزغل (اي الشجاع) وكان حاكم مالقة (٤) . وعول فردناند وايزابل

(١) راجع بيانهم في Lane-Poole, *Dynasties*, pp. 28-9; de Zambaur, pp. 58-9.

(٢) اي العين ذات الماء الحار وقد ذكرها المغربي ج ٢ ص ٨٠١ باسم الحمامة .

(٣) رومية في المغربي ج ٢ ص ٨٠٣ .

(٤) جدول نسب بني نصر :

(١٨) سعد الشمين (١٤٤٥ - ١٤٥٣، ٦ - ٦١)

(٢٠) محمد الثاني عشر الزغل
(٦ - ١٤٨٥)

(١٩) علي ابي الحسن
(٥ - ١٤٨٣، ٨٢ - ١٤٦١)

(٢١) محمد الحادي عشر ابو عبد الله
(٩٢ - ١٤٨٦، ٣ - ١٤٨٢)

على استغلال أسيرهما أبي عبدالله واستعماله أداة للنكبة بالملكة الإسلامية فزوداه بالمال والرجال من كاستيل واخرجاه على عدوها فاحتل سنة ١٤٨٦ جانباً من عاصمة عمه وأورط غرناطة التاسعة مرة أخرى في حرب أهلية دامية فعدت مقرأ السلطانين في آن واحد وساحة نزاع . أما قصة القضاء على أسرة بني السراج الوطنية النبيلة والوقعة بهم في الحراء بأمر أبي عبدالله فاتها تنسب إلى هذه الحقبة وهي من الأساطير غير التاريخية .

ولم يزل جيش كاستيل يتقدم حتى وقعت في يده مدن المسلمين واحدة واحدة . وفي السنة اللاحقة دوخت مالقة وبيع الكثير من أهلها للذل والعبودية . ولما أحس السلطان الزغل بدنو الأجل وأدرك أنه لا يستطيع الوقوف في وجه فردناند بادريالجواز لير العدو مستنفراً من في أفريقيا من أمراء الإسلام وهم مشغولون عنه بحرب أهلية . وأخيراً هجر الفضال واستقر في تلمسان (١) ف قضى فيها بقية حياته يأخذ من أوقاف الفقراء ويلبس ثوباً خلقاً . ولم يبق سوى غرناطة نفسها بيد المسلمين .

وما انقضى على هرب الزغل زمن يسير حتى جاء النصارى يتهددون بصيغتهم سلطان غرناطة أبا عبدالله ويسأونه التسليم (١٤٩٠) فآبى . وفي ربيع السنة التالية قدم فردناند بعشرة آلاف فارس يريد الاستيلاء على غرناطة فخرج إلى مرجها وأقصد الزرع وهدم القرى وأمر ببناء موقع بالسور والحفير وأحكم بناءه وانصرفت همه إلى الحصار وصار يضيق على غرناطة وهي آخر معاقل الإسلام في إسبانية . واشتد الحصار بالمسلمين وأراد العدو أن يجوع المدينة ويحملها على التسليم . وظل محاصراً لها « إلى أن تمكن فصل الشتاء وكتب السبرد ونزل الثلج فانسد باب المرافق وقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال وبان الاختلال وعظم البلاء ... ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السنة [كانون أول ١٤٩١] » (٢) . فوافقت الحامية على التسليم إذا لم يأتها المدد في مدة شهرين على شروط منها أن يبايع السلطان

(١) القرطبي ج ٢ ص ٨١٠ .

(٢) المرعي ج ٢ ص ٨١١ .

وأهل الدولة وأرباب المشورة صاحب كاستيل وأن يخص سلطان المسلمين بالبشرات^(١) يسكنها وأن يؤمن المسلمين على النفس والأهل والمال وإقامة شريعتهم على ما كانت^(٢) . ومضت مدة الهدنة دون أن يرد المدد سواء من القلعة أو من أنحاء إفريقية فدخل جيش كاستيل غرناطة في ٢ كانون الثاني سنة ١٤٩٢ . وحل الصليب محل الهلال في أبراجها^(٣) . وخرج السلطان ترافقه السلطنة وهي لابسة ثوبها الزاهي فقادرا الحراء تحف بها معالم الهيبة ويسير في موكبها أهل الخاصة ولكن لم يعودا إليها قط . وبينما السلطان منصرف عن عاصمته حانت منه التفاتة أخيرة إلى عاصمة ملكه فتأوه وجرت عبراته . أما أمه التي كانت مستشارته في الأمور الحربية فانتهرته قائلة : « يحق لك أن تبكي كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » . ولا يزال الصخر الشاهق الذي أطل السلطان من قننه للعبة الأخيرة يسمى « إل القوس سبرو دل مورو » أي زقفة العربي الأخيرة .

واستوطن أبو عبد الله البشرات أولاً ثم لم يلبث أن بارحها قتل فلساً وفيها توفي سنة ١٥٣٣ - ٤ . مخلفاً فيها ذرية ذكر المقرئ^(٤) حين صنف « النفح » (١٦٢٧ - ٨) أن أفرادها لا يزالون فيها عرضة للفقر « وبعدون من جملة الشحاذين » .

اضطهاد المرر سكو

ولكن أصحابي الجلالة الكاثوليكية فردناند وإيزابيل نسكتنا العهد ونفضا الشروط ففي سنة ١٤٩٩ انتدب الكاردينال زينس دوسيسنروس « Jiménez de Cisneros »^(٥) كاهن الملكة المخاض لحمل المسلمين على التنصر . وأراد الكاردينال لأول أمره أن يصادر الكتب

(١) « البوخراس » « alpujarras » في الإسبانية . وقد شملت هذه اللفظة (ومعناها الزوج) الأرامسي الجبلية الواقعة جنوبي الديارا نقادا حتى البحر المتوسط .

(٢) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ، نشر ملر (مونيخ ، ١٨٦٣) ص ٢٩ .

(٣) والفيليد يحمل الحراء في تلك السنة مهدد ظهور كريستوفورس كولومبس أمام الملكة إيزابيل طالبا منها المال ليقوم برحلته العظمى التي أدت إلى الكشف عن أميركا .

(٤) ج ٢ ص ٨١٤ - ١٥ .

(٥) أعظم خدماته طبعه (١٥٠٢ - ١٧) التوراة في كتاب واحد بلغات متعددة وهذه أول طبعة تحتوي النص الأصلي مع ترجمة .

العربية المعنية بالاسلام قامر باحراقها. وفي غرناطة جمعت المخطوطات العربية اكواماً واشعلت النار تحتها. ثم انشئ ديوان تفتيش لامتحان المسلمين واصبح كل المسلمين الذين لم يهجروا البلاد بعد سقوط غرناطة يدعون بالـ «مورسكو» (١) وهي لفظة اطلقت اولاً على معتققي الاسلام من الاسبانيين. وكانت للاسبانيين المسلمين لهجة رومانسية إلا انهم استخدموا حروف العربية لكتابتها (٢). والواقع ان كثيرين من المورسكو ان لم يكن جملهم كانوا من اصل اسباني وقد تنبهوا الآن بان اجدادهم انما كانوا نصارى وان عليهم قبول العمودية او تحمل العواقب. واعتبر «المدجنون» و «المورسكو» في طبقة واحدة فتظاهر كثيرون منهم بالنصرانية واسروا الاسلام في قلوبهم. ومنذ سنة ١٥٠١ صدرت الارادة الملكية بان على من في كاستيل وليون من المسلمين الرجوع عن دينهم او الجلاء عن البلاد. ولكن الظاهر ان ذلك الامر لم ينفذ. وفي سنة ١٥٢٦ جابه مسلمو الاراغون المعاملة نفسها، وفي ١٥٥٦ سن فيليب الثاني تشريعاً يأمر البقية الباقية من المسلمين بترك لغتهم وعبادتهم وانظمتهم وعاداتهم. وأمر ايضاً بهدم حمامات الاسبانيين باعتبار انها من تراث العهد الاسلامي. فتعالت الشكوى بين المسلمين وسرت الحمية في عروق البعض فثاروا للمرة الثانية اولاً في غرناطة ثم فيما جاورها من الجبال، ولكنهم لم يلبثوا ان أخضعوا واخذت شوكتهم. واما القرار الاخير بالطرده فأمضاه فيليب الثالث سنة ١٦٠٩ ونجم عنه نفي جمهير المسلمين عن البلاد الاسبانية قسراً. وذكر ان عدد الذين بقوا على هذه الطريقة بلغ نصف المليون فوطأوا سواحل افريقية او ركبوا سفناً حملتهم الى اقاصي البلدان الاسلامية. ومن هؤلاء المورسكو تألفت معظم قراصنة البحر المراكشيين.

(١) تصغير مورو في الاسبانية، وقد دعا الرومان افريقية الغربية «مورثانيا» وسبوا أهلها «موري» (ولعل اصل الكلمة فينيقي بمعنى «غربي») فالبربر هم المورو الحقيقيون ثم اطلق الاسبان هذا الاسم ايضاً على مسلمي جزائر القلدين ولا يزالون يعرفون به الى اليوم.

(٢) وان الادب الذي خلفه المورسكو مختلف الأنواع وهو جدير باهتمام علماء اللغات ويطلق عليه اسم «الحيادو» (alfamiado) من لفظة «الامعجة» العربية. وقد عثر على مجموعة مخطوطات بهذه اللغة تحت الأرض في بيت قديم بالاراغون لعلها اختفيت عن عيون رجال «التفتيش». وهذه المخطوطات قد جمعت في *Manuscritos arabes y alfamiados de la Biblioteca de la Junta* ed. J. Ribera and M. Asio (Madrid, 1912).

وانظر ايضاً: A. B. Nykl, *A Compendium of Alfamiado Literature*. (Paris, 1928)

و يقدر عدد الذين انتزعوا من بلادهم قتلاً ونهباً ما بين سقوط غرناطة والعقد الاول من القرن السابع عشر بنحو ثلاثة ملايين . وبهذا انتهت المشكلة الاسلامية في اسبانية ، وأصبحت اسبانية منذ ذلك العهد مثلاً بارزاً للشذوذ عن القاعدة التي تذهب الى أن قدم المدينة العربية ثبت دائماً حينما تحمل اقدام العرب . اجل « أقصى المسلمون عن البلاد وظهر محيياً اسبانية النصرانية رديحاً من الدهر مشرقاً كالبدور ولكن بنور مستعار ثم حل به الخسوف وعم الظلام وما زالت البلاد تنسكع في تلك الظلمة منذ ذلك الحين » (١) .

الفصل الأربعون

الآثار الفكرية

كان لاسبانية أثر رافع في التاريخ الفكري للمصور الوسطى الأوروبية . فقد كانت الشعوب التي تتكلم العربية منذ منتصف القرن الثامن حتى أول القرن الثالث عشر هم الحاملة الرئيسيين - كما مر معنا - لشعل الثقافة والمدنية في العالم أجمع . بل كانت هذه الشعوب فوق ذلك طريقاً تسنى بواسطتها لعلوم القدماء وفلسفتهم ان تعيش وتزدهر وتعود الى اوربا بعد ان شرحت ونمت بحيث سهلت السبيل ليزوغ عصر النهضة في غرب اوربا وقد ساهمت في هذا كله اسبانية العربية ولعبت دوراً هاماً .

اللغة والادب

غير ان عرب الاندلس لم يبنوا شأن عرب العراق في مظاهر علوم اللغة والصرف والنحو وعلم المفردات . اما القالي (٩٠١-٩١٧) الذي اشرنا اليه سابقاً بصفته احد كبار المدرسين بجامعة قرطبة فقد ولد في ارمينية وتعلم في بغداد . وكان في مقدمة الطلاب الذين درسوا عليه محمد ابن الحسن الزبيدي (٩٢٨-٨٩٠) وهو من امرة حمصية الاصل ولكنه ولد في اشبيلية . وقد عهد اليه الحكم فيما بعد ان يؤدب ابنه هشاماً ولما ملك هذا عينه للقضاء في اشبيلية . وأهم تأليف الزبيدي كتاب احتوى قائمة منسقة باسماء النحاة وفقهاء اللغة الذين زهوا قبله . وقد استعان السبوطي كثيراً بهذا الكتاب حين وضع كتابه « المزهر » . ويجب ان نذكر هنا ان قواعد اللغة العبرانية التي بنيت في الدرجة الاولى على نظام الصرف والنحو العربيين ولا تزال الى يومنا هذا تستخدم الفاظاً اصطلاحية مترجمة عما يقابلها في العربية انما ترجع اصولها الى اسبانية الاسلامية . وقد زها في قرطبة

(١) انظر النعالي ، بشيرة الدهر ج ١ ص ٤٤٠٩ : ابن خلكان ج ٣ ص ٣٣٨ - ٤٠ .

ابو زكريا يحيى ابن داود (حيوج جودا بن دافيد) صاحب القواعد العلمية للغة العبرانية .
وفيهما توفي في اول القرن الحادي عشر .

وكان من ابرز المؤلفين في الادب ابن عبد ربه (٨٦٠ - ٩٤٠) القرطبي شاعر الرحمان
الثالث (١) ويرجع بنسبه الى احد موالي هشام الاول وتستند شهرته الى مصنفه الادبي الجامع
المعروف بـ « العقد الفريد » (٢) الذي يجيء بعد « الاغانى » في الاهمية بين مصنفات التاريخ
العربي الادبي . بيد ان اعظم علماء الاندلس الاسلامي واخصبهم فكراً واكثرهم ابتكاراً
علي ابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) وهو احد اثنين او ثلاثة من قادة الفكر الاسلامي الذين
تفردوا بالانتاج العقلي الخصب وكثرة التأليف . وقد ادعى ابن حزم انه متحدر من بعض
موالي الفرس ولكنه في الحقيقة حفيد احد نصارى اسبانية الذين اسلموا . وكان في شبابه
وزيراً لعبد الرحمان المستظهر ثم هشام المعتد (٣) وكلاهما عاش في عصر ضعف الدولة . وعندما
خضت الخلافة بالانحلال اعتزل السياسة واتخذ الادب حرفة . وقد نسب اليه ابن خلكان (٤)
والتغطى (٥) نحو اربعمئة مجلد في التاريخ والدينيات والحديث والمنطق والشعر وغيرها من
العلوم . وكان ابن حزم في الفقه والعلوم الدينية من دعاة المدرسة الظاهرية التي انقرضت من
عهد بعيد . وفي كتابه « طوق الحمامة » (٦) - وهو مجموعة اشعار في الحب - دافع عن الحب
العذري . اما اعظم كتبه المحفوظة وانفعها فهو « الفصل في الملل والاهواء والنحل » (٧)
وهو كتاب يؤهله لتمام عال بين العلماء ويتمحه شرف سبق في انه اول عالم عني بدرس
الاديان والمقارنة فيما بينها . وقد ائتت المؤلف الانظار في هذا الكتاب الى بعض المشاكل في

(١) انصار ياقوت ، ادباء ج ٢ ص ٦٧ - ٧٦ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٤٦ - ٨ .

(٢) راجع ابن عبد ربه وعقده لبرائيل جودا (بيروت ، ١٩٣٤) . وللعقد طبعات كثيرة .

(٣) ياقوت ، ادباء ج ٢ ص ٨٧ .

(٤) ج ٢ ص ٢٢ .

(٥) ص ٢٢٣ .

(٦) نشر د . ك . يثربوف (لندن ، ١٩٦٤) .

(٧) ليس هناك طبعة علمية ، والطبعة التي استعملها هي في ٥ مجلدات (القاهرة ، ١٣٢٧ - ٨) .

أخبار التوراة مما لم يمتبه إليه أحد حتى ظهور المدرسة النقدية الحديثة في القرن السادس عشر (١).

وكان لعصر ملوك الطوائف لاسيما بني عباد منهم والمرابطين والموحدين أهمية خاصة في تاريخ الأدب ، اذ ان بذور الثقافة التي زرعت في العصر الأموي لم يحن زمن ازدهارها حتى ذلك الحين . وقد قضت الحروب الأهلية التي دهمت بالدولة الأموية وما تلاها من نشوء دولات جديدة بان تظهر اشبيلية وطليطلة وغرناطة على مسرح التقدم وتسلم قرطبة مكانتها . وكانت النصارى المستعربون الذين تنفقوا بالثقافة العربية واطلعوا على آداب لغتها قد نشروا من قرطبة نفسها كثيراً من عناصر الثقافة العربية في الممالك الأخرى شمالاً وجنوباً . ونظير الحكايات والروايات والفصوص الأدبية التي اخذت تزدهر في أوروبا الغربية خلال القرن الثالث عشر انها تأثرت تأثيراً مفوساً بالكتب العربية السابقة التي تعود الى أصول هندية فارسية . وقد نقلت حكايات « كليلة ودمنة » الممتعة الى الأسبانية لافونسو الحكيم ملك كاستيل وليون (١٢٥٢ - ٨٢) ثم لم تلبث ان نُقلت الى اللاتينية بقلم يهودي متنصر فاصبحت بعدئذ من المصادر التي استعان بها لافونتين كما اعترف هو نفسه . وكان هناك شبه واضح بين القصة الأسبانية المضحكة (بيكارسك) التي نشأت في ذلك العصر وبين المقامة العربية بسجعها ونوادرها اللغوية وما تضمنته من وصف المغامرات التي قام بها بطلمها والمغزى الأدبي الذي تنطوي عليه . الا ان اعظم فضل للغة العربية على ادب العصور الوسطى الأوروبية كان في الأثر الذي تركه أسلوبها على أسلوب الادب الأوروبي وكيف ساعد على تحرير الخيلة الغربية من الانظمة الضيقة الجامدة التي فرضها التقاليد الموروثة . ويتم الأدب الأسباني الغني بالخيال والتزويق عن مؤثرات عربية كما ندل المسكاهة والدعابة في كتاب « دون كيخوته » (Don Quixote) تأليف ثربانتس (Cervantes) على أصل عربي للكتاب وكان المؤلف قد قضى ردهاً من الزمن سجيناً في الجزائر .

(١) انظر : Asín, A ben hazm de Cordoba y su historiografía de las ideas religiosas, 5 vol. (Madrid, 1927-32) .

شعر

وكانت اللغة العربية ايما حلت وفي أي عصر عرفت مال ابتناؤها الى قرض الشعر وروايته
وانشاده فكانوا يتناقلون الوف الابيات الشعرية رواية فيعجب بالاستماع اليها الرفيع والوضيع
ولم يكن ذلك لما في هذا الشعر من معان وفكر بل كان بالأكثر لما فيه من رنة موسيقية
عند انشاده وجمال في ديباجته . وهذا الطرب والاعجاب الذي يستولي على نفس العربي
لجود سماع الانشاد ووقع انقسام الكلمات قد تجلى ايضاً في الاندلس بحيث ساعد على ظهور
الأدباء والشعراء . وقد كان الأمير الاموي الاول شاعراً ومثله عدد من خلفائه . وامثال المعتمد
بن عباد من ملوك الطوائف بموهبته الشعرية . وفاخرت اشبيلية بالكبر عدد من الشعراء
المجيدين المهتمين ولكن شعلة الشعر كانت قد اوقدت من قبل في قرطبة ثم تآقت نورها فيما
بعد في غرناطة طيلة المدة التي ظلت فيها هذه المدينة موئلاً وحي للاسلام .

وقد اجمعت اسبانية عدا ابن عبد ربه وابن حزم وابن الخطيب عدداً من الشعراء لانزال
اشعارهم تعتبر من افضل ما أثر عن الاندلسيين في هذا الميدان . منهم ابو الوليد احمد ابن
زيدون (١٠٠٣ - ٧١) الذي يعده البعض اعظم شعراء الاندلس على الاطلاق وقد كان
ابن زيدون قرشياً من بني مخزوم (١) وكانت في اول امره يقوم على خدمة ابن جهور رئيس
حكومة قرطبة الى ان غضب عليه على الارجح بسبب حبه للشاعرة ولادة (المتوفى ١٠٨٧)
بنت الخليفة المستنكفي وكان قد خلع فيها عذاره وأشهر اشعاره فتفاد ابن جهور وبعد ان
قضى الشاعر ردهاً من الزمن وهو منفى او سجين عاد فلزم المعتمد ابن عباد فاندبه هذا
لرئاسة الوزارة وامارة الجيش فعز عنده وسمي بذي الوزارتين (٢) : وزارة السيف ووزارة
القلم . واخذ ابن زيدون المعتمد وكان باشارته وتأثيره ان أرسل المعتمد سنة ١٠٦٨ جيشاً على قرطبة
فانزعها من بني جهور . وفي بلاط المعتمد الذي نقل في تلك المدة الى قرطبة نشأ النزاع
بين ابن زيدون وابن عمار فقد دبت الغيرة والحسد بنفس ابن عمار واخذ يدس على ابن

(١) ابن خلدون ج ١ ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) قابل الفراكسي ص ٧٥ .

زيدون . وكان ابن عمار في الأصل وضع النسب عاش اول عمره عيشة سائح يتدح كل من يبذل له العطاء وانتهى امر ابن عمار اخيراً في ان أغضب ولي نعمته المعتمد نفسه فامر بقتله وكان ذلك في اشبيلية سنة ١٠٨٦ (١) . واشتهر ابن زيدون فوق شاعريته بانشاء الرسائل وله رسالة مشهورة ذم فيها ابن عبدوس وزير ابن جهور لانه كانت ينافسه في حب ولادة . ومن اشعار ابن زيدون في ولادة قصيدته المشهورة انني مطلعها :

أضحى التتافي بديلاً من تدافينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا (٢)

ومن اخباره معها ما كتبه اليها يصف موجدته بها وقد كرم الى الزهراء ايتوارى في نواحيها واصفاً رياض الزهراء بابيات من الشعر الرقيق اتصف به شعراء الاندلس الذين تأثروا بحال الطبيعة .

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والافق طلق ووجه الارض قد راقا
والنسبم اعتلال في اصائله كأنما رق لي فاعتل اشفاقا
والروض من مائه القضي مبسم كما حلت عن الليلات اطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرفت بتنا لها حين نام الدهر سراقا
ظهرو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال اعتناقا
كان اعينه اذ عانيت أرقى بكت لما بي فجال الدمع رقرقا (٣)

وكانت ولادة هذه اديبة شاعرة على غاية ما يكون من الطرف وحسن المنظر يشهرك افراد الشعراء والكتاب على حلوة عشرتها وكان مجلسها بقرطبة منتدًى لاحرار المصير (٤) .
واقدرت نساء الاندلس العرييات ميلاً خاصاً للشعر والادب فخص المكري (٥) جانباً كبيراً من كتابه « نفع الطيب » بالنساء الشهيرات في الاندلس « كي يعلم ان البراعة في اهل

(١) الراكشي ص ٨٩ : ابن خاقان ص ٩٨ - ٩٩ : فابل ابن خالكان ج ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) الذخيرة القسم الاول ج ١ ص ٣٠٩ - ١١ .

(٣) ابن خاقان ص ٧٣ وقد نقل عنه للفرنجي ج ٢ ص ٦٧ .

(٤) الذخيرة : القسم الاول ج ١ ص ٣٧٦ .

(٥) ج ٢ ص ٥٢٦ - ٦٣٩ .

الاندلس كالغريزة لهم حتى في نسايتهم وصيانتهم (١).

وبلى هؤلاء الشعراء مرتبة أبو اسحاق ابن خفاجة (٢) (المتوفى ١١٣٩) وقد قضى حياته في قرية صغيرة جنوبى بلنسية دون ان يلتفت الى امتداح امراء عصره . والشاعر الشهير محمد ابن هانى (٩٣٧ - ٧٣) الذي لزم الخليفة القاطن المعز (٣) زمناً وله فيه المديح المشهورة وقد اتهم ابن هانى بذهب الفلاسفة اليونان وبالتجرد عن الدين وايداء الغلو (٤).

الموشح

ولما تحرر الشعر العربى الاندلسى الى حذما من قيود التقليد وتهدبت مناخيه وفنونه ، نشأت فيه أوزان جديدة واكتسب ميلاً لتذوق الجمال في الطبيعة بصورة تكاد ان تكون حديثة . وبفضل ما ظهر فيه من الاغاني القومية والاشيد الغرامية اخذت تتجلى فيه عواطف الحب والمغامرة والبطولة التي مهدت السبيل لروح الفروسية في العصور الوسطى . وما آذت مستهل القرن الحادى عشر بالظهور حتى كان الشعر الموشح (٥) قد شق طريقه في ادب القوم في الاندلس وتبعه الزجل وكان يقسم القصيد في كل منهما الى ادوار في كل دور قرار يعاد في الانشاد وقد استعمل بكلا الفنين لثقاء . وهكذا كانت أواصر الارتباط بين الموسيقى والغناء والشعر متينة في كل مكان وزمان .

واول من أبدع واشتهر في الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قزمان القرطبي (المتوفى ١١٦٠) من شعراء عهد المرابطين وكان ينتقل من بلدة الى اخرى ينظم الزجل ويمدح به الامراء والكبراء . وكانت هذه الطريقة قبلاً تنسج عليها العامة من اهل الامصار فأصبح ابن قزمان

(١) القرطبي ج ٢ ص ٥٢٦ .

(٢) قصر ديوانه في القاهرة سنة ١٢٨٦ . وانظر سيرته في ابن خلدون ص ٢٣١ - ٢٢ : ابن خلدون ج ١ ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) ابن هانى ، ديوان (بولاق ١٢٧٤) ص ٣ وما يلي . وانظر زاهد علي . تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانى (القاهرة ١٣٠٢) ص ١ وما يلي .

(٤) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٦٧ : القرطبي ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٥) من الموشح الذي تلبسه المرأة وهو معطف يصنع من ادم عريض يرصع بالجوهر اهدم المرأة بين عاتقها وكشحتها .

امامها ورفع مقامها الى مصف الصناعة الادبية^(١) اما فن التوشيح فكان اول اختراعه في الاندلس ثم سرى منها الى افريقية والمشرق . ومن المجيدين في حليته الاعشى ابو العباس التطيلي^(٢) المتوفى في ربيعان الشباب سنة ١١٢٦ بعد ان اشد مدائح في علي ابن يوسف ابن تاشفين . ومنهم ابراهيم ابن سهل^(٣) (المتوفى ١٢٥١ أو ١٢٦٠) شاعر اشبيلية وشاحها الاسرائيلي وكان قد اسلم غير ان ادمانه للخمر دفع البعض الى ان يشكوا في اسلامه ، ومحمد ابن يوسف ابو حيان (١٢٥٦ - ١٣٤٤) العرناطي البربري الاصل وكان يحسن لغات متعددة والفت في نحو اللغة الفارسية والتركية والفيطية والحشية^(٤) . ولم يصل اليها منها سوى كتابه في نحو اللغة التركية^(٥) .

وهكذا فقد كانت الشعر العربي بوجه عام والاندلسي بنوع خاص قد استولى على قلوب النصارى الاندلسيين وخطب الباطن فاعجبوا به واصبح من العوامل الفعالة في صيغتهم بصفة المدينة العربية . ومن الموشح والزجل نشا الشعر العامي السمكاسيلي المعروف بـ « بيلياتكو Villancico » هذا الشعر الذي استعمل كثيراً في الاناشيد الدينية ومنها اغاني عيد الميلاد . اما وزن الشعر الاوربي المقدس الذي تتردد قوافيه في مصارع الدور الواحد مرتين بحيث يرد روي في المصراع الاول وآخر في المصراع الثاني وثالث في المصراع الثالث ثم تتردد حروف الروي هذه بالتتابع في المصارع الثلاثة اللاحقة المتممة للدور فاعلمه استمد طريقته هذه من الزجل العربي الاندلسي ، وقد عم نظم الشعر في الاندلس بحيث زعم الفروبي^(٦) (المتوفى ١٢٨٣) انه قل ان يرى في شلب وهي مدينة بخنوفي البرتغال من لا يقول شعراً ولا يتعاطى

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٢٤ . وقد نشر (نيكل Nykl) الزجل ابن فرمان Villancionero (Madrid, 1933)

(٢) ورد الاسم ، فلوماً في ابن خلدون ص ٢٧٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ٤١٩ .

(٣) مطبع ديوانه في بيروت سنة ١٨٨٥ . انظر سيرته في الكني ج ١ ص ٢٩ - ٣٥ ؛ الفري ج ٢ ص ٣٥١ - ٤٤ ؛ سيرة محمد ابراهيم ابن سهل (الجزائر ، ١٩١٤) .

(٤) الكني ج ٢ ص ٣٥١ . راجع ذكر شعراء آخرين في ابن خلدون ، المقدمة ص ٤١٨ - ٣٤ .

(٥) الادراك لسان الانراك ، نشر احمد كافر اوغلو (استنبول ١٩٣٠ - ٣١) وهو القدم كتاب في نحو اللغة التركية أو تالي كتاب في المقدمة .

(٦) الفري ج ٢ ص ٣٦٤ .

الأدب ولم مررت بالحراث خلف فدانته وسألته الشعر لقرض في ساعته أي معنى اقترحت عليه
وأي معنى طلبته منه صحيحاً . وفي هذا ما يذكرنا بما يشبهه في لبنان حيث يرتجل « القوالون »
الشعر العامي ويسمون بعضه الرجل أو الموشح .

وان ظهور فن خاص من شعر الحب العذري في اللغة الأسبانية منذ القرن الثامن راجع
إلى تأثير الشعر العربي . ففي فرنسا الجنوبية لم يظهر شعراء البروفنسال تماماً حتى أواخر القرن
الحادي عشر وعندئذ أخذت قصائدهم تفيض بالحب وأخذت اللغة تظهر عن عواطفهم مستعينة
بالجوار المعنوي والخيال الرشيق . وأخذت طبقة الـ « تروبادور » (١) التي زهت في القرن
الثاني عشر تقلد معاصريها الجنوبيين منشدي الرجل . وأيضاً للطريقة العربية ظهر النسيب
أي التشبيب بالمرأة فبجاء في أشعار أوربا الجنوبية الغربية . أما « أغنية رولاند » فهي مدينة
في وجودها لبعض الصلوات الحربية التي نشأت بين الأوربيين وبين مسلمي الأندلس . وتعتبر
هذه الأغنية أبرز اثر واسمى تراث في الأدب الأوربي الذي بزغ فجره قبل سنة ١٠٨٠ مؤذناً
بطلوع شمس مدينة جديدة - هي مدينة أوربا الغربية - كما كانت أشعار هوميروس فائمة عصر
الاعريق و بزوغ شمسهم في التاريخ .

الغربية

قام منهاج التعليم الابتدائي في الأندلس - كما قام في جميع البلدان الإسلامية - على كتابة
الخط وقراءة القرآن وعلى تعلم الصرف والنحو والشعر . ومع أن التعليم كان بالأكثراً امراً خاصاً
فانه قد انتشر فيما بين الأوساط الإسلامية بالأندلس بحيث كانت هناك نسبة عظيمة من الناس
تحسن القراءة والكتابة وهو شيء لم تعرفه أوربا في ذلك الزمن . وقد كان لموظيفة المدرس
البسيط في المدارس الابتدائية في الأندلس من المسكاة فوق ما كانت له في أي بلد آخر
من البلدان الإسلامية . ودل مقام المرأة في الحياة العلمية كما أظهر المقرئ في كتابه وايدته
وقائع التاريخ الأدبي على أن الأندلس لم تلتفت كثيراً للتقاليد أو النظم التي كانت تحول
بين المرأة والتعلم .

(١) امل هذه اللفظة مشتقة من كلمة « مارب » العربية . انظر Ribera, *Disertaciones*, vol. II, p. 141.

أما التعليم العالي فقد قام على تفسير القرآن وعلى الدينيات والفلسفة وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية . وقد كان في بعض المدن الرئيسية مدارس كبرى يصح تسميتها بالجامعات وفي طليعة هذه المدن قرطبة وإشبيلية ومالقة وغرناطة . وبين دوائر التدريس التي تضمنتها جامعة قرطبة دائرة للفلك ودوائر أخرى للرياضيات والطب والعلوم الدينية والشرعية . وقد بلغ عدد الطلاب المنتسبين إليها بضعة آلاف وأصبحت شهادتها سبيلاً إلى الوصول إلى أوفر المناصب دخلاً في الدولة . أما جامعة غرناطة فقد أسسها يوسف أبو الحجاج (١٣٣٣ - ٥٤) سابع سلاطين بني نصر وكان ديوان هذا السلطان قد ازدان بالمؤرخ الشاعر لسان الدين ابن الخطيب (١) . وقد وضعت أمام المداخل في بناية هذه الجامعة تماثيل أسود من الحجر كأنها تحرسها . وكان في منهاجها عدد من الدروس العلمية منها علوم الدين والفقه والطب والكيمياء والفلسفة والفلك . وكان يؤمها الطلاب من كاستيل وغيرها من الأوساط الأجنبية . وجرت العادة فيها وفي غيرها من الجامعات أن تقام حفلات عامة وأخرى تذكارية تتلى فيها الخطب والأشعار المبتكرة ، يلقيها في الغالب أساتذة من الجامعة نفسها . وهناك قول مألوف كان ينقش غالباً فوق أبواب أكثر هذه المعاهد مضمونه أن العالم يقوم على أربعة أمور فقط : علم الحكماء ، وعدل العظماء ، ودعاء الصالحاء ، وشجاعة الشجعان .

وقد نشأت إلى جانب الجامعات خزان للكتب . أما الخزانة الملكية في قرطبة التي أسسها محمد الأول (٨٥٢ - ٨٦) ووسعها عبد الرحمن الثالث فقد أصبحت أوسع وأعظم مكتبة حين أضاف إليها الحكم الثاني مكتبته الخاصة . وقد كان لكثير من مشاهير الرجال والنساء مكتبات خاصة .

الكتب

إن خصائص الحياة الإسلامية الخاصة التي لم تألف المحافل السياسية ومراسم التمثيل المعروفة منذ القدم في بلاد اليونان ورومة قد قضت أن تكون الكتب وحدها تقريباً السبيل

(١) المجلد ١٩١ ، ٩٦ ، وقد استعادت غرناطة في السنوات الأخيرة شهرتها السابقة كمرکز للدراسات العربية في إسبانية .

الى تحصيل المعرفة. وتقدمت قرطبة في انحاء كانت في مقدمة اسواق الكتب في الاندلس وفي
الخاتمة التالية ما يشير الى شيء من روح ذلك العصر:
« قال الخضرى: انتم سيرة بقرطبة ولازمة سوق كتبهم امدت ارقب فيدوقون كتاب كان
لي عليه اعتناء الى ان وقع وهو بخط جيد ونسبته مباح ففرحت به الشد الفرح فجمعت الزيد
في ثمنه فخرجت الى الشادي بالزيادة على ان بلغ فوق حده فقلت له يا هذا اذني من يريه
في هذا الكتاب حتى يامنه الى ما لا يضاري. قال فاراني شخصاً عليه لباس زياضة فدعوت
منه وقت له: ايها الله سيدنا الفقيه ان كانت لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد
بعت به الزيادة ونسب فوق حده. فقال لي انت بفتيه ولا ادري ما فيه ولكن ائت خزاسة
كتب واحتفلت فيها لأتمل بها من اعشاب الولد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فمد
رأيت حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم يال بما ازيد فيه والحمد لله على ما انعم به من
الرزق فهو كثير » (١).

المروء

ولم تكن سوق الكتب تخرج الى ذلك الحد لولا صناعة الورق الخالية. وقد كانت
هذه الصناعة من أجل الخدمات التي اسداها الاسلام الى اوربا ولولاها لما انتم اختراع الآلة
الطابعة ذات الحروف المتحركة - هذا الاختراع الذي نجز في المانيا حوالي منتصف القرن
الخامس - ولولا الورق والآلة الطابعة معاً لما تيسر العلم أن ينتشر في اوربا بهذه الصورة العامة
التي انتشر فيها. وقد سرت هذه الصناعة الى اسبانية من مراكش في منتصف القرن الثاني
عشر. وكانت قد سرت الى مراكش من الشرق. ويظهر مما يذكره ياقوت (٢) ان
شاطبة كانت مركز هذه الصناعة في اسبانية. ومن الالفاظ التي تشير الى هذا الانتقال نقطة
resma « ريم » الانكليزية وهي مأخوذة من النقطة الفرنسية القديمة resma وهذه من
الاسبانية المشتقة من « رزمة » العربية. وقد ظهرت هذه الصناعة بعدئذ في ايطاليا (حوالي

(١) التوقيح ج ١ ص ٣٠٢.

(٢) ج ٢ ص ٢٣٥.

(١٢٦٨ - ٧٦) وكان ذلك بتأثير المسلمين في صقلية . أما قرناً فقد انتقلت اليها صناعة الورق من اسبانية لا من الصليبيين العائدين كما زعم البعض . وقد انتشرت هذه الصناعة من هذه البلدان الى بقية البلدان في أوربا . وكان لعبد الرحمن كاتب اعتاد أن ينشئ الرسائل الرسمية في منزله ثم ينقلها الى ديوان خاص يصير فيه اظهارها على الورق - وهو نوع من الطبع - فتصدر في نسخ متعددة توزع على عمال الدولة (١) .

وبعد انقراض السطة الاسلامية في اسبانية تحلف عن العرب فيها طائفة من الكتب العربية تسكان تبليغ التي عباد قام فيليب الثاني (١٥٥٦ - ٩٨) وخلفاؤه بجمعها من مختلف مخازن الكتب العربية في البلاد ، وقد أصبحت هذه المجموعة نواة مكتبة الاسكوريال التي لا تزال بظاهر مدينة مدريد . وحدث في اواخر القرن السابع عشر انه حين هرب الشريف زيد بن سلطان مراکش من عاصمته ارسل خزانة كتبه في سفينة ونسكن الربان اني أن يرسل الكتب الى الميناء المقصود لأنه لم يعط أجرته سلفاً وانجه بسفينته نحو مرسيا فوقعت في ايدي بعض قرصان البحر الاسبانين وقد انتقلت هذه الكتب اخيراً الى فيليب الثالث فأمر بإيداعها في مكتبة الاسكوريال وبهذا أصبحت هذه المكتبة من أغنى المكتبات بالخطوط العربية (٢) .

كتابة التاريخ

لقد تأخر في اسبانية نشوء فئة اللغة العربية والعلوم الدينية وكتابة التاريخ وعلم الفلك والجغرافية وغيرها من العلوم لأنه لم يكن عند الاسبان اهل البلاد من العلم والفن ما يقيدون به العرب بخلاف ما كانت عليه الحال في الشام والعراق حين دخلها الفاتحون . حتى بعد نشوء العلوم الاسبانية فانها ظلت متأخرة بالنسبة الى ما بلغت العلوم الاسلامية في خلافة المشرق . اما الميادين الرئيسية التي ظهرت فيها براعة المسلمين في المغرب فهي في علوم النبات

(١) ابن الاثير : الحلة ص ١٢٧ .

(٢) انظر فهرس كتبها : *Les manuscrits arabes de l'Escurial*, by Hartwig Derenbourg, 2 vols. (Paris, 1881 - 1903), vol. iii, revised by Lévi-Provençal (Paris, 1928) .

والطاب والفلسفة والرياضيات الفلكية والجغرافية .

وكان من اقدم مؤرخي الاندلس واشهرهم ابو بكر ابن عمر المعروف بابن القوطية (١) وقد ولد في قرطبة وفيها نشأ ولع الى ان توفي سنة ٩٩٧ . وله من الكتب « تاريخ افتتاح (أوفتح) الاندلس » (٢) . ويبدأ من الفتح الاسلامي فيها وينتهي عند اول عهد عبد الرحمن الثالث . وكان ابن القوطية من النحاة ايضاً . وله مصنف في تصنيف الافعال (٣) يعد اول كتاب ألف في هذا الموضوع . وهناك مؤرخ متقدم آخر هو ابو مروان حيآن (٩٨٧ او ٩٨٨ - ١٠٧٦) وهو يفوق ابن قوطية في كثرة تأليفه فقد نسب اليه ما لا يقل عن خمسين مؤلفاً منها كتاب « المتين » في ستين مجلداً . ولم يحفظ لنا من هذه الكتب لسوء الحظ سوى كتاب واحد هو « المتنبس في تاريخ رجال الاندلس » . (٤) ومن المؤرخين ايضاً عبد الواحد المراكشي وقد تنقل في بلاد اسبانية وبعد كتابه « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » (٥) الذي وضعه سنة ١٢٢٤ اكثر الكتب فائدة عن عصر الموحدين .

وقد انجبت الاندلس عدداً من كتاب السير في طليعتهم ابو الوليد عبد الله ابن محمد القرظي الذي ولد عام ٩٦٢ بقرطبة حيث درس وتعالى التدريس . ولما بلغ الثلاثين من عمره خرج حاجاً واستمع الى العلماء في القيروان والقاهرة ومكة والمدينة . ثم عين بعد عودته قاضياً في بلنسية . واخيراً قتله البربر في داره في قرطبة يوم فتحوها عام ١٠١٣ . ولم يعثر على جثته حتى اليوم الرابع من قتله وقد انتنت بحيث دفن من غير غسل ولا كفن ولا صلاة (٦) . ولم يبق من كتب ابن القرظي سوى « تاريخ علماء الاندلس » (٧) وهو مجموعة من تراجم الاعلام

(١) التتالي ، بئمة الدهر ج ١ ص ٤١١ - ٤١٢ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣١ - ٣٨ ؛ السيوطي ، بئمة الوعاة ص ٨٤ - ٩٠ .

(٢) (مدريد ، ١٨٦٨) وقد ترجمه ريبيرا الى الاسبانية .

(٣) كتاب الافعال نشر جويدي (ليدن ، ١٨٩٤) .

(٤) نشر انطونية القسم الثالث (باريس ، ١٩٣٧) .

(٥) نشر دوزمي ، الطبعة الثانية (ليدن ، ١٨٨١) .

(٦) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٠ ؛ القرظي ج ١ ص ٥٢٦ .

(٧) نشره فرنسيسكو كودرا بمجلدين (مدريد ، ١٨٩٠ - ٩٢) .

الاندلسيين وقد اضاف اليها ابن بشكوال ابو القاسم خلف ابن عبد الملك مواد جديدة في مجلد انهاء عام ١١٣٩ وسماه « الصلة في تاريخ أئمة الاندلس » (١). والكتاب الاخير هو احد الكتابين الوحيدين اللذين حفظا من تأليف ابن بشكوال التي يقال انها بلغت نحو خمسين كتاباً (٢). وكان ابن بشكوال من قرطبة ولد فيها عام ١١٠١ ومات فيها عام ١١٨٣. ثم ظهر ابو عبد الله محمد بن الأبار (١١٩٩ - ١٢٦٠) البليسي فأكمل كتاب الصلة وسمى كتابه « التكملة لكتاب الصلة » (٣). وصنف زيادة على هذا « الخلة السراء » (٤) وهي مجموعة تراجم. ونذكر اخيراً الضي أبا جعفر احمد ابن يحيى (المتوفى ١٢٠٣) وقد زها في مرسية ووضع كتاباً قيماً في اعلام الاندلسيين اسمه « بغية المنتمس في تاريخ رجال الاندلس » (٥).

ولنا في تاريخ العلم كتاب « طبقات الامم » (٦). لابي القاسم صاعد ابن احمد الطاطلي (٧) (١٠٢٩ - ٧٠) وهو من المصادر التي استند اليها القطعي وابن ابي اصيبعة وابن العبري. وقد تولى صاعد القضاء في طليطلة في عهد بني ذي النون وامتاز في علوم التاريخ والرياضيات والفلك.

وكان أبرز رجال الأدب والتاريخ الذين ظهروا في المغرب عالمان صدوقان هما ابن الخطيب وابن مخلدون وكانا موظفين في بلاط بني نصر.

- (١) نشره كودرا بمجلدين (مدريد ١٨٨٢-٣).
- (٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ، الطبعة الثانية ج ٤ (جيدو آباد، ١٣٣٤) ص ١٢٩. وخباب ابن خلكان ج ١ ص ٣٠٠-٦.
- (٣) نشر كودرا قسماً منه بمجلدين (مدريد ١٨٨٦-٩) ونشر الاركون وبلقية قسماً آخر (مدريد، ١٩١٠) وأتم نشره الفرد بل ومحمد ابن شاذ (الجزائر، ١٩١٩-٢٠). وراجع سيرة ابن ابر في الكني ج ٢ ص ٢٨٢-٤؛ وابن خلكان ج ١ ص ٢٧.
- (٤) نشر قسماً منه دوزي (لندن، ١٨٤٢-٥١).
- (٥) نشر كودرا وريبيرا (مدريد، ١٨٨٤-٥).
- (٦) نشر شبغو (بيروت، ١٩١٢).
- (٧) الضي، بغية المنتمس ص ٣١١.

١٠ الما ابن الخطيب (١) (١٣١٣ - ٧٤٠) قلة تخرج من أسرة هراوية عجزت الشام ونزلت
 إسبانية. وكان ابن الخطيب قد استطاع أيام يوسف أبي الطنج الماعان السابع من بني نصر
 وأيام ابنه محمد الخامس (١٣٥٤ - ١٣٦٢، ١٩ - ٩١) أن يصل إلى الوزارة وقد أطلق عليه
 لقب « ذي الوزارةين » ثم اضطر في سنة ١٣٧١ - أن يهرب من غرناطة بدبب الدساس
 التي حكمت له في البلاط. ولم تطل حياته بعد ذلك فقد مات مخوقاً سنة ١٣٧٤ في فلبين
 بعد بعض أعدائه. وبموتة خسرت غرناطة أن لم تقل الأندلس كلها آخر من عرف فيها من
 العلماء والشعراء والسياسيين. ولم يحفظ نسباً من الكتب السنية التي وضعها ابن الخطيب
 وأكثرها في الشعر والأدب والفاريخ والجغرافية والعلب والفلسفة إلا نحو عشرين أهم وأهم
 عندها كتاب « الاحاطة في اخبار غرناطة » (٢).

١١ ولد عبد الرحمان ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) في تونس وقد تخرج من أسرة إسبانية
 عربية يرجع نسبها إلى قبيلة كندة المشهورة. وكان جد هذه الأسرة الأكبر قد هجر اليمن في
 القرن التاسع ونزل إسبانية، وازدهرت ذريته في إشبيلية وظلت معروفة حتى القرن الثالث
 عشر. أما عبد الرحمان نفسه فقد تقلد عدداً من المناصب الرفيعة في فاس ثم غلب عليه وفي
 الأمر فيها فهجروا إلى غرناطة حيث انخرط في خدمة السلطان محمد الخامس سنة ١٣٦١.
 ووكل إليه السلطان مهمة التوسط في الصلح بينه وبين بلاط الكاستيل. وبعد
 سنتين عاد ابن خلدون إلى المغرب بعد أن ثارت عليه عواطف الحسد في قلب صديقه ابن
 الخطيب. وشغل في المغرب وظائف مختلفة إلى أن اعتزل أخيراً العمل وسكن قلعة ابن
 سلامة (٣) حيث أخذ يضع مؤلفه في التاريخ وقد ظل هناك حتى سنة ١٣٧٨. وقصد الحج
 سنة ١٣٨٢ وأمكن رحلته لم تعد القاهرة حيث أقام ولزم التدريس في جامعها الأزهر. وبعد

(١) فرد المقرئ انظر الثاني من « فتح الخطيب » لسيرة ابن الخطيب ومؤلفاته. وكان المقرئ من المصنفين
 ولكنه قام بتأليف كتابه هذا. وهو المصدر الرئيسي لدراسة تاريخ الأندلس الأدبي في دمشق بين
 سنتي ١٦٢٨ و ١٦٣٠.

(٢) في مجلدين (القاهرة ١٣١٩) وهي طبعة خاصة لمؤرخ هذا الكتاب.

(٣) تدعى اليوم توغروت وهي شرقي تلمسان بشمال الجزائر.

سنتين عين لرئاسة القضاء في القاهرة على المذهب المالكي وكان ذلك بأمر السلطان المملوك
الظاهر برفوق . وفي سنة ١٤٠١ رافق ابن خلدون الملك الناصر خلف السلطان برفوق الى
دمشق في حملته على ليمورليك الخيف . وقد وفد ابن خلدون على تيمورلنك فأكرم وفادته .
وهكذا فقد تبنى هذا المؤرخ ان يلعب دوراً هاماً في الامور السياسية بشمال افريقية
وسبانية واعانه ذلك على كتابة مؤلفه العظيم . ويشتمل تاريخه الكبير الجامع « كتاب
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر » (١) على ثلاثة اقسام اولها
المقدمة (٢) وهي في مجلد واحد يليها قسم ثالث وهو اكبر الاقسام يسمى بالعرب والاقوام
الخارجية ثم ويدور القسم الثالث على تاريخ موجز للبربر والدول الاسلامية في افريقية لشمالية .
ويؤخذ على ابن خلدون ان النظريات التي وضعها في النقد التاريخي وأجاد ايضاحها في مقدمته
لا تطبق في الكتاب نفسه في معالجته تاريخ العرب . على ان القسم الذي يدور على قبائل
العرب والبربر في المغرب سيبقى دائماً من الآثار القيمة .

وترتكز شهرة ابن خلدون على مقدمته وقد ورد فيها لأول مرة نظرية النشوء والتاريخ
التي تهيئ على اخذ بعامل المناخ والجغرافية وتأثير العوامل الخلقية والروحية في مجرى حوادث
التاريخ . ويعتبر ابن خلدون مخترع طريقة مبتدعة - كما قال عن نفسه - (٣) في علم التاريخ
والعمران وذلك من حيث سعيه للبحث عن قوانين التقدم والانحلال القومي . او على الاقل
يعتبر انه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع . وليس بين الكتاب العرب او الاوربيين من نظر
الى التاريخ نظرية تعادل نظرية ابن خلدون شمولاً وفائدة . وقد اجمع النقاد على انه اعظم
فيلسوف مؤرخ اتجه الاسلام وانه من اعظم المؤرخين في العلم .

الجغرافية

انقد كان أشهر الجغرافيين في القرن الحادي عشر اندلسياً وهو ابو عبيد الله البكري وكان

(١) في سبعة مجلدات (القاهرة ١٦٨٤) وقد نورد المؤلف سيرة حياته في آخر الجزء السابع ابتداء
من ص ٣٢٩ . وهذه النسخة من افضل المصادر لتاريخ حياته .

(٢) لقد ظهرت طبعة كاترمير في ٣ مجلدات (باريس ١٨٥٨) قبل طبعة القاهرة .

(٣) المقدمة ص ٤ - ٥ .

أربع المؤلفين الجغرافيين وراعي الخرائط في القرن الثاني عشر ميل في كل العصور الوسطى رجلاً تخلص من اسرة اسبانية عربية ملكية وتلقى علومه في الاندلس وهو الادريسي .

أما أبو عبيد الله ابن عبد العزيز البكري ^(١) فهو أول الجغرافيين المسلمين في المغرب ممن حفظت كتبهم وقد زها في قرطبة وفيها توفي عام ١٠٩٤ بعد ان عمر طويلاً وكان ادبياً وشاعراً وفتياً في اللغة وقد نال شهرة بتأليفه الكبير المسمى « السالك والممالك » ^(٢) وقد وضع هذا الكتاب كمفهوم التأليف الجغرافية في العصور الوسطى بشكل كتاب اسفار . وقد ضاع قسم منه .

وأما الادريسي فقد ولد في سنة عام ١١٠٠ وزها في بلاط روجار الثاني ملك صقلية النورمندي وكانت مخررة في عهد ذلك الملك وسلم بحياته عند البحث في موضوع « العرب في صقلية » .

الاسفار

ولم تعرف التأليف الجغرافية بعد الادريسي شيئاً من الابتكار والجددة وكان جل ما فيها اخباراً للأسفار الرحالين التي كثرت في تلك الازمنة . وأهم هؤلاء الرحالين أبو الحسين محمد ابن احمد المعروف بابن جبير ^(٣) وقد ولد في بلنسية عام ١١٥٥ واخذ علومه في شاطبة . ثم قام بين عامي ١١٨٣ و ١١٨٥ برحلة من غرناطة الى مكة وعاد بعد ان زار مصر والعراق وسورية . وكانت بعض انحائها لا تزال في قبضة الصليبيين - وصفاية . وساح في المشرق في رحلتين أخريين عام ١١٨٩ - ١١٩١ وعام ١٢١٧ . ولكنه لم يبلغ في الرحلة الأخيرة الا الاسكندرية حيث توفي . اما كتابه « رحلة ابن جبير » ^(٤) فهو وصف لتفاصيل رحلته الأولى وبعد من أوفى الكتب العربية في باب الاسفار . ومن هؤلاء الرحالين الجغرافيين أيضاً

(١) راجع ابن بلكوال ج ١ ص ٢٨٢ ؛ السيوطي ، بقية الوعاق ص ٢٨٥ .

(٢) انظر قسماً منه دي سلاتن (الجزائر ، ١٨٥٧) .

(٣) انظر بشأنه القري ج ١ ص ٧١٤ وما يلي .

(٤) نشر وليم رايت ، والطبعة الثانية نشر دي غويه (لندن ، ١٩٠٧) .

أبو حامد محمد المازني (١٠٨٠ / ١ - ١١٦٩ / ٧٠) الغرناطي وقد زار روسيا عام ١١٣٦ . وشاهد عند البلغار في أراضي القولكا نشاط حركة تجارية لم يشر اليها مصدر آخر وذكر ما رآه من تجارة العاج المتحجر الذي تخاف عن الأفيال الضخمة المنقرضة وكان يصدر حتى خولارزم البعيدة وتصنع منه الأمشاط وصناديق الزينة (١) .

غير أن أسفار ابن جبير والمازني لا تعد شيئاً بالنسبة إلى رحلة محمد ابن عبد الله العربي المراكشي المعروف بابن بطوطة أشهر رحلة مسلم في العصور الوسطى . وقد ولد ابن بطوطة في ملنجة عام ١٣٠٤ ومات في مراكش عام ١٣٧٧ . وارتحل في الربع الثاني من القرن المذكور إلى مكة أربع مرات تسمى له فيها زيارة جميع أنحاء العالم الإسلامي . وبلغ شرقاً جزيرة سرنديب (سيلان) والبنغال وجزائر مالديف والصين . وزار القسطنطينية أيضاً . وتوغل في أسفاره الأخيرة عام ١٣٥٣ حتى أواسط إفريقيا . وليس في كتابه ما يدعو إلى الشك في صحته سوى ادعائه الوصول إلى مدينة بلغار بالقرب من قازان والقولكا (٢) .

أثر هذه الدراسات الجغرافية في الغرب

لم يكن لهذه الدراسات الجغرافية العربية سوى أثر محدود في الغرب . من ذلك أنها أبقت على الفكرة القديمة القائلة بكروية الأرض ولولا هذه الفكرة لما تم الكشف عن العالم الجديد . ومن القائلين بهذه الفكرة أبو عبيدة مسلم البناسي الذي زها في الشطر الأول من القرن العاشر (٣) ومن ذلك أيضاً أنها نشرت الفكرة الهندية التي تذهب إلى أن نصف الكرة الأرضية المعروف له مركز أو قمة أو قمة على أبعاد متساوية من الخطائق الأربعة - وهي نظرية الـ « آرين » التي وصلت إلى مصنف لاتيني صدر عام ١٤٦٠ . ومنها اتخذ كوبرنيكس مذهبه الذي قاده إلى الاعتقاد بأن شكل الأرض يشبه شكل الاجاصة وإن في نصفها

(١) نسخة الألياب نشر غابرييل فراند (1925) *Journal asiatique*, vol. ccvii (1925) p. 238 .

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار نشر دفرميري وسانتوفي في الطبعة الثانية (باريس ١٨٧٩ - ٩٣) ج ٢ ص ٣٩٨ - ٩٠ .

(٣) صاعد ، طبقات الأمم ص ٦٤ ذابن حزم ج ٢ ص ٧٨ - ٩٠ .

الغربي الذي يقابل الارين مركزاً آخر يرتفع على هيئة القمة . فغير ان الافكار العربية انتقلت الى العلوم الغربية بصورة اوسع وكان ذلك في مظهر الجغرافية الفلكية والرياضيات :
الفلك والرياضيات

تعد كثر الاقبال على العلوم الفلكية في اسبانية واخذت ترتقي بعد منتصف القرن العاشر . وقد فازت هذه العلوم برعاية الامراء والحكام في قرطبة والسيبانية وطليطلة . وقد كان معظم فلكيي الاندلس عيسارون ابا معشر البغدادي في القول بان علل اهم الحوادث الطارئة على الانسان بين اولادة والوفاة انما هي راجعة لتأثير النجوم . وقضت دراسة هذه العلل - علم التنجيم - الى تحديد مراكز الاماكن في الارض ووضع اقيسة الطول والعرض لها . وبهذا اصبح علم التنجيم اباً لعلم الفلك . ثم نضت أخيراً هذه المؤثرات الشرقية من اسبانية الى الغرب اللاتيني ووجهته الى دراسة الفلك والتنجيم . وقد نضت معظم كتب الفلك الاسلامية في اسبانية الى اللاتينية ولبست جداول الفلك التي وضعها الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر فنسبت اليه الائمة على الفلك العربي في عدة من حالات تطوره .

تعد بني الفلكيون العرب الاسبان على اساس ما سبق من تأليف زملائهم واخوانهم في الدين المشارقة . فخرجوا نظام ارسطو مستقلاً عن نظام بطليموس . وهما جوا باسم ارسطو فكرة بطليموس في تصوير الحركات الفلكية . وكان في مقدمة رجل هذا الميدان عند العرب الاسبان الجريطي القرطبي (١) (متوفى نحو ١٠٠٧) والزرقي الطليطلي (نحو ١٠٣٩ - نحو ١٠٨٧) وابن الحاج الاشبيلي (متوفى بين ١١٢٠ و ١١٥٠) .

وكان ابو القاسم مسعدة الجريطي اول علماء الاسلام الاندلسيين من ذوي الشأن وقد عثر زبيح الطولوزي (٢) ونقحه وهو اول زبيح اُنفه مس . وعمل اصول هذا الزبيح من التقويم القديم الذي يعود لعهد يزيد وقد بناها على التقويم الجري . وبذلك كذلك خط الطول

(١) ولد في جريط (مدريد) .

(٢) مسعدة من ٦٩ ونقل عنه ابن ابي اسيرة ج ٦ من ٣٩ . قابل الفطلي من ٣٢٦ . وقد كان مسعدة حكماً وانه الجريطي .

الأرمني بخط طول قرطية . وفي عام ١١٢٦ وضع ادلارد اوف باث نصيباً لاتينية للزيج
نسب لالخوارزمي . وبعد ذلك بأربع عشرة سنة نقل افلاطون التيفولي (Plato of Tivoli)
الى اللاتينية زيجاً هاماً آخر هو زيج البتاني الرابع الى عام ٩٠٠ ثم نقل هذا الزيج نفسه الى
الاسبانية من العربية مباشرة وكان ذلك باشراف الفونسو العاشر (المتوفى ١٢٨٤) الملقب
بالحكيم والفلكي . وكان من القاب الخريفي الفخرية لقب « الحاسب » لأنه كان يعد
المناسبات في العلوم الرياضية ومنها علم القياس . وكان الخريفي او تلميذه القرطبي ابو الحكم عمرو
الكرواني ^(١) (المتوفى ١٠٦٦) اول من أدخل الى الاندلس وسائل اخوان الصفاء
وهناك الزيج المعروف بالتبليطي وقد وضع على أساس ارساد قام به افلكيون مسلمون
ويهود اخصهم الزرقالي (نحو ١٠٢٩ - ٨٧) وابو اسحاق ابراهيم ابن يحيى . وقد جوى
هذا الزيج معلومات جغرافية مستقاة من كتب بطليموس والخوارزمي وقد نقله الى اللاتينية
في القرن الثاني عشر جرارد السكروني . اما كتب ريموند المرسي فانها كذلك مستقاة
بالاكثر (١١٤٠) من قوانين الفلك التي وضعها الزرقالي . وكانت بطليموس قد واثق في
تحسين طول البحر المتوسط فجعله ٦٢ درجة ثم انقصه الخوارزمي الى ٥٢ . والراجح ان
الزرقالي انقصها الى ٤٢ وهو اقرب رقم الى الطول الصحيح . ومن الواضح ان الزرقالي كان
ابحار الراصد في عصره ^(٢) فقد وضع نوعاً من الاسطرلاب فيه شيء من التحسين عما
سبقه يسمى « الصفيحة » ^(٣) فكان اول من اثبت حركة الاوج الشمسي بالنسبة الى
النجوم . وبموجب قياساته بلغت هذه الحركة ١٢ دقيقة بينما قياسها الحقيقي ^٨/_{١١}
دقيقة . وقد اقتبس كوبرنيكس عن الزرقالي وعن البتاني في كتابه
De revolutionibus orbium coelestium .

وقد انتقد جابر ابن افلاح في « كتاب الخيطة » ^(٤) بطليموس واثبت بحق ان السجلات

(١) ساعد من ٧٩ .

(٢) ساعد من ٧٥ .

(٣) الفلكي من ٥٧ ؛ قابل الخوارزمي ، مقتبوع من ٢٣٣ - ٤ .

(٤) قابل الفلكي من ٣١٩ ، ٣٩٣ ؛ حاجي خليفة ج ٦ من ٥٠٦ . وفيه أيضاً هذا الكتاب الا بشكل
معلوماته شأن أكثر المؤلفات الفلكية .

السلي عطارد والزهرة ليس لزواياهما اختلاف مرئي إذا نظر اليهما من نقطتين مختلفتين . وقد نقل هذا الكتاب جرارد الكرموني الى اللاتينية . ويمتاز بفصل في المثلثات المسطحة والكروية وكان البتاني قبل ذلك يمتني وخمسين سنة قد عم ان لم نقل اكتشف الفِكَرَ الاولى عن النسب المتناسية كما نعهدا اليوم . ان علم المثلثات كالجبر والمهندسة يعود الفضل في تأسيسه بالاكثَر الى العرب !

وكانت في طليعة علماء الفلك الاندلسيين في الحقبة الاخيرة نور الدين ابواسحاق البطروجي (١) (متوفى نحو ١٣٠٤) وهو تلميذ ابن طفيل . وله « كتاب الهيئة » (٢) وقد عالج فيه صورة الاجرام الفلكية . ويتميز هذا الكتاب ببحثه للنظرية الخاطئة القائلة بان الاجرام الكروية مراکز متناسبة ومحاولة احياها مع شيء من التعديل . ولئن كانت البطروجي يعتبر من اعلام الفلك المجددين فانه في الواقع من معيدي النظام الارسطوطاليسي . وبعد كتابه قفة الحركة الاسلامية المقاومة لآراء بطليموس في الفلك . وفي ختام القرن الثاني عشر كانت قد نقل الى اللاتينية من العربية كثير من مؤلفات ارسطو في الفلك والطبيعات والفيزيكا وقد ظهرت في هذه الكتب معظم آراء ارسطو الجغرافية .

وقد ترك علماء الفلك العرب آثاراً خالدة في اسماء النجوم التي يتحلى بها الفلك تسدل على مدى نشاطهم واجتهادهم وليست معظم اسماء النجوم في اللغات الاوربية الآن مثل « العقرب » و « الجدي » و « الطائر » و « الذئب » و « الفرقد » (٣) عربية الاصل فقط ، بل ان كثيراً من المصطلحات الفلكية الفنية يرجع الى اصل عربي كـ « السمون » و « النقيير » و « السميت » وغيرها . وفي مفردات علم الرياضيات في اللغات الاوربية شاهد آخر لآثر العرب العلمي . ففي ما عدا الكلمات المستعارة امثال « algebra » و « algorism » اشار اليها سابقاً هناك كلمات عربية نالت الى اللاتينية واستعمت في شكلها المترجم . من

(١) نسبة الى يدروخه شمالي قرطبة .

(٢) نقله الى اللاتينية ميخائيل سكوت سنة ١٢١٧ ونقل الى العربية سنة ١٢٠٩ .

(٣) راجع امين معلوف ، المعجم الفلكي (القاهرة ، ١٩٣٠) .

هذه كلمة «surd» ومعناها «أصم» وقد وصلت الى الانكليزية عن اللاتينية في القرن السادس عشر وهي ترجمة «الجلذر الأصم» في العربية . وفي علم المثلثات لفظة «sine» وهي ترجمة لكلمة «جيب» العربية المأخوذة بدورها من لفظة «جيفا» السنسكريتية . وكانت اول من استعمل لفظة «sine» للتعبير عن معنى «جيب» في علم المثلثات الرياضي روبرت أوف تشستر Robert of Chester الانكليزي الذي لمع في منتصف القرن الثاني عشر .

ومن أهم الالفاظ المستعارة من العربية لفظة «eipher» أو «zero» (صفر) فمع ان العرب لم يخترعوا الصفر كما اشرنا فانهم اول من ادخله مع الارقام الهندية الى اوربا فعلموا القريين طريقة استعمال هذه الأداة المصطلح عليها وبذلك سهلوا استعمال الحساب في الحياة اليومية . وللصفر في نظام الارقام أهمية عظمى وتوضع الاصغار لحفظ المراتب في المواضع التي ليس فيها اعداد (١) . ولولا الصفر لاضطررنا الى ترتيب الارقام في قوائم للآحاد والعشرات والمئات الى آخره ولجأنا الى استعمال آلة للحساب .

وقد رأينا فيما سبق ان الخوارزمي كان اول من دعا الى استعمال الارقام ومنها الصفر عوضاً عن الحروف وقد دعا الى ذلك في ما كتبه في الشطر الاول من القرن التاسع وسمى هذه الارقام بالارقام الهندية اشارة الى اصلها . ثم ان كتابه في اصول الحساب الهندي نقل الى اللاتينية وقد نقله ادلارد اوف باث في القرن الثاني عشر وقد بعد ذلك الاصل العربي . وفضلاً عن ذلك فان المسلمين في اسبانية استعانوا في الشطر الثاني من القرن التاسع بارقام تختلف نوعاً ما في صورتها عن الارقام الهندية تسمى حروف الغبار وكانت تستعمل في الاصل للحساب على آلة رملية «sand abacus» . ويرجع اكثر العلماء منشأ ارقام الغبار الى بلاد الهند بينما يقول البعض انها رومانية الاصل وقد عرفت في اسبانية قبل مجيء العرب (٢) . وان اول من وصف حروف الغبار وصفاً علمياً غربرت (Gerbert) وكان قد زار اسبانية قبل ان

(١) الخوارزمي ، مفاتيح من ١٩٤

David E. Smith and Louis C. Karpinski, *The Hindu - Arabic Numerals* (Boston (٢ and London, 1911), pp. 65 seq; Solomon Gandz in *Isis*, vol. xvi (1931), pp.393 - 424.

وانظر ابن خلدون ، المقدمة من ٤ .

صحيح الديناميستر الثاني (٩٩٩ - ١٠٠٣) وقد ظهر كتابه بعد تاريخ أقدم مخطوطة عربية (٨٧٢) يتحو مشة سنة وفيه هذه الأرقام . أما الأرقام الأوربية الحديثة فهي أكثر شهرة بحروف الفخار منها بالأرقام الهندية .

على أن أقدم الأرقام الهندية في أوربا غير المسلمة كان بطليحاً جداً . وقد ظل علماء الحساب النصراني طوائ القرن الحادي عشر والثاني عشر وبعض الثالث عشر يستعملون الأرقام الرومانية القديمة والـ « أيكس » أو اسم كافايتيه هاويت فيستعملون أرقام الخوارزمي مع الأرقام الرومانية . وفي عام ١٢٠٣ نشر ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci) من أعلى بزنا كتاباً هو أول دليل على إدخال الأرقام الهندية إلى أوربا بل دشين هذا الكتاب فوق ذلك أول عهد لعلم الرياضيات الأوربي . وكان ليوناردو قد ارتحل إلى شمالي افريقية في طلب علم بعد أن أخذ بعض الدروس العربية على أحد الأساتذة المسلمين . ولم يبق أصول الأرقام القديمة العذرة أرقاء علم الحساب في بعض فروعها . والواقع أن علامة الصفر والأرقام الهندية هي أصل علم الحساب كما نعرفه اليوم .

النبات والطب

ولقد أغنى كذلك المسلمون الغربيون العلم بمحتوهم في التاريخ الطبيعي ^(١) لا سيما علم النبات الجرد والخلق وفي الفلك والرياضيات وأبدوا ملاحظات حاثية في موضوع الفرق الجنسي التناسلي بين بعض النباتات كأنتمجيل والتغيب مثلاً . وقاموا بترتيب النباتات على أساس ما ينمو منها من الفسائل وما ينمو من البزور وما ينمو بنفسه كما يستدل من اجوبة العالم ابن سيعين عن أحد الأسئلة التي وجهها إليه الأمير الطور فردريك . أما الطبيب القرطبي الغافقي ^(٢) أبو جعفر أحمد ابن محمد (المتوفى ١١٦٥) فإنه قد جمع نباتات إسبانية وافريقية وسمى كلاً منها باسمائها العربية واللاتينية والبربرية . ووصف هذه النباتات بطريقة يصبح أن

(١) انظر في موضوع الخيل والفروسية ابن هذيل : حاية الفرسان وشعار الشجعان نشر مرسية (باريس . ١٩٢٢) - وابن هذيل أندلسي عاش في القرن الرابع عشر .
(٢) كانت تاتي بقعة بجوار قرطبة .

يقال فيها أنها أوفى وأدق ما في اللغة العربية في هذا الموضوع . أما أشهر مؤلفاته « الأدوية المفردة »^(١) فقد كان من الأهمية بحيث أن مواطنه وزميله ابن البيطار الذي أتى بعده وفوقه شهرة لم يكف بالاعتباس عنه بل عمد فعلاً إلى أخذ جانب كبير منه . وفي نهاية القرن الحادي عشر م في أسيانية إوزكوبيا يحيى بن محمد بن العوام ووضع رسالة في الزراعة سماها « كتب الملاحاة » هي أهم ما صنعه المسلمون في الزراعة بل هي أهم مؤلفات المصورين المسلمين في هذا الموضوع . ففضلاً عما أخذ من الأصول العربية واليونانية فإنه قد اقتبس كثيراً من المواد لكتابه من المختارات المزارعين المسلمين في أسبانية وعالج فيه نحو خمسة وخمسة وثلاثين نوعاً من الثبات وشرح الطرق الزراعية لما يزيد عن خمسين نوعاً من الأشجار المثمرة . وفيه ملاحظات جديدة في موضوع التقليم وخصائص التربة والسياد والحدث في أعراض عدد من أمراض الأشجار والثباتات المتحشة مع وصف لطرف معالجتها . ورغم ما لهذا الكتاب من أهمية فإنه لم يكن معروفاً عند كتاب العرب . فلم يذكره ابن خلكان أو ياقوت أو حناي خليفة . أما ابن خلدون^(٢) فقد توهم أنه رواية لكتاب ابن الوحشية^(٣) .

ابن البيطار

كان عبد الله بن أحمد ابن البيطار أشهر علماء النبات والصيد في الأندلس بل في العالم الإسلامي كله ويعتبر خير خلف لـ « ديسكوردس » . وقد ولد ابن البيطار في مانتقة ونجول يدرس النبات في أنحاء أسبانية وشمالي أفريقية ثم دخل بعد ذلك في خدمة الملك الأيوبي

(١) ابن أبي السيرة ج ٢ ص ٥٢ . وهناك نسخة مختصرة للمؤرخ المصري الشهير ابن العبري نشرها أخيراً تحت عنوان « منتخب كتاب جامع المفردات » ماكن مائدهوف وبورجي ميجي (القاهرة ١٩٣٢) مع ترجمة إنكليزية . أما الترجمة العربية المختصرة لهذا الكتاب التي قام بها ابن العبري منفردة .

(٢) المقدمة ص ٢١٢ .

(٣) كان المؤلف المسمى ميخائيل النوري أول من أشار إلى كتاب ابن العوام المحفوظ في الاسكوريال وذلك في *Bibliotheca Arabica - Hispana Escorialensis*, vol. I (Madrid, 1700), pp. 323 seq. ثم قام المؤيد النوري يوسف الطولي بالكرمي فشرح الكتاب ورفقه بترجمة أسبانية في مجلدين (مدريد ١٨٠٢) . ولكن لا الطمعة ولا الترجمة التي بالعرض العلمي .

الكامل بالقاهرة فجعله معتمداً له في امور انبيات (١). ورحل من مصر مراراً
الى نواحي الشام وآسية الصغرى . وكانت وفاته بدمشق سنة ١٢٤٨ . وله من الكتب مصنفان
اشتهر بهما قدمهما لولي نعمته الثاني الصالح ايوب الذي كانت كلفه قد اتخذ دمشق عاصمة
ملكه في سورية . وكان احد هذين الكتابين كتاب « المغني في الادوية المفردة » وهو
اقراباذين والآخر « الجامع في الادوية » (٢) وهو عبارة عن مجموعة للادوية البسيطة المركبة
من المواد الحيوانية والنباتية المعدنية وفيه معلومات يونانية وعربية تغنيها اختبارات المؤلف
وبحوثه . ويعتبر هذا الكتاب اعظم كتاب في العصور الوسطى من نوعه . ففيه نجد عرضاً
لنحو ١٤٠٠ مادة منها ٣٠٠ مادة جديدة بينها نحو ٢٠٠ نبات . اما عدد المؤلفين الذين
اورد الكتاب ذكرهم فيبلغ نحو ١٥٠ منهم عشرون من الاغارقة . وقد ظلت بعض الاقسام
من كتاب ابن البيطار في ترجمته اللاتينية حتى سنة ١٧٥٨ حتى طبع في كرمونة .

الطب

كان معظم الاطباء من عرب الاندلس قد اتخذوا الطبابة كحرفة كالية الى جانب عمل آخر
يتعاطونه . فابن رشد وابن ميمون وابن باجه وابن طفيل كانوا في الدرجة الاولى فلاسفة ومنظمي
بهم في باب الفلسفة . اما ابن الخطيب فكان كما قدمنا كاتباً مؤرخاً وتقليد منصب الوزارة
شأن الكثيرين من الاطباء . وبمناسبة انتشار مرض الطاعون الهائل في اوربا في منتصف
القرن الرابع عشر ووقوف النصارى حياله مكتوفي الايدي على اعتبار انه من قضاء الله وقدره
وضع هذا الطبيب الغرناطي السلم رسالة (٣) دافع فيها عن نظرية العدوى كما يتضح من
الفقرة التالية ، قال :

« فان قيل كيف سلم بدعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك قلنا وقد ثبت وجود

(١) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٣٣ ؛ للمرحوم ج ١ ص ٩٣٤ ؛ الكني ج ١ ص ٢٦١ . ولقد كان ابن ابي
اصيبعة من تلامذة ابن البيطار وقد عمل معه في دراسة النبات في جوار دمشق .
(٢) الجامع لمفردات الادوية والاعذية ، ٤ اجزاء (بولاق ، ١٢٩١) .

(٣) مقامة السائل عن المرض الهائل نشر مله وترجمته : M.J. Müller, Sitzungsberichte der
konigl. bayer. Akademie der Wissenschaften zu München, vol. II (Munich, 1863),
pp. 6-7, 18-19.

العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والملاحظة والأخبار المتواترة وهذه مواد البرهان. وغير خفي عن نظر في هذا الأمر أو أراد ادراكه هلاك من يهاشم المريض بهذا المرض تخالفاً وسلامة من لا يهاشمه كذلك ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوب أو آنية حتى أن القوط اتلف من علق يأذنه وأباد البيت بأسره ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة ثم اشتعاله منها في افراد المهاجرين ثم في جيرانهم واقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق وفي مدنف السواحل المستعجة حال السلامة الى ان يحل بها في البحر من عدوة أخرى قد شاع عنها خبر الوفاة... وصح النقل بسلامة أهل اليهود والرحالين من العرب بأفريقية وغيرها لعدم انحصار الهواء وقلة تمسك القضاة منه .

الزهراوي

لم يظهر جراحيون كثيرون عند العرب ، وكان اعظم الجراحين المعروفين ابو القاسم خلف ابن عباس الزهراوي (١) (المتوفى حوالي سنة ١٠١٣) طبيب البلاء عند الحكم الثاني . وسبب تفوقه هو انه مؤلف الرسالة القيمة « التصريف لمن عجز عن التأليف » (٢) وهي في جزئها الأخير جامعة لما كان يعرف عن الجراحة في ذلك العصر . وقد ورد في هذه الرسالة آراء جديدة في الجراحة أبرزها المؤلف وأكد عليها : منها ما يتعلق بكلي الجراحات وسحق الحصى في المثانة ولزوم تشريح الاجسام الحية والنبية . وقد نقل هذا الجزء الى اللاتينية جرارد الكرموني وصدرت منه طبقات مختلفة منها واحدة في البندقية سنة ١٤٩٧ وأخرى في بازل سنة ١٥٤١ وأخرى في اكسفورد سنة ١٧٧٨ (٣) . وظل لهذا الكتاب مكانة ككتاب مدرسي للجراحة قروناً كثيرة في مدرستي سالنو ومونبيلييه وغيرها من مدارس الطب المتقدمة . وكان فيه اشكال وصور لآلات طبية تأثر بها مؤلفون آخرون من العرب وساعدت على وضع

(١) نسبة الى الزهراء الشهيرة في ضاحية قرطبة وهي مسقط رأسه .

(٢) تأليفه في ابن اثير السيرة ج ١ ص ٥٢ .

(٣) تحتوي نسخة اكسفورد على قسم من النص العربي مع ترجمة لاتينية قام بها جون تاملينغ John Channing ولكن النص العربي بكامله لم ينشر بعد .

أسس الجراحة في اوربا . وكان من زملاء الزهراوي الطبيب حسداي ابن شبروط الاسرائيلي وهو الذي نقل الى العربية بمؤازرة راهب بيزنطي اسمه نقولا ، مخطوطة ديسكوريدس المصورة النفيسة في المواد والعقاقير الطبية ، وكانت هذه المخطوطة قد ارسلت هدية دبلوماسية الى عبد الرحمن الثالث من الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (١) .

ابن زهر

كان لأبي مروان عبد الملك ابن ابي العلاء الملقب بابن زهر (٢) مقام في علم الطب يرازي مقام الزهراوي في الجراحة . وهو ألمع شخص في أسرة عرفت بتفوقها في الطب في اسبانية . ولد في اشبيلية بين سنتي ١٠٩١ و ١٠٩٤ وفيها توفي سنة ١١٦٢ بعد ان خدم سنيناً كثيرة طبيباً ووزيراً في بلاط عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين . وكانت ميزته في انه اقتصر في عمله على التأليف في علم الطب وحده بينما وزع زملاؤه جهودهم على فروع العلم الكثيرة . وقد حفظت لنا الايام من كتب الطب الستة التي ألفها ثلاثة اعظمها واكثرها نفعا « التيسير في المداوة والتدبير » (٣) . وقد صنفه باشارة من صديقه ابن رشد ليكون مقابلاً لكتابه « الكليات » ، وقد عالج التيسير مواضيع أخص من مواضيع « الكليات » (٤) . وكان ابن رشد من المعجبين بابن زهر وقد اتفق عليه كثيراً في كلياته واعتبره أعظم طبيب عرفه العالم بعد جالينوس . واقل ما يقال فيه انه أعظم طبيب سريري في الاسلام بعد الرازي . وقد ذهب البعض الى انه ابن زهر هو اول الباحثين في موضوع الاحساس بالعظام واول من وصف « صوابة الجرب » غير انه ظهر اخيراً ان احمد الطبري (في الشطر الثاني من القرن العاشر) سبقه الى وصف الصوابة في كتابه « المعالجة البقراطية » (٥) .

(١) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٤٧ وفيه ان بعثت الهدية هو رومانوس .

(٢) انظر ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٦٦ - ٧٠ .

(٣) نقلت الترجمة العبرانية الى لهجة عامية اعلمها لهجة البندقية ثم نقلت الى اللاتينية سنة ١٢٨٠ بمساعدة يهودي مقيم في البندقية حيث طبعت مراراً .

(٤) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٧٥ - ٦٠ .

(٥) Mohamed Rihs in Archiv für Geschichte der Medizin, vol. xix (1927) .
pp. 123 - 68

وقد انجبت هذه الاسرة - اسرة ابن زهر - نحو ستة اجيال متتابعة من الاطباء ، وقد ظهر بعد ابي مروان المذكور ابنه ابو بكر محمد (المتوفى ١١٩٨ - ٩) اعظم افراد هذه الاسرة مقاماً ، وترجع مكانته الى تفوقه في فروع الآداب العربية لا تقتدرته الطبية . وهو المشهور بالخفيد ابن زهر واليه نسب كثير من الاشعار الجميلة ومنها موشحات غنية بالعواطف الرقيقة (١) . وقد عينه ابو يوسف يعقوب المنصور سلطان الموحدين طبيباً له في مراکش ومات فيها مسموماً بيد وزير من حساده . وحضر الخليفة جنازته وصلى عليه صلاة الجنازة . ومن ابناء زهر الاوائل جد ابي مروان عبد الملك وحميه وقد مارس الطب لا في اسبانية فحسب بل في بغداد والقيروان والقاهرة ايضاً (٢) . وكان من الاطباء العرب الاندلسيين طبيب آخر مارس الطبابة في المشرق هو عبيد الله ابن المفطر الباهلي وأصله من الزينة . وكان شاعراً وطبيباً وقد دخل سنة ١١٢٧ في خدمة محمود ابن ملكشاه السلجوقي في بغداد وأنشأ له في معسكره مارستاناً نقلاً كانت ينقل على اربعين جملاً (٣) . ثم عاد الى دمشق ومات فيها سنة ١١٥٤ .

انتقال العلوم الى اوربا

كانت الثقافة الشرقية في القرون الاولى التي مرت على السلطة الاسلامية في الاندلس تسري الى البلاد الاندلسية من مستوى عال كما يتضح من لائحة التقري (٤) لاسماء الذين رحلوا في طلب العلم الى مصر والشام والعراق وفارس حتى الى ما وراء النهر والصين . غير ان الآية انعكست في القرن الحادي عشر والقرون اللاحقة كما يستدل من مسير ابن زهر والباهلي الى المشرق لافادة اهلهم . وقد فاض سيل المعارف الاندلسية في القرن الثاني عشر بحيث طما على اوربا نفسها . وقد لعبت افريقية الثانية العربية واسبانية وبنوع خاص طليطلة حيث عاش جرارد الكرموني وميخائيل سكوت دوراً هاماً في حركة انتقال الطب العربي الى

(١) راجع اشارة منها في التقري ج ١ ص ٦٢٠ - ٨ : ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٥ - ٦ .

(٢) صاعد ص ٨٤ ونقل عنه ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٦٥ : ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٦ - ٧ .

(٣) التقري ج ١ ص ٨٩٩ .

(٤) ج ١ ص ٤٦٣ - ٩٤٣ .

اوربا . وكانت الرائد في هذه الحركة الهامة حركة إيقاف الغرب على علوم العرب بواسطة الترجمات اللاتينية قسطنطين الأفريقي (المتوفى ١٠٨٧) وهو مترجم القسم النظري من « كتاب الملكي » (١) لعلي ابن عباس . وقد ولد قسطنطين في قرطبة من اصل وضع ثم انتقل بالمدرسة الطبية في سالرنو وهي اول مدرسة طبية في اوربا وتذهب تقاليدنا الى انه قد أسسها أربعة أساتذة لاتيني ويوناني ومسلم ويهودي . وقد كانت اوربا في العصور الوسطى مدينة فيما انتقل اليها من العلوم الطبية الى طائفة من العلماء منهم قسطنطين هذا وجرارد الكرمسوني (المتوفى ١١٨٧) مترجم « التصريف » للزهراوي و « المنصوري » للرازي و « القانون » لابن سينا ، وفرج ابن سالم الاسرائيلي الصقلي مترجم « الحاربي » للرازي سنة ١٢٧٩ و « تقويم الأبدان » لابن جرلة . وهكذا أتت لتقاليد الطبية الثلاثة الاسلامية واليهودية والنصرانية ان تصل الى مركز واحد اندمجت فيه . وقد انتقل الى اللغات الاوربية بواسطة هذه الترجمات واسماطها طائفة من المصطلحات والألفاظ العربية الفنية مثل لفظة « julep » من جلاب (كولات الفارسية) وهو شراب طبي معطر ولفظة « rob » من « رب » وتطلق على المربي الذي يصنع من مزج عصير التمر بالعمل ولفظة « syrup » من « شراب » وهو عبارة عن محلول السكر في الماء وكان يصنع حسب وصفة طبية يضاف اليها مواد للعلاج . اما لفظة « soda » التي كانت تستعمل في اللغة اللاتينية في العصور الوسطى بمعنى « وجع الرأس » ومنها « sandanum » وهو اسم علاج لوجع الرأس فقد أتت من لفظة « صداع » العربية . وقد ترجمت بعض الاصطلاحات الطبية الى اللاتينية كما ترجمت المصطلحات الرياضية . من ذلك « dura mater » و « pia mater » في اللاتينية فهما ترجمة حرفية لـ « الأم الجافية » و « الأم الرقيقة » في العربية . ومن الألفاظ الكيميائية ما اتصل بلغات اوربا عن طريق اللاتينية بواسطة الكتب العربية المنسوبة الى جابر ابن حيان وسواد من كيماء الاسلام كلفظة « alcohol » (الكحل) و « alembic » (الانبيق) و « alkali » (القلي) و « antimony » (قند) و « aludel » (الأنال) و « realgar » (ربيع الغار) و « luty » (لوتيا) .

(١) نقل الجزء الجراحي منه الى اللاتينية يوحنا الشرقي (١٠٤٠ - ١١٠٣) أحد الاساتذة قسطنطين وكان من اطباء سالرنو .

الفلسفة

ان اعظم مآثرة للطبقة المثقفة العربية في الاندلس انما كانت في الفكر الفلسفي . فقد وضع العرب في هذا الميدان آخر حلقة من سلسلة الفكر التي ربطت فلسفة اليونان بالغرب اللاتيني بعد أن ألبس العرب هذه الفلسفة ثوباً جديداً أفاضته عليها العقيدة الاسلامية في المغرب والشرق معاً وكان أهم ما في هذا الثوب الجديد المقارنة والتوفيق بين الايمان والعقل وبين الدين والعلم . وقد اعتبر مفكرو الاسلام تعاليم أرسطو وتعالم أفلاطون أنها الحقيقة المطلوبة كما اعتبروا تعاليم القرآن من قبل . ولما كانت الحقيقة واحدة أصبح من الحتم التوفيق بين هذه التعاليم كلها وشمها جميعاً في نظام موحد وهذا ما شغلوا أنفسهم به . وقد جابه فلاسفة النصارى المدرسون المعضلة نفسها أي معضلة التوفيق بين فلسفة اليونان وتعاليم الكتاب الا ان أمرهم كان أشد تعقيداً لما حواه اللاهوت عندهم من متراكم الطقوس والأسرار الكنسية . ولقد كانت الفلسفة كما هذبتها الأغارقة وديانة التوحيد كما أنشأها أنبياء العبران كما مر معنا ثمن تراث خلقه الغرب والشرق القديمان وكانت من المفاهيم الخالدة تفكري الاسلام في بغداد والاندلس في العصور الوسطى التي وفقوا بين هذين الجريين الفكريين وقرنوا وآلفوا بين أجزائهما ثم أوصلوها الى اوروبا . وان هذه المآثرة لتعتبر في النقام الاول من الأهمية والمعظمة اذا ذكرنا أثرها في الفكر العلمي والفلسفي وفي اللاهوت طيلة العصور اللاحقة .

ان تدفق الفكر الجديد وبنوع أخص الفكر الفلسفي الى اوروبا الغربية ليعين بدء زوال العصور المظلمة وفجر عصر النهضة المدرسي . وقد كان من أثر احتكاك اوروبا بالفكر العربي والفلسفة الاغريقية القديمة أن انتعشت فيها الروح العلمية الفاسفية فقادتها الى حياة فكرية مستقلة خاصة لا تزال الى اليوم تنعم بأثمارها .

ابن جبيرول

وكان من أوائل الفلاسفة في اسبانية العربية سليمان ابن يحيى ابن جبيرول ^(١) الاسرائيلي وقد ولد في مالقة نحو سنة ١٠٢١ ومات في بلنسية نحو سنة ١٠٥٨ . ويشار اليه غالباً باسم

(١) سليمان ابن يحيى ابن جبيرول . قابل مساعد ص ٨٩ .

افلاطون اليهود لأنه أول المشاهير الذين قاموا بتدريس الفلسفة الافلاطونية الجديدة في الغرب وكان مثل ابن مسرة (١) الذي عاش قبله يدافع عن نظام فلسفي يعزى الى امبدوكليس . وكانت الفلسفة الافلاطونية قبل ذلك بالغ سنة قد انطيمت بالطابع الشرقي بماعي قبلو الفيلسوف الاسكندري اليهودي الخليلي ثم لم تلبث بعد ذلك ان انطيمت بطابع النصرانية فالاسلامية وها هي الآن تبرز بشكل يوناني اسلامي وتعود باتجاه غربي الى اوربا على يد ابن جبيرول . اما كتاب ابن جبيرول الرئيسي فهو « ينبوع الحياة » (٢) وقد نقل الى اللاتينية سنة ١١٥٠ فلمب دوراً هاماً في الفلسفة المدرسية (السكولاستيكية) للمصور الوسطى وساعد على قيام المدرسة الفرنسية .

ابن باجة

كان القرن الثاني عشر اعظم قرن في تاريخ الفكر الفلسفي باسبانية الاسلامية وقد استعمل القرن بظهور ابي بكر محمد ابن باجة الفيلسوف والعالم والطبيب والموسيقي وشارح ارسطو . ولقد لمع ابن باجة في غرناطة وسرقسطة ومات في فاس سنة ١١٣٨ والف عدة رسائل في الفلك انتقد فيها افتراضات بطليموس فهد بذلك السبيل لابن طفيل والبطروجي . والف كذلك رسائل اخرى في المواد والعقائير الطبية اقتبس عنها فيما بعد ابن البيطار . ورضع رسائل في الطب تأثر بها ابن رشد (٣) . غير ان اهم تصانيفه وهو الكتاب الوحيد الذي يختلف من آثاره « تدير المتوحد » وقد حفظ لنا مختصراً في العبرانية . وكان قصد ابن باجة من وضع هذا الكتاب اثبات ان في مكنة الانسان الاتحاد بالعقل الفعال دون معونة وانت تطهير النفس البشرية التدرجي بواسطة الاتحاد بالله هو مطالب الفلسفة . على ان كتاب السهر والتراجم للمسلمين يعتبرون ابن باجة من الخالسين (٤) .

(١) Miguel Asín, *Abenmasarra y su escuela. Orígenes de la filosofía hispano-musulmana* (Madrid, 1914).

(٢) اما كتابه « اصلاح الاخلاق » فقد نشره وترجمه ستيفن س. وير (نيويورك ١٩٠١) .

(٣) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٦٣ بحمل ابن رشد المولود سنة ١١٢٦ لتبدأ لابن باجة .

(٤) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٧٢ .

ابن طفيل

وجاء بعد ابن باجة من خطا بآرائه الفلسفية خطوة جديدة الى الامام وهو ابو بكر محمد ابن عبد الملك ابن طفيل (١) الفيلسوف الارسطوطاليسي وكان يحترف الطب في غرناطة ثم تعين وزيراً لابي يعقوب يوسف (١١٦٣ - ٨٤) سلطان الموحدين ورئيساً لأطبائه فجمع الوزارة والطب كما كان مألوفاً أغلب الأحيان في الدولة الاسلامية . وفي سنة ١١٨٢ اعتزل الطبابة في البلاط فخلفه فيها صديقه ابن رشد وهو اصغر منه وكان ابن طفيل قد قدمه للخليفة وقد افاض هذان العالمان على بلاط الموحدين نوراً يتألق مدى الأزمان . وقد عرفت دولة الموحدين بميلها الدينية السلفية المحافظة ولكنها رعت الفلسفة وعززتها وكرمت اصحابها .

ولد ابن طفيل في العقد الاول من هذا القرن ومات سنة ١١٨٥ في سراكش عاصمة الموحدين وقد حضر جنازته ولي نعمته الثاني الخليفة ابو يوسف المنصور (١١٨٤ - ٩٩) . ومن أهم آثاره قصة فلسفية مبتكرة عنوانها «حي ابن يقظان» (٢) فكرتها الانسانية ان المقدرة الانسانية قد تستطيع ان تصل الى ادراك العالم العلوي دون اللجوء الى مساعدة قوة خارجية ، ويوسعها الوقوف تدريجياً على ضرورة اعتمادها على الكائن الاعلى . وتعد هذه القصة من امتع ما في ادب العصور الوسطى ولروع القطع الفنية المبتكرة فيها . وقد نقلها الى اللاتينية ادورد بوكوك الصغير Edward Puckle سنة ١٦٧١ (٣) . ثم نقلت الى اكثر لغات اوربا ومنها الهولندية (١٦٧٢) والروسية (١٩٢٠) والاسبانية (١٩٣٤) . وحاول البعض ان يجد فيها مصدراً لقصة روبنسن كروزو «Robinson Crusoe» وان النظرية التي تظهر في القصة هي نشوءية ، وقد استعار ابن طفيل اسماء الاشخاص فيها من قصة قصيرة ليس فيها اثر للحياة وضعها ابن سيناء بالعنوان نفسه . غير ان ابن طفيل استمد الانعام والفكر

(١) ابن الطفيل ، في ابن ابي اسبيرة ج ٢ ص ٧٨ . قال ابن ابي زرع ج ١ ص ١٣٥ : ابن خلدون ج ٣ ص ١٥٧ .

(٢) اي العقل الانساني مستمد من العقل الالهي .

(٣) نشرت الترجمة في اكسفورد مع النص العربي لمحررها ادورد بوكوك الكبير . ونشرت عدة طبعات للنص العربي في القاهرة والقسطنطينية سنة ١٢٩٩ . وليس هناك الاطبعة واحدة علمية قام بها ليون غوييه (الجزائر ، ١٩٠٠) و (بيروت ، ١٩٣٦) مع ترجمة فرنسية .

فيها من مؤلفين سابقين أولهم الفارابي .

ابن رشد

أب اعظم فيلسوف مسلم - باعتبار الأثر الذي تركه ولا سيما في الغرب - هو أبو الوليد محمد ابن أحمد ابن رشد الطليبي القاسبي العربي الألباني شارح أرسطو . ولد ابن رشد في قرطبة سنة ١١٢٦ وهو يمت بنسبه إلى أسرة عربية أنجبت عدداً من الفقهاء والقضاة . وقد تولى هو نفسه القضاء على اشبيلية سنة ١١٩٦ - ٧٠ وبعد ذلك يستين تولى القضاء على قرطبة . وفي سنة ١١٨٢ استدعاه إلى مراکش أبو يعقوب يوسف ليكون طبيب البلاط بدلاً من ابن طفيل . غير أن المنصور خلفه أقصاه سنة ١١٩٤ لما اتهم به من المروق عن الدين بسبب دروسه في الفلسفة ثم استدعاه إلى وظيفته في مراکش حيث مات بعد ذلك بأمد يسير في العاشر من كانون الأول سنة ١١٩٨ (١) ولا يزال قبره ظاهراً هناك .

وأعظم آثار ابن رشد في الطب مصنف كبير شامل عنوانه « الكليات في الطب » فيه ذكر صريح للحقيقة المعروفة اليوم وهي أن الجدري لا يصيب المرء مرتين وفيه ايضاح لوظيفة شكية العين . غير أن ابن رشد لم يتميز بطبه كما تميز بفلسفته وشروحه . وإذا استأنينا شروحه فإن أهم كتبه الفلسفية « تهاقت التهاقت » (٢) وهو رد على الغزالي الذي حمل على اتباع الفلسفة العقلية في كتابه « تهاقت الفلاسفة » (٣) . وقد قامت شهرة ابن رشد على هذا الكتاب الذي اكسبه نقمة واحقق عليه الكثيرين في العالم الإسلامي . أما شهرته في العالمين المسيحي واليهودي فكانت في الدرجة الأولى على مكانته كشارح لأرسطو . ولذا ذكر أن عمل الشارح في المنصور الوسطى إنما كان ينطوي على وضع مؤلف علمي أو فلسفي معتمداً على كتاب قديم كأساس أو إطار لبحثه . ومن هنا فقد كانت شروح ابن رشد سلسلة رسائل

(١) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٧٦ - ٧٧ : ابن أبي ذر ج ١ ص ١٣٥ : ابن خلكان ج ٣ ص ٤٦٧ .

(٢) نشره موريس بويج (بيروت ١٩٣٠) .

(٣) نشره موريس بويج (بيروت ١٩٢٧) . ويقصد بالفلاسفة اصحاب أرسطو والابلاتونية الجديدة وقد صرح بأرائه هذه في كتابه « مقاصد الفلاسفة » (القاهرة ١٣٣١) .

اطلق عليها اسماء كتب ارسطو مع التفصيل والتأويل لمحتوياتها . ولما كان ابن رشد لا يحسن اليونانية فإنه اكتفى بترجمات من سبعة من علماء بغداد . اما اهم شروحه على ارسطو فهي ثلاثة « جامع » موجز و « تلخيص » متوسط و « تفسير » او « شرح » مطول (١) . واكثر شروح ابن رشد محفوظة في ترجمات عبرانية او لاتينية منقولة عن العبرانية . ولم يبق في العربية منها الا القليل وهي على العموم مكتوبة بحروف عبرانية (٢) .

وكان ابن رشد آخر علماء الفلاسفة الذين ألفوا في اللغة العربية ولم يتم في الاسلام بعده من بلغ درجته . والواقع ان لاوروبا النصرانية من الحق في الادعاء انه منها اكثر مما كان لكسيمة او افرقية الاسلامية . فالتد عرفت في الغرب بـ « الشارح » كما عرفت ارسطو بـ « المعلم » ومع ان الغرب اعتمد في اكثر الاحيان على ترجمة لاتينية منقولة عن العبرانية وكانت هذه بدورها منقولة عن شرح عربي على ترجمة عربية وكانت الترجمة العربية منقولة عن السريانية وهذه عن اليونانية فان عقول فلاسفة العصور قد تأثرت بارسطو ابن رشد اكثر مما تأثرت بغيري مؤلف آخر . وظلت فلسفة ابن رشد مهيمنة على عالم الفكر من اواخر القرن الثاني عشر حتى آخر السادس عشر وذلك برغم المعاكسة التي واجهها اولاً من أهل السنة في اسبانية واثانياً من أهل التهود وثالثاً من الاكثريوس المسيحي . وليس من شك في ان ابن رشد كان من دعاة تحكيم العقل في جميع الامور الا عقائد الايمان الثابتة ولكنه لم يكن ، كما ادعى الكثيرون ، أنها حرية الفكر والاحاد وعدو الدين والايمان . وكان اتباع ارسطو من المسلمين قد اعتبروا كثيراً من الكتب الملققة على انها من وضع ارسطو ومنها بعض الكتب ذات النزعة الافلاطونية الجديدة فجاءت فلسفة ابن رشد تدعو الى التحويل على فلسفة ارسطو الصحيحة غير الملققة . وعمد رجال الكهنوت الى كتاباته ففهموا منها بعض المواد غير المرغوب فيها من وجهة نظرهم . ثم جعلوها كتباً للتدريس في جامعات باريس وسواها من معاهد العلم العالية .

(١) راجع القائمة كاملة في كتاب Ernest Renan, *Averroës et l'averroïsme*, 2nd ed. (Paris, 1841), pp. 58 - 79; Sarton, *Introduction*, vol. ii, pp. 356 - 61.

(٢) وله « تلخيص كتاب المقولات » وهو كما يدل اسمه ملخص لكتاب المقولات لارسطو وقد شرحه موريس بلايخ (بيروت ، ١٩٣٢) .

وقد ظلت الحركة الفكرية التي بدأها ابن رشد ، بما فيها من محاسن وما اضيف اليها من اوهام ، عاملاً حياً في الفكر الازلي حتى مولد العلم الحديث المبني على الاختبار .

ابن ميمونه

وايس هناك بين فلاسفة ذلك العصر من يحتل المقام الاول بعد ابن رشد سوى معاصره ومواطنه اليهودي القوطي ابو عمران موسى ابن ميمون اشير اطباء اليهود وفلاسفتهم في كل هذه الحقبة العربية . ولد ابن ميمون في قرطبة سنة ١١٣٥ (١) او هاجرت عائلته من الاندلس بسبب الاضطهاد الذي اثاره الموحدون فنزلت القاهرة نحو سنة ١١٦٥ . اما زعم القوطي (٢) وابن ابى اصبيحة (٣) ان ابن ميمون كان في الاندلس يدعي الاسلام علانية ويطن اليهودية سراً فقد سفته النقاد المحدثون . وفي القاهرة اصبح ابن ميمون طبيب البلاط عند صلاح الدين الايوبي الشهير وعند ابنه الملك العزيز . واستندت اليه منذ سنة ١١٧٧ رئاسة الملة اليهودية في القاهرة وظل عليها حتى مماته في القاهرة نفسها سنة ١٢٠٤ . وبموجب وصيته حل جثمانه على الاكف وسير به على الطريق التي قطعها النبي موسى قبلاً ودفن في طبرية حيث لا يزال شريحه الوضيع مقصداً يزوره الكثيرون . والى اليوم ترى المرضى من فقراء اليهود في مصر يطلبون الشفاء من امراضهم بالمبيت ليلاً في دهليز تحت كنيس موسى ابن ميمون في القاهرة .

ونقد امتاز ابن ميمون في علم الفلك واللاهوت والطب وكان فوق ذلك فيلسوفاً . اما علومه الطبية فبنية على مبادئ جالينوس المعروفة آنذاك المأخوذة عن الرازي وابن سينا وابن زهر بعد ان اكسبها النقد العقلي الفلسفي المستند الى الملاحظة الشخصية شيئاً من الحياة . وقد حزن ابن ميمون طريقة الختان وقال بان سبب اليواسير هو الامساك ووصف لها علاجاً هو الطعام الخفيف المؤلف اكثره من الخضار . وكان عنده كذلك آراء راقية بشأن حفظ الصحة .

(١) احتفي بمرور ثمانئة عام على مولده في جميع انحاء العالم المتمدن .

(٢) ص ٣١٨ - ١٩ .

(٣) ج ٢ ص ١١٧ .

وأشهر كتبه الطبية « الفصول في الطب » وأهم تأليفه الفلسفية « دلالة الحائرين » (١) وقد سعى فيه الى التوفيق بين الفلسفة اليهودية والأرسطوطالية الإسلامية . وبكلمة أخرى فإنه سعى الى التوفيق بين الإيمان والعقل . أما الرؤى النبوية فقد عليها على أنها اختيارات ذاتية نغساية . وقد وقف نفسه ، الى هذا الحد على الأقل ، على الدفاع عن التمسك العلمي تجاه فكرة التوراة « المحافظة » فاستوجب سحق اللاهوتيين المحافظين الذين سمو كتابه « ضلالة » . أما آراؤه الفلسفية المعبر عنها في هذا المصنف وسواه فإنها على غرار مصنفات ابن رشد مع العلم انه لم يعتمد على كتب ابن رشد في وضعها . ولم يكن ابن ميمون يعرف اليونانية بل اعتمد كأمين رشد على الترجمات العربية . أما نظريته الخلق التي ادعاها دون ان يؤمن بها فانها من النظريه الدرية التي تختلف عن النظرية بين الآخرين اللتين نادى بهما مضكرو العربية اي نظرية السكتب المقدسة التي قالت بان الله خلق كل شيء ، والنظرية الفلسفية التي قال بها اتباع الافلاطونية الجديدة واتباع ارسطو . أما كتبه فقد وضعت كلها بالعربية ولكنها كتبت بحروف عبرانية ما عدا واحداً ثم لم تلبث ان نقلت الى العبرانية ونقل بعضها بعد ذلك الى اللاتينية . وكان تأثيرها بعيد المدى طويل الامد ولكنه انحصر في الغالب في طبقات اليهود والنصارى . وظلت كتبه حتى القرن الثامن عشر الواسطة الوحيدة التي اوصات انفسهم اليهودي الى الاوساط غير اليهودية . ويرى النقاد الحديثون بقايا تأثيرها في جماعة الدومنيكان كما يظهر من كتب البرنس ماغنس (Albertus Magnus) وخصه دنس مكنوس (Duns Scotus) ومن فلسفة سبينوزا (Spinoza) وكانت (Kant) .

ابن عربي الصوفي

كان امام المتصوفين في هذا العصر من عرب الاندلس ايضاً وهو ابو بكر محمد ابن علي محبي الدين ابن عربي (٢) اعظم عبقرية خيالية في الصوفية الإسلامية . ولد ابن عربي في

(١) نشره بحرف عبراني وترجمه الى الافرنسية سالون منك (Salomon Munk, 3 vol. / Paris, 1896 - 68) .

(٢) يعرف في الشرق بابن عربي تمييزاً له من مواطنه المحدث ابي بكر ابن العربي . وقد نسب الى حاتم الطائي قبل في نسبة الحاتمي الطائي .

مرسية سنة ١١٦٥ ولعب بالاكثري في اشبيلية حتى سنة ١٢٠١ - ٢ حين قصد الحج . ثم مكث في الشرق حتى مماته بدمشق سنة ١٢٤٠ (١) . ولا يزال قبره مزاراً قائماً في احد مساجدها . وشهد القرن الثاني عشر في الشرق طلائع تنظيم جديد في الحياة الاسلامية الدينية يقابل اشواق الرهبنة المسيحية في العصور الوسطى وكان ابن عربي هو الذي اتحف هذه الحركة الصوفية باظهارها الخيالي الفلسفي وقد مثل المدرسة الانراقية المعروفة الى اميدوكايس والافلاطونية الجديدة والمدرسة القائلة بشمول الانوهمية التي اسسها ابن مسرة وابن جبيرول . وكان رجلى هذه الحركة او المدرسة الصوفية في المشرق السهروردي (المتوفى ١١٩١) ويشير اصله القارسي واشديده على مذهب النور الراجع لفلسفة مساوراء الطبيعة الى تأثيره بآراء ماني وزرادشت ، وكان اعظم تأليفه في هذا الباب كتساب « حكمة الاشراق » ويرجع السر في تسمية هذه المدرسة بالاشراقية الى أنها افرت بموجب نظريتها الصوفية بان الله وعوالم الروح نور وان عملية الاطلاع على الغيب انما هي اشراق يشع من العالم بواسطة ارواح عالم الافلاك (٢) . وعرف ابن عربي عند اتباعه بالشيخ الأكبر . اما نظامه الصوفي فقد اودعه في مؤلفاته الكثيرة واهمها « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » . وفي الفصل المئة والسبع والستين من « الفتوحات » (٣) تحت عنوان « كيمياء السعادة » بحث مجازي باطني يشير الى صعود الانسان الى السماء . وفي كتاب آخر لم يطبع بعد - « الامراء الى مقام الاسرى » - اورد ابن عربي قصة الامراء وتوسع في عرض زيارته التي للسماء السابعة فسبق ما جاء به داني من بعد .

كان ابن عربي من حيث العبادات ظاهري المذهب اسمياً مشايخاً لخواصه ابن حزم اما في مسائل الايمان الخيالي فقد كان باطني (٤) النظر . وكان يذهب من حيث الفلسفة الى ابن

(١) ابن الخوزي ، مرآة الزمان نشر جويت (شيكاغو ، ١٩٠٧) من ١ : ٨٧ ، القرني ج ١ من ٤٥٦٧ : ٤٥٦٨ ، ج ٢ من ٣٠١ : الشعراي ، البواقيت والجوامع (القاهرة ١٩٠٠) من ٨ .

(٢) راجع ساجي خلفه ج ٣ من ٨٧ وما يلي : *Carta de Vaux in Journal asiatique*, ser. ٤ (1902), pp. 63 - 94.

(٣) ج ٢ من ٣٥٦ - ٧٥ .

(٤) القرني ج ١ من ٥٦٩ وما يلي .

الكون جوهر فرد وكان يؤمن بشمول الألوهية ووحدة الوجود . أما فكرته الأساسية فهي ان الأشياء موجودة من البدء كآعيان ثابتة في معرفة الله وهي صادرة عن الله راجعة اليه . ولم يأخذ ابن عربي بفكرة الخلق من العدم بل قال ان الكون مظهر الله الخارجي والله سر الكون المكنون . وليس ثمة فارق بين الذات والصفات اي بين الله والكون . وقد استحال هنا التصوف الاسلامي الى فلسفة قوامها القول بشمول الألوهية وفيها تتجلى الألوهية في البشر ويعتبر محمد الانسان الكامل . كذلك غدا محمد الكلمة كما كان المسيح الكلمة (ثوغوس في اليونانية) . وليس للمتصوف الحقيقي في رأي ابن عربي الا مرشد واحد هو النور الداخلي ومن هنا فهو يمد الله الحق في جميع الديانات (١) .

وكانت لهذه المدرسة الاشراقية التي تصدرها ابن عربي في الاندلس تأثير ظاهر ليس في حركات التصوفين الفارسية والتركية (٢) فحسب بل في مدرسة الفلاسفة النصاري للمصور الوسطى ايضا اي المدرسة الاوغسطينية وفي افراد منها مثل دنس سكوتس (Duns Scotus) وروجر باكن (Roger Bacon) وريتولد ليل (٣) (Raymond Lull) . وجاري ابن عربي في تفكيره وكتابهاته مواطن له من مربية اسمه ابو محمد عبد الحق ابن سبعين (نحو ١٢١٧ - ٦٩) . وقد اكسبته زعامته في طبقات المتصوفين لقباً يحمد عليه هو « قطب الدين » وقد شهر في الدرجة الاولى برسالته « الاجوبة عن الاسئلة الصقلية » (٤) وهي اجوبة عن اسئلة بشأن لولية المادة وطبيعة النفس وخلودها وغرض العلوم الالهية وما شاكل مما وجهه اليك فرديك الثاني الموهنتوني واصله الى ابن سبعين عبد الواحد الرشيد الموحد (١٢٣٢ - ٤٢) فقد وضع ابن سبعين - وكان يقسم آنذاك في سبتة - جواباً مستوفياً من الناحية الاسلامية

(١) ابن عربي ، ترجمان الاشواق نشر نكسند وترجمته (لندن ١٩١١) ص ١٩ ، ٦٧ .

(٢) ان جلال الدين الرومي - اعظم شعراء التصوف - ولد توفي بعد مرور ثلاثين سنة على وفاته ابن عربي قد ربطته بين عربي خلافة عن طريق احد الائمة ابن عربي نفسه .

(٣) يذهب اسين الى القول بان التصوف الاسلامي الذي يثناه ابن عربي انما كان تقابلاً مقصوداً للتصوف النصيري عند الرهبان . انظر : Aston, *El Islam cristianizado* (Madrid, 1931) .

(٤) لم تنشر بعد . انظر : M. Amari, *Bibliotheca Arabo - Sicula* (Leipzig, 1855 - 7) , pp. 573 - 7 ; *Journal asiatique*, ser. 5, vol. 1 (1853) , pp. 240 - 74 ; A. F. Mehren, *loc. cit.* vol. xiv (1879) , pp. 341 - 354 .

الصريحة وعرض على امبراطور صقلية النصراني أن يسدد له خطاه اذا سمح له بمقابلته. ورفض في الوقت نفسه قبول المكافئة المالية التي ارسلها الامبراطور مع الاسئلة. ولابن سبعين كتاب آخر مشهور اسمه « اسرار الحكمة المشرفية » لم ينشر بعد. وكان ابن سبعين من الافراد القلائل في تاريخ الاسلام الذين قضوا على انفسهم بالانتحار. فقد كانت بمكة وبعد اتمامه فريضة الحج فصد يديه وترك الدم يجري حتى تصفى ومات (١).

طليطلة مركز الترجمة

ظلت طليطلة الى ما بعد الفتح النصراني سنة ١٠٨٥ بمدة طويلة محافظة على مقامها كمركز هام للدراسات الاسلامية. وفي اثناء عملية الترجمة ونقل الكتوز العلمية العربية الى الغرب كانت هذه المدينة المركز الرئيسي لهذا النقل. فقد نشأت فيها بمساعي رئيس الاساقفة ريموند الاول (١١٢٦ - ٥١) مدرسة نظامية للترجمة. وقد نجح فيها نخبة من المترجمين ظهوروا ما بين سنة ١١٣٥ و ١٢٨٤ وقصدها العلماء من انحاء اوربا ووفد اليها من الجزر البريطانية ميخائيل سكوت (Michael Scot) وروبرت اوف تشستر (Robert of Chester). وفي سنة ١١٤٥ نقل روبرت كتاب الجبر لخنوارزمي لأول مرة. وفي سنة ١١٤٣ اكمل مع هرمن (Hermann) الدناطي لبطرس المحترم (Venerabile) اول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم. وفي طليطلة نفسها ايضا تأسست اول مدرسة للديوس الشرقية في اوربا وذلك سنة ١٢٥٠ وقد أسستها جمعية الوعاظ بقصد تدريب المبشرين قبل ارسالهم لتبشير المسلمين واليهود.

أما ادلارد اوف باث الذي يقال انه زار اسبانية في هذا الزمن فانه من كبار العلماء الانكليز قبل روجر باكن. وبعد ان ارتحل الى صقلية وسوية نقل الى اللاتينية في سنة ١١٢٦ التقاويم الفلكية التي وضعها الجريطي وهي مبينة على تقاويم الخوارزمي وتضم تقاويم جيوب القوس في الدائرة. ونقل كذلك عدداً من الرسائل الرياضية والفلكية. فاصبح بهذا في طليعة ذلك الموكب الكبير من المستعربين الانكليز. اما ميخائيل سكوت

الاسكتلندي (المتوفى حوالي ١٢٣٦) فهو أحد ناقلي فلسفة ابن رشد إلى اللاتينية وقد درس في إسبانية قبل أن يصبح منجماً في بلاط فردريك الثاني بصقلية . وقد نقل فيما نقله وهو في طليطلة كتاب « الهيئة » وهو كتاب في الفلك للبطلوجي وكتاب ارسطو المسمى « *De caelo et mundo* » مع شرح ابن رشد . وترجم في صقلية كتاباً عربية أخرى قدمها لفردريك أهمها رواية ابن سينا . وكتاب ارسطو في علم الحيوان . ولكن أكثر علماء طليطلة أثراً في الترجمة والنقل هو جيرارد الكروني المتوفى سنة ١١٨٧ وقد كان مما نقله إلى اللاتينية رواية القرطبي لكتاب بطليموس المسمى « *المجسطي* » وشرح القارابي على ارسطو واصول الهندسة لافلديس ورسائل متفرقة لارسطو وجالينوس وإبقراط وجعلتها واحد وسبعون مؤلفاً عربياً .

وقد لعب اليهود كما رأينا دوراً كبيراً في عملية الترجمة التي نصف . سواء منهم من أسلم ومن لم يسلم . ومن أوائلهم إبراهيم ابن عزرا الطاطلي (المتوفى ١١٦٧) وهو أحد شارحي التوراة البارزين وقد ترجم رسائلين في التنجيم ليهودي آخر مشرقى سبقه اسمه ما شاء الله (١) توفي عام ٨١٥ . وترجم كذلك شرح البيروني على زيج الخوارزمي . وكان هناك عالم معاصر لابن عزرا اسمه يوحنا الاشبيلي وهو يهودي متعصب للع في طليطلة نحو ١١٣٥ إلى ١١٥٣ تحت رعاية رئيس الاساقفة ريموند فترجم كتاباً في الحساب والفلك والتنجيم والطب والفلسفة للقرطبي وابي معشر والكندي ولابن جبرول والغزالي . وأهم هذه الكتب « علم الهيئة » للقرطبي . وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن يوحنا هذا كان يترجم من العربية إلى اللغة الكاستيلية العامية وإن أحد أعوانه كان ينقلها من الكاستيلية إلى اللاتينية .

وعند انتهاء القرن الثالث عشر كان العلم والفلسفة العربيان قد انصلا بإوروبا وانجزت إسبانية مهمتها كوسيلة في هذا الميدان . وامتدت الطريق الفكرية من أبواب طليطلة شمالاً فقطعت جبال البرن ثم سارت متعرجة حتى جازت بروفانس وشمالاً إلى الألب وناذت منهما إلى

(١) ذكره القهرست ص ٢٧٣ .

المورين فلما نيا واوربا الوسطى كما انها عبرت الخليج واتصلت بانكلترا (١). ومن جملة مدن فرنسا الجنوبية التي تستحق الذكر في هذا الصدد مدينة مرسيليا حيث قام ريموند في عام



جناح في باحة الاسود في الجزائر

١١٤٠ بوضع صورة لتقاويم السيارات الفلكية مبنية على ما وضع قبلاً في طليطلة . ومدينة

(١) ان اول كتاب مطبع في انكلترا William Caxton, *The Dictes and Sayengis of the Philosophers* (Westminster, 1477) قد وضع على اساس كتاب عربي اسمه غرر الحليم ومحاسن الكلام تأليف امير مصري يعرف بابي الوفاء مبشر ابن فانك وقد بلغ في منتصف القرن الحادي عشر .

تولوز حيث نشط هرمس الدلساطي فأنهى عام ١١٤٣ ترجمة الجريطي لكتاب بطليموس « بلانسفوريم » (*Planisphaerium*) . ومدينة اربونة حيث نقل ابراهيم ابن عزرا في عام ١١٦٠ شرح البيروني على تقاويم الخوارزمي . ومدينة مونبيلييه التي أصبحت في القرن الثالث عشر اهم مراكز الدراسات الطبية والفلكية في فرنسا . اما في شرقي فرنسا فان بلدة كلوني (Cluny) أصبحت في القرن الثاني عشر ، بعد ان أوى الى ديرها الشهير عدد من الرهبان الاسبان مركزاً خطيراً لنشر العلوم العربية وفيها وقف الراهب بطرس المحترم (*Venerabile*) على وضع اول ترجمة للقرآن الى اللاتينية وكتابة بعض الرسائل التي تعرضت للإسلام . وكان من نتيجة ادخال العلوم العربية الى لورين في القرن العاشر ان أصبحت تلك المنطقة مركزاً علمياً هاماً طوال القرنين التاليين . وغدت لياج (*Liège*) وغورز (*Gorze*) وكولون (*Cologne*) وسواها من مدن اللورين اخصب تربة لنمو العلوم العربية . ومن اللورين سمرت موجة الدراسات العربية في سائر أنحاء ألمانيا ومنها انتقلت الى انكلترا النورماندية على ايدي علماء نشأوا أو تمذهبوا في اراضي اللورين . وقد كثرت تبادلات السفارات بين ملوك الجرمان في الشمال وملوك الاسلام في اسبانية وعمّ تفهما الادبي والفكري . وفي عام ٩٥٣ بعث اتو (*Otto*) الاكبر ملك الجرمان راهباً لورينياً اسمه يوحنا مندوباً الى قرطبة فترها مدة ثلاث سنين والراجح انه تعلم العربية فيها وعسا د منها بمخطوطات علمية وهكذا تسربت مبادئ العلوم العربية الاندلسية الى غربي اوربا كلها .

الفصل الحادي والأربعون

الفن وهندسة البناء

مارس العرب في اسبانية معظم الفنون الفرعية والعملية التي انشأها المسلمون او ساعدوا على تقدمها في البلدان الاخرى . وامتازت مدرسة الفن الاندلسي بصناعة المعادن ^(١) وما تشمله من فن الزخرفة وعمل النقوش البارزة او المنحوتة والقرصيع بالذهب والفضة ^(٢) ونقش الحروف العربية . ومن اقدم النماذج الدالة على ذلك أثر هشام الثاني (٩٧٦ - ١٠٠٩) محفوظ في كاتدرائية جيرونا بشكل صندوق خشبي مصفح بصفائح من الفضة والذهب مزخرفة بأوراق النبات على شكل ملف وقد رسمت بواسطة المطرقة . وعلى الصندوق كتابة عربية تميد انت هذا عمل صانعين هما بدر وطريف وقد امر بصنعه حاجب للحكم الثاني (٩٦١ - ٧٦) هدية لولي العهد هشام . واشتهرت طليطلة واشبيلية بصنع الآلات المعدنية كالسكاكين وسفريات السيوف والاسطرلابات ^(٣) . وقد كانت تعتبر سيوف طليطلة بعد السيوف لدمشقية أجود السيوف والينها . اما الاسطرلاب وهو آلة فلكية اخترعها الاغريق فقد حسنها المسلمون وادخلوها الى اوربا في القرون العاشرة . وللأسطرلاب فائدة خاصة عند الملاحين والمتجملين علاوة على فائدته في تعيين ساعات الصلاة وموقع مكة الجغرافي . وفي قصة الخياط في الليلة التاسعة والعشرين من « ألف ليلة وليلة » خبر مزين فضولي يحيى زبونه باستشارة الأسطرلاب لايجاد الساعة الملائمة للحلاقة . وبعد الأسطرلاب المنقن الصنعة تهاية نفيسة من قطع الفن .

(١) وتسمى في الاسبانية « alhajas » اي جوهرة وهي معرفة عن « الحاجة » العربية .

(٢) تعرف عموماً في اوربا بالصناعة الدمشقية .

(٣) القري ج ١ ص ١٢٤ .

صناعة الخزف

لم يكن أهل صناعة المعادن في الاسلام يزخرفه المعادن بالمينا، ولكنهم اعتنوا بالاعطية الملوثة بدهنون بها سطح الأواني الخزفية فبرعوا فيها منذ عهد قديم، وأصبحت بالنسبة مركز هذه الصناعة الإسلامية في الغرب وكانت مصنوعات التي صدرت لبوانيه هي العامل في وضع الأساس لصناعة الخزف فيها. ونجد في القرن الخامس عشر انت تقايد هذا الخزف الاسلامي أصبح منتشراً في اراضي الشمال حتى هولاندا. ومن اسبانية انتقلت هذه الصناعة الى ايطاليا. ولاحظ الأثر العربي في الاوعية الاسبانية المتأخرة بما عليها من كتابات عربية غير أصلية وشارات نصرانية. وتبرزت مدرسة الفن الاسلامي الاندلسي بأشكال أخرى من صناعة الخزف والفسيفساء، اخصها الآجر المتعدد الألوان الذي لا يزال رائجاً الى اليوم في اسبانية والبرتغال وهو ما اخذ عن العرب (١). ويعتبر هواة الخزف في هذا العصر ان النوع المعروف بالـ « مدينار » ذا البريق المعدني هو الخزف الانواع بعد الصيني. ولما تازت طليطلة وقرطبة منذ حوالي منتصف القرن الحادي عشر بصناعة الخزف البديع ثم سبقتها قلعة ابوب (٢). ومالقة وبنوع خاص ماس في بناسية. اما صناعة الألوان التي تطلى بها انواع الزجاج فلم تستطع اسبانية مزاحمة سورية فيها.

المسرمات

وكان العرب اسبانية نصيب في ترقية صناعة النسيج النفيس (٣) هذه الصناعة التي جعلت الشعوب العربية في مقدمة منتجي الأقمشة والخرائر في العصور الوسطى. اما في حياكة السجاد فلم يكن في استطاعة اسبانية مزاحمة الاسواق الشرقية واخصها الفارسية. وكانت قرطبة مركزاً من مراكز الحياكة، وكان في المرية على ما قيل اربعة آلاف وثمانمائة نول (٤)

(١) بدأنا على ذلك القلعة « اراينجو » التي تطلق على هذا الآخر فهي مأخوذة من « الزليجي » العربية . انظر القري ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) الادريسي ، صفة المغرب (لندن) ص ١٨٩ .

(٣) ابن حوقل ص ٧٩ ؛ الاسطخري ص ٤٤ ؛ ابن الخطيب ، الفحة ص ١٣ ؛ القري ج ١ ص ١٢٣ .

(٤) القري ج ١ ص ١٠٢ .

وكما اصدرت الموصل الى ايطاليا القماش المسمى باسمها (١) واصدرت بغداد الى الاسواق نفسها الحرائر الغالية الثمن المعروفة باسمها (٢) والسائر الحريرية التي كانت تغطي المذابح بها في معظم الكنائس الغربية هكذا قامت غرناطة فيما بعد فزودت حوانيت الملابس في اوربا بالانسجة الرقيقة المعروفة بالـ « غرنادين » وكانت امثال هذه المنسوجات الشرقية بالوانها الزاهية ورسومها الهندسية والنباتية مطلوبة الى حد ما كالبسة لرجال الكنيسة ولف آتار التقديين وكانت تحاط جيباً يرتديها ابناء الطبقة الارستقراطية الماورية . ولما ازداد الوارد الى اوربا من هذه المنسوجات الجميلة المعمولة في البلدان الاسلامية رأى اولياء المصارف الغربية في هذه الصناعة مصدراً للثروة فأخذوا ينشئون الاتوال في مراكز متفرقة من فرنسا وايطاليا . ولا شك في ان العاملين بهذه المصانع الاوربية الاولى كان في عدادهم بعض المسلمين .

وكما كانت الحال في صناعات المعادن والزخرف والزجاج والخزف والعمارة وسواها من فروع الفن الزخرفي كذلك كانت في المنسوجات . بين القرن الرابع عشر والسادس عشر فطدت مبهورة بطابع الزبي الاسلامي . والواقع ان الحاككة الاوربية من القرن الثاني عشر كثر تعلقهم بالمواضيع الاسلامية ومنذ ذلك الحين اخذت تكثر لدينا النماذج التي استعمل فيها زخرف يعتمد على تقليد الحروف والكلمات العربية دون ان يكون لها معنى . ولذا ذكر ايضاً ان الصناع الشرقيين في اسبانية وصقلية ايضاً لم يهجروا البلاد عند الجلاء بل ظلوا فيها الى ما بعد تقلص الاسلام عن هذه الارحاء بزمن طويل . ومن هنا تم اختلاط العناصر النصرانية والاسلامية في اشكال الفن وهندسة البناء المعروف بالمدجن « Mudéjar » وبدأت ظواهر اسلامية في الفن الصقلي وفي هندسة البناء في الحقبة النورمندية . وقد تفوق صناع الفن المدجن بصناعة الخشب والفخار والمنسوجات . ولا يزال التجار الاسيائي الى هذا اليوم يطلق على بعض مناحي صناعته الفاظاً اكثرها عربية الاصل .

(١) « مسولين » (mastolina) بالاطالية ومنها لفظة « مزلر » (maslin) الانكليزية .

(٢) « بلدكو » (baldaeco) بالاطالية و « بلدكن » (baldacchino) في الانكليزية بمعنى القبة الحريرية .

صناعة العاج

أما نوع الزخرف الذي اعتمدته النقاشون العرب الأسبان والرسامون في النقوش النائشة فهو تابع للنظام نفسه الذي سيطر على عملهم في تزيين السطوح المنبسطة وغيرها من أنواع التعبير الفني . وقد ظهرت في القرن العاشر مدرسة حفاري العاج بقرطبة فانتجت كثيراً من الصناديق الجميلة والعلب المصنوعة كلها أو اجزائها من العاج المزخرفة بالزينة وهي مخدرة أو مطعمة أو مدهونة . ومن هذه الزينة ما اعتمد على موضوعات زخرفية شتى تمثل بعض مشاهد العزف على آلات الطرب أو مشاهد الصيد وفيها رسوم بعض الحيوانات والطيور . وكانت هذه العلب تستعمل في الأكثر لتوضع فيها الحلي أو الزواجر العظمية أو الخلود . ويؤخذ من الكتابات المنقوشة عليها أنها كانت في الغالب تقدم هدايا . ومن أبدع نماذج هذه الصناعة صندوق اسطواني صنع عام ٩٦٤/٣٥٣ وتدل الكتابة المنقوشة على مدار غطائه انه صنع بأمر انطليقة الحكم الثاني هدية لامرأته ، وبرزت على جوانبه رسوم اوراق النخيل والفزلات ورسوم الطواويس وغيرها من الطيور .

مدرسة البناء

لقد انقضت جميع معالم الفن الديني في الأندلس ما عدا مسجد قرطبة وهو من أقدم تلك الآثار وافخمها . وقد وضع أساسه عبد الرحمن الأول عام ٧٨٦ على مشهد كنيسة كانت في الأصل هيكلًا رومانيًا وتولى ابنه هشام الأول العمل بعمده فأكمل عام ٧٩٣ الجانب الرئيسي من المسجد وأضاف إليه مئذنة مربعة الشكل . وكانت المآذن الأسبانية تابعة في شكلها للزى الأفريقي الراجع إلى أصل سامي . وأضاف الخلفاء الذين تلووا هشامًا إلى الجامع بعض الزيادات . وكان يدعم سقته ألف ومئتان وثلاثة وتسعون عموداً ظهّرت بظهور غابة كثيفة الأشجار . وأبهر فضاء المسجد بأضواء تنالق من نريات نحاسية مصنوعة من أجرام الكنائس منها واحدة كان يؤقد فيها ألف مصباح وكانت أصغرها تحمل اثني عشر مصباحاً (١) .

(١) العمري ، مسالك الأندلس في ملك الأندلس ، نشر أحمد زكي (القاهرة ١٩١٤) .

واستخدم في زخرفة البناء صنائع بيزنطيون مهرة اسوة بما فعل الامويون الذين يقال انهم استخدموا البيزنطيين في بناء مساجد الشام . وكان المؤسس قد انفق ثمانين الف قطعة ذهب من غنائم القوط على البناء . واستمرت عملية التوسيع والاصلاح تتناول ابناء هذا الجامع حتى



مسجد قرطبة الكبير من الداخل

زمن الحاجب المنصور (٩٧٧ - ١٠٠٠) وهو اليوم كاتدرائية باسم عذراء الصعود .
اما الآثار المدنية الباقية فابديعها القصر « السكازار » في اشبيلية والحمام في غرناطة بزيتهما

الرشيقة . ولم يبق من مدينة الزهراء (١) التي بناها عبد الرحمن الثالث وخلفاؤه بأعمدهما المستوردة من رومة والقسطنطينية وقرطبة ما يدل على عظمتها وفخامتها السابقة الا القليل ويجب ان نذكر هنا أن الخليفة نصب على بابها تمثالا لأحدى جواريه التي سمي القصر باسمها . ويقال انه نصب في مدينة الزهراء قوارة ماء ازدهت حافتها بجنايل الآدميين . وفي غضون ثورة البربر سنة ١٠١٠ سبي ساكنو الزهراء واضرمت النار فيها . وخرب البربر آنئذ مدينة المنصور المسماة بالمدينة الزاهرة ونس لها ادنى أثر اليوم .

واقدم قسم في القصر في اشبيلية بناء مهندس طليطلي تامل الموحدين سنة ١١٩٩ - ١٢٠٠ ثم أعيد بناؤه على الزي الاسلامي بأمر الملك بطرس الصارم سنة ١٣٥٣ فشيده له بعض الصناع المدجنين ونزلته الأسرة المالكة بضع سنين . ولم يكن بين قصور الاندلس الشهيرة في قرطبة وطليطلة وسواها من المدن ما يضارع هذا القصر شهرة وليس منها ما بقي قائما الى اليوم سواه ولأشبيلية ان تعز ايضا بأثر آخر الموحدين هو برج الجردا الذي كان في البدء مثانة بالمسجد الجامع . وقد بنى هذا البرج في سنة ١١٨٤ ولزدان بقناطر مسندة قبل ان ينشأ الزي القوطي المسمى .

الحراء

تعد بافت اصول الزخرفة الاسبانية العربية اوجها في الحراء (٢) قصر بني نصر . وفي الواقع ان هذا القصر الشامخ بمرئاة وما فيه من الافراط في التزييق بالمعسفساء والاشكال المقرنصة والنقوش المختلفة قد جرى تصميمه والشاؤه على مثل ذلك النطاق من السعة والحجم بحيث يعتبر بحق اروع اثر معروف في صناعة البناء . وكانت محمد الاول الغالب قد شرع في بناء الحراء نحو سنة ١٢٤٨ فانهاها ابو الحجاج يوسف (١٣٣٣ - ٥٤) وخلفه محمد الخامس الغني (١٣٥٤ - ٩) ونشر الكتابات المنقوشة على الحيطان الى ان اكثرت الزخرفة الداخلية

(١) ونس اليوم : « Cordoba la Vieja » .

(٢) اراجع احسن صورته في : Albert F. Calvert, *The Alhambra*, 2nd. ed. (London, 1907) .

هي من عهد ابي الحجاج . واشهر قسم في القصر هو القسم المعروف ببلاط الاسود وفي وسطه اثنا عشر اسداً من الرخام قائمة في دائرة يخرج من فم كل حيوان فؤارة ماء . وتعتبر هذه الاسود وما يحيط بها من زخرف وما على سقف دار العدل من تزاويق اهم الآثار الفنية المحفوظة من هذا النوع . ويظهر في السقف مناظر مصورة على الجلد تمثل اساطير القروسية ومشاهد الصيد فضلاً عن صورة عشرة امراء وهم جلوس على مقعد بيضاوي الشكل . وهناك كتابات فيها ذكر الشعار المعروف شعار الغالب « ولا غالب الا الله » واخرى للزينة فيها كلام موجه الى الزائر كما هي الحال في محراب نقش عليه :

واعتبر تاجي تجده مشبهاً تاج الهلال

ونقش في « دار الاخوات » هذه الايات :

انا الروح قد أصبحت بالحسن حاليا	تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
به القبة انغراء قل نظيرها	تري الحسن فيها مستكناً وباديا
تمد لها الجوزاء كف مصافح	ويدنو لها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها	ولم تك في افق السماء جواريا

القفطرة

ان القنطرة ذات الشكل النعلي التي تميزت بها هندسة البناء الاسلامية في الغرب كانت معروفة في شمالي سورية والمدائن قبل الاسلام وقد ظهرت في ايوان كسرى وغيره من الابنية . اما القنطرة المروسة التي اصبحت فيما بعد الصفة البارزة في هندسة البناء القوطية الغربية فقد عرفت اول الامر في الاسلام بالمسجد الاموي في دمشق وقصر عمرة (١) . وقد ظهر في المسجد الاموي نفسه ايضاً نماذج من القنطرة المستديرة بشكل نعل وقد عرف هذا النوع الاخير في الغرب بالقنطرة المغربية وكان دون شك معروفاً في اسبانية قبل الفتح العربي ولكن الامبان وبنوع اخر مسمي قرطبة اذركوا ميزات الزخرفية والبنائية فتبنوه بوجه عام . وهناك

(١) W. H. Uthaidir, pp. 5,9,12; C. Leonard Woolley, The Sumerians (Oxford, 1928), (١) pp. 36-7.

مأثرة اخرى لقرطبة في عهد العرب فيها ابتكار حقاً وهي بناء الاقبية المشتملة على قبة متقاطعة وضلع ظاهرة متقاطعة ايضاً .

هذه الظواهر وغيرها من امور الهندسة البنائية التي نشأت او ارتقت في قرطبة اتصلت بطليطلة وسواها من المراكز في شمالي الجزيرة على ايدي المستعربين . فنشأ هناك بمزج التراث النصراني والتراث الاسلامي زبي خاص للعمارة عمت فيه القنطرة النعلية والاقبية المذكورة . وبلغ هذا الزبي المختلط بمساعي الصناع المدجنين درجة عالية من الكمال والجمال ولم يلبث ان اصبح فناً اسبانياً قومياً . ولا تزال هذه الطريقة المدجنة في البناء منتشرة في طول البلاد وعرضها . وقد حفظت الامة الاسبانية عدداً من المصطلحات الممارية التي ترجع الى اصل عربي (١) .

الموسيقى

كان زرياب واضع حجر الاساس في فن الموسيقى الاسبانية وهو تلميذ مدرسة الموصلي البغدادية . وقد نزل زرياب قرطبة عام ٨٢٢ واستطاع بفضل اتساع معرفته بالموسيقى والاصوات التي لا يعرفها احد غيره وتصلحه من العلوم الطبيعية وشخصيته الجذابة ولطف معاشرته وظرفه وتأدبه وحضور ذهنه ان يكون مثال الرجل الاجتماعي الممتاز . وكانت في قرطبة تحت رعاية عبد الرحمن الثاني ان اخترع زرياب مضرب العود من قوادم النمر معتاضاً به من مضرب الخشب فابدى في ذلك للطف قشر الريشة وتقائه وخفته على الاصابع وزاد في اوتار عوده وتراً خامساً (٢) . وانشأ مدرسة غدت معهداً كبيراً للموسيقى الاندلسية ثم تبعته مدارس اخرى في اشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة .

ويتلو زرياب مرتبة ابو القاسم عباس ابن فرانس (المتوفى ٨٨٨) واليه يعزى الفضل الاكبر في ادخال الموسيقى الشرقية الى اسبانية وتعميمها . ويقال انه اول من استنيط في

(١) منها ملا ، adoguia, alacena, albanil, alcoba, azotea, andalusia, algihe.

واصلها في العربية على الترتيب نفسه : « كذبان » « الحراتة » « البناء » « القبة » « السطحة » .
« الدعامة » ، « الجب » .

(٢) الفرعي ج ٢ من ٧٦ - ٨٧ .

الاندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وانه صنع آلة في منزله على هيئة السماء يتجسد للناظر فيها انه يرى النجوم والغيوم والبروق . وكان ابن فرناس اول رجل في تاريخ العرب حاول الطيران بطريقة علمية . وكانت عدته عبارة عن رداء من ريش كما نضه به وجعل له فيه جفاهين وقد قيل انه طار في الجو مسافة ولكنه لم يحسن الاحتياك في وقوعه فتأذى في مؤخره لانه لم يعمل له ذنباً (١) . على ان الموسيقى النظرية والتطبيقية التي ادخلها زرياب وابن فرناس كانت فارسية عربية فحسب بنو الي اعرام اخذت اصول الموسيقى اليونانية والقيثاغورية تحمل محلها بينما كانت الكتب اليونانية التي تدور على هذا الموضوع تنقل الى العربية .

ومما يدل على سلطان الموسيقى والالخان على قلوب أهل الاندلس ما اوردته ابن عبد ربه (٢) في عقده عن فضلها قال :

« هي الصناعة التي هي مراد السمع ومرتع النفس وبيع القلب ومجال الهوى ومسلاة السكيب وانس الوحيد وزاد الراكب ... وقد يتوصل بالالخان الحسن الى خير الدنيا والآخرة فمن ذلك انها تبعث على مكارم الاخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذب عن الاعراض والتجاوز عن الذنوب . وقد يبكي الرجل بها على خطيئته ويرفق القلب من قسوته ويتذكر نعم الملكوت ويمثله في ضميره » .

وعلى العموم فان المسلمين الغربيين كانوا اكثر ميلاً الى فن السماع والطرب من زملائهم الشرقيين . ولم يأت آخر القرن الحادي عشر حتى كانت الموسيقى الاندلسية قد كسفت شهرة بغداد في هذا الموضوع . وفي هذه الحقبة أصبحت أشبيلية تحت حكم بني عباد الذين حكموا قرطبة ايضاً مدة وجيزة مركزاً للموسيقى والغناء وغيرها من ضروريات اللهو التي تقرت عادة بمصور العرب الزاهية في ربوع الاندلس . فانه منذ العبادي (١٠٦٨ - ٩١) لم يكن شاعراً ملهاً فحسب بل كان يحسن الانشاد ايضاً والغرب على العود . واشتهرت عاصمة بني العباد بصناعة الآلات الموسيقية وتصديرها . وهناك رسالة في الموسيقى ترجع الى عصر المرابطين

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٤ .

(٢) المقدم ٣ ص ٢٢٥ - ٦ .

لفيلسوف ابن باجه (المتوفى ١١٣٨) الذي زها في أشبيلية وفاس وحي مفقودة الآن واسكنها
كانت عند أهل الغرب توازي من حيث قيمتها وأهميتها الرسالة التي ألّفها الفارابي في الشرق .
وظهر في عهد الموحدين فيلسوف آخر هو ابن سبّين (المتوفى ١٢٦٩) بحث في تناسب الانغام
الموسيقية في كتاب اسمه « كتاب الادوار المنسوب » منه نسخة وحيدة محفوظة في القاهرة (١)
وحدث مرة في مناظرة جرت في حضرة المنصور (١١٨٣ - ٩٩) ثالث ملوك الموحدين بين
ابن رشد والرنيس ابي بكر ابن زهر في المناظرة بين قرطبة وأشبيلية ان ردّ ابن رشد على ابن
زهر بهذا الكلام مدافعاً عن قرطبة :

ما ادري ما تقول غير انه اذا مات عالم بأشبيطة فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى
تباع فيها وان مات مغرب بقرطبة فاريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية (٢) .

انها في اوروبا

وكان كما ازداد ارتياح النصارى في الاندلس الى التمازج الغنائية العربية ازدادت الاغاني
العربية انتشاراً وشعبية في أنحاء الجزيرة . وقد ابع من العرب موسيقيون في قصور الملوك
بكاستيل والارغون . وعرف كثيرون من اهل الرقص والغناء العرب في الجزيرة بعد سقوط
غرناطة بيد الافريج بزمان طويل وكانوا لا يزالون يعملون بواسطة فنيهم على تسمية ابناء اسبانية
والبرتغال . وتشير ابحاث ريبيرا (٣) الاخيرة الى ان الموسيقى الشعبية في اسبانية بل موسيقى
الجنوب الغربي من اوروبا بأسرها في القرن الثالث عشر وما بعده كانت كالروايات الغرامية
الغنائية والتاريخية في الاقاليم مشتقة من منبع اندلسي ابتقى في نشأته من مصادر عربية
وفارسية وبيزنطية ويونانية . وكما انتقلت الفلسفة وعلم الرياضيات والطب من بلاد الاغريق
ورومة الى بيزنطة وفارس وبعثاد ثم الى اسبانية ومنها الى أنحاء اوروبا هكذا انتقلت ايضاً

(١) احمد زبور في الهلال ج ٢٨ (١٩١٩) ص ٢١٤ .

(٢) القرطبي ج ١ ص ٩٨ ، ٢٠٢ .

(٣) Ribera, *Historia de la musica arabe medieval y su influencia en la española* (Madrid, 1925); *Music in Ancient Arabia and Spain...* tr and abtr . Eleanor Hagne and Marion Leffingwell (Stanford University, 1929) , ch. xiii *Disertaciones*, vol. ii pp. 3-174

عدة فروع من الموسيقى النظرية والعملية . والواقع ان كثيراً من الآلات الظاهرة في الرسوم الاسبانية الدقيقة وصور بعض الاشخاص الصاريين عليها هي دون جدال اسلامية الاصل . ومن الرسوم الاسبانية الدقيقة ما يظهر فيها موسيقيون عرب يلعبون الشطرنج (١) . وقد ورد في اللغة الاسبانية نفسها اول وصف لهذه اللعبة بلغة اوربية وذلك في مؤلف لألفونسو العاشر ملك كاستيل وليون من عام ١٢٥٢ الى ١٢٨٢ . وكان الفونسو من اعظم دعاة العلوم الاسلامية في اسبانية النصرانية واليه يرجع الفضل في وضع تلك المجموعة الشعرية الرائعة Cantigas de Santa Maria التي ترجع موسيقاها في رأي ريبيرا الى اصل اندلسي اسلامي . واذا استثنينا هذه المجموعة والتقاويم التي جمعها ألقونس في الفلك وعرفت باسمه فأن هذا العاهل قد جمع مجموعة من الشرائع في كتاب تظهر فيه المؤثرات الاسلامية . وقد أصبح هذا الكتاب نفسه اسساً للتشريع الاسباني .

وقد سبقت الإشارة الى تأثير الشعر العربي في ظهور طبقة « التروبادور » الذين اخذوا بحاكون منشدي العرب لا من حيث العاطفة والطبيعة فحسب بل من حيث الصور والاشكال نفسها التي اخرجوا فيها اناشيدهم . وقد كانت بعض العناوين التي أطلقوها شعراء البرفلسال هؤلاء على مقطعاتهم الغنائية ترجمة لعناوين عربية . والراجح ان ادلارد اوف باث الذي درس الموسيقى في باريس هو الذي ترجم رسالة الخوارزمي في الرياضيات وكانت فيها قسم عن الموسيقى . ومن هنا فن هذه الرسالة هي من اقدم الرسائل التي ادخلت الموسيقى العربية الى عالم اللاتينية . وكان في حوزة العرب منذ ايام ادلارد في الشطر الاول من القرن الثاني عشر - رسائل افريقية قديمة تعنى بالموسيقى مترجمة الى العربية وعرفوا كذلك مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا وابن باجه التي وضعوها هم انفسهم في هذا الفن . ولم يأت آخر القرن حتى أصبحت أكثر هذه المؤلفات الجديدة معروفة في اوروبا بفضل ترجماتها اللاتينية التي وضعت

(١) مستمدة من النسخة بواحدة الفارسية . وليس غريباً ان يكون ورق اللعب اما عربي الاصل او مما نقله العرب الى اوروبا . واسمه في الاسبانية naipo وفي الايطالية naib وكلاهما مستعار من اللغة «نائب» العربية وقد ظهرت على «شدة» منحوتة الآن في الاسنانة ويرجع عهدها الى القرن الخامس عشر . انظر

L. A. Mayer, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, vol, xxxviii. (1939), pp. 113 seq.

في مليلة . ومما يجدر ذكره هنا انه في هذا العهد نفسه ظهر نظام جديد للموسيقى المسيحية الاوربية يقوم على ان اللحنات او الارقام الموسيقية قياساً وقتية محدودة او نسبة معينة فيما بينها .
 واول من شرح حقيقة هذه الموسيقى القياسية او الغناء المقاس رجل غامض الهوية اسمه فرانكو الكولوني (نحو ١١٩٠) وليست رقه الموسيقية المعروفة بالرقم الفرنسي لثخن في اصلها عن رقنا الحديثة . ولكن هذه الموسيقى القياسية نفسها كانت تشكل قسماً قاعاً بذاته من الموسيقى العربية وكانت تعرف باسم الايقاع وذلك قبل عصر فرانكو المذكور بما لا يقل عن اربعة قرون . وقد أفاض الكتندي (لمع نحو ٨٧٠) في ايضاحها . وقد ظهر بعد فرانكو رسالة منسوبة الى جون اوف غارلند (John of Garland) عولجت فيها اصول الـ « اوكيتس » (ochetus) اي « اسلوب التوقيع » ولعل لفظة « اوكيتس » نفسها هي تعريف لفظة « ايقاعات » العربية .

والراجع ان الموسيقى القياسية هي اعظم ما نفح العرب به هذا الفن ولم تكن الماثرة الوحيدة في هذا المضمار . زد على هذا ان الآتين اللتين كان لهما السهم الاوفر في تقدم فن الموسيقى في الغرب هما « العود والرباب » (١) وكلاهما دخيلان نقلهما العرب الى غربي اوربا .

(١) ومنها *laud* و *rabel* في الاسبانية و *lute* و *rebec* في الانكليزية . ومن الـ « اوكيتس » التي استعارتها الاسبانية *anafil* من « الفير » و *pandero* من « بندير » (العلية) و *sonajas* من « صنج » و « ادخل السلوان الى اوربا ايضاً الفشار » *guitarra* في الاسبانية) والبوق (*albogue* في الاسبانية) والطبل (*atambal* في الاسبانية) .

الفصل الثاني والأربعون

العرب في صقلية

كان فتح المسلمين لصقلية آخر موجة من موجات الفتح التي دفعت بالعرب الى شمالي افريقية واسبانية . ويرجع الفضل في هذا التوسع الاخير الذي بلغ في القرن التاسع جزيرة صقلية واوروبا الوسطى الى الاغلبة حكام القيروان . الا انه كانت هناك محاولات للغزو متقطعة قام بها بعض المغامرين والقرصان قبل الاغلبة بزمان طويل . فقد أغار احد قواد معاوية على صقلية البيزنطية في ٦٥٢ وهي السنة نفسها التي غاب فيها المسلمون الاسطول البيزنطي عند الاسكندرية وانتزعوا منه السيادة البحرية (١) . ثم ان خيرات سرقوسة وغاثما التي انتمى بها العرب عند غزوهم المدينة في هذه المحاولة الاولى كانت تشتمل على النساء وكنوز الكنائس وغيرها من الاسلاب الثمينة التي حدثت بالمسلمين الى ان يحددوا الكفرة عليها مراراً في النصف الشطر الثاني من القرن السابع . وفي القرن الثامن اخذت جماعات من غزاة البربر والعرب تتسلل من شمالي افريقية واسبانية الاسلامية الى الجزائر الواقعة شمالاً وشرقاً فتوقع الذعر في قلوب سكان صقلية وكورسكا وسردينيا . ويجب ان نذكر هنا ان القرصنة واللصوصية البحرية كانتا من المهن المشروعة في ذلك العصر يقرها الناس جميعاً المسلمون والنصارى . ولكن لم يكن وراء هذه الغارات القرصنية في تلك الايام اي خطة او سياسة مدبرة .

وكان في قيام دولة الاغلبة وتثبيت سلطتها في القيروان في السنة الاولى من القرن التاسع ما غير الحالة ودعا الى الاحتلال الرسمي . وكان ان استنجد احد نوار سرقوسة بجماعة الاغلبة على الحاكم البيزنطي في عام ٨٢٧ فكانت ذلك هزواً لغزو الجزيرة وجرّاد زيادة الله الاول (٨١٧ - ٣٨) المعاهل الاغربي الثالث سبعين سفينة ، عليها نحو عشرة آلاف مقاتل وسبعمئة

(١) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٢٢٤ ؛ Theophanes, p. 348

فارس بقيادة اسد ابن القرات (١) وكانت هذا في السبعين من عمره ويشغل منصب الوزارة والقضاء معاً عند الاغالبة . وهكذا بدأت الفتوحات الحقيقية ونزل الجيش الافريقي في مازر (٢) ثم زحف على سرقوسة ولكن الطاعون الذي نقش بالعسكر اهلك اسداً وجانباً



الفتوح الإسلامية في صقلية وجنوبي إيطاليا

- (١) ابن حزمري ج ١ ص ٩٥ التويري، نشر غاسبار ج ٢ ص ٢٤٤١. Amari, Biblioteca, p. 527.
 (٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٣٦ الأدرسي، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نشر طاهري وشياري (رومة، ١٨٧٧) ؟
 Amari, Storia, ed. Nallino, vol. I, pp. 394 seq.

كبيراً من رجاله (١). وجاءت الامداد الى الجيش من اسبانية واستولى العرب عام ٨٣١ على بلرم (بالرمو) وهي مستعمرة فينيقية قديمة، فجعلوها نقطة ارتكاز لمناصرة الفتح واصبحت قاعدة للامارة الجديدة. وحوالي عام ٨٤٣ سقطت مسيني (٢) وفي ٨٧٨ سقطت سرقوسة الحصينة بعد حصار دام تسعة اشهر ولكنها هدمت في زمن الساحل الاغالي ابراهيم الثاني (٨٧٤ - ٩٠٢) الذي قدم بنفسه الى صقلية في اواخر عهده وفتح الاراضي الواقعة بجوار جبل النار (جبل اتنا) (٣) وخرب تورمينسا عام ٩٠٢. وتوفي ابراهيم في صقلية ودفن فيها. وهكذا فان احتلال الجزيرة الذي كان قد بدأ في عام ٨٢٧ قد تم الآن. وغدت صقلية كلها أو بعضها طوال اثنتي والتسع والتمانين سنة التالية تحت امرة حكام عرب سيطروا عليها وجعلوها قطعة من العالم العربي.

في إيطاليا

وكما كانت اسبانية نقطة ارتكاز لشن الحملات على الشمال واحتلال اراضيها، وهكذا أصبحت صقلية بالنسبة الى ايطاليا وحملات العرب عليها. وكان ابراهيم الثاني (المتوفى ٩٠٢) كما ذكرنا قد جرد حملات عبر المضيق الى الجهة الجنوبية الغربية من ايطاليا المعروفة بقذورية (٤) (كلابريا). ولكنه لم يكن ازل عربي وطناً ارضاً ايطالية. وبعد سقوط بلرم بقعة قصيرة كان قواد الأغالية قد اخذوا يتدخلون في الحروب الاهلية المستمرة بين اللامبارد من سكان ايطاليا الجنوبية. أما طرفا القدم (الكعب والابهام) من شبه الجزيرة الايطالية فمكثا يومئذ لا يزالان بيد الامبراطور البيزنطي. ولما استنجحت نابلي (٥) عام ٨٣٧ بالعرب لم يترددوا عن تلبيتها وأخذت منحدرات جبل فزوفيوست تردد اصداء تكبير المسلمين

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٤٩٦ ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٩.

(٢) او سيني: بافوت ج ٤ ص ٤٣٥ ابن جبير ص ٣٢٠.

(٣) ابن الاثير ج ٦ ص ٢٤٦ بافوت ج ٣ ص ١٠٨ Amari, Biblioteca, app. 2 (Leipzig, 1887), p. 2.

(٤) بافوت ج ٤ ص ١٦٧ وقذورية في ابن حوقل ص ١٢٨، انظر ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٢، ٢٠٠.

(٥) ابن الاثير ج ٧ ص ٤٣ الادريسي ص ١٧ Amari, Biblioteca, index.

وصيحتهم كما رددتها من قبل منعطفات جبل النار في الجنوب، وبعد مضي أربع سنوات وقعت باري (على البحر الأدرياتيقي) في قبضة الغزاة فجعلوها القاعدة الرئيسية لهم مدى الثلاثين عاماً التالية. وفي هذه الآونة ظهر المسلمون الظافرون بحوار البندقية. وعام ٦٤٦ تم دودارومة نفسها بعد أن نزلت فياقتهم عند مرفأها البحري أوستيا. إلا أنهم عجزوا عن اختراق أسوار (المدينة الأزلية) فسلموا كنوز كاندرايات القديس بطرس والقائيمكانت والقديس بولس خارج الأسوار وعيشوا بقبور البائعات. وبعد ثلاث سنوات رست سفن اسطول آخر في مياه أوستيا إلا أن الاسطول الإيطالي تمكن بمساعدة عاصفة بحرية هوجاء من القضاء على اسطول العرب. وهناك صورة من ريشة رفائيل تمثل هذه الموقعة البحرية وخلص رومة العجيب. ولم يؤثر هذا في سيطرة المسلمين على إيطاليا فقد ظلت قوية بحيث أن البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٢) رأى من الحكمة أن يؤدي لهم الجزية مدة سنتين (١).

هبر الألب

ولم يقتصر الاغالب في اعمالهم الحربية على شواطئ إيطاليا بل انتزعوا عام ٨٦٩ مالطة (٢) وجردت في القرن العاشر حملات هجومية من إيطاليا وإسبانية فعبرت ثنائيا جبال الألب حتى أوروبا الوسطى. وفي الألب اليوم عدد من القلاع والأسوار الضخمة التي يقول الأدلاء للسياح عنها أنها ترجع للفتح الإسلامي. وفي سويسرا نفسها أما كن وردت اسمها في «دليل بذكر» بحيث يشتم منها أنها من أصل عربي كـ «Alaby» و «Algabo» فاعلمها من لفظة «الجاني».

مونساب من إيطاليا

كان استرجاع النصارى لباري في عام ٨٧١ فاتحة عهد جديد زال فيه الخطر الذي كان جاثماً على صدر إيطاليا وأواسط أوروبا. وكانت أمراء الجيش العربي في باري قد بلغ بهم الأمر قبل ذلك أن اعانوا أنفسهم «سلاطين» مستقلين عن الأمير المقيم في بلرم. وفي عام ٨٨٠ نشط الامبراطور البيزنطي باسيل الأول فسار إلى طارنت (ترنتو) وهي قلعة خطيرة وانتزعها

(١) Amari, Storia, ed. Nallino, vol. I, pp. 588-93.

(٢) ابن خلدون ج ١ ص ٢٠١.

من ايدي المسلمين . وبعد بضع سنوات انهزمت بقية الخامية العربية التي كانت في قلورية وانتهت بذلك آخر مراحل ذلك التوسع العظيم الذي كان قد بدأ في جزيرة العرب البعيدة قبل قرنين ونصف . ولا تزال الابراج الاسلامية التي كانت تدافع عنها انباء وصول الاساطيل العربية القادمة من صقلية او من افريقية قائمة حتى يومنا هذا على شاطئ نابل في الجنوبي مضيقة الى جماله الطبيعي الذي لا مثيل له جمالاً آخر .

الامارة الصقلية

كانت امراء صقلية في اول امرهم تابعين للاغالية المقيمين في القيروان (١) ثم ظهرت الخلافة الفاطمية الفتية في شمالي افريقية فقلبت الدولة الاغلبية عام ٩٠٩ وادى ذلك الى ان تصبح صقلية قسماً من الامبراطورية الفاطمية التي اسسها عبيد الله المهدي . غير ان مسلمي صقلية استطاعوا بعد اربع سنوات ان يعلنوا استقلالهم تحت زعامة أحمد ابن قُرهب (٩١٢ - ٩١٦) عن الفاطميين بل ان زعيمهم هذا دعا الناس الى طاعة الخليفة العباسي المقتدر عدو الفاطميين وخطب له على المنابر بصقلية وقُطعت خطبة المهدي (٢) . وحدث اخيراً ان تخلت عن الامير احمد عساكره البربر فتمكن المهدي من القبض عليه عام ٩١٧ وامر بقتله . واستعاد بذلك الفاطميون سيطرتهم على صقلية واتخذوها قاعدة بحرية جردوا منها الحملات حتى جنوى التي نهبها عام ٩٣٤ او ٩٣٥ .

ولم تكن الحالة الداخلية مرضية في صقلية . فالعنصران الاسباني والافريقي اللذان تكون منهما المسلمون فيها لم يكونا على اتفاق . وزاد الطين بلة استمرار الخلاف القديم في صفوف العرب انفسهم بين اليانية والسكالية اي بين اهل الجنوب واهل الشمال .

وفي عام ٩٤٨ استعمل النصور الخليفة الفاطمي الثالث على صقلية الحسن ابن علي ابن ابي الحسين الكلبي (المتوفى ٩٦٥) فاقر السلم في الجزيرة وأنشأ حكومة ثابتة الاركان (٣) وفي عهده

(١) راجع قائمة أسماهم في : Zambaur, p.67 . وانظر Edward Sachau, Ein Verzeichnis der Muhammedanischen Dynastien (Berlin, 1923), p. 26.

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٣ - ٥٤ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٠٤ .

وعهود خلفائه تسنى هذه الدولة السككية ان تزرع بذور الثقافة العربية في الجزيرة وتتهيأ لها فرصة للنمو . وكان في عهد ابي القموح يوسف ابن عبد الله (٩٨٩-٩٨٨) وهو من المتحدين من الحسن ابن علي ان بلغت صقلية لوج مجدها .

وعاش الامراء السككيون عيشة الترف والرخاء في قصورهم الانيقة في بلرم وانشأوا المجالس الراقية في مدينتهم المزدهرة . وقد وضع ابن حوقل (١) (٩٤٣-٩٧٧) الرحالة الجغرافي الشرقي وصفاً لمدينة بلرم في ذلك العصر بعد اقدم وصف لها بل اعله الوصف الوحيد الذي تخلف لنا بقلم شاهد عيان مسلم . وقد جاء فيه انه وجد في تلك المدينة اكثر من مئة وخمسين حانوتاً للتصابين لبيع اللحوم واكثر من ثلاثئة مسجد . وهو عدد بعيد عن التصديق وأضاف الى ذلك ان مسجدهم قام فيه اكثر من مئة وثلاثين صفاً للصلاة كل صف يحتوي على ما يقارب مئتي رجل مما جعل عدد المصلين يبلغ سبعة آلاف . وروى : « ان فيها ازيد من ثلاثئة معلم يؤدون الصبيان . واهل بلرم يمتعون هؤلاء المعلمين انصافهم واجلهم وانهم اهل الله . هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم وخفة الامة وانما لجأوا الى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونكولا عن الحرب » .

الفتح النورمندي

ونجم عن الحروب الاهلية والتدخل البيزنطي ان سقطت الدولة السككية وفسح المجال في صقلية بذلك للفتح النورمندي . وقد بدأ هذا الفتح باحتلال الكونت روجر ابن تاسكردي هونفيل في عام ١٠٦٠ لمدينة فافسي ذلك بدوره الى سقوط بلرم في عام ١٠٧١ وسرقوسة في ١٠٨٥ بايدي النورمنديين واستيلاء هؤلاء على كل الجزيرة في عام ١٠٩١ . وفي عام ١٠٩٠ اخذ روجر مالطة . وكان النورمنديون قد تركزوا واطمأنوا الى امرهم في القسرة الاوربية وها هم الآن يفتنون اقدامهم في المشكلات الجديدة .

الثقافة العربية النورمندية

وشاهدت صقلية في عهد النورمنديين ازدهار ثقافة نعرانية اسلامية جديدة بالاقلام .

ففي أثناء الحقبة العربية سرت إلى الجزيرة الفنية بذكريات الحضارات الماضية بحاري الثقافة الشرقية وقد امتزجت بقرات اليونان وروسة الثمين واكتسبت لوناً خاصاً في ظل الحكم النورمندي واكتسبت الثقافة النورمندية مزيجها الخاصة ، وكان العرب حتى هذا الزمن شديدي الانبهاك بحروهم ومشاحناتهم فلم يعنوا كثيراً بالفنون التي تزدهر أيام السلم . أما الآن فانهم اطلقوا العنان لمواهبهم الخصبه واخرجوا نتاجاً قيماً في الفن والثقافة العربية النورمندية .

أما روجر الاول (المتوفى ١١٠١) فيالرغم من انه كان نصرانياً غير متغف فانه قد اعتمد على المسلمين في حشد اكثريه المشاة في جيشه وقد شمل العلوم العربية برعايته فقرب منه الفلاسفة الشرقيين والمنجمين والاطباء ومنح غير النصاري حق ممارسة طقوسهم الدينية بحرية تامة . أما قصة عبد الجبار ابن حديس الصقلي (حوالي ١٠٥٥ - ١١٣٢) الذي هجر بلاده صقلية عند الفتح النورمندي بالرغم من انه ولد في سرقوسة نفسها وقصد البلاط العتيد في الاندلس فاستثنى مما قدمنا (١) . وعلى العموم فان روجر احتفظ بنظام الادارة السابق واستعان في ادارة شؤون الدولة بالموظفين المسلمين ، بحيث ان بلاطه في بلرم كان شرفياً اكثر منه غربياً . وبعثت صقلية الى ما بعد هذا العهد بنحو قرن وهي في وضع فذ نادر من حيث انها كانت مملكة نصرانية اسندت فيها بعض الوظائف العليا الى المسلمين .

وقد ظلت التجارة في هذا القرن الى حد كبير بأيدي المسلمين وتقدمت زراعة الاراضي تقدماً مطرداً باشراف المزارعين العرب الذين عرفوا كما عرف اخوانهم في الاندلس كيف يستغلون الارض فتتدر عليهم حاصلات الوفرة . وادخل العرب الى البلاد زراعة قصب السكر والكتان والزيتون وسواها من النباتات والاشجار الثمرة . اما صناعة الحرير فقد تركزت على ايدي النورمنديين في البلاد بعد عام ١١٥٧ . وكذلك زراعة البردي فقد ازدهرت ولزدهرت في الجزيرة وقد ذكر ابن حوقل (٢) انه لم ير مثله الا في مصر . وكانت تصنع حبال السفن من

(١) لقد ظل بن حديس ملازماً لولي نعمته الاموي حتى في أيام يؤسه ورائته الى منفاء في غربيقة لعاديواته
قد نشره شهابزلي في رومة سنة ١٨٩٧ . وهناك اقسام منه في : Amari, Biblioteca, pp. 517-73

(٢) ص ٨٦ .

أثبات هذا النبات . وقد أعجب ابن جبير (١) بنحسب هذه الجزيرة حين زارها عام ١١٨٤
فذكر مواردها الغنية ومرافق الرزق الواسعة فيها وأشار بنوع خاص الى اغراس الكرومة
وغيرها من الاشجار المنصوبة في صفوف متناسقة .

وان اقدم وثيقة اوربية مكتوبة على الورق هي امر ادلري احد رهبان الفلندين اليونانية والعربية
زوجة روجر الاول وذلك عام ١١٠٩ على الأرجح . ويظهر ان هذه الوثيقة كتبت على ورق
استورده عرب صقلية من الخارج . ولد لنا من عهد الملك روجر الثاني اقدم النقود التي تحمل
تاريخاً مكتوباً بالارقام العربية (١١٣٨) ومعها نقش عربي .

وكان روجر اول محبي العربية من ملوك صقلية وقد برز في ذلك ابنه روجر الثاني وتابعهما
فردريك الثاني . اما روجر الثاني فقد كان يلبس كالمسلمين بحيث سماه منتقدوه « الملك الوثني »
وكانت جبهة مزينة بالحروف العربية . وظل الزي الاسلامي شائعاً حتى ولاية حفيده ولهم الثاني
(١١٦٦ - ٨٩) وقد شاهد ابن جبير (٢) النساء النصرانيات في بلم في ذلك العهد خارجات
في ازياء المسلمين . اما سقف المعبد الذي شاده روجر الثاني في بلم عاصمته فقد ازدان بالصور
والاشكال التي كان فيها نقوش كوفية . وليس من شك في ان الصناع العرب اشتركوا في
تشيد هذه الكاتدرائية وغيرها من العمارات في صقلية . وهناك عدد من المصنوعات العاجية
منها علب للزينة وصوالحة للكهنة محفوظة في متحف كريستيانو بالفيبيكان وغيره من المتاحف
تمثل الصناعة الصقلية العربية لهذه الحقبة (٣) . اما امطول روجر الذي رفع صقلية الى سلم
الزعامة البحرية في البحر المتوسط فقد بناه وتولى قيادته امراء اعظمهم جرجي الانطاكي (٤)
وهو يوناني خدم في اول عهده احد امراء المسلمين في المهديدة بافريقية . وكان اعظم منصب في
الدولة يسمى باسم مشتق من العربية - اميرالس اميراتورم - اي امير الامراء .

(١) ص ٣٢٨ .

(٢) ص ٣٢٣ .

(٣) انظر Perry, B. Cat., Sicilian Arabica Inscriptions (Princeton, 1939)

(٤) Amari, Biblioteca, p. 637 .

الادريسي

كان ابو عبد الله محمد ابن محمد الادريسي أنعم شخصية ازدان بها بلاط روجر الثاني وكان اعظم علماء الجغرافية ورسمي الخرائط في العصور الوسطى . وقد ولد في صبة عام ١١٠٠ من ابوين عربيين اندلسيين ونبع في بلرم حيث مارس عمله تحت رعاية روجر الثاني وتوفي عام ١١٦٦ . اما رسالته « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » (١) المعروفة بكتاب روجار فلا تقتصر اهميتها على تلخيص المواضيع الرئيسية في الكتب السابقة بهذا النفيار كمؤلفات بطليموس والمسعودي فحسب بل تعود اهميتها ايضاً الى انها مبنية في الأساس على تقاسير مبتكرة اتصلت به عن طريق رواية كان قد اتقدهم الى بلدان متفرقة لكي يأتوه بالمعلومات . وقد اظهر الادريسي في بحث المواد التي انصت به ونقدها ونحري الحقيقة فيها رجاحة عقل ورعاية صدر وكشف عن فهم لبعض القضايا الهامة كادراكه لكروية الارض . وعلاوة على هذا الكتاب فان الادريسي صنع لولي نعمته النورمندي كرة سماوية وخريطة للعالم في شكل قرص وكلاهما من الفضة (٢) .

فردريك الثاني

كانت روجر الثاني أحد « سلاطين صقلية المعدين » (٣) وكان السلطان الآخر حفيده فردريك الثاني الهوهنستوفي (١٢١٥ - ٥٠) وهو الذي بسط حكمه على صقلية والمانيا . وتمتع بعد سنة ١٢٢٠ بلقب « امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة » واصبح فوق هذا ملك بيت المقدس وذلك بفضل زواجه سنة ١٢٢٥ بوليا العهد ايزابيل البريتية . ومن هنا فقد كان الامبراطور فردريك الثاني اعظم ملك في العالم المسيحي لذلك العهد . ولم يكذب بتفضي على زواجه ثلاث سنوات حتى جرد حملة صليبية عاد منها وقد تأثر أكثر من قبل بالافكار الاسلامية .

(١) طابعت خلاصته مع احدي وسبعين خريطة في رومة منذ سنة ١٥٩٢ بحيث كانت من اقدم النسخ العربية المطبوعة . وقد نقاه الى اللاتينية دون تعديل كثير عالمان مارونيان هما جبرائيل المسعودي ويوحنا المسعودي بعنوان : *Geographia Nubiensis* (Paris, 1619) وقد تضمنت اقسام من النص الاسلي في ايون ومغريد ورومة ودين وسواما .

Amari, Biblioteca, p. 658 (٢)

Amari, Storia, ed. Nallino, vol. III, p. 372. (٣)

وكان في عاداته وحياته الرسمية شبه شرقي فقد أقام لنفسه بيت حريم على طريقة الملوك المسلمين ولمع في بلاطه فلاسفة من سورية و بغداد ذروحي مستطيلة وجيب فضفاضة وكان في قصره قبان وراقصات شرقيات ويهود من الشرق والغرب. وانشأ علاقات سياسية وتجارية مع العالم الاسلامي وبتوع خاص مع سلطانات مصر الكامل محمد ابن اخي صلاح الدين الايوبي (١) (١٢١٨ - ٢٨). وقد جاءه من سلطان مصر هذا هدايا شرقية بينها جمال عربية كان يصطحبها معه في اسفاره وزرافة هي اول زرافة حية بها الى القارة الاوربية. واستدعى اهل اختصاص من مصر لاجراء التجارب في بيض النعام وحضائنه اوتفقيصه بخرارة الشمس. وفي عام ١٢٣٢ وصله من السلطان الاشرف الايوبي ايضاً آلة بديعة فيهما اشكال الشمس والقمرة قد رتبت بصورة تتعين بها الساعات في مواعيد دورانها. فارسل الامبراطور مقابل ذلك دباً وطاووساً ابيضين ادهشا الدمشقيين كما ادهشت معاصريهما اهل صقلية الزرافة التي وصلتهم من مصر. وقد طلب فردريك من السلطان الكامل هذا ما طلبه من حكام مسلمين آخرين الا وهو حل الغاز مبنية على مسائل رياضية وفلسفية وفلكية والاستفهام عن بعض المسائل الاخرى. وقد تمكن من شرح المسائل الرياضية والفلسفية عالم مصري (٢) اما المسائل الهندسية الفلكية ومنها تربيع قطع الدائرة فقد تم حلها في الموصل. وهي الاسئلة نفسها التي وجهت الى ابن سبئين.

واستحضر فردريك من سورية رجالاً ماعرين في ترويض البزاة واخذ يشاهدهم وهم يذرون الطيور وكان يتمتع الطيور بان ينطلي غيوضها ويطلقها تفدش عن الطعام بواسطة حاسة الشم. وعهد الى ترجمانه ومنجمه تاذري (ثيودور) وهو نصراني ينفوي من انطاكية (٣) بنقل رسالة عربية عن تربية البزاة. وقد اصبحت هذه الترجمة مع ترجمة أخرى من الفارسية اساساً للكتاب الذي وضعه فردريك نفسه في ترويض البزاة وهو اول مصنف في التاربيخ الطبيعي عندهم. كذلك وضع تاذري للامبراطور رسالة في حفظ الصحة تلخيصاً عن د سر

(١) ابو الفداء ج ٣ ص ١٤٨.

(٢) Amari, Biblioteca, p. 522; cf. p. 514.

(٣) ابن العربي ص ٤٧٧ - ٨.

الاسرار» وهو الكتاب المنسوب خطأ إلى أرسطو. وكان قد سبق ناذري في وظيفة منجم البلاط عالم اسمه ميخائيل سكوت وقد تمثلت به في صقلية وإيطاليا من ١٢٢٠ إلى ١٢٣٦ الحركة العلمية في إسبانية الإسلامية. وقد أنجز سكوت للإمبراطور ترجمة من العربية إلى اللاتينية فيها موجز مؤلفات أرسطو في علم الحياة وعلم الحيوان مع شرح ابن سينا وقدمها إلى ولي نعمته. إن هذه الروح العلمية في البحث والتقصي والاختبار التجريبي التي تكاد تكون حديثة والتي ميزت بلاط فردريك الثاني بدء عصر النهضة الإيطالية. فقد أخذت حركة الشعر والأدب والموسيقى تزدهر تحت تأثير الأدب اللاتيني واليوناني والعربي^(١) والظاهر أن نظام الشعر باللغة العباسية في إيطاليا قد تم جرساً على عادة الشعراء والمغنين العرب وأن محور الشعر الشعبي الأول في إيطاليا كما يبدو من أغاني اعمياد المرافع والأغاني الومانية ballata هي في أساسها كبحور الشعر الأندلسي الشعبي^(٢). على أن أعظم ما أتى فردريك هو تأسيسه جامعة نابولي في عام ١٢٢٤ وهي أول جامعة في أوروبا تأسست بمرأة خاصة، وقد أودع فيها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية أما مصنفات أرسطو وابن رشد التي أمر فردريك بترجمتها فإنها قد استعملت كتباً مدرسية. وأرسلت من هذه الترجمات نسخ إلى جامعات باريس وبولونيا وكان من الطلاب في جامعة نابولي توماس الأكويني. وفي القرن الرابع عشر والقرون التي تلتها أخذ الأقبال على الدراسات العربية يزداد في كثير من جامعات أوروبا ومنها جامعتا أكسفورد وباريس. ولكن الغاية اختلفت عما كانت عليه قبلاً. فقد أصبح غرض هذه الحركة الآن أعداد المسلمين النصاري لشر الدعوة في البلاد الإسلامية.

مقام صقلية في نقل الفكر

كانت صقلية ملتقى ثقافتين ومن هنا تنهياً لها أن تكون الواسطة في نقل حضارة العصور القديمة والعصور الوسطى إلى الغرب. أما سكانها فكانوا عنصريين، عنصرياً يونانياً يتكلم اليونانية وآخر إسلامياً يتكلم العربية وكان فيها فوق ذلك طائفة من العلماء الباحثين يعرفون

Amarì, Storia, ed. Nallino, vol. III, pp. 760 seq; G. A. Cesareo, (١) Le origini della poesia lirica e la poesia siciliana sotto gli svevi, 2nd ed. (Milano, 1921) pp. 101, 107
José M. Millas in Revista de archíveo, vol. xli. (1929), pp. 550-64, xlii (1921), p. 37-50 (٢)

اللاتينية . وكانت هذه اللغات الثلاث مستعملة في المذونات الرسمية والبراءات الملكية كما كانت شائعة أيضاً بين اهل بلرم المتعدي الاسنة . ففي صقلية تم نقل كتاب « الجسلي » الى اللاتينية حوالي عام ١١٦٠ رأساً عن اليونانية بمؤازرة عالم صقلي يتكلم اليونانية اسمه يوجين البلرمي ويلقب بالامير . وقد منع يوجين في عهد روجر الثاني وخلفه وابنه الاول وكان يحسن



خارطة بحرية للعالم وضعت في القاهرة سنة ١٤٥٦ بناء على جغرافية الادريسي . لاحظ منابع النيل وكان يظن انها من مكتشفات القرن التاسع عشر

العربية واللاتينية ايضاً . وقد وضع نصاً لاتينياً له « كتاب العين » (copica) العربي المنسوب أصلاً الى بطليموس ، وكان الاصل اليوناني مفقوداً . ولعلنا كذلك على نقل كتاب « كلية ودمنة » من العربية الى اليونانية . ولم يقتصر التشجيع في عهد ولیم على النقل عن العربية فقط بل تعداه الى النقل عن المصادر اليونانية ايضاً .

وساهم يهود صقلية كما ساهم يهود اسبانية في حركة الترجمة وقد نقل كتب الرازي

الشامل في الطب الى اللاتينية عام ١٢٧٩ طبيب يهودي من صقلية اسمه فرج ابن سالم وكان ذلك تحت رعاية شارل الاول وانشأ الكتاب في مخطوطات عديدة خلال القرون التي تلت . وهو المصنف الطبي الوحيد الذي نُقل الى اللاتينية في صقلية فقد اقتصر أكثر المصنفات المنترجة على الفلك والرياضيات . ولم تكن الخدمات العلمية التي قامت بها صقلية قليلة القدر برغم ان بعض الترجمات التي تم نقلها عن العربية واليونانية فيها قد اعيد نقلها بعدئذ بشكل أتم وأفضل في طليطالة .

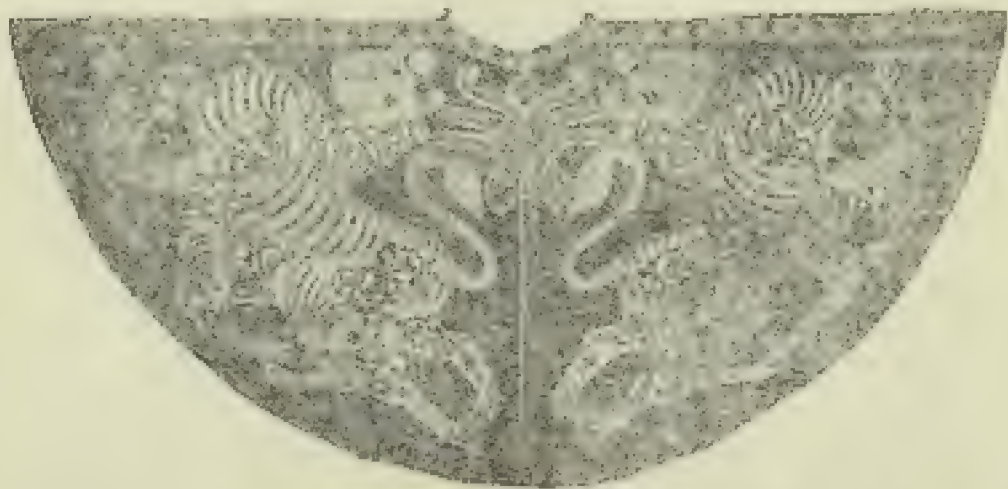
عن هسبريه ايطاليا

ولما كان الملوك النورمانيون وخلفاؤهم على عرش صقلية يحكمون أيضاً ايطاليا الجنوبية فقد نسي لملكهم ان تكون جسراً تميز عليه شتى العناصر الثقافية الاسلامية الى شبه الجزيرة الايطالية واوربا الوسطى . ولم يكذب منتصف القرن العاشر حتى اخذت آثار العلوم العربية تظهر في شمال جبال الالب ، فأراء دانتي في الآخرة وان لم تكن مستفاداً رأساً من نص عربي معين فهي دون شك شرقية الاصل استمدتها الشاعر من ادب اوربا الشعبي في ذلك العهد . واخذت هذه المؤثرات الشرقية طرقاً مختلفة نفذت منها الى الغرب وظهرت في ميادين الفن كما ظهرت في ميادين العلم والادب . ويلاحظ لنا الآن أن شكل بناء ابراج الاجراس المعروف بـ « كامبالي » Campanile في عصر النهضة إنما استمد من شكل المئذنة المربعة المعروفة في شمالي افريقية وبالأخص تلك التي كانت تابعة للزوي المعري . وقد ظل كثير من الصناع المسلمين ورجال الفن يمارسون صناعاتهم في صقلية وجنوبي ايطاليا الى ما بعد تحول الملك فيها الى حكومة مسيحية كما تشهد بذلك اشكال الفسيفساء والنقوش في كنيسة البلاتين . وكان معمل الحياكة المشهور الذي أنشأه امراء المسلمين في قصر بلرم الملكي يجهز العائلات الملكية في اوربا بالملابس الرسمية وقد طُرِزَت عليها الكتابات العربية . ومن صقلية نفسها استمد صناع المنسوجات الاول في ايطاليا معرفتهم الفنية ونماذج الرسوم التي رسموها . وفي اول القرن الثالث عشر كانت حياكة الحرير قد اصبحت الصناعة الرئيسية في عدة مدن ايطالية واخذت هذه المدن تصدر المنسوجات تقليداً للمصنوعات الصقلية الى انحاء متفرقة من اوربا . وكان في

البندقية وفرارا وبيزا كما كان في بلرم وقادس من قبل جماعات من الصناع الشرقيين يعطون
ابناء البلاد ويساهمون معهم في العمل . وبلغ الطالب على المنسوجات الشرقية درجة عظمى
بحيث ان الاوربي لم يكن يحسب نفسه حسن الهيئة والهندام ما لم يكن في حوزته بدلة شرقية
على الاقل .

وفي اثناء القرن الخامس عشر حين اخذت مدينة البندقية الغنية في تبني الازياء الاسلامية
في الفن ونشرها وتعميمها اخذت الكتب التي كانت تجلد في الصانع الايطالية تظهر بحلة
شرقية . وظهرت الكتب المسيحية متعمة بخصائص فن التجليد العربي وبنوع خاص تعرض
احدى دفتي الكتاب الجلد بحيث تطوى الدقة على الكتاب فتصون حافته . وظهرت في
الوقت نفسه في عدد من المدن الايطالية طرق جديدة لزخرفة جلد الكتب وطبع الرسوم
فيها فقلوها عن الصناع الشرقيين . زد على هذا ان البندقية نفسها أصبحت موطن صناعة
اخرى تقوم على ترصيع النحاس الاصفر بالذهب او الفضة او النحاس الاحمر وهو فن تميزت
به الموصل في القرن الثاني عشر .

وعلى الاجمال فان صقلية تعد ثانية بعد اسبانية من حيث الدور الذي لعبته في نقل الثقافة
الاسلامية الى الغرب ولكن دورها دون شك يفوق الدور الذي لعبته سورية زمن الحروب
الصليبية .



وشاح التبريج الذي لبسه روجر الثاني . ونرى على حاشيته الدائرة مظهرها بالخط الكوفي



القسم الثاني
آخر الدول الإسلامية في المصو الوسطى



الفصل الثالث والأربعون

خلافة شيعية في مصر: الفاطميون

الدعاة الاسماعيلية

كانت الخلافة الفاطمية وهي الخلافة الشيعية الوحيدة الكبرى في الاسلام (١) قد تركزت في تونس سنة ٩٠٩ متجددة خلفاء بغداد العباسيين ومتعمدة منازعتهم على الزعامة الاسلامية التي كانت بينهم . وكان مؤسس الخلافة الفاطمية سعيد ابن حسين ويرجع نسبه على ما يرجح الى عبد الله ابن ميمون الفارسي المؤسس الثاني لحركة الاسماعيلية (٢) . وكان ظهور سعيد الرابع وقيامه بالأمر خلفاً لابن ميمون نتيجة لدعاية اسماعيلية مدبرة بدهاء وحذق لا نوازبها الا تلك الحركة السابقة التي قضت على شوكة الخلافة الاموية . اما نجاح الحركة فعائد بالأكثر الى مساعي داعي الدعاة ابي عبد الله الحسين الشيعي الخاصة . وكان هذا في الاصل من اهل صنعاء اليمن وقد اعلن نفسه في اواخر القرن التاسع رانداً للمهدي وغرس بذور الفتنة في صفوف البربر بشالي افريقية لاسميا قبيلة - كثنامة (كثامة) وكان قد تعرف الى بعض افرادها بمنكة في موسم الحج (٣) . وكانت افريقية آنذاك خاضعة لحكم الاغالبة .

تمهيد سعيد الفاطمي

وكانت نجاح ابي عبد الله الباهر في تلك البقعة النائية حافزاً لسعيد أهاب به الى مغادرة مقر الاسماعيلية بسلمية والسفر متخفياً في زي تاجر الى شمالي افريقية الغربية . وعندما سبق

(١) أما الاشارات العلوية القديمة المشقة فراجع امرها تحت عنوان الادارة والحدودية . وترجم سيادة اشرف مراکش الى سنة ١٠١٤ وهم يرمطون نسبه بالحسن ابن علي ويكادون يفاويون السنة في عقائدهم (٢) كان مؤسس الاول لاهل اسماعيل (التوفي ٢٦٠ هـ) (٣) ابن عساري ج ١ ص ١١٨ .

سعيد الى السجن في سجلماسة بامر زيادة الله الاغلبى (٩٠٣ - ٩٠٤) انتقد ابو عبد الله الشيعي (١) وما زال هذا يسمى حتى عدم دولة الاغالبية سنة ٩٠٩ وطرد زيادة الله آخر ملوكها من البلاد. وكانت دولة الاغالبية قد دامت نحو قرن وكان اصحابها آخر معقل للسنة في ذلك الجزء من افريقية. وعودي سعيد اميراً فنقب بالامام (٢) عبيد الله المهدي وتقبله الناس على انه من فرية فاطمة من نسل الحسين واما عيلى. وتغلب الاشارة الى الدولة التي انشأها باسم العبيدية لاسيما عند الذين لا يسلطون بالنسب الذي ادعاه.

وانقسم المؤرخون المسلمون الى فريقين بشأن صحة نسبة الفاطمي. ولا يقل عدد الانساب التي ذكرها له مشايخه وخصومه عن الثمانية. وقد بالغ بعض اعتدائه فنسبه الى أب يهودي. ومن اشهر القائلين بصحة نسبة الفاطمي ابن الأثير (٣) وابن خلدون (٤) والمقريري (٥). ومن جملة من يرتاب في نسبة اوينكره او يزعم انه محتمل ابن خلكان (٦) وابن عذاري (٧) والسيوطي (٨) وابن تيري بردي (٩). وجدير بالذكر أن هذا الخلاف على نسبة لم ينشأ حتى سنة ١٠١١ وذلك حين كتب ببغداد محضر بامر القادر تضمن القدرح في نسب خلفاء مصر الفاطميين. وقد وقع على المحضر جماعة من اعيان السنة والشيعة وجاء فيه ان هذا الناجم بمصر المنقلب بالحاكم لا نسب له في ولد علي ابن ابي طالب بل ينسب الى دريدان ابن سعيد الخارجي (١٠).

(١) ينظر البعض خطأ ان السجن المسمى انما قبل قبل تسليم سجلماسة الى الشيعي.

(٢) اعد آخر الفاطميين - وهم شيعة - لقب « امام » على لقب « خليفة ».

(٣) ج ٨ ص ١٧ - ٢٠ والخاتمة ابو الفداء ج ٢ ص ٢٢ - ٨.

(٤) ج ٤ ص ٣١.

(٥) خطاط (بولاق، ١٢٢٠) ج ١ ص ٣١٨ - ٩.

(٦) ج ١ ص ١٨٧.

(٧) ج ١ ص ١٥٠ - ١٥٧ - ٨.

(٨) تاريخ الخلفاء (الطاهرة، ١٣٠٥) ص ٢١٤.

(٩) نشر بردي ج ٢ قسم ٢ ص ١١٢.

(١٠) محضر الجلسة محفوظ في ابي الفداء ج ٢ ص ١٥٠.

الفاطمي الاول

نزل عبيد الله (٩٠٩ - ٩٤٥) اول الامر في الرقادة مسكن الاغالبة بضاحية القيروان وثبت نفسه فيها وأحسن الحكم فذات له الرقاب . ولم يمض على تسلمه الزعامة سنتان حتى قتل ابا عبد الله الشيعي كبير دعائه وقواده ثم لم يلبث طويلاً حتى نشر لواء دولته على كل الأراضي الافريقية المتسدة من مراكنش الادارسة حتى تخوم مصر . وفي عام ٩١٤ احتل الاسكندرية و بعد ذلك بسنتين انزل الدمار بارض الدلتا وملك صقلية وبعث اليها حاكماً من ابناء قبيلة كتامة يليها عنه . وعقد مع ابن حفصون الناصر في اسبانية علاقات الصداقة . وانتقل اليه اسطول الاغالبة فاكتسب صولة بحرية هائلة شعرت بوطانها مالطة وسردينيا (١) وكورسكا والجزائر الشرقية وغيرها . واتخذ لنفسه حوالي عام ٩٢٠ مسكناً في « المهديّة » (٢) عاصمته الجديدة التي بناها على الساحل التونسي على بعد ستة عشر ميلاً الى الجنوب الشرقي من القيروان وسمّاها باسمه .

الاسطول

وسار خلفاء عبيد الله على خطته فتابعوا سياسة الهجوم والتوسع واخذ ابنه (٣) ابو القاسم محمد القائم (٩٣٤ - ٩٤٦) اسطولا في عام ٩٣٤ او ٩٣٥ أغار على ساحل فرنسا الجنوبي فأخذ جنوى ومر بجانب كلابريا حاملاً الارقاء الذين سباهم وغنائم اخرى . غير ان هذه الحملات كلها لم تصل الى فتح دائم . وفي عهد ابي سعد المزم (٩٥٢ - ٩٧٥) حفيد القائم عظم شأن الاسطول المصري وقوي بما اضيف اليه من وحدات جديدة بليت في مرسى ميناء القاهرة النهرى قبل بولاق فغزا في عام ٩٥٥ سواحل اسبانية وكان ذلك في ايام الخليفة الناصر المشهور . و بعد ثلاث سنوات امكن الجيش الفاطمي في افريقية في تقدمه غرباً حتى بلغ المحيط الاطلسي

(١) وقد اخرجت اخيراً من اسبانية سنة ١٠٠٢ .

(٢) باقرت ، بلدان ج ٤ ص ٦٩٤ - ٦٩٥ السعدي . غيره من ٣٣٤ : ابن حاد ، اخبار ملوك بني عبيد قس قسرين (الجزائر) ١٩٢٧ (ص ٩ - ١٠) .

(٣) حارسه كما يستنتج من مصدر اسماعيلي ، انظر : Bernard Lewis, *The Origins of Islam* .
Islam (Cambridge, 1960), pp. 51 - 2

حيث نزل امير الجيش قاصطاد منه سكة الى الخليفة حياً في جراد . وفي عام ٩٦٩
انزع الفاطميون مصر من ايدي اصحابها الاخشيديين .

جوهر الصقلي

كان بطل هذه الحملات الأخيرة جوهر الصقلي الرومي وكان هذا في الأصل نصرانياً ولد
في بلاد بزنطية لعلمها صقلية ومنها جاء رقيقاً الى القيروان (١) . ولم يكد جوهر يدخل ظافراً
سنة ٩٦٩ الى القسطنطينية عاصمة مصر حتى اخذ في تخطيط محلة جديدة سماها القاهرة (٢)
واصبحت عاصمة الفاطميين سنة ٩٧٣ . وبعد ان بنى جوهر العاصمة الجديدة وهي اليوم اكبر
مدن افريقية واكثرها سكاناً شيد سنة ٩٧٣ الجامع الازهر الكبير (٣) وجاء الخليفة العزيز
بعد وقت يسير فجعله أيضاً داراً للعلوم .

وهكذا اصبح جوهر المؤسس الثاني للدولة الفاطمية بعد مؤسسها الاول ابي عبد الله الشيعي .
وكانت هذه الدولة تشمل في العصر الذي ندرسه جميع افريقية الشمالية . اما غربي الجزيرة
العربية فقد ورثه الفاطميون عن الاخشيديين المتعاونين الذين كان قد عهد اليهم العباسيون
امر حماية الحرمين الشريفين . ولما استتب الأمر لجوهر في وادي النيل ارسل بعض قواده الى
سورية فبلغ دمشق سنة ٩٦٩ واحتلها موقتاً (٤) . وقد واجه هناك اشد خصومة ومقاومة من
القرامطة الذين كانت سطوتهم نافذة في كثير من أنحاء البلاد السورية .

سلطة الفاطميين في ندرنرا

وفي ايام ابي منصور نزار العزيز (٩٧٥-٩٦٦) خامس خلفاء مصر الفاطميين واول من
ولي الخلافة وهو في مصر نفسها عم السلام البلاد وبلغت سلطة الفاطميين ذروتها . فقد خطب
لهذا الخليفة في جميع الاقطار الواقعة ما بين المحيط الاطلسي والبحر الاحمر وفي اليمن ومكة
ودمشق ، حتى الموصل ف قد خطب له فيها مرة واحدة . ونفقت راية العزيز على هذه

(١) ابن خلدون ج ١ ص ٢٠٩ - ١٣ : القريزي ج ١ ص ٣٧٧ وما يلي .

(٢) على اسم النجم السيار المربح (قاهر القلوك) الذي كان في صعوده اذ ذلك .

(٣) من الزهراء لقب فاطمة بقت الرسول .

(٤) ابن خلدون ج ١ ص ٤٨ : القريزي ج ١ ص ٣٧٨ .

البلدان وحكم ، ولو بالاسم على الأقل ، جميع هذه الاراضي المتسعة . ولم تكن خلافة مصر في عهده أعظم سلطة نافذة خلافة بغداد فحسب بل انها فاقت هذه الأخيرة واتحلت ذكرها واكتسبت لنفسها قوة بحرية بحيث أصبحت الدولة الاسلامية الكبرى الوحيدة في شرفي المتوسط . ولما تم امر العزيز واخذ في تمهيد امور بلاده بنى قصراً في القاهرة اتفق عليه نحو مليوني دينار فيما يروى وهبناه لاسكان منافسيه بني العباس الذين كان يأمل أن يقبض عليهم عند استيلائه على بغداد . وكان كاسلافه يطمح ان يكتسح اسبانية نفسها يوماً ما وقد ارسل بالفعل الى صاحبها بهجوه ويتهدهده . وكان في جواب صاحب الاندلس الاموي حين وصله كتاب العزيز « اما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجيدك » . (١)

ولعل العزيز كان أحكم الخلفاء الفاطميين واسمهم بدأ . وقد عاش في ترف وبذخ فاهتني في القاهرة وجوارها عدة جوامع وقصور واقنية وجسور وتساهل مع النصارى فنحهم قسطنطين الحرية لم يعرفوه من قبل . وليس من شك في انه اقدم على هذا بفضل وزيره النصراني عيسى بن نسطور وتأثير زوجته الروسية ام ولده وورثته الحاكم واخت بطريك الاسكندرية واورشليم الملكيين .

واخذ صرح هذه الخلافة الفاطمية يتداعى بعد ملك العزيز السمع بسدة قصيرة . وكان العزيز نفسه اول خليفة فاطمي تسج على متوال العباسيين ونهج نهجهم الفاطمي . في اعتماده على المساكر التركية ومنزقة الجند من الزنج فكان هياج هذه المساكر على اولياتها وقتلها فيما بينها ونزاعها مع حرس الخليفة البربر من اهم العوامل التي ادت الى انحلال الامر وسقوط المملكة . وكان اخيراً ان الجند الشراكسة والترك والارقاء هم الذين اغتصبوا السيادة العليا وأنشأوا دويلات مستقلة .

الليفة الحاكم

كان ابو علي منصور الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١) ابن احدى عشرة سنة فقط حين ولي الخلافة بعد العزيز . وقد تميز حكمه بالشدة والقسوة وسفك الدماء فقد قتل عدداً من وزرائه

(١) ابن تفرج يروي نشر بيرج ٢ قسم ٢ ص ٢ .

وأمر بهدم عدد من الكنائس كانت منها كنيسة القيامة (١٠٠٩) . وأرغم اليهود والنصارى على لبس السواد ومنعهم أن يركبوا إلا الخير . وأمر أن يكون في اعتناق النصارى إذا دخلوا الحمام الصلياني وفي اعتناق اليهود الجلاجل ليميزوا عن المسلمين . ثم أفرد حمامات اليهود والنصارى من حمامات المسلمين وحط على حمامات النصارى الصليبان وعلى حمامات اليهود صور القرامبي (١) وكان الحاكم ثالث خليفة في الاسلام بعد المتوكل وعمر ابن عبد العزيز يضع الأحكام النصارى على غير المسلمين (٢) . وفيما عدا ذلك فإن العهد الفاطمي تميز بالتساهل مع أهل الذمة والعطف عليهم . والواقع أن الأمر الصادر بهدم كنيسة القيامة إنما كان موقفاً من قبل وزير الحاكم النصارى ابن عيرون . وكان هذا العمل من جملة العوامل التي مهدت الطريق للحروب الصليبية . وأخيراً بلغ من أمر هذا الخليفة الأزرق العييني ذي الشخصية الغامضة أنه ادعى الألوهية عملاً بعتقد الفلاة من الاسماعيلية . وقبلته طائفة جديدة من الناس سمو بالدرود نسبة إلى الدرزي (المتوفى ١٠١٩) أول كبار دعايتها (٣) . وفي ١٣ شباط سنة ١٠٢١ قتل الحاكم على جبل المقطم والراجح أن اخته ست الملوك دست عليه من يقتله وكان الخليفة قد اتهمها بسوء السيرة .

دور الأخطاط

وولي الخلافة بعد الحاكم فتيان غير راشد فكانت السلطة الحقيقية بأيدي وزراء تنعم بعضهم فيما بعد بنصب ملك أيضاً . فابن الحاكم وخلفه الظاهر (١٠٢١ - ١٠٣٥) إنما كان في السادسة عشرة من عمره عند تسلمه العرش ، وهو الخليفة الذي سمى قسطنطين الثامن يذكر اسمه في الخطبة أعوام دار الروم وخوله الحق في إعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل سماح الخليفة له بتزيم كنيسة القيامة (٤) . وولي الخلافة بعد الظاهر ابنه معتمد المستنصر (١٠٣٥ - ١٠٤٨) . وله من العمر إحدى عشرة سنة وظل عمره فملك ستين سنة وهو أطول حكم في

١ - ابن خلدون - ج ٣ ص ٤٥٥ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٤٠ وفاتى بحري بن سعيد في القصر شيخو من ١٨٧ .

٢ - ابن الأثير في تاريخه ج ١ ص ١٠٠ وفي تاريخه ج ٢ ص ١٠٠ وفي تاريخه ج ٣ ص ١٠٠ .

٣ - ابن خلدون ج ٢ ص ١٠٠ وفي تاريخه ج ٢ ص ١٠٠ .

٤ - ابن خلدون ج ٢ ص ١٠٠ وفي تاريخه ج ٢ ص ١٠٠ .

الاسلام^(١) . واستأثرت أمه في اول عهده بالحكم وهي جارية سوداء وكانت قد اشترت من يهودي فأدارت شؤون البلاد واستوزرت سيدها السابق وتمتعا معاً بالسلطة . وكانت مملوكة الفاطميين في هذا الوقت قد تقلصت واقتصر سلطانهم على مصر وجزء صغير غيرها . وبعد سنة ١٠٤٣ اخذت سيطرة الفاطميين تضمحل في سورية وكانت في اساسها ضعيفة هناك . وسادت الفتنه فلسطين واخذت قوة مسلحة هائلة تتقدم من الشرق تحت لواء الفرسان السلاجقة متهددة آسية الغربية . وفي الوقت نفسه كانت أمصار الفاطميين بافرريقية تمتنع عن تأدية ما عليها من ضرائب وتعلن استقلالها او تعود الى طاعة العباسيين . وتحركت قبائل بني هلال وسليم العربية النجدية الأصل سنة ١٠٥٢ من مصر العليا نحو الغرب واخذت تعيث فساداً في طرابلس وتونس^(٢) مدة طويلة . اما صقلية التي ادغمت بعد عهد الاغالبة لسلطان الفاطميين فقد اخذ الآن يغشاها النورمنديون . وما جادت سنة ١٠٧١ الا وقد احتلوا اكثرها وكادوا بعد ذلك ان يحتلوا بعض الانحاء في القارة الافريقية نفسها . وكانت الجزيرة العربية هي الوحيدة في المحافظة على ولائها لدعوة الشيعة . ولم يكن في الافق الا نور ضئيل مصدره ظهور القائد التركي المختصم البساسيري^(٣) (المتوفى ١٠٦٠) ونجاحه ببغداد واقامته الخطبة على منابرها لخليفة مصر مدة اربعين اسبوعاً متعاقبة . وسلكت واسط والبصرة سبيل بغداد في هذا الأمر واقصى الخليفة العباسي القائم عن عاصمته بعد ان تخلى لمنافسه الفاطمي عن الولاية وانزعجت منه عمامته وبردة النبي التي كان يلبسها وشرفة جميلة من شرفات قصره فاخذت كلها الى القاهرة شعاراً للظفر . ولقد اعاد صلاح الدين ، بعد مرور قرن ، العامة والبردة مع وثيقة التخلي الى بغداد اما الشرفة التي انتقلت من قصر الى قصر فقد اتصلت اخيراً بالسلطان المملوك بيبرس جاشنكير فاضافها الى ضريحه الذي كان يهيشه ودفن فيه سنة ١٣٠٩ .

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٥٠ .

(٢) لقد كانت تنقلات بني هلال وغزواتهم اساساً تاريخياً لبردة بني هلال المشهورة .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ١٠٧ - ٨ .

السفرط

وانخذت تظهر القمن والاضطرابات في الداخل بين فصائل الترك والبربر والسودان وشلت سلطة الحكومة واجتازت البلاد مجاعة دامت سبع سنوات وافقت الثروة والعمران . وفي سنة ١٠٧٣ استقدم الخليفة الضعيف المستنصر بدر الجمالي الارمني من مركز حكمه العسكري عكا - وكان هذا التوالي في سابق عهده عبداً - واسند اليه الوزارة وامارة الجيوش (١) . فقام بدر بالامر وحكم بهمة ونشاط فحفظ النظام والامن واسترد ماضي الخلافة واعاد الى الدولة الفاطمية حياة جديدة . ولكن هذه الانتماشة لم تدم طويلاً ، ولم تكن جهود بدر لرد الكارثة كافية ولا جهود ابنه الملك الافضل (٢) الذي خلفه بعد وفاته ١٠٩٥ . وانصفت السنوات الاخيرة لعهد الفاطمي بالمزاج المستمر بين وزراء اختلفوا فاخذت بعض فرق الجيش تناصر الواحد على الآخر . وعند وفاة المستنصر رأى الملك الافضل ان يضع على العرش المستعلي اصغر ابناء المستنصر آملاً ان يكون الخليفة اداة في يده . وولي بعد المستعلي ابنه وله من العمر خمس سنوات وقد عينه الملك الافضل ايضاً ومنحه لقب الأمر (١١٠١ - ٣٠) . وجاء الحافظ (١١٣٠ - ٤٩) بعده . ولم يكن سلطان الخليفة يمتد عند موت الحافظ الى ما وراء قصر الخلفاء . وكانت ابنه الظاهر (١١٤٩ - ٥٤) الذي خلفه شاباً يحب الملاهي فاغتصب الملك منه وزيره الكردي ابن السالار الملقب بالملك العادل . وفي مذكرات اسامة (٣) الذي نزل بلاط الفاطميين بين سنتي ١١٤٤ و ١١٥٤ ما يشير الى ان الدسائس والخصومات والمآثم في قصور الفاطميين آنذاك بلغت حداً لم يعرف في بلاط دولة أخرى . وكان اغتيال ابن السالار (١١٥٣) بيد حفيد زوجته نصر ابن العباس ، وتولي ابن العباس الوزارة ، ومحاولة نصر قتل ابيه العباس بتحرير بعض من الخليفة ، ومقتل الظاهر سراً بيد هذا الفتى المجرم نفسه - كانت هذه كلها فصولاً سوداء لم يعهد تاريخ مصر افظع منها . وفي اليوم التالي لاختفاء الخليفة اقام عباس على العرش الفائز ابن الظاهر (١١٥٤ - ٦٠) وله من العمر اربع سنوات ومات هذا الخليفة الصبي في الحادية عشرة من عمره فخلفه ابن عمه

(١) ابن خلكان ج ٤ ص ٦٤ ؛ ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٠ ، ٦١ .

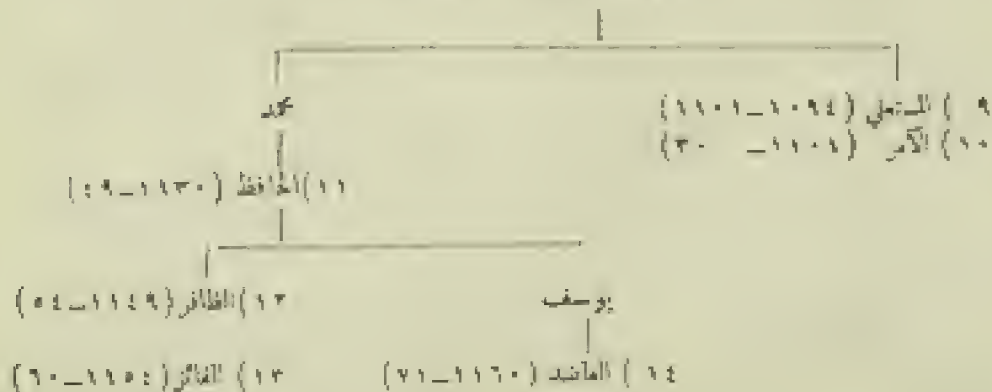
(٢) أبو الفاسم شامشاده ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٣٩٦ - ٧ .

(٣) نصر فليح حن (برصتون) ١٩٣٠ ، ص ٦ - ٣٣ .

العاقد وله من العمر تسع وهو الخليفة الرابع عشر بين الخلفاء الفاطميين وآخر رجال دولتهم التي دامت أكثر من قرنين ونصف ، وساءت أحوال الشعب بتعاقب المجاعات والابوثة . وكانت حياة الشعب متوقفة الى حد كبير على فيضان النيل لتأمين أود عيشه فنتج عن ذلك كله ان ازداد الفقر في سني القحط وقلت الموارد فازدادت الضرائب وكثرت المصادرات وقد لجأ اليها الخلفاء وجنودهم سداً لنهمهم الذي لم يقف عند حد . وازداد الموقف ارتباكاً بقدم الصليبيين ومواصلة امالك (Amalric) ملك القدس غاراته على مصر بحيث وقف سنة ١١٦٧ على ابواب القاهرة . وقد انتهت هذه المحن بظهور صلاح الدين الذي وضع حداً لها وخلع سنة ١١٧١ آخر الخلفاء الفاطميين (١) .

(١) قائمة الخلفاء الفاطميين :

- (١) المهدي (٩٠٩ - ٩٤٤)
- (٢) القائم (٩٤٤ - ٩٧٥)
- (٣) المصور (٩٧٥ - ١٠٠٤)
- (٤) الميز (١٠٠٤ - ١٠١٦)
- (٥) العزيز (١٠١٦ - ١٠٤٤)
- (٦) الحاكم (١٠٤٤ - ١٠٩٦)
- (٧) الظاهر (١٠٩٦ - ١١٠١)
- (٨) المستنصر (١١٠١ - ١١٠٤)



الفصل الرابع والأربعون

الحياة في مصر الفاطمية

كانت مصر هي البلاد الوحيدة في المملكة الفاطمية المترامية الاطراف التي ترك فيها خلفاء عبيد الله المهدي طابع مميزاتهم الثقافية . وقد تعذر طبع الامصار الواقعة في شمال افريقية وغربي آسية يمثل ذلك الطابع لعدم متانة العلاقات التي ربطتها بالقاهرة . ويجوز اعتبار الحقبة الفاطمية في تاريخ مصر الثقافي وما سبقها من عهد الاخشيديين والطورونيين عصرًا عربيًا فارسيًا يتميز عن العصر الفارسي التركي الذي شمل عهد الايوبيين والمماليك . اما المدة السابقة للطورونيين فقد كانت عربية صرفة . وجاءت الدولة الايوبية على اثر الفاطمية فأدخلت الى افريقية روح الامبراطورية السلجوقية العظمى وثقافتها كما يظهر ذلك من آثارها الفنية وصناعاتها وحركاتها السياسية والفكرية . اما في عصر الفاطميين فقد كانت صبغة الثقافة الفارسية هي الغالبة . على ان قوام الشعب المصري طوال العصور الوسطى والحديثة كان العنصر القبطي المستعرب وقد بقي في الاكثر على مذهب السنة برغم ميل دولته الشيعية المتطرفة كما يستدل من سهولة الانقلاب الذي قام به صلاح الدين حين اعداد السنة مكانتها وجعلها مذهب مصر الرسمي .

وكانت الحقبة الفاطمية من الناحية السياسية فاتحة عصر جديد في تاريخ وادي النيل فقد اصبحت مصر فيها لأول مرة منذ ايام القراعنة سيادة قومية تامة ممثلة في حكومة عزيزة الجانب شديدة الحيوية تقوم على اساس ديني . اما الدولتان السابقتان فلم تكن لهما اسس قومية او دينية في البلاد بل كانتا مدينتين في نشأتها وكيانهما للنشاط مؤسسيهما العسكريين وانحلال الخلافة العباسية .

حياة البذخ

ومع ان عصر مصر الذهبي في الخلافة الفاطمية بدأ بالمعز وبلغ اوجبه في عهد العزيز فانها كانت في عهد المستنصر لا تزال في طليعة الافطار الاسلامية . وشارها لناصر خسرو (١) الداعية الاسماعيلي القارسي من سنة ١٠٤٦ الى ١٠٤٩ اي قبل الكارثة الاقتصادية السياسية وصفها فدل وصفه الشائق لها على انها كانت مثل الاعجاب . فقد كان في قصر الخلافة ثلاثون الف نفس منهم اثنا عشر الف خادم والف فارس وحارس . وكان الخليفة الشاب الذي رآه ناصر في احد الاعياد على بقعة فتى " وسيم الطلعة حليق الوجه عليه ملابس بسيطة منها قفطان ابيض وعلى رأسه عمامة . وقد وقف حاجب يحمل فوق رأس الخليفة مظلة مرصعة بالحجارة الصخرية . وكان لهذا العاهل الشاب سبع سفن راسية الى ضفة النيل طول الواحدة مئة وخمسون ذراعاً وعرضها ستون . وكان الخليفة يملك في العاصمة عشرين الف بيت اكثرها مبني بالطين فيها خمسة او ستة طوابق وفي اسفلها مثل ذلك العدد من الحوانيت يؤجر واحدها بما بين الدينارين والعشرة في الشهر . وكانت الشوارع الرئيسية مستوفى ومضاءة بالقناديل . ولاصحاب الحوانيت اعمار محدودة للبيع فاذا بدر من احدهم غش في معاملاته اركب على جمل وظيف به في اسواق المدينة مع ضرب الاجراس واجبر على المناداة بذنبه . حتى حوانيت الصاغة والصرافين كان يتركها اصحابها مفتوحة ليلا . وكان في القسطنطين القديمة سبعة جوامع وفي القاهرة ثمانية (٢) . وتمتعت البلاد كلها بقسط من الامن لا يستقل وينصيب من الثروة جمل ناصر خسرو يقول بشيء من الحساسة : « لم استطع حصر ثرونها ولا قدرها ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر » (٣) .

وكان المستنصر اغنى الخلفاء المصريين على الاخلاق . فقد ورث الثلايين عن اسلافه وعاش عيشة البذخ والرخاء . وكان من عادته كل سنة ان يركب على الفرج مع النساء والحشم الى موضع تزهة انشاء فيخرج اليه بهيمة انه خارج الى الحج على سبيل الخبز والحجامة ومعه الخمر

(١) *Sefer Natneh*, ed. Schefer, pp. 36-56, tr. pp. 110-62.

(٢) قابل القريري طبعة بولاق ج ٢ ص ٢٦٥ : باقوت ج ٣ ص ٩٠١ .

(٣) ص ٥٣ من النص و ص ١٥٥ من الترجمة .

في الروايا عوضاً عن الماء يسميه الناس كما يفعل بالماء في طريق مكة . وذكر المقرئزي (١) لأئمة باسماء كنوز المستنصر فإذا بها تحوي الحجاره الكريمه والمزهرات البلورية وصحون الذهب المغشاة والعاج ومحاجر من الالبسوس واقداحاً من العنبر وقوارير المسك والمرايا القولاذيه والمظلات ذوات الاعمدة الفضية والذهبيه وموائد الشطرنج وبيادقها من فضة وذهب وخناجر مرصعة بالآلآي . وسيوفاً ومنسوجات مطرزة مصنوعة في ديبق ودمشق . وكان عنده تحف نفيسة رائعة وزعت في افراد الجند الترك . ومع ذلك فقد قلب أخيراً لهذا الخليفة ظهر الحزن وحلت بالبلاد الشدة العظمى فاضطر سنة ١٠٧٠ الى ارسال امه وزوجته وبناته الى بغداد وسورية هرباً من الطاعون والجحاجة .

الامارة

تمت الدولة الفاطمية عموماً في نظامها الاداري على نظام العباسيين وبالاخرى على نظم الفرس القديمة . واقد ترك لنا الفلقشندي (٢) (المتوفى ١٤١٨) في مصنفه الكبير، الذي وضعه ليعلمين به المرشحون لوظائف الحكومة ، وصفاً محملاً لترتيب جيوش الدولة الفاطمية وادارتها . فقد كان رجال الجيش على ثلاث مراتب : ١ الامراء وهم بمثابة مقدمي الجيش ومنهم ارباب الفضب اي السيوف الذين يركبون في المواكب مع الخليفة . ٢ خواص الخليفة اي رؤساء الحرس ومنهم النوع الاول اي الاستاذون ارباب الوظائف الخاصة بالخليفة وهم اقر بهم اليه واخصهم به والنوع الثاني صبيان الخاص وهم خصيان . ٣ طوائف الاجناد وهي فرق كثيرة كالحفاظية والامرية والجيوشية والافضلية والسودانية نسبة الى خليفة او وزير او قوم . وكانت الوزارة على انواع ارفعها في « ارباب السيف » الذين يشرفون على الجيش وادارة الحرب ثم وظيفة « اصحاب الباب » وهؤلاء حجاب كبار يعهد اليهم بتقديم السفراء الاجانب الى الخليفة . ومن « ارباب القلم » قاضي القضاة ووظيفته النظر في الاحكام الشرعية ومراقبة دور الضرب وضبط عيارها . و « الختاسب » وشأنه النظر في الاوزان والقياسات . ثم

(١) ج ١ ص ١١ : وما يلي ، قابل ابن نعيم بردي ج ٢ قسم ٢ ص ١٨١-٢٠٠ .

(٢) صبح الاعشى ج ٢ ص ٤٨٠ وما يلي .

« وكالة بيت المال » ويتصرف صاحبها في شؤون الخزينة . أما صغار الموظفين فهم اصحاب الاموال الديوانية ومنهم الكتاب والمستخدمون في ديوان الانشاء والمكاتبات . ويقال ان ادارة الدولة الداخلية ابتدعها يعقوب ابن كلاس (المتوفى ٩٩١) اليهودي البغدادي وزير المعز والعزیز . وكان يعقوب قد دخل الاسلام وبدأ سهرته السياسية في بلاط كافور . وكانت مهارته الادارية اساس رخاء السياسي بوادي النيل في ظل الخلفاء الفاطميين الأول (١) .

مخدم العلم والادب

كان ابن كلاس ابرز رجال مصر الذين رعوا العلم في العصر الفاطمي . فقد افتتح دار علوم كان ينفق عليها في الشهر ألف دينار . وفي عهده لمع الطبيب محمد التميمي وكان قد ولد في بيت المقدس ثم انتقل الى مصر في عام ٩٧٠ . وقبلة لمع في زمن الاخشيديين المؤرخ محمد ابن يوسف الكندي (٢) المتوفى في القسطنطينية عام ٩٦١ . وزميله المؤرخ ابن سلامة القضاعي (٣) المتوفى في القسطنطينية ايضاً بعده بنحو قرن (١٠٦٢) .

وبالرغم من ان اوائل الخلفاء الفاطميين كانوا من اهل الثقافة فان عصرهم لم يكن خصباً بالعلماء والكتاب البارزين فقد كان العزيز كغيره من خلفاء بغداد وقرطبة شاعراً محباً للعلوم . وهو الذي جعل الجامع الازهر دار دراسات عالية . ولكن اكثر العلماء في هذا العصر لا في الشرع فحسب بل في التاريخ ايضاً والشعر كانوا ينتمون الى طبقة الفقهاء ، وكان من رجال هذه الطبقة ايضاً القضاة ، ومن هنا لم يبرز احد من العلماء في ميدان خاص . ولعل السبب في امتناع علماء السنة وادبائها عن الالتحاق ببلاط هذه الدولة راجع الى صيغتها الدينية الخاصة . وهناك سبب آخر هو ارتباط الحياة الاقتصادية طوال النصف الثاني لهذه الحقبة . وبهذا يعطل العقم الفكري في عصر الفاطميين .

دار العلم

وكان من اعظم المؤسسات التي اقامها الفاطميون وأبدعها دار الحكمة او دار العلم وقد

(١) ابن الصيرفي ، الاشارة الى من نال الوزارة ، نشر عبد الله عيسى (القاهرة ، ١٩٢٤) ص ٩٤ وما يلي .

(٢) مؤلف « كتاب الولاة وكتاب القضاة » نشر غوست (لندن ، ١٩٠٨ - ١٢) .

(٣) مؤلف « عيون المعارف وقنون اخبار الخلائف » (لم ينشر بعد)

انشأها الحاكم عام ١٠٠٥ لتدريس تعاليم الشيعة المتطرفة وتعميمها . ووقف الحاكم وقفاً خاصاً لهذه المدرسة ينفق ريعه البالغ ٢٥٧ ديناراً على نسخ المخطوطات واصلاح الكتب والمقاصد المتفرقة التي تدعو اليها الحاجة (١) . وكانت دار العلم هذه تابعة للسلطان الملكي وفيها مكتبة وغرف لعدد الاجتماعات . اما المتهاج فيها فقد تضمن هذا العلوم الاسلامية الفلك والياب . وبالرغم من ان الملك الافضل اغلق ابواب هذه الدار عام ١١١٩ بسبب تعاليمها المتطرفة فانها بقيت تعمل حتى قيام الايوبيين .

الفلك وعلم البصريات

وكان للحاكم شغف خاص بحسابات المنجمين وكان صاحب نجوم ورصد ، فبنى مرصداً في جبل المقطم كان يركب بغلته الشهباء اليه فيخلو فيه بنفسه للرصد والتنجيم . ونقل المؤرخ المعاصر ابن حزم (٢) عن مخبر انه رأى بمصر آلة الرصد وهي من نحاس على هيئة الاسطرلاب اقامها الحاكم على برجين وقال المخبر : « قست بشهري في احد بيوت البروج الاثني عشر وهو برج الحوت ثلاثة اشبار » .

وازدان بلاط الحاكم بعلي ابن يونس (٣) (المتوفى ١٠٠٩) وهو الملقب من انجبتهم مصر من الفلكيين وباني علي الحسن ابن الهيثم (٩٦٥ - حوالي ١٠٣٩) كبير علماء الطبيعيات المسلمين والاختصاصي في علم البصريات . وكان ابن يونس من المختصين بعلم النجوم وعرف بصحبة الحاكم فآلف له الزيج الكبير على رصد رصده . وكان قصده فيه تحرير زيج جامع كبير يدل على ان صاحبه أعلم الناس بالحساب والتسيير . وقد اصاح فيه الزيج الشاملة في عصره وذلك بالرصد مبتكرة قام بها بواسطة الآلة ذات الحلق (صكرة اسوارية) ودوائر السموت . وطلب الحاكم الى ابن الهيثم البصري مؤكداً ان يحكم له امر فيضان النيل من زيادة ونقص فباشتر الدرس واختبر النهر من جانبيه مستعيناً بأشكال مساوية ومثلثات هندسية ونحوه .

(١) للقرنبي ج ١ ص ٤٥٩ .

(٢) ص ٥٠ .

(٣) الفقهري ص ٢٣٠ - ٣٣١ ابن خلدون ج ٣ ص ٦ .

معجز فتتحقق له ان الذي يقصده ليس بممكن فاقطع الجنون واقام على ذلك متشككاً حتى وفاة الحاكم . ولا نقل المصنفات المنسوبة اليه في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب عن الملة (١) .
واهم الكتب التي اشتهر بها « كتاب المناظر » الذي فقد نصه العربي ولكنه ترجم في ايام جرارد الكرموني او قبله وطبع في اللاتينية سنة ١٥٧٢ وكان له اثر كبير في نشوء علم البصريات في العصور الوسطى . واغلب كتاب العصور الوسطى الذين عالجوا هذا الموضوع يبنون مؤلفاتهم على كتاب ابن الهيثم المذكور الذي يسمونه Opticae Thesaurus . وفي مؤلفات روجر باكن وليونارد دي فنشي ويوهان كيبلر (Johann Kepler) آثار لهذا الكتاب . ولقد ناقض ابن الهيثم في كتابه نظرية افليدس وبطليموس القائلة بان العين ترسل شعاعاً بصرياً الى الشيء المرئي . ووضع تجربات لامتحان زاويتي الوقوع والانعكاس . وقارب في بعض تجرباته حد اكتشاف العدسيات المكبرة نظرياً . وقد تم الاكتشاف بالفعل في ايطاليا بعد ثلاثة قرون .
وهناك كتاب آخر هام جرى وضعه بمصر في زمن الحاكم هو « المنتخب في علاج العين » (٢) لعمار ابن علي الموصل . وقد اظهر المؤلف في هذا الكتاب ابتكاراً فاق به معاصره ابن عيسى واضع « التذكرة » غير ان « التذكرة » اصبحت المرجع والعمدة في هذا البحث باعتبار انها تامة كاملة . ولقد وصف ابن عمار عملية جراحية جديدة لمعالجة المرض الذي تعظم به عدسة العين المعروف بالماء الأزرق وذلك بطريقة الامتصاص بواسطة انبوب استعمله هذا الغرض .

المكتبة الملكية

ولقد ادت الشدة العظيمة في ايام المستنصر الى تزايد مستورته بل نتج عنها ما هو اشر وانكى من ذلك الا وهو دمار المكتبة الملكية التي انشأها العزيز . وكان فيها عند خرابها فيما يذكر من ثمان الف كتاب . وكان من نقائدها الثمن والربع مائة مصحف مؤخر . ومن تحفيها النادرة مخطوطات من خط ابن مقلة وسواه من كبار الخطاطين . وكانت للعزيز فيها (١) ابن ابي أصبهمة ج ٢ من ٩١ وما يليه ١٦٢ من ٨٠ . مصنفات لعمار . ابن ابي بكر . وكثيرة اخرى . وكثيرة اخرى (القاهرة ١٩٤٢) من ١٤٠٠ من القدم .

(٢) محفوظ قسم منه في مخطوطة مكتبة الاسكندرية . Casiri, vol I, p. 317

نسخة من تاريخ الطبري مكتوبة بيد المؤلف . ولما نهبت خزائن المكتبة سنة ١٠٦٨ روى شاهد عيان انه رأى خمسة وعشرين جملاً موقرة كتباً . واستعملت المخطوطات الثمينة وقيداً للنار في منازل الضباط الترك واستخدمت جلودها لتصليح احذية عبيدهم . اما خلفاء المستنصر فالظاهر انهم اوجدوا مجموعات جديدة اذ انه عند استيلاء صلاح الدين على القصر ودخوله الى خزانة الكتب كان لا يزال فيها اكثر من مئة الف مجلد وزرع بعضها مع نفائس اخرى في رجاله (١) .

الفن وهندسة البناء

ومع ان العصر الفاطمي لم يكن ملائماً لتقدم العلم والأدب فإنه امتاز بشيء من الانتاج في عالمي الفن وهندسة البناء وقد بلغ بعض هذا الانتاج ذروة الانتان . والظاهر ان الرخاء الذي ادركته البلاد في زمن الخليفتين الاولين من خلفاء القاهرة ثم في زمن الوزيرين الارمني الأصل - وهو رخاء يماثل ما كان في عصر الفراعنة والبطالسة - قد انعكس في دائرة الفن . واقدم الابنية الباقية الجامع الازهر وقد بناه كما اسلفنا جوهر سنة ٩٧٢ . واعيد بناؤه من بعد ولكن القسم الأقدم وهو القسم الاوسط لا يزال حافظاً شكل البناء الأصلي وقد بني هذا القسم باللبن على زلي جامع ابن طولون وفيه قناطر مروسة وهو يرم في العموم عن تأثير ايراني . اما مثذنته فانها على النموذج المربع الثقيل . وبني هذا الجامع في القدمية جامع الحاكم الذي شرع في تشييده ابوه سنة ٩٩٠ وانها الحاكم سنة ١٠١٢ . وهو يشاكل الازهر في تصميمه وله قبة من اللبن مرتكزة على قاعدة في هيئة طبل مشتمل الجوانب مرتفع فوق المحراب . وكانت جامع الحاكم مبنياً بالحجارة ولكنه متردم اليوم . وبما ان المئذنة فيه لم تكن مربعة الشكل فالراجح ان البنائين الذين بنوها جني بهم من شمال العراق وليس من سورية . ولم يغلب استعمال الحجارة على استعمال اللبن حتى اواخر العصر الفاطمي . والمثال على ذلك واجهة الجامع الاقمر المبني سنة ١١٢٥ . ولعل باني هذه الواجهة مهندس ارمني . واننا نلاحظ في الاقمر اول ظهور لتلك المزية التي اصبحت فيما بعد ظاهرة عامة في هندسة البناء الاسلامية الا وهي المحراب

(١) الفريرجي ج ١ ص ١٠٨ - ١٠٩ ابو شامة ج ١ ص ٢٦٨ .

المقرنس . وتبدو في هذا الجامع ذي الاعمدة وجامع الصالح ابن رزيك (نحو ١١٦٠) الخطوط البارزة والكتابات الكوفية الخشنة التي اشتهر بها فن الفاطميين . وان هذه المزايا الجديدة التي ادخلها المهندسون الفاطميون تدريجياً بما فيها من المتديلات السقفية (الاشكال المقرنسة) والتجاويف الرخبة في الواجحات لم تلبث ان طرأ عليها تقدم ظاهر في دور الايوبيين والمماليك . كذلك قل في طريقة النقش واخراج الكتابات على الحجر او على اللواح الخشبية التي مهدت السبل لنفائس الفن التي عرفت فيما بعد . وفي سنة ١٠٨٥ نشأت عادة الجمع بين المساجد وقبور بناتها . وقد بدئت ببدر الجمالي فان قبره ومسجده في سفح المقطم يعتبر المثال الاول لهذا النوع من الابنية .

ولا يزال باقية من الابواب الكبرى الشاهدة بعظمة الابنية الفاطمية ثلاثة : باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح^(١) . فهذه الابواب الضخمة التي لا تزال قائمة في القاهرة هي من عمل بناء من الزهاء انعموا فيها اصولاً بيزنطية وهي من اتمن ما اتصل بنا من آثار العصر الفاطمي .

الفنونه الخزفية والصناعية

وبين كنوز دار الآثار العربية في القاهرة ألواح وقطع من الخشب المحفور ترجع الى العصر الفاطمي فيها رسوم لحيوانات حية منها غزال قد وثبت عليه السباع المقرنة واربع تحت مخالب النسور والزوج من الطيور متقابلة بعضها مع بعض . ويستدل من هذه المواضع التصويرية تأثرها بالماذج الساسانية . وهذا التأثر نفسه ملحوظ في البرونز الفاطمي الذي تحدر الينا بشكل مرايا او اباريق او مياغر . واهم قطع البرونز الفاطمي شمال العقاب الموجود الآن في بزا في ايطاليا وارتفاعه ١٠٥ سنتيمترات وحوله ٨٥ . واقد سرى التأثير الساساني نفسه على المنسوجات وقد اتصلت تماذج منها بالغرب على زمن الصليبيين . وكانت الحياكة صناعة قومية معروفة في المراكز التي يكثر فيها الاقباط ولكنها على ذلك قد تأثرت بالماذج الايرانية وبنوع خاص الساسانية منها . وتكثر في المنسوجات الفاطمية صور الحيوانات في اشكال خاصة

(١) انظر الفريرمي ج ١ ص ٣٨٠ وما يلي .

اصطاح عليها للشعارات الخربية وغيرها . وكان الكتان والقطن والحرير يندج في انحاء عديدة من الديار المصرية ولا سيما في تنيس والاسكندرية ودمياط وديق والفرمات . وانت القماش المعروف في زمن شوسر الانكليزي بالكتاني قد صدر من القسطاط كما يستدل من اسمه . وكان يصدر الى بزنطة ورومة والجمهوريات التجارية في ايطاليا كثير من الاقشة النفيسة التي كان يذهب جزء كبير منها الى الكتانيس والاديرة . وهذا ما يبرر بقاء بعض التحف المشهورة في اوربا .

وكان فن الخرف الفاطمي كغيره من الفنون التي مارسوها متأثراً بالمذاهب الايرانية وهنا كما في المنسوجات نجد المواضيع الحيوانية وقد عولجت بصورة عامة . ولقد اورد المقرئ في بيانه عن الكتان الفاطمي ذكر عدد من مساطر الفن الخرفي والمعدني في الشرق العربي وبينها الفخار الصيني وهذه من الاخبار الاولى المدونة التي تشير الى وجود خرف صيني في الشرق العربي (١) . وأشار ناصر خسرو (٢) الى صناعة الخرف في العصر الفاطمي فقال ان المصريين كانوا يصنعون انواع الخرف المختلفة وان الخرف المصري كان لطيفاً وشغافاً حتى كان ميسوراً ان ترى من باطن الالباء الخرفي اليد الموضوعة خلفه .

واقدم غلافات الكتب الاسلامية مصرية الاصل ويمكن عزوها الى القرنين الثامن والتاسع . اما تزويقها واصول عملها فيشعرنا بتأثيرها بما سبق من صناعة التجليد القبطي في اوائل العصر العربي ويمكننا ان نرى فيها ما كان لصناعة التجليد القبطية من تأثير بالغ في نشأة هذه الصناعة عند المسلمين . وبعد نشوء هذه المدرسة المصرية اصبح طبع الرسوم في الغلافات وختمها بالاختتام اهم مزايا صناعة التجليد الاسلامية .

(١) قال كركو في مجلة الجمع ج ١٢ (١٩٣٥) ٣٨٦-٣٨٧ حيث يذكر الهمري الفخار الصيني ٤ سلسلة التواريخ من ٦٠٣٥-٦٠٤٠ للمسلمين ٤ نوبة المعرف في عجائب البر والبحر لشر مهران (سانت بيترزبرغ ١٨٦٦) من ٤٣ حيث قد لاحظ بعض الاشارة الى وجود الخرف .

(٢) Ed. Schefer, p. 52, tr. p. 161 .

الفصل الخامس والأربعون

علاقات صربية بين الشرق والغرب : الحروب الصليبية

لما زحفت افواج الصليبيين في اواخر القرن الحادي عشر الى سورية لانتزاع الاراضي المقدسة من ايدي المسلمين كانت البلاد السورية مشهداً للانقسام والوهن وكانت مجزأة الى مقاطعات عليها عدة زعماء من العرب يتمتعون باستقلال محلي بينما كانت الترك السلاجقة يسيطرون في الشمال وفاطميون مصر في الجنوب . ولم يكن للشعب صبغة واحدة تنقسم بها عناصره المختلفة حتى اللغة التي تخاطب بها ابناء البلاد لم تكن واحدة . فهناك الدروز في جنوبي لبنان والنصيرية في جبالهم الشامية وجيرانهم الاسماعيلية (الحشاشون فيما بعد) قد تقسموا فرقاً ثلاثاً تختلف كل واحدة منها عن السنة . اما بين الطوائف النصرانية فكان لتوارثه في شمالي لبنان لا يزالون يتكلمون السريانية وكانت طائفتهم اكبر طائفة بين الاقليات المسيحية .

مقدمة سورية

عالجنا في الفصل الثاني والثلاثين ظهور السلاجقة المرتحل في اواسط آسية واندفاعهم الى الامصار الغربية من ممتلكات العباسيين وتثبيت سلطتهم في ادوار متعاقبة في خراسان وفارس والعراق وارمنية وآسية الصغرى ثم انشاهم (١٠٥٥) سلطنة ببغداد كان انقلبيته العباسي تابعاً لها . اما سلاجقة سورية فانهم كانوا سلاجقة الروم (آسية الصغرى) من القروص الصغرى في العائلة السلجوقية ولم تكن لهم زعامة موحدة بل كان لكل مدينة من المدن السورية اقامه في عهدهم اميرها انطاس العربي او السلجوقي ولكن طرابلس استقلت بعد سنة ١٠٨٩ في ظل بني عتار (١) وكانوا من الشيعة . وبعد سنة ١٠٨١ ملك بنو منفذ بلدة

G. Weil. *Memorial Henri Russell* (Paris, 1928), vol. ii, pp. 279 - 81.

(١) راجع

شيزر . وكان البيزنطيون يحاولون فتح مدن الساحل ومدن الحدود الشمالية فيستولون على بعضها أحياناً وتغلبت منهم أحياناً أخرى .

وظهرت أول سرادق السلاجقة في سورية قبيل عام ١٠٧٠ . وفي هذا العام قام السلطان ألب أرسلان فاستلحق أمير حلب العربي به ثم تقدم أنسز قائد جيشه إلى مدينة بيت المقدس فآخذها وانتزع فلسطين من الفاطميين . ولما كان السلاجقة على مذهب السنة فانهم تاهضوا الفاطميين وعملوا على محو مذهبهم ولم تفض سوى خمس سنوات حتى أخذ أنسز دمشق منهم . وفي عام ١٠٩٨ عاد الفاطميون إلى القدس وكان أسطولهم القوي قد تحصن من الأسبلاء (١٠٨٩) على جميع مدن الساحل ومنها عسقلان وعكا وصور حتى جبيل شمالاً . وكان تنش ابن ألب أرسلان هو المؤسس الحقيقي للدولة السلاجقية في سورية فقد استطاع في ربيع عام ١٠٩٤ أن يثبت سلطته في حلب والرها والموصل وقد أضافها كلها إلى إملاكه في خراسان . ولكنه قتل في السنة التالية في ساحة الحرب وتداعى بعد موته الصريح السوري الذي شيده وذلك بسبب التنافس الذي أشأ بين ابنه رضوان ودقاق وتحاسد قواده الذين أخذ كل منهم يعمل في سبيل أغراضه الخاصة . وأخذ رضوان حلباً عاصمة له فهاك فيها من عام ١٠٩٥ إلى ١١١٣ . أما اخوه دقاق (١٠٩٥ - ١١٠٤) فقد اختار دمشق (١) . ودارت رحى الحروب بين الآخرين منذ عام ١٠٩٦ وقد تركزت حول هذه الحروب معظم الحوادث في عهديهما .

تعدد الأسباب والبرامح وعقيدتها

إذا نظرنا إلى الحروب الصليبية في وضعها الصحيح وجدناها فصلاً متوسطاً بين فصول

(١) سلاجقة - سورية : ١٠٩٤ - ١١١٧

(٢) أنش ابن ألب أرسلان (١٠٩٤ - ١١٠٤)

(٣) رضوان (١٠٩٥ - ١١١٣) دقاق (١٠٩٥ - ١١٠٤)

(٤) ألب أرسلان الآخر (١١١٣ - ١١٤) سلطان شاه (١١١٤ - ١١٢٧)

تلك القصة الطويلة التي نصف التفاعل بين الشرق والغرب مبتدئة بحروب طروادة وفارس في الأزمنة الغابرة ومنتية بالتوسع الاستعماري الأوروبي في عصرنا الأخير. وليس الفارق الجغرافي بين الشرق والغرب في الواقع على شيء من الأهمية لولا الفوارق الدينية والجنسية والمثوية. وكانت الحروب الصليبية بنوع خاص كناية عن حركة قامت بها أوروبا النصرانية ردًا على آسية الإسلامية. وكانت هذه قد اتخذت خطة الهجوم منذ عام ٦٣٢ ليس على سورية وآسية الصغرى فحسب بل على إسبانية وصقلية أيضاً. وللهروب الصليبية بواعث أخرى منها الصفات الحربية والنبول القومية إلى الهجرة - هذه النبول والصفات التي تميزت بها قبائل التوتون الذين غيروا خريطة أوروبا منذ ظهوروا على مسرح التاريخ. ومنها هدم كنيسة القيامة بأمر الحاكم بأمره عام ١٠٠٩ وهي مزار كان يحج إليه الوف الأوروبيين وكانت مفاتيحها قد أرسلت إلى شارلمان عام ٨٠٠ بركة من بطريرك اورشليم^(١) والمصاعب والحن التي لحقت بالنصارى الناهبين لزيارة بيت المقدس خلال مرورهم في آسية الصغرى الإسلامية. أما الباعث المباشر لهذه الحروب فاستنفاذ أرسله عام ١٠٩٤ الإمبراطور الكيسوس كومنينوس إلى البابا أريانس الثاني عندما غشا البلاجة أملاك الإمبراطور الآسيوية فأكدها حتى يخرج مرمرًا وهدد الإسلام بهم القسطنطينية نفسها. ولعل البابا رأى في ذلك الاستعداد فرصة لأرجاع الكنيسة اليونانية إلى حظيرة رومة وكان اشتاق الطائفتين الأخير قد حدث عام ١٠٥٤.

وحين التقى البابا أريانس في ٢٦ تشرين الثاني عام ١٠٩٥ خطبته في كارمونت من أعمال فرنسا الجنوبية الشرقية واستحث المؤمنين على سلوك الطريق المؤدية إلى كنيسة القيامة وانزاعها من أيدي من سماهم بالقوم الاشرار وأمتلاكها فإنه قد لفظ أعظم خطبة في التاريخ أثرًا فقد تنادى الفرقة للحرب وصاحوا بصيحتهم المشهورة «ديوس لو فولت» (Deus lo volt) بمعنى انها إرادة الله ورددت أرجاء البلاد تلك الصيحة فنفذت إلى أعماق القلوب. وكان أن استجاب إلى دعوة البابا إلى السلاح في ربيع السنة التالية نحو مئة وخمسين ألف رجل.

^(١) Hinc Joranson in *American Historical Review*, vol. xxxii (1927), pp. 211-61; A. Kleinclausz in *Syria*, vol.vii (1926), pp.211-33.

أكثرهم من الفرنج والنورمنديين وقسم منهم من صعد اليك الناس توافدوا الى القسطنطينية وبذلك بدأت الحملة الصليبية الاولى وسميت صليبية اشارة الى الصليب الذي حمله اعضاؤها علامة على صدورهم .

وجدير بالذكر ان ليس كل الذين حملوا اشارة الصليب فعلوا ذلك عن دوافع روحية فقد كان عدد من زعمائهم ومنهم بومند قد قصدوا بحركتهم هذه ان يفتتحوا اراضي جديدة لهم يرفعون رايهم عليها . اما تجار بيزا والبندقية وجنوى فقد كان رائدهم خدمة مصالحهم التجارية . ومن هنا فقد كانت عوامل هذه الحروب الصليبية كثيرة تشمل مطامع المغامرين واهل الخيال فضلاً عن آمال الانقياء المخلصين . زد على هذا ان كثيراً من الجرمين رأوا ان ينخرطوا في سلك هذه الحملات تكفيراً عن معاصيهم . والواقع ان حمل شعار الصليب عند جمهور الناس في فرنسا والورين وإيطاليا وصقلية في ذلك الزمن بالنسبة لحالة البؤس التي كانوا فيها وللأزمة الاقتصادية وانحطاط الحالة الاجتماعية لم يكن تضحية من قبلهم بل تفریحاً لكربتهم .

١ . هبة الظفر

اما تسليق التجريدات الصليبية المأفوف الذي يجعلها سبباً او يوصلها الى تسع فليس مرضياً في اي حال من الاحوال . فقد كان او كاد يكون مجرى هذه الحملات متواصلاً وكان الحد الفاصل بين الواحدة والاخرى غير واضح ، وهذا فالأولى تقسيم هذه الحروب الى حقبة اولها حقبة الظفر وتمتد الى عام ١١٤٤ عند قيام الاتابك زنكي امير الموصل واسترجاعه الرها ، ثم حقبة رد الفعل الاسلامي التي تصدرها زنكي ونفثي بانتصارات صلاح الدين الباهرة ، ثالثاً حقبة الحروب الاهلية والمعارك الصغرى التي برز فيها رجال الدولة الايوبية السورية المصرية وسلاطين المماليك حتى عام ١٢٩١ حين فقد الصليبيون آخر موطئ . لأقدامهم في بر الشام (١) وقد انتهت حقبة الظفر برمتها قبل ما هو معروف عند المؤرخين بالتجريدة الثانية (١١٤٧-٩)

(١) انظر W. B. Stevenson, *The Crusaders in the East* (Cambridge, 1907), p. 17.

وطابقت الحقبة الثانية القرن الثالث عشر وكان من حملاتها واحدة على القسطنطينية (١٢٠٢-٤) واثنتان فاشلتان على مصر (١٢١٨-٢١) وواحدة على تونس (١٢٧٠).

ييزنطة فنسرج آسية الصغرى

وكانت طريق الحملة الصليبية الاولى بعد احتشاد رجالها في القسطنطينية سير عبر آسية الصغرى وكانت هذه خاضعة اذ ذلك للعلام الحداث قلعج ارسلان سلطان السلاجقة لقونية (١٠٩٢ - ١١٠٧) وحين اصطدم الصليبيون برجاله كان ذلك الاصطدام اول التحام بينهم وبين المسلمين. وحاصر الصليبيون نيقية عاصمة سليمان ابن قطلمش والذ قلعج ومؤسس دولة السلاجقة في بلاد الروم فسقطت في حزيران ١٠٩٧ بعد حصار دام نحو شهر. ولم يشترك الصليبيون مع المسلمين في معركة فاصلة بعد ذلك الا في اسكي شهر حيث غلبوا في اول تموز (١) قوات قلعج. واسترد الكسيوس قائد الصليبيين بهذا الظفر النصف الغربي من شبه جزيرة الاناضول وبذلك تأخرت غزوة انترك لاوريا مدة ثلاثة قرون ونصف. وكان الكسيوس قد اخذ من جميع زعماء الحملة تقريباً يمين الطاعة الاقطاعي.

الامارة اللاتينية المزمري

وجاز جيش الصليبيين جبال طوروس وقبل أن يتابع سيره جنوباً تمكنت فصيلة منه برأسها بلدوين ابن كونت بولونيا الى الناحية الشرقية التي كان يسكنها الارمن النصارى وفيها مدينة الرها، (٢) فوقعت هذه في ايدي الصليبيين في معالغ سنة ١٠٩٨ (٣). وهنا قامت في منطقة نصرانية اول مستعمرة لاتينية وجلس بلدوين اميراً على عرشها. وصارت فصائل أخرى تحت امرة تانكرد النورمندي (٤) في جهة مماكمة ميممة كايكية وسكانها ايضاً من

Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum, ed. Heinrich Hagenmeyer (

Heidelberg, 1890), p. 197, n. 11, p. 208, n. 62; Fulcher, *Historia Hierose*

ed. Hagenmeyer (Heidelberg, 1913), p. 192, n. 10. وقابل ابن القلاسي تشر امروز من ١٢٤

(٢) دسا في اليونانية، اورفا في التركية.

Matthew of Edessa, *Chronique* ed. E. Dulaurier (Paris, 1858), p. 218 (٣

من جنوبي ايطاليا.

الارمن المختلطين باليونان فاحتلت طرسوس مسقط رأس القديس بولس .

مفرط انطاكية

وفي هذه الاثناء وصل الجيش الرئيسي نفسه الى انطاكية (١) وكان يحكمها امير سلجوقي اسمه ياغي سيان (٢) وكان قد عينه ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة الكبار . وبعد حصار شديد طويل (٢١ تشرين الاول ١٠٩٧ الى ٣ حزيران ١٠٩٨) سقطت عاصمة سورية الشمالية بيد بوهمند اثر خيانة قائد ارمني كان عهد اليه الدفاع عن احد ابراجها . وكان بوهمند من اقارب تانكرد ومن أشد الزعماء وادهاهم . ولم يصل المدينة امداد قط الا ان رضوان حاول ان يسعفها من حلب فلم يتيسر له ذلك .

ولم يكد المحاصرون يدخلون المدينة حتى وافاهم كربوقا (٣) فطوق المدينة بدوره وحرب عليها حصاراً شديداً . وكانت كربوقا هذا امير الموصل وقد اسرع من عاصمته ومعه المدد . وحدث أن اكتشفت في هذه الاثناء « الحرب المقدسة » التي طعن بها الخاضع على الصليب وكانت مدفونة بكنيسة في انطاكية فاشتدت حماسة النصارى وخرجوا وأغاروا على المحاصرين حتى كشفوا صفوفهم (٢٣ حزيران) وكادوا يفضون جيش كربوقا كله . وبقيت انطاكية في حوزة بوهمند واصبحت عاصمة الامارة الثانية الجديدة . وظلت هذه المدينة نحو مئة وخمس وسبعين سنة في ايدي النصارى .

اما ريموند ده تولوز اغنى زعماء فرنسا فقد استاء من تفرد بوهمند في السلطة وكان رجاله هم الذين اكتشفوا الحرب بانطاكية فزحف جنوباً واحتل معرة النعمان مسقط رأس ابي العلاء ولكن رجاله اخلوها في ١٣ كانون الثاني عام ١٠٩٩ بعد ان قتلوا ما يزيد على مئة الف من

(١) من انثيوكلية اليونانية نسبة الى انثيوكلس والد سلوكيس الاول مؤسسها (٣٠٠ ق . م) وهي حامة في تاريخ النصرانية لكونها موطن الكنيسة السيعية الاولى .

(٢) ياغي سيان في ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٧ ؛ ابو الفداء ج ٢ ص ٢٢٠ ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ٢٠ .

(٣) قايي ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٨ ؛ ابو الفداء ج ٢ ص ٢٢١ . وكان كربوقا تركياً مغماً انتزع في سنة ١٠٩٦ الموصل من بني عقيل وعلم عرب وادبها في الامبراطورية السلجوقية .

أهلها وسلموها للنار (١). ثم سار ريموند بعدئذ غرباً فاحتل حصن الاكراد (٢) وهو نقطة عسكرية خطيرة تتحكم في الممر الواقع بين سهول العاصي والبحر المتوسط. وحاصر عرقة (٣) على الحافة الغربية من لبنان الشمالي ونزل انطربلوس (٤) على الساحل دون مقاومة. وامده بموارنة لبنان بعدد من الادلاء والجنود. الا ان ريموند تنازل عن جميع هذه الاملاك استجابة لنداء غودفري ده بويون كونت لورين شقيق بلدوين فرافق الجيش الزاحف على القدس وهي المهدف المقصود.

اهتمول بيت المقدس

واتجه الفرنجة جنوباً فزلوا الرملة التي كان اخلاها أهلها فاستولوا عليها واصبحت اول منطقة لانيية في سورية الجنوبية اي فلسطين (٥). وفي ٧ حزيران عام ١٠٩٩ سار الصليبيون الى بيت المقدس وعددهم نحو اربعين الفاً منهم نحو عشرين الف جندي محارب (٦) فوقفوا امام ابواب المدينة. وكانت حامية المدينة من الجند المصري تقدر بنحو الف. وكان الافرنج يأملون ان تسقط اسوار المدينة كما سقطت اسوار اريحا فطافوا حولها حفاة نافخين في الابواب. غير ان الحصار الذي ضيقوه على المدينة مدة شهر كان دون شك انجح وانفع. وفي الخامس عشر من تموز هاجم العدو البلدة واعمل السيف برجالها ونسائها واطفالها حتى شوهدت اكوام الرؤوس والايدي والأرجل في شوارع المدينة وطرقاتها (٧). وبعد شهر أدرك الافرنج ظمراً

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٠ وقد نقل عنه ابو الفداء في الموضع نفسه اعلاه ؟ كمال الدين ، منتخبات من تاريخ حلب في *orientaux* vol. iii, pp. 586-7.

(٢) هي قلعة الحصن اليوم وسميت حصن الاكراد لانها في الاصل قلعة بناها امير حمص سنة ١٠٣١ وجعلها مقراً لحامية كردية ؟ ابن خلدون ج ٥ ص ١٨٧.

(٣) سقط رأس اسكندر سيفرس (٢٢٢-٣٥) من الاسرة السورية من اباطرة الرومانيين.

(٤) طربلوس اليوم و Tortosa في المدونات اللانيية.

(٥) ابن الفلاس ص ١٣٦.

(٦) *Annales de Terre Sainte*, Archives de l'orient latin, vol. ii (Paris, 1881), pt. 2, p. 429; Raimundus de Agilis, « Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem », in Migne, *Patrologia Latina* vol. clv, p. 657.

(٧) Agiles, p. 659 وقد زاد عدد القتلى في المسجد الأقصى على ٧٠ الفاً حسبما جاء في ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٤ ؟ ابن خلدون ج ٥ ص ٢١. اما ماثيو فيذكر انهم بلغوا ٦٠ الفاً Matthew, *Chronique*, p. 226.

ثانياً على الجيش المصري عند عسقلان وقد ثبت هذا الظفر اقدم اللاتين في القدس . الا ان عسقلان بقيت مقراً للاسطول المصري ومركز حامية اعتمد عليها الوزير المصري الملك الافضل للوقية بالعدو (١) . وهكذا نشأت ولاية لاتينية ثالثة أصبحت اعظم الولايات مرتبة . ويقال ان العرش عرض على ريموند فاني هذا ان يلبس تاج الذهب في الموضع الذي لبس فيه الخلف تاج الشوك (٢) . فعهد بالملك الى غودفري (٣) وكان زعيماً أميناً وجندياً بأسلاً وجعل له لقب « بارون القبر المقدس وحاميه » . وشعر كثيرون من الصليبيين والحجاج أنهم قد وفوا نذورهم فاجتروا عاندين الى اوطانهم الاوربية .

الاساطيل الإيطالية تخضع مدنها الساحل

وكان اول ما وجه اليه غودفري اهتمامه هو اخضاع مدن الساحل ثقيفه ان احتلال داخلية البلاد لا يتم دون ذلك وكذلك يصعب الاتصال مع اوربا اذا كانت مدن الساحل لا تزال بأيدي المسلمين . وعقد التبة على أن يستعين لهذا الأمر بالسفن الإيطالية التي كانت تنقل الحجاج وقد ادرك اصحابها ان امتلاك تلك المدن الساحلية يفتح اسواقاً جديدة وموانئ حرة لبضائعهم . وفي مستهل السنة التالية (١١٠٠) نال أهل بيزا حقوقاً خاصة في يافا . وبعد زمن يسير رضيت ارسوف وقيسارية وعكا بتقديم الجزية مقابل هدية موقفة (٤) . واستولى اسطول البندقية على حيفا بعد مضي شهر على وفاة (٥) غودفري وكان في صيف تلك السنة نفسها متصرفاً الى الاعمال الحربية في مياه عكا . ودعيت حامية حيفا وسكانها الى الاجتماع حول صليب قيل لهم انه الملجأ الامين ثم صار قتلهم عنده بلا رحمة . اما الاسطول المصري وهو الاسطول الوحيد الذي كان يتمكن الاستغاثة به لحماية مدن الساحل فانه لم يؤد خدمة تستحق الذكر .

(١) ابن جبير ، اختبار مصر نشر ماسي (القاهرة ، ١٩١٩) ص ٣٩ وما يلي .
(٢) Agiles, p. 654

(٣) كندفري في ابن القلانسي ص ١٣٨ ؛ كندفري في ابن تغري بردي نشر بيرج ٢ قسم ٢ ص ٣٠٤ .
(٤) Albert of Aix, « Historia Hierosolymitanae expeditionis », Migne, vol. clxxi, p. 575.

(٥) راجع ابن خلكان ج ١ ص ١٠١ .

وظل تانكرد^(١) يتوغل في داخلية البلاد حتى المنطقة الملاصقة للاردن . وكانت بيسان الواقعة على طريق الجيوش بين شاطئ البحر ودمشق من اول المواقع التي استولى عليها تانكرد . وخضعت نابلس دون مقاومة . وأقام تانكرد في طبرية كعامل تابع لحكومة غودفري . غير انه تنازل عن اقطاعه هذا في آذار عام ١١٠١ مفضلاً انطاكية امارة عمه يوحنا وكان هذا قد وقع اسيراً في يد كشتكن^(٢) في إحدى حملاته التي قام بها بجوار مرعش . وفي عام ١١٠٣ أطلق يوحنا لقاء فدية معلومة .

بلدوين الاول ملك القدس

وقبل ان يموت غودفري^(٣) عين اخاه بلدوين خلفاً له ، فسار بلدوين^(٤) من الرها الى بيت المقدس واحتفل بتتويجه يوم عيد الميلاد عام ١١٠٠ في بيت لحم بدلاً من بيت المقدس احتراماً لحزب الأكلبروس الذي كان يطمح الى ان تكون القدس جزءاً من اراضي الكنيسة . وهكذا فقد ضم بلدوين على نفسه بلقب « ملك اورشليم » في حفلة التتويج ، ولكنه عاد فانتحله بعد حين .

وكان للآتين في شخص بلدوين زعيم ممتاز فقد اظهر مقدرة ونشاطاً وبسالة حربية فالتصمت مملكته في عهده (١١٠٠ - ١١٨٠) وامتدت من العقبة على رأس البحر الاحمر الى بيروت . وخانه ابن عمه بلدوين الثاني (١١١٨ - ٣١) فأضاف الى ولايته بضع مدن اكثرها من ثمر البحر المتوسط . ولم تنزع المملكة عرضاً لأبعد من نهر الاردن . وتم فتح بيروت وصيدا في عام ١١١٠ . ولم يكن هذه المدن سبيل الى الحصول على الامداد الا من دمشق وكان يحكمها اذ ذاك الانابك طغتكين وكان هذا في سابق عهده مماوكتا للسلطان

(١) « ملكري » في ابن الفلاسي من ١١٣٨ « ملكري » في اسامة من ٦٥ .

(٢) « مؤسس الدولة التركية في روس التي تسمى ارمياها بالاشعانة والديمت بمدينة في دولة جبراهيم - اللاجفة .

(٣) ابن الفلاسي من ١١٣٨ .

(٤) « بلدوين » في ابن الفلاسي من ١١٣٩ ؛ ابن تقي بردي ج ٢ قسم ٢ من ٣٤٣ ؛ قابل من ٣٢٧ (برديلي) .

السلجوقي تثنى ووصياً على ابنه دقاق (١). غير ان طغتكين عقد تحالفه مع بلدوين دامت بضع سنين . وكان ان سقطت ارسوف وقيسارية في عام ١١٠١ بيد اسطول جنوي بعد هدنة قصيرة فاستولى الاسطول على ثلث الغنائم وخصصت له مواضع خاصة في الميناء . اما صور المنيمة في شبه جزيرتها فقد ظلت بأيدي المسلمين حتى عام ١١٢٤ كما ظلت عسقلان حتى عام ١١٥٣ . وابتنى بلدوين عام ١١١٥ قلعة الشوبك (٢) في المنطقة الواقعة الى الجنوب من البحر الميت فسيطرت على طريق الصحراء الذي يربط دمشق بالحجاز ومصر .

قيام إمارة الفرنجة الثالثة

وكانت طرابلس اعظم مرفأء سورية آنذاك وكانت هدف الكونت ريموند (٣) منذ ان نجحها في زحفه الطويل من انطاكية الى بيت المقدس . وعندما تثبتت ارسكان المملكة عاد اليها وبدأ حصارها عام ١١٠١ . ولكي يجعل البلدة تعزل عما حولها ويقطع عنها المدد بنى بعد سنتين من وصوله قلعة (٤) على تل مجاور نطل على نهر ابي علي (قادش) وتسمى التل Mons Peregrinus (تل الحجاج) ولم يطل الامر حتى اصبح هذا التل مركزاً لما حوله حي لاتيني كبير . و طال الحصار ولم تستسلم المدينة بالرغم من ان اهل الجبل والنصارى من السكان كانوا يعاونون الافرنج (٥) . وكان ريموند يهاجم من وقت الى آخر بعض المدن المجاورة ويستولي عليها . واستطاع بتعاونه اسطول جنوي مؤلف من اربعين مركباً ان يستولي في عام ١١٠٤ على جبيل فكانت الحد الجنوبي الاقصى لكونتية طرابلس . ومات ريموند في قلعته

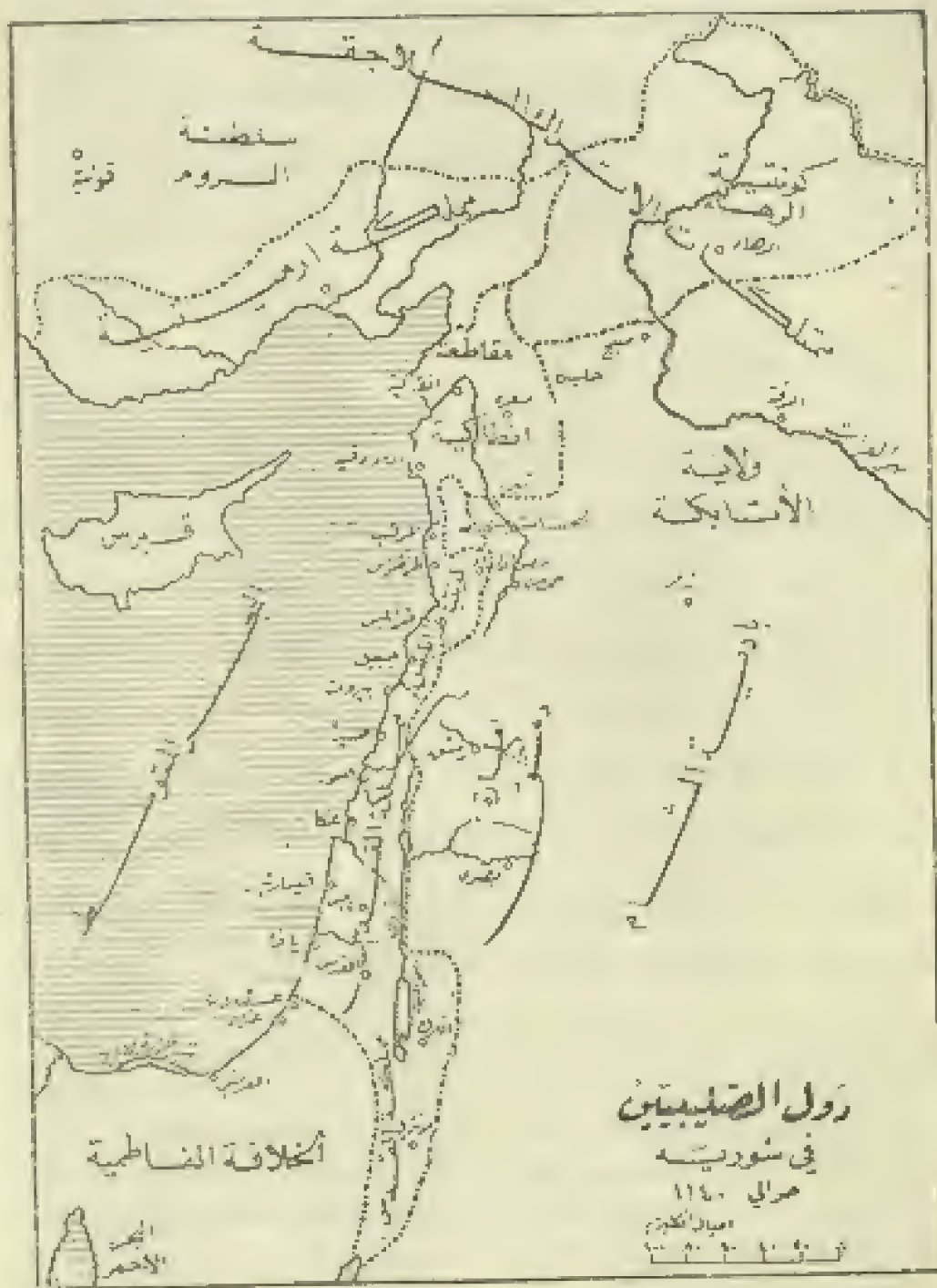
(١) وقد اقضى بغيره من الامانة فاعصب الملك في سنة ١١٠٣ واصبح مؤسس الدولة البوريغالي عاشت حتى سنة ١١٥٤ .

(٢) يسميها اللاتين Mons Regalis اي الجبل الملكي (Mont Royal, Montréal) وبحسب التصوف القديمة اطلق اسم كراك ده مونت ريال على اخنها في الشمال الشرقي Crac des Moabites (الكرك و الكرك) العربية من كرخا الارامية اي بلدة ومنها الكرخ اسم الجانب الغربي من بغداد .

(٣) ولانه كان يسمى ريموند الف سانت جيل (Raymond of Saint - Gilles) دعا العرب صنجيل او ابن صنجيل .

(٤) اصبح الكرك هذه القلعة من بعد وصارت تستعمل كسجن الى ايامنا هذه .

(٥) ابن خلدون ج ٥ ص ١٨٦ .



عام ١١٠٥ دون ان يحقق امنه في احتلال طرابلس فان المدينة لم تسقط حتى ١٢ تموز عام ١١٠٩ .

وهكذا تأسست كونية طرابلس بعد كونية الرها وامارة انطاكية (ومنها كليكية) وكانت كلها تابعة للملكة القدس . وكانت الرها امارة برغندية ومثلها القدس اما انطاكية فنورمندية وطرابلس فيروقتالية . وهذه المقاطعات الاربع هي كل ما أنشأه اللاتين في رقعة البلاد الاسلامية . وقد انحصرت سيطرتهم كما يلاحظ بناحية سورية الشمالية وبالشقة الساحلية فكانت منطقة نصرانية ضيقة يجاورها من الخلف ارض اسلامية واسعة . ولم يكن بيد الافرنج بلدة واحدة تبعد عن اعدائهم اكثر من مسير يوم حتى في الولايات التي أنشأها اللاتين فانهم لم يكونوا فيها غير اقلية ضئيلة . اما مدن الداخل كحلب وحماة وحمص وبلبيك ودمشق فلم تدعن للافرنج ابداً مع ان بعضها أدى الجزية أحياناً . وفي عام ١١٥٦ أدت دمشق للافرنج في عهد نور الدين ابتداء من ايلول ثمانية آلاف دينار مقاطعة^(١) .

المعوقات الاجتماعية

اما اختيار التعاقب على الملك في هذه الولايات اللاتينية وما دار فيها من مشاحنات واحن فليست مما يعنينا في هذا الكتاب لأن ذلك جزء من تاريخ اوربا وليس من تاريخ العرب ، ولكننا لا نستطيع ان نهمل امر العلاقات الودية والسلمية بين الغربيين وابتناء البلاد .

ويجب ان نذكر اولاً ان الافرنج قصدوا الاراضي المقدسة وهم يحبون انفسهم ارفع منزلة من اهلها وكانوا يظنون ان اهلها وثنيون يعبدون محمداً ولكنهم ما كادوا يتصلون بهم حتى زالت المشاورة عن عيونهم . أما الأثر الذي تركه الفرنج في عيالة المسلمين فان اسامة ابن منقذ^(٢) اعتبره بقوله : « انهم يهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » . غير ان الاختلاط الذي لم يكن هناك محبص عنه بين الجانبين زمن السلم - الذي طالت مدته كثيراً عن زمن الحرب - قد أدى الى تبدل ظاهري في شعور كل من التفرقتين وقد استحكمت بين

(٢) ابن القلانسي ص ٣٣٦ .

(٢) الاعتبار ص ١٣٢

القر يقيين أثر ذلك علاقات ودية وروابط صداقة وحسن جوار . وقد أخذ الفرنج يستأجرون صناعاً وفلاحين في أعمالهم ويأمنونهم ثم ما لبث النظام الاقطاعي الذي اوجدوه ان تحول واصبح مع مرور الايام ملائماً لاحوال البلاد . واخذ الفرنج لانفسهم الخيول والبواشق وكلاب الصيد ولم يطل الامر حتى عقدت بين القر يقيين اتفاقات لحماية الصيادين من خطر الاعمال العدائية . كذلك اتفق القر يقان على حماية المسافرين والتجار ووضعوا لذلك أنظمة راعوها وتقيدوا بشروطها . واقلع الفرنج عن لباسهم الاوربي وتعلموا بالآزياء الوطنية التي كانت أدعى الى الراحة . واكتسبوا شيئاً من الفنون الشرقي في الاطعمة والاشربة اخصه ما يتعلق بالسكر والتوابل . وآثروا سكناتهم البيوت الشرقية الطراز وما فيها من ايوانات واسعة ومياه جارية . وتزوج بعضهم من الوطنيات فنشأ عن ذلك جيل جديد مهجّن متوسط بين الجنسيتين وكان يعرف افراداً بـ « بولان » *« polans »* (١) . وبلغ تعلقهم ببعض العادات والعقائد المحلية ان كانوا يصلون أحياناً في المزارات التي يقدسها المسلمون واليهود . وكانت اللاتين في خصوماتهم الخاصة والقتال المستمر فيما بينهم يرحبون بالمساعدة التي تأتيهم من أعدائهم المسلمين . وكذلك كان المسلمون كثيراً ما يعوّلون على طلب النجدة من بعض اللاتين ضد اخوانهم المسلمين في نزاعهم معهم .

٢ رد الفعل الاسلامي : قيام زنكي وحمزة الدين

كان ظهور حمزة الدين زنكي أنابك الموصل الأزرق العيني (١١٢٧ - ٤٦) فائحة عصر جديد كان النصر فيه حليف المسلمين . وقد كان زنكي هذا اول الأبطال الذين تعاقبوا على قيادة الجيوش الاسلامية لمقاومة الصليبيين ، واعظمهم صلاح الدين . واستندت هذه المقاومة حتى أيام السلاطين المماليك في الشطر الثاني من القرن التالي . وكان زنكي ابن وقيق تركي ملكشاه وقد بنى لنفسه ملكاً يشمل حلب وحرّان والموصل . وقد أسس في الموصل الدولة الزنكية (١١٢٧ - ١٢٦٢) وهي دون جدال في مقدمة الدول التي انشأها الانابكة . وتولى زنكي الهجمات الاولى على الصليبيين وظلت هذه الهجمات تتوالى حتى قضت على ملكهم

(١) اللاتين وفي اللاتينية *(polani)* . قابل « فلان » العربية .

في هذه البلاد ، وكان اول ما ابلى في حروبه بالرهاة . وكانت هذه المدينة لقربها من بغداد وسيطرتها على الخطوط الرئيسية بين العراق وشواطئ البحر الابيض كناية عن ترس اتقت به الولايات اللاتينية في سورية الخطر الجاور . وقد استطاع زنكي بعد حصار دام اربعة اسابيع ان يتزعمها (١١٤٤) من جوسلين الثاني (١) فكانت اولى الولايات الصليبية ظموراً وسقوطاً . وكانت حصينة جداً الا ان حاميته كانت ضعيفة وسقوطها في ايدي المسلمين نزع الاسفين الذي كان الافرنج قد دفنوه بين سورية الاسلامية والعراق . اما في اوربا فقد كان هذا القتل الذي اصاب الافرنج سبباً للحملة المعروفة بالتجريدة الصليبية الثانية (١١٤٧-٩) التي قادها كونراد الثالث الالماني وثوريس السابع الفرنسي . وسار الجيش وقد تألف من فرسان فرنسا ومانيا ومن الفرسان المعروفين بالداوية (٢) (الهيكالين) وبالايبترية (٣) ومن الجند الذي جمعه القديس فطرب الحصار على دمشق مدة اربعة ايام دون جدوى (٤) ولم تترك هذه الحملة أثراً يذكر .

وخلف زنكي في الزعامة والدفاع عن الاسلام ابنه نور الدين محمود وولي ممتلكات ابنه السورية وجعل حلباً عاصمته . ووفق نور الدين أبناء مقسدة وقوة فلم يكن غرماً لؤد الافرنج بغرقه في شيء من امور الحرب . وفي سنة ١١٥٤ اتزع دمشق من احد خلفاء طغتكين دون قتال وبذلك ازال آخر حائل كان يحول بين المنطقة الزنكية وبين بيت المقدس . ولم يلبث ان اتهم احتلال كورنثية ارهاة بعد ان غلب اميرها جوسلين الثاني وحمله أسيراً سنة ١١٥١ (٥) ثم انت نور الدين فتبع أيضاً أقساماً من امارة انطاكية وقبض على صاحبها يوحنا الثالث الحدث في سنة ١١٦٤ وعلى حليفه ريموند الثالث صاحب طرابلس ولما كنه اطلق الاسيرين

(١) ابن الاثير « تاريخ الدولة الامانية » في ١١٨ ٥٥٧ . *Recueil : orientaux*, vol.ii, p. 118

(٢) لفظة عربية تعرب كلمة سريانية بمعنى فقير وكان اسم هذه المنظمة في الاصل اللاتيني *Pauperes Committiones Christi* (فرسان المسيح الفقراء)

(٣) لو فرسان القديس يوحنا .

(٤) ان اوديج بيسان لذلك موجود في ابن القلانسي من ٢٩٨-٩٠ وكان لابن القلانسي منصب سام في حكومة المدينة .

(٥) ابن البرقي ص ٢٦٩ ؛ ابن الاثير ج ١ ص ١٠١ ؛ قابل كمال الدين ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ترجمة بلوتشة . *Bloch et Paris, 1900*, p. 25

لقاء فدية قدمها وقد اطلق الاول بعد سجن سنة والثاني بعد تسع سنين .
اما فلسطين فلم يلاق المسلمون فيها من النصر ما لاقوه في الانحاء الاخرى فقد سقطت
عسقلان معقلها الاكبر (١١٥٣) في يد بلدوين الثالث صاحب اورشليم بعد ان كانت حصناً
بقي البلاد المقدسة من غارات الافرنج وبعد ان ظلت تقاوم الافرنج نحو نصف قرن .

ظهور صمدع الدين

وكان من اعوان نور الدين في جنده ضابط ملازم قدير اسمه شيركوه فانهز نور الدين
فرصة تضعف الامر في الدولة الفاطمية وانفسه لاكتساح مصر فحقق انتصارات حربية
وسياسية يسرت له ان يتقلد الوزارة سنة ١١٦٩ في خلافة العاضد (١١٦٠ - ٧١) آخر
الخلفاء الفاطميين (١) . اما شاور سلفه في الوزارة فقد استنجد على شيركوه باملك الاول
أخا بلدوين الثالث وخلفه . على ان شيركوه لم يطل عمره ومات بعد ولايته بزمان يسير
وخلفه ابن اخيه صلاح الدين ابن ايوب .

ولد الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف في تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ من
ابوين كرديين وفي السنة التي تلتها عين الاتابك اياه ايوب محافظاً على بعلبك . ولما تعلم
الا القليل عن نشأة صلاح الدين وتربيته وسني دراسته الاولى في سورية . ولكن الظاهر
ان ميوله اتجهت نحو الابحاث الدينية . ولم يشتهر اسمه في الناس حتى سنة ١١٦٤ حين
سار « على كره منه » (٢) في صحبة عمه في حملته الاولى على مصر . واذ ذاك اخذ بجبهه في
الصعود . وكان لصلاح الدين امينان جاهد طول حياته في سبيلها الاولى احلال السنة محل
الشيعة في مصر والثانية مواصلة الجهاد والحرب على الافرنج . وفي سنة ١١٦٩ استندت اليه
الوزارة بمصر واستطاع بعد عامين ان يقوِّض خلافة الفاطميين ثم امر الخطباء ان يقطعوا خطبة
العاضد آخرهم ويخطبوا للخليفة العباسي المستضي . وقد تم له ذلك دون اي عناء او اضطراب
بحيث زعم ابو الفداء انه « لم ينقطع فيه صبران » (٣) .

١ ابن حليكان ج ١ ص ١٠٥ - ٧ : قابل ياقوت ج ٢ ص ٢٤٦ - ٧ .

(٢) ابو شامة ج ١ ص ١٥٥ : ابو الفداء ج ٣ ص ١٧ .

(٣) ابو الفداء ج ٣ ص ٥٣ .

وفي سبيل تحقيق أمنيته الثانية وهي الأهم رأى انه لا بد له أولاً من السيطرة على سورية الإسلامية وكان حاكمها اذ ذلك رئيسه نور الدين . ولم تلبث العلاقات بينهما أن توترت وساءت الحال . وعند وفاة نور الدين في سنة ١١٧٤ أعلن صلاح الدين استقلاله بمصر ثم خاض غمار الحرب على خلف نور الدين وتم له في المعركة الأخيرة - معركة قرون حاة - ان يفتصب سورية من يد حاكمها الصبي اسماعيل ابن نور الدين وخلفه وكان لا يزال في الحادية عشرة من عمره . وفي هذه الاثناء أفلح توران شاه اخو صلاح الدين الأكبر في الاستيلاء على اليمن . اما بلاد الحجاز وفيها الحرمين الشريفان فانها قد انضمت الى مصر كسابق عادتها . وفي ايار سنة ١١٧٥ صدرت ارادة من الخليفة العباسي بناء على طلب صلاح الدين أسندت فيها اليه السلطة على مصر والمغرب والنوبة وغربي الجزيرة العربية وفلسطين وسورية الوسطى . وبذلك جاد الخليفة بما لم يكن في الواقع ملوكه ولكنه لم يسمعه ان يرفض هذا الشرف . وتفرّد صلاح الدين بالسلطنة حسبما اعلننا نسيبه المؤرخ ابو الفداء (١) واستطاع بعد عشر سنين أن يخضع الموصل ويستلحق امراء العراق بطاعته . وهكذا فازت امنية نور الدين في الاحاطة بالافرنج وحصرهم ثم اهلاكم بين حجري رحى - الواحدة سورية والعراق والأخرى مصر - قد اخذت تتحقق في عهد خلفه صلاح الدين الذي برّاه ونفوق عليه .

وكان في اثناء هذه المعارك في شمالي سورية أن حاول الحشاشون مرتين اغتيال صلاح الدين بتحريض من بعض اعدائه من المسلمين . وقد حاول الحشاشون من قبل ان يقتلوا نور الدين ففشلوا ولكنهم أفلحوا في اغتيال الخليفة الفاطمي الأمر (١١٣٠) . وكان رجال هذه الحركة الهدامة يظهرون نشاطاً ملموساً في سورية في تلك السنين . وكان اعظم ضحاياهم من رجال الافرنج ريموند الثاني امير طرابلس (١١٥٢) وملك اورشليم كونراد ده مونفرات (١١٩٢) (٢) بعد اعتلائه العرش بزمان يسير . وفي عام ١١٧٦ حاصر صلاح الدين قلعة مصياد معقل راشد الدين سنان زعيم الاسماعيلية ولكنه ارتد عنه بعد عهد قطعه له الشيخ

(١) ج ٣ ص ٦٠ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٥١ .

راشد (شيخ الجبل) في انت لا يتعرض له فيها بعد .

وكان سنان قد استقل عن فارس وقد امتنع في الحصون التي ملكها وكان يدير دائرة استخبارات سرية ويستعين بالحمام الزاجل لنقل الاخبار من مختلف الجهات بحيث حسب اتباعه امره من المعجزات . اما رجاله المعروفون بالقدانية فقد تميزوا بصناعة السكاكين المسمومة (١) واستعمالها فكانوا يقتالون بها من كانوا اغتاليه . ويحكى ان هنري (Henry of Champagne) الملقب بملك اورشليم زار سناناً في سنة ١١٩٤ فلما اراد ان يرى ضيفه جرأة رجاله وبسالتهم وعظم طاعتهم لاوامره فاعطى اشارة لاثني منهم كانوا على برج الحصن فوثبوا للحال الى اسفل وتمزق جسداهما (٢) .

موتين

ولما أمن صلاح الدين شر الحشاشين تفرغ لمكافحة الافرنج . وفي اول تموز سنة ١١٨٧ استولى على طبرية بعد حصار دام ستة ايام . ثم نلت ذلك معركة حطين وقد وقعت في الثالث والرابع من تموز . وكانت حطين بالقرب من طبرية وقد شرع في القتال يوم الجمعة وهو يوم كثيراً ما اختاره صلاح الدين للجهاد ووفق فيه وكان هذا اليوم يوم يؤس على الافرنج فقد كان معسكرهم نحو عشرين الفاً انهمكهم العطش والحرق فوقع جنهم بأيدي المسلمين . وكان في مقدمة الاسرى النبلاء غي ديلوسيتيان «Guy de Lusignan» ملك اورشليم . وقد احسن السلطان صلاح الدين التنبيل معاملته واستقبله خيراً استقبال اما زميله رجنل «Reginald of Chabillon» الذي كان يخرق الهدنة ويعيث بالامن فقد نال معاملة اخرى . واعمل رجنل كان اشد زعماً اللاتين مغامرة واكثرهم تعدياً واوفرهم المأماً باللغة العربية وقد اقدم مراراً حين كانت الكرك في عهده على مداومة القوافل الآمنة يسلبها امتاعها حين تمر قرب اسوار حصنه خارقاً بذلك شروط الخاتمة المعقودة مع المسلمين . وبلغ منه الكيد أن جرّد اسطولاً من أبله يعيث بشواطئ

(١) ابن بططه ج ١ ص ١٦٦ .

Marius Sarras " Liber secretorum " in Bongars, *Gesta Dei per Francos* (1) (Hanau, 1611), vol. II, p. 201.

المحجاز متعرضاً لحجاج بيت الله . وكان صلاح الدين قد نذر على نفسه ان يفتله بيده ان
مكنه الله منه ، وقد تم له ان يفي نذره . واحتال رجنالد للنجاة بان طلب ماء في خيمة صلاح
الدين وشربه ظناً منه ان هذا التقليد العربي كافٍ لحمايته ولكن لم يشرب الماء باذن من
صلاح الدين فلم يحظ بأمانه بل جوزي على غدره وضرب صلاح الدين رقبتة وجمع من كان
معه من الداوية والاستشارة فامر بهم قسرت اعتاقهم على مشهد من الناس (١) .

وكان النصر في يوم حطين نصراً حاسماً قرر مصير المملكة اللاتينية وقضى عليها القضاء
المبرم ولم يطل الأمر على بيت المقدس اكثر من اسبوع حتى استسلمت (٢ تشرين الاول ١١٨٧)
لصلاح الدين وكانت حاميتها قد فني اكثرها في واقعة حطين ودوى صوت المؤذن في المسجد
الاقصى بدلا من ناقوس النصارى وانزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من فوق
قبة الصخرة .

وبسقوط بيت المقدس عاصمة المملكة اللاتينية دانت لصلاح الدين اكثر المدن التي كانت
بايدي الافرنج في سورية وفلسطين . وبعد سلسلة من الحملات العسكرية الباهرة سقطت
أغلب القلاع دون ان تستطيع اى منها الدفاع عن نفسها وكان قد هلك معظم ابطالها
في يوم حطين . وقد التهمت نفس صلاح الدين بطل الاسلام بروح الجهاد التي كان الصليبيون
قد فقدوها فتابع عماليات الفتح شمالا حتى اللاذقية وجبله وصهيون وجنوباً حتى الكرك
والشوبك . وقبل انتهاء سنة ١١٨٩ سلمت هذه المدن كلها هي وشقيف ارتون (٣)
وكوكب (٤) وصغد وسواها من القصبات بعد ان كانت اشواكاً في جنب جيوش المسلمين .
وكادت هزيمة الافرنج ان تؤدي الى جلائهم التام عن البلاد . ولم يبق في حوزتهم عندئذ

(١) ابو شامة ج ٢ ص ٧٥ وما يلى يورد بياناً لقاعد عماليات ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٢ :
Ebnoul and Bernard le Trésorier, *Chronique*, ed. M. L. de Mas Latrie (Paris, 1871),
pp. 172-4.

(٢) وهي قلعة ارتون على الليطاني وتعرف في اللدونات اللاتينية بـ Belfort . اما صاحبها فكان
يعرف برجنالد « Reginald » الصيداوي .

(٣) قلعة سليبية بنيت في ذلك العهد في شمالي بيسان قرب الاردن . وكان اسمها الكامل عند العرب « كوكب
المهوء » وهي بلفوار Belvoir في المصادر اللاتينية .

الانطاكية وطرابلس وصور مع بعض المدن الصغيرة والقلاع .

مصارع

وارتفعت اوربا عندما بلغها سقوط المدينة المقدسة فنتسي حكامها خصوماتهم القديمة ونشطوا الى الجهاد . وانبرى فردريك بربروسا «Frederick Barbarossa» امبراطور المانيا وريتشارد قلب الأسد «Richard I Cœur de Lion» ملك انكلترا وفيليب اغسطس



قلعة الشيف

«Philip Augustus» ملك فرنسا الى حمل الصليب . وبعد هؤلاء الثلاثة اعظم ملوك اوربا الغربية و بهم بدأت التجربة الصليبية المعروفة بالثالثة (١١٨٩ - ٩٢) . وهي من اكبر التجريدات من حيث عدد الحار بين . وكانت هذه الحملة وما ظهر فيها من شخصيات بارزة

في كلا الجانبين وبتنوع خاص صلاح الدين وقنب الاسد قد أمدت الاساطير والروايات الشرقية والغربية بأحسن المواضع وغذتها بأغنى المواد وامتع الأخيار .

وكان أول الناشطين الى الحرب فردريك وقد سلك طريق البر ففرق خلال عبوره نهر بكيكية . وعاد معظم رجاله الى اوطانهم . اما رنشرد فقد عرج بطريقته على قبرس فاخذها وقد أصبحت قبرس بعدئذ آخر ملجأ للصليبيين المنهزمين من السواحل السورية .

وايقن اللاتين في غضون ذلك ان عكا هي المفتاح الذي به يمكن ان يستعيدوا ما خسروه فحملوا عليها بحافلهم مع من تبقى من جيش فردريك وكثائب ملك فرنسا . اما الملك غي الذي كان صلاح الدين قد أطلقه بعد أن استسلمه الا يعود الى قتال المسلمين فانه حث بيمينه وخرج ثانية للقتال يقود المهجوم على عكا ووصل صلاح الدين لاقاؤا المدينة في اليوم الثاني وجعل معسكره قبالة العدو . ونشب القتال براً وبحراً وكان ان وصل رنشرد قلب الاسد ايضاً فاحتفى الافرنج بتقدمه وتهللوا واشعلوا نيران البشري . وفي أثناء الحصار جرت عدة حوادث فادرة دونها مؤرخو العرب واللاتين المعاصرون منها أن رجلاً من أهل دمشق كان مشرفاً على آلات النبط وتحضير المواد اللازمة للمفرقات فاحرق ثلاثة ابراج للعدو فامر صلاح الدين بالاحسان اليه فرفض قائلاً : « انما فعلته لله ولا اريد الجزاء الا منه » (١) . وكان للافرنج حجر كبير من الصوان اشتركت في حمله ثلاثة مراكب وقد نقله رنشرد من صقلية ليستعمله في منجنيقاته ويقال انه قتل به ثلاثة عشر شخصاً من عكا . ولكن المسلمين استولوا عليه اخيراً وقدموه للسلطان صلاح الدين ليراه . ومن الادلة على الاحترام المتبادل بين صلاح الدين ورنشرد انها كانا يتبادلان الهدايا الا انها لم يتلاقيا قط . وكان صلاح الدين يتصل بحامية عكا حين طوقها الافرنج وقطعوا عنها طريق البحر بواسطة حمام الزاجل والسياحين . ومن هؤلاء السياحين رجل نزل ذات ليلة وقد شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها الف دينار ورسائل للمسكر ففرق وبعد ايام قذف به البحر فاخذ العكاويون ما كان معه من مال ورسائل . وروحت هذه الحادثة لكاتب سيرة صلاح الدين ان يقول : (٢)

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٣٢١ .

(٢) ابن شداد سيرة صلاح الدين : النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية (القاهرة، ١٣١٧) ص ١٢٠ .

« فما رؤي من أدي الأمانة في حال حياته وقد ردها في ممانه الا هذا الرجل » . وكانت رتشارد بنعم على كل من زحزح حجراً من اسوار المدينة فقام اثنار يون والنساء باعمال عظيمة من البسالة والبطولة . وان هذا الحصار الذي بعد من اعظم الاعمال الحربية في العصور الوسطى قد دام نحو سنتين (٢٧ آب سنة ١١٨٩ - سنة ١٢ تموز سنة ١١٩١) . واستفاد الافرنج من اسطولهم وعدتهم الحديثة للحصار . اما المسلمون فانحصرت ميزتهم في ان القيادة كانت موحدة في شخص واحد . وطلب صلاح الدين التجدد من الخائفة فلم يلبه . ولما ضاق الامر بالحامية طلبت الصلح واستسلمت .

وكانت أهم شروط الصلح ان لا يتعرض الافرنج للحامية بسوء مقابل مئتي الف دينار وأن يرجع المسلمون الصليب المقدس (١) . وانسكن رتشارد لما رأى تأخر صلاح الدين شهراً عن دفع المال أمر بالاسرى فجمعوا وقتلوا (٢) وكانوا زهاء الفين وسبعمئة . وهو عمل يختلف عما فعله صلاح الدين بالاسرى حين دخل بيت المقدس ظافراً . فقد كان هو الواضع لشروط الصلح هناك وكان منها ان يؤدي الافرنج عن انفسهم مالا وانسكن عدداً من فقرائهم يبلغ ثلاثة آلاف عجز عن تادية ما فرض عليهم فانخل صلاح الدين سبيل الف منهم نزولاً عند رغبة أخيه . وتوسط البطريرك ليربق آخر منهم فاطلقهم السلطان . ثم رأى صلاح الدين ان أخاه والبطريرك قد زكيا عن نفسيهما وان دوره في الزكاة قد اتى فاطلق سراح الباقين بمن فيهم من نساء والاطفال دون فدية .

واخذت عكا تحتل مكانة اورشليم (٣) في الزعامة واخذت مخابرات الصلح تدور في هذا العهد بين الفريقين المتحاربين دون انقطاع . ولما كان رتشارد من المغامر بين انجلييين فانه اقترح زواج اخته من الملك العادل اخي صلاح الدين على ان تعطى القدس هدية للزوجين

(١) ابو شامة ج ٢ ص ١٨٨ ؛ محمد بن الدين الاصفهاني ، الفتح القدسي في الفتح القدسي نشر لاندبرغ (لندن ، ١٨٨٨) ص ٢٥٧ ؛ ابن العربي ص ٣٨٦ - ٧ ؛ ابو القداء ج ٣ ص ٨٣ - ٤ .

(٢) Benedict of Peterborough, ed. W. Stubbs (London, 1867), vol. ii p. 139.

ابن شداد ص ١٦٥ .

(٣) ابن العربي ص ١٣ ؛ بشرى الى « ذك عكا » .

فينتهي بذلك العداء المستعمر بين النصارى والمسلمين ^(١) . وفي احسد الشعانين (٢٩ ايار عام ١١٩٢) أقام رتشد حفلة رسمية أنعم فيها على الملك الكامل ابن العادل برتبة الفروسية واخبراً تم الصلاح في ٢ تشرين ثاني سنة ١١٩٢ على ان يكون الساحل للانيين وداخلية البلاد للمسلمين وعلى ان لا يتعرض أحد باذى للحجاج الوافدين على بيت المقدس . ولم يكتب اصلاح الدين من العمر سوى شهر قليلة بعد ذلك ينعم فيها بشعرات الصلاح . وفي ١٩ شباط من السنة التالية اصابته حمى في دمشق فمات بعد اثني عشر يوماً وهو في سن الخامسة والخمسين ولا يزال قبره في العاصمة السورية قبلة الزائرين .

ولم يكن صلاح الدين بطلاً وحامياً من حماة الدين والسنة فحسب بل كان ايضاً منشطاً للعلم والعلماء فهو الذي شجع الدراسات الدينية وافتتح المدارس وأنشأ المساجد وابتقى السدود وحفر الافنية . ومن آثاره قلعة الجبل بالقاهرة ^(٢) . وقد اخذ في تشييدها مع اسوار المدينة في سنة ١١٨٣ واستجلب لها حجارة من الاهرام الصغرى . وكان بين الذين استوزروهم عالمان كبيران هما القاضي الفاضل ^(٣) وعماد الدين السكاتب الاصفهاني ^(٤) الشهيران يأسوا بهما واناقة رسالتهم وآخر من خدم السلطان كانماً لاسراره بهاء الدين ابن شداد ^(٥) وقد دون هذا سيرة سيده فيما بعد . ولما استولى صلاح الدين على قصر الخلافة الفاطمية اخرج ما فيه من كنوز وثقائن فوزعها في خدمه وحشمه ولم يبق لنفسه شيئاً . ومن الجواهر التي وجدت في مقتنيات الفاطميين عقد ياقوت وزنه ابن الاثير ^(٦) نفسه فكان سبعة عشر درهماً وكذلك علف صلاح الدين عن املاك نور الدين فتركها لابن الملك الراحل . اما هو فلم

(١) قابل ابا الفداء ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) لا تزال الكتابة التي خلفها طاعرة على البوابة القديمة .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٤٠٩ وما يلي : السبكي ج ٤ ص ٢٤٣ - ٤ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ وما يلي : البيهقي حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٠ . وقد استعنا بكتاب الفتح الفسيح لعماد الدين الاصفهاني في وضع هذا الفصل .

(٥) ابن خلكان ج ٣ ص ٤٢٨ وما يلي . وقد اعتمدنا على سيرة صلاح الدين لابن شداد في مواضع كثيرة من هذا الفصل .

(٦) ج ١ ص ٢٤٢ .

يخلف في خزانته يوم وفاته سوى سبعة واربعين درهماً وحرم واحد صوري^(١) (قطعة نفود ذهبية) . ويُعد صلاح الدين عند العرب في مصاف الرشيد وبيبرس وفي مقدمة الذين نالوا شهرة شعبية عند العرب عامة وخاصة . أما في أوربا فقد اُظن بذكره المنشدون في العصور الوسطى وكذلك فعل الروائيون المصريون^(٢) ولا يزال يعتبر مثال البطولة والقروسية .

٣ . حقبة الحروب الأهلية والمناوشات : الأيوبيون

إن السلطة التي أنشأها صلاح الدين من دجلة حتى النيل قد انقسمت بين أبنائه الذين لم يكن لأحد منهم ماله من الدماء . ففي دمشق خلفه ابنه الملك الأفضل وفي القاهرة ابنه العزيز وفي حلب الظاهر . أما أخوه الأصغر وأمين أسرازه العادل فقد ولي الكرك والشوبك حتى كانت سنة ١١٩٦ ونشبت الفتنة بين أبناء أخوته فاغتنم العادل الفرصة واغتصب لنفسه السلطة على مصر ومعظم سورية . وكانت سيف الدين العادل هذا أهم ممثلي الإسلام في مخاضات الصلح سنة ١١٩٢ وحافظ طول حكمه على حسن العلاقات مع الصليبيين . ومع أن المناوشات البسيطة لم تكن معدومة بين الطرفين فإن سياسته العامة إنما ارتكزت على السلم وتشيط التجارة بين المسلمين والمستعمرات الفرنجية . وقد سمح لأهل البندقية أن يفتحوا أسواقاً وفنادق^(٣) خاصة بهم في الاسكندرية كما قيل أن يكون فيها لأهل بيزا قناصل . ولا يزال اسمه خالداً في دمشق بالمدرسة العادية التي ساهم في بنائها^(٤) .

وبعد وفاة العادل سنة ١٢١٨ نشأت عدة أسر أيوبية كلها متحدرة منه وملككت في مصر ودمشق والعراق . وقامت أسر أيوبية أخرى متحدرة من سواه فتولت أمور حصص

(١) أبو القداء ج ٣ ص ٩١ .

(٢) انظر مثلاً ولتر سكوت (Walter Scott) في قصة تليمان (Talisman) ولينغ (Lessing) في ناثان در فيزه (Nathan der Weise) .

(٣) فندق في العربية من pandokeion اليونانية ؛ وبندق العربية (الشجر المعروف) من بنتكوس pontikos اليونانية (وهي سنة من بنتوس Pontos) ؛ أما البندقية اسم مدينة Venice العربي (أبو القداء ، تقويم البلدان نشر رينو ودوسلان ، باريس ١٨٤٠ ص ٢١٠) فن Veneticum .

(٤) لقد أعجبت هذه المدرسة الديكي وابن خلدان وغيرهما من العلماء وعي البروم مقر الجميع العلم العربي .

وحاة واليمن . وكان اصحاب مصر من الايوبيين هم الفرع الرئيسي لهذه الدوحة وكثيراً ما نافسوا انسابهم الدمشقيين على سيادة سورية . اما الفروع التي حكمت شمالي سورية فقد قضى عليها التتر سنة ١٢٦٠ بزعامة هولاكو ما عدا اصحاب حماة الذين بقيت دولتهم في ظل المماليك ومن هؤلاء ابو الفداء (المتوفى ١٣٣١) الملك المؤرخ الذي يرجع نسه الى اخي صلاح الدين .

معسكر الفرنج

ولم يقتصر شر هذه المنازعات العائلية على فقدان الاسلام سطوته بل تمدى ذلك الى درجة ان المدن التي كان صلاح الدين قد فتحها عادت الى ايدي الافرنج الواحدة تلو الاخرى من بيروت الى صفد فطبرية فحسقلان ، حتى بيت المقدس فانهم قد استولوا عليها سنة ١٢٢٩ . على ان الافرنج لم يستطيعوا ان يستغلوا الموقف تماماً لأنهم ابتلوا بما ابتلي به المسلمون من انقسام في كلتهم وتضعف في شؤنهم . وكانوا يستندون في عيشهم في المستعمرات المختلفة الى ورود الامدادات من اوربا فلما انقطعت هذه اضطربت امور الحياة ودارت بين الصليبيين القتل لاسيما بين اهل جنوى منهم واهل البندقية كما استشرت الضغائن بين الداوية والاسبتارية . وامتلات قلوب الزعماء بروح التحاسد فكانوا يتنافسون على الملك ويتخاصمون في ايهم يحظى بذلك الملقب الفارغ «ملك اورشليم» . تلك كانت حالهم وكانوا كما اسلفنا يستنجدون احياناً بالمسلمين حين يستفحل الشر بين فريق منهم واخر .

مصر نقطة الانقسام

أما المعارك الخطيرة التي دارت رحاها بين الافرنج والوطنيين عقب وفاة صلاح الدين فقد جرت بوادي النيل في عهد الكامل (١٢١٨ - ٣٨) وكانت الكامل قد خلف أباه العادل على اريكة الحكم في مصر وبعد اعظم شخصية في الايوبيين . ولقد أدعت له سورية اذعاناً اسمياً . وكان همسه الاول ان يطهر البلاد من الصليبيين الذين كانوا قبيل وفاة ابيه قد فزلوا بالقرب من دمياط واستولوا عليها في السنة التالية . وكان الباعث لغزوة

الصليبيين على مصر الآن انت جمهوريات ايطاليا البحرية كانت قد ادركت ان مركز
الثقل في السياسة الاسلامية قد انتقل من سورية الى مصر وان سفنهم لا يتسنى لها الاتصال
بالبحر الاحمر والمساهمة بتجارة المحيط الهندي الراجعة ما لم تتم لها السيطرة على وادي النيل .
وبعد كفاح دام نحو سنتين (تشرين الثاني ١٢١٩ الى آب ١٢٢١) ارغم الكامل
الافرنج على التخلي عن دمياط واذن لهم في الرجوع الى بلادهم (١) .

وشابه الكامل آياه في تشجيع الري والزراعة وعقد عدة معاهدات تجارية مع البلدان
الاوربية . وبلغ عطفه على رعاياه النصارى درجة جعلت الكنيسة القبطية تعده اكثر الملوك
احساناً الى ابنائهم . وفي السنة الثانية من ملكه زاره القديس فرنسيس الاسيزي
St. Francis of Assisi . وباحثه في بعض امور الدين . ويمكن ان يستدل على رغبته
في العلم من اقدامه مرة على زيارة عمر ابن القارض (١١٨١ - ١٢٣٥) اعظم شاعر صوفي
انجته العرب . ويقال ان الشاعر رفض ان يستقبل ضيفه الملك . وكان من اصدقاء رتشد ،
ثم نشأت بعد ذلك صداقة بينه وبين فردريك الثاني الذي قاد في سنة ١٢٢٧ حملة صليبية . وفي
سنة ١٢٢٩ عقد الكامل صلحاً شاملاً مع فردريك رضي فيه بتسليم القدس للافرنج والساح
لهم بالاسديلاء على الشفة التي جعل عمكا بالقدس . وقطع فردريك عهداً على نفسه في انه
سيباعده على اعدائه واكثرهم من الايوبيين (٢) . ولما تعرف معاهدة بين الفرنجة والمسلمين
قبل العهد العثماني اغرب من هذه . وظلت القدس بايدي الافرنج حتى سنة ١٢٤٤ حين دعا
الملك الصالح نجم الدين ايوب (١٢٤٠ - ٤٩) ثاني خلفاء الكامل جيشاً من اترك خوارزم
كان جنكيز خان قد اجلاهم عن ديارهم في آسيا الوسطى فاعادوها للاسلام .

القديس لوي

و بينما كان الملك الصالح على فراش الموت بلغه نبأ حملة الافرنج على دمياط وكان

(١) ابو القداء ج ٣ ص ١٣٤ - ٧ ابن خلدون ج ٤ ص ٣١٩ - ٥ ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠١
ابن اياس بغداد الزهور في وقائع الدهور (يولاي ١٣١١) ج ١ ص ٧٩ - ٨٠ .
(٢) ابو القداء ج ٣ ص ١٤٨ - ١٤٩ ابن الأثير ج ١٢ ص ٢١٠ .

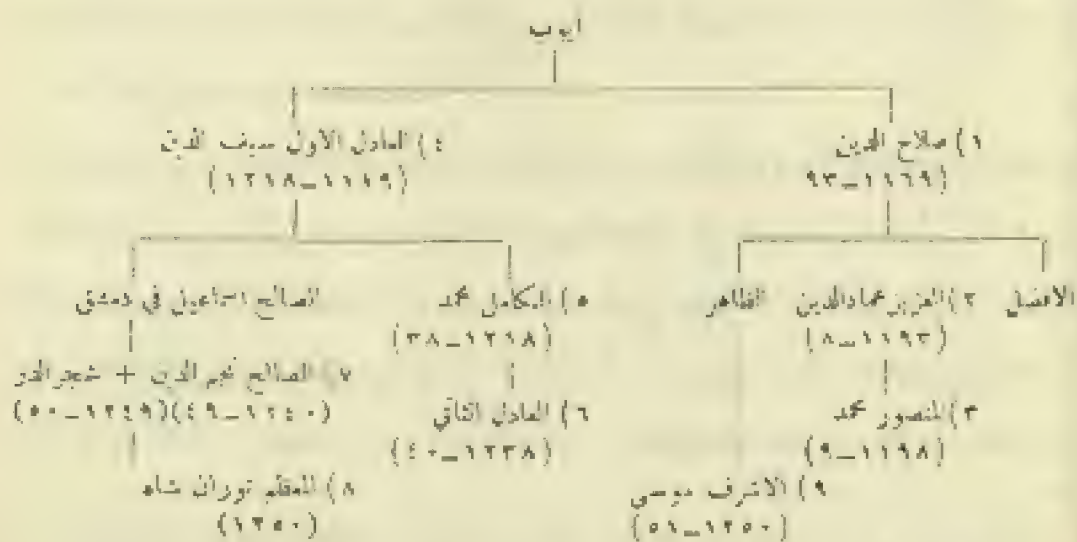
وعينهم هذه المرة لويس التاسع ملك فرنسا وكانت فرسانه من رجال «التجربة الصليبية السادسة» فالتفت لهم البلدة (٦ حزيران ١٢٤٩) دون مقاومة. وفي أثناء زحف الجيش الفرنسي على القاهرة في أرض مصر التي تتقاطعها الأفنية الكثيرة كان النيل في أعلى ارتفاعه فكثرت المنفجعات ونفثى الوباء في الجند وانقطعت عنه الامدادات فهلك الجيش كله (نيسان ١٢٥٠) وأسر الملك لويس ومعظم نبلائه (١).

الابريور بنخلوه للمالِك

وكان الصالح قد مات في تشرين ثاني ١٢٤٩ فكتمت اولمته شجر الدر الشيطنة الياسلة خبر موته ثلاثة اشهر حتى عاد ابنه توران شاه من العراق وخلفه (٢) ولم يرض عنه المالِك عبيد ابيه وتأمرؤا مع امرأة ابيه شجر الدر وقتلوه سنة ١٢٥٠. ومالكت شجر الدر وقامت بالامر ونفشت على السكة اسمها: «الستعصمة الصالحية ملكة المسلمين» (٣) وجيء بالاشرف موسى الايوبي من دمشق فأقيم معها وعمره نحو ست سنين وصارت المراسيم تصدر

(١) الفريري ج ٢ ص ٢٣٦-٤٧ Joinville, Histoire de Saint Louis ed. N. de Wailly (Paris, 1874), pp. 169 seq.

(٢) شجرة النساب الايوبيين المصريين وكلام الاعزيز والناصر والاشرف اعترفت به دمشق على الأقل مدة من الزمن.



ابو القداء ج ٣ ص ١٩٠؛ السيوطي، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩.

عن المسلمين . غير ان الأمر كان في الواقع بيد المملوك ايبك مؤسس دولة المماليك . وفي هذه الآونة وقع لويس في الأسر شهراً ثم اطلق سراحه هو ورجاله لقاء فدية دفعها ورضي بتسليم دمياط (١) . وأقام لويس في سورية من سنة ١٢٥٠ الى ١٢٥٤ وكانت أهم أعماله فيها تحصين تغور عكا وحيفا وقيسارية وصيدا . وقاد في سنة ١٢٧٠ حملة صليبية أخرى على تونس كانت فاشلة ايضاً ومات هناك . ويمتاز لويس على غيره من الزعماء الصليبيين بحسن سيرته ونبل اخلاقه حتى قيل فيه : « ان كل حياته كانت عبارة عن صلاة وكان قصده الاسنى العمل لمشيئة الله » .

الضربات الأخيرة : بيبرس

وقامت دولة المماليك فكان اميرها الرابع الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ٧٧) اول السلاطين الذين اتزوا بالصليبيين الضربات الاخيرة . وقد سبق له ان امتاز في قيادة جيوش سلفه قطز حين اتاخ في ٣ ايلول سنة ١٢٦٠ على التتر عند عين جالوت ومزق ثملهم . وكان قائد المغول في تلك الموقعة كتبغا النسطوري وكانت طلائع جيشه قد شذت في فلسطين حتى غرة (٢) . اما انتصار بيبرس عليه في تلك المعركة فحدث هام في تاريخ المدينة اذ لو قيض للمغول ان ينتصروا وينفذوا الى القاهرة ويستولوا عليها فالمرجح انهم كانوا افنوا كنوزها وذخائرها وخزائن مخطوطاتها . اصف الى ذلك ان هذه الموقعة ردت عن سورية ومصر الخطر الداهم ومهدت السبيل لتوحيد القطرين الشقيقين توحيداً دام تحت راية المماليك حتى الفتح العثماني بعد قرنين ونصف .

وكان بيبرس يطمح ان يسكون ثاني صلاح الدين في جهاده وحملاته على المدن الصليبية وقد استفزته بنوع خاص ان يرى هذه المدن تعقد اتفاقات مع الايلخانات المولوكية بفارس الذين كانوا يميلون الى الديانة النصرانية . فتمسك اليهم وتابع كراته عليهم من سنة ١٢٦٣ الى ١٢٧١ وكانت يهاجمهم مرة في كل سنة تقريباً . وخضعت له معاقل اللاتين على التوالي الواحد بعد الآخر ولم يصمد بوجهه منها الا القليل . ونالت المنظمتان العسكريتان اللتان

Joinville, pp. 201 seq. (١)

(٢) للريزي ترجمة كاترمير ٩٨، ١٠٤ (١) (٢) Quatremère, vol. I (pt. 1), pp. 98, 104

تمركزنا في امهات القلاع الافرنجية بسورية ووقفنا في وجه المسلمين اشد ضرباته وعجز الصليبيون في كل البلاد عن الصمود بحيث لم يجرأوا ان يلقوا المسلمين في معركة هامة واحدة. وفي سنة ١٢٦٣ احتل بيبرس الكرك وخرب كنيسة الناصرة على عظم اجلال النصارى لها. وفي ١٢٦٥ فاجأ قيسارية فاخذها ثم حاصر ارسوف التي كانت بيد الاستتارية فاستسلمت بعد اربعين يوماً. اما قلعة الداوية في صفد فقد صالحته في ٢٣ تموز في سنة ١٢٦٦ على ان يمنح الأمان لحاميتها المؤلفة من اثني فارس. ولكنه لم يتردد بعد ذلك برغم الأمان الذي اعطاه ان يجمع هؤلاء الفرسان على تل بجوارها ثم قتلهم عن آخرهم (١). ولا يزال اخبار انتصار بيبرس - اسكندر زمانه وعماذ دينه - محفورة على اسوار صفد. ولا يزال الجسر الذي بناه على الاردن قائماً الى الآن وعليه نقش له يحيط به رسم أسد من كل جانب. وفي سنة ١٢٦٨ سقطت يافا دون مقاومة واستسلمت شقيف ارنون بعد دفاع يسير. وفوق هذا فقد سلمت انطاكية (٢١ ايار) وكان لها علاقات ودية مع التتر فقتل من أهلها وحاميتها نحو ١٦ ألفاً وسبى ما يبلغ مئة الف بيع بعضهم في اسواق مصر. وغنم بيبرس فيها اموالاً طائلة فكانوا يكيلون المال كيلاً وقد بلغ ثمن الطفل اثني عشر درهماً وثمن الطفلة خمسة دراهم. اما المدينة وقلعته وكنائسها الشهيرة فقد احرقها كلها وكانت كارثة لم تنهض منها انطاكية حتى اليوم (٢). وعند سقوط انطاكية خف الافرنج الى الجلاء عن كثير من قلاعهم الصغرى الواقعة في نواحيها. وفي سنة ١٢٧١ سار بيبرس الى حصن الاكراد المتبع وهو اهم معاقل الاستتارية بل لعله اروع بناء حربي ابنته لنا العصور الوسطى فاستسلم الحصن بعد حصار دام من ٢٥ آذار الى ٨ نيسان ثم احتل قلاع مضباد والقدموس والكهف والخواني وانتزعها من الحشاشين المواليين للاستتارية وكانوا في الغالب يزدون الجزيرة لهم. وقضى بذلك على آخر اعشاش تلك الطغمة التي عانت فساداً في البلاد سنيماً طويلة. وسارع الداوية في انطرطوس والاستتارية في المرقب الى طلب الامان وعقد الصلح.

(١) المصدر نفسه قسم ٢ من ٢٩-٣٠: ابو الفداء ج ٤ من ٣.

(٢) الفريزي ترجمة كاتمر Quatremère, vol. 1 (pt. 2) pp. 52-4 ابو الفداء ج ٤ من ٤-٥.

قلاوون

وكان قلاوون (١٢٧٩ - ٩٠) خبير خلف بيبرس فنهض الى مكافحة الصليبيين بنشاط يكاد يعادل نشاط سلفه . وفي ١٥ نيسان ١٢٨٢ جدد الصلح الذي كان قد عقده بيبرس مع الداوية بانطراطوس عشر سنين اخرى وعشرة اشهر وعقد في ١٨ تموز ١٢٨٥ معاهدة مماثلة مع اميرة صور التي كانت تميم على بيروت (١) . ودخل قلاوون في ساحة القتال على ابيه اهل لأن يحمل اللقب الذي صار يعرف به « الملك المنصور » . وبعد حصار دام ثمانية وثلاثين يوماً آخرها ٢٥ أيار سنة ١٢٨٥ خضعت له قلعة المرقب وهي قلعة لا تزال قائمة الى اليوم في شكل دارعة حربية على رأس إحدى المصبات المنطة على البحر بخوار طرطوس ويرى الزائر اليوم رؤوس السهام التي رمها المحاصرون على القلعة لا تزال مغروسة في اسوارها انخارجية . وكانت هذه اول مرة شهد فيه ابو الفداء (٢) الحرب وله من العمر اثنا عشر سنة . وسبق من في القلعة من فرسان القديس يوحنا مخضرين الى جهات طرابلس . وكانت طرابلس من فتوحات الصليبيين الاولى وقد أصبحت في ذلك الوقت أهم ما بقي بأيديهم من المدن وقد سقطت أخيراً في نيسان سنة ١٢٨٩ فهدمت ودكت قلعتها . وكان ابو الفداء (٣) يومئذ مع الحارث بن وعير الى الجزيرة المجاورة للميناء فوجدوها ملاءى من القتلى بحيث لم يستطع الوقوف فيها من ثمن راحتها . وسقطت بعد طرابلس بلدة البترون الى الجنوب منها وارتخ قلاوون انتصارانه كما فعل بيبرس قبله بنقوش على جدران القلاع التي استولى عليها .

ع

ولم يبق من مراكز الافرنج العسكرية الهامة سوى عكا . وفيما كان قلاوون عازماً على غزوها وفتحها ادركته الوفاة فخلقه ولده الاشرف (١٢٩٠ - ٩٣) فاخذ في اكمل ما شرع به ابيه . وبعد قتال دام شهراً استخدم فيه اثنان وتسعون منجنيقاً لضرب حاميتها

(١) لقد اورد القزويني اسم المصنفين ، انظر كازمر ج ٢ قدم ٣ من ١٧٢ - ١٧٧ ، ٨ .

(٢) ج ٤ من ٢٢ .

(٣) ج ٤ من ٢٢ .

فتحها المسلمون (أيار ١٢٩١) وكانت آخر معقل اللاتين في الشرق . ولم يتمكن الافرنج من الاحتفاظ بها رغم ما جاءهم من مدد من قبرس . وكان فرسانها الداوية المدافعون عنها قد قبلوا الصلح على أن يخلي سبيلهم ولكنهم قتلوا عن آخرهم . وغنم المسلمون من عكا غنائم كثيرة وهدموا أبراجها ودكوا تحصيناتها وأحرقوا منازلها (١) .

ولم يبق بعد سقوط عكا مجال للافرنج أن يصمدوا طويلاً أو أن يحتفظوا بالمدن الست الساحلية التي كانت لا تزال بأيديهم . فدخلوا صور في ١٨ أيار وصيدا في ١٤ تموز وسلمت بيروت في ٢١ تموز . ونزل المسلمون انطرحوس في ٣ آب وحوالي منتصف الشهر دمروا قلعة عتليت بعد أن هجرتها الداوية (٢) . وبذلك أسدل الستار على أحد الفصول الحربية الرائعة في تاريخ سورية (٣) .

(١) ابن أقداس (وكان قد ساق في الحصار) ج ٤ من ٢-٦ : القريزي ترجمة كانرمر , Quatremère, vol. ii (pt. 3), pp. 125-9, *Archives*, vol. ii, pt. 2, p. 400 ; *Les gestes de Chiprais*, ed. G. Raynaud (Geneva, 1887), p. 256.

(٢) انظر Sanuto in Bongars, vol. ii, pp. 231, *seq.*

(٣) وقد جردت حملات صليبية متأخرة على رودس وازمير والاسكندرية واراخي تركيا في أوروبا انتهت بحملة نيكوبوليس في سنة ١٣٩٦ . انظر : A. S. Atiya, *The Crusade in the Later Middle Ages* : انظر (London, 1938) .

الفصل السادس والأربعون

العلاقات الثقافية

لما كانت الحروب الصليبية غنية بالوقائع الرائعة والحوادث النادرة كانت من الطبيعي ان يُبالغ في أهميتها التاريخية . وقد كانت أثرها ملموساً في الغرب أكثر مما كان في الشرق واقتصر من الناحية المادية على الفن والصناعة والتجارة دون العلم والادب . اما في سورية فقد تركت هذه الحروب آثار الدمار والتلف وجاءت المماليك فزاد هذا الدمار بتخريبهم مدن الساحل التي كان الافرنج قد نزلوها . وكان مما ورنه الشرق الادنى عن هذه الحروب ذكريات التنافر بين المسلمين والنصارى والحزازات الدينية التي لم تنطفىء جذوتها بعد .

مآثر نور الدين : ومخلفاته

ولقد تمتعت سورية برغم الحروب الاهلية والدينية في عهد الدولة النورية والدولة الايوبية - وبمَنوع أخص في عهد نور الدين وصلاح الدين - بازهى حقبة من تاريخها الاسلامي باستثناء العصر الاموي . ولا تزال الى اليوم في دمشق مخلفات العمارات والمدارس التي انشأها ابناء هاتين الاسرتين . ولم يكتف نور الدين بترميم أسوار المدينة بما فيها من أبراج وابواب وبيضاء دور للحكومة ظلت تستعمل حتى الايام الاخيرة بل أسس في دمشق اقدم مدرسة مختصة بعلم الحديث (١) . وانشأ البيارستان الشهير المعروف باسمه والمدارس الاولى التي اخذت تزدهر في البلاد في العصور التالية . وكان البيارستان النوري (٢) ثاني مستشفيات دمشق بعد المستشفى الذي بناه الوليد وقد اصبح من بعد داراً لدراسة الطب (٣) . ولا يزال قائماً لليوم . اما

(١) هي «دار الحديث النورية» وقد درس فيها في ذلك العصر ابن عساكر (ج ١ ص ٢٢٢) .

(٢) ابن جبير ص ٢٨٣؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٢٢١ .

(٣) قابل ابن أبي اصيبعة ج ٢ ص ١٩٢ .

المدارس فكانت ملحقة بالمساجد وكان بعض الطلاب داخلين يأكلون فيها وقد روعي فيها الطراز الذي قامت عليه المدرسة النظامية . وهذه المدارس الملحقة بالمساجد إنما كانت على المذهب الشافعي وقد أسسها نور الدين في حلب وحمص وحماة وبلبيك . وإن الكتابات الموجودة على هذه الابنية وسواها من آثاره لذات أهمية خاصة لدراسة علم الخط العربي حيث أنه حوالي هذا الزمن استبدل الخط السكوفي ذو الزوايا الهندسية الذي كان يستعمل على الابنية بالخط النسخي المذكور . ولنور الدين كتابة على قلعة حلب لا تزال واضحة الى اليوم . وما



قلعة حلب

نحوه الآن من تحصينات في القلعة المذكورة في المدونات الاشورية والحثية - وهي تعد من روائع الابنية الحربية القديمة - فانه من ترميمات ذلك السلطان السوري . وإن ضريحه في المدرسة التي انشأها - المدرسة النورية - بدمشق لا يزال موضوع احترام الناس حتى زمننا الحاضر . وبواسطة هذه المدرسة نفسها اخذت تجري في سورية عادة الجمع بين القبور الفخمة

والمساجد في بناء واحد (١) . وفي خلال حقبة المماليك التي كان القرن فيها تكلمة للفن الايوبي صارت العادة المتبعة ان يدفن مؤسس كل مدرسة تحت قبة في ذلك البناء .

وبزصلاح الدين سلفه في الاتفاق على البناء والتعليم وكان من سياسته مكافحة التشيع والميول الفاطمية بواسطة التربية والتعليم ومن هنا قد اشتهر في انه يعدّ اعظم مشيد لدور العلم في الاسلام بعد نظام الملك وقد أصبحت دمشق في عصره مدينة المدارس . ولما زارها ابن جبير (٢) سنة ١١٨٤ أشار الى وجود عشرين مدرسة فيها وبيارستانين مجانيين ورباطات اوخوانق (٣) عديدة ، وقد ادخل صلاح الدين هذه الخوانق الى مصر ايضاً .

آثار الايوبيين

ويمثل الفن العربي المدرسي في المشرق عمارات دمشق وحلب التي يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر زمن الايوبيين وخلفائهم من اوائل المماليك (٤) . وقد نجح المماليك في مصر على منوال المدرسة الايوبية في العمارة السورية فاخرجوا ابداع ما يفاخر به الفن العربي . ومن مزايا المدرسة الايوبية القوة والمتانة . وعلى مادة البناء الصلبة فيها من الحجر الناعم يمكن ان تظهر ايسر المواضيع الزخرفية في منتهى الاناقة ولسكنها كانت كالمدرسة الاندلسية تستند على قاعدة الاغراق في الزخرفة لاطهار ما فيها من سحر وجمال .

والى صلاح الدين يرجع الفضل في ادخال طراز المدرسة من بين معاهد العلم المختلفة الى بيت المقدس ومصر (٥) . وفي عصره ايضاً شاهدت بلاد الحجاز اول معهد من هذا النوع . وفي مقدمة المدارس التي شيدها بمصر تلك التي سميت بالصلاحية (٦) في القاهرة على

(١) انظر من من هذا الكتاب .

(٢) ص ٢٨٣ - ١ .

(٣) انظر في العربية خاتمة من خاتمة الفارسية . السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٨ .

Henri Grunzel, *The Civilizations of the East*, vol. i, *The Near and Middle East*, tr. Catherine A. Phillips (New York, 1913), p. 245; M. van Berchem, *Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum*, t. 2, vol. i (Cairo, 1922), pp. 87 seq.

(٤) ابن خلدون ج ٣ ص ٥٢١ .

(٥) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٧ - ٨ .

اسمه . ولقد وجد ابن جبير (١) في الاسكندرية عدة مدارس . ونحن لم نعش من هذه المدارس المصرية أي واحدة فان أثرها في فن العمارة واضح . فقد نجم عنها في السنين التالية ابداع العمارات في العهد العربي بمصر ومن افخمها الجامع المدرسي المعروف بجامع السلطان حسن في القاهرة . ويشتمل تصميمه العام عن صحن مربع داخلي مكشوف تلاصقه اربعة جدران واربعة ليوانات قائمة في شكل جانحي صليب . وكان التدريس يجري في كل ليوان بموجب مذهب من مذاهب السنة الاربعة .

وقد تعهد صلاح الدين في القاهرة عدا المدارس بيارستانين (٢) . والراجح ان البتانيين وضعوا تصميمهما على طراز البيارستان النوري في دمشق . وكان ابن طولون وكافور الاخشيدي قد انشأا في مصر قبل ذلك مؤسسات علمية شبيهة بهذه . وقد جرت عمارة البيارستانات على غرار عمارة المساجد ولكن آثارها مطبوسة اليوم . ولم يتخلف لنا آثار إلا في دائرة العمارة الحربية وأهم هذه الآثار قلعة القاهرة ويتضح منها ان صلاح الدين اقتبس بعض معلوماته في التحصين عن القلاع النورمندية التي كانت قد ظهرت في ذلك الزمن في فلسطين . ولعله استخدم بعض الاسرى من النصارى في تشييدها . وقد اتخذ لنفسه مسكناً في هذه القلعة فكان يسكنه عند نزوله القاهرة يحيط به رجال العلم والقلم وكان من مسؤولاء وزيره اللامعان وطائفة من العلماء البارزين كطبيه اليهودي الممتاز ابن ميمون والعالم العراقي البارع ذي القريحة المنتجة عبد اللطيف البغدادى (١١٦٢ - ١٢٣١) الذي ترك في وصف مصر (٣) رسالة وجيزة تعدت في طبيعة المؤلفات الجغرافية في العصور الوسطى .

في العلم والفلسفة

وبرغم ما تجلى في عصر الصليبيين من الحركات الفكرية والعلمية فان الثقافة الاسلامية كانت قد انحطت في الشرق وكانت قوة الايشكار قد ماتت قبل ذلك العصر بزمن غير يسير .

(١) ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) ابن جبير ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣) الاشارة والاعتبار في الامور المشاهدة والمؤادات العارضة بارض مصر بشرع هوارث (نوبان ١٧٨٩) .

ابن أبي الصبغة ج ٢ ص ٢٠٧ : الكافي ج ٢ ص ١٠ .

وكان الدهر قد أتى على مشاهير الاعلام في الفلسفة والطب والموسيقى وغيرها من الانظمة الفكرية والفنية . ومن هنا نستطيع ان نعلل ولو جزئياً كيف ان سورية التي تركزت فيها العلاقة بين الاسلام والنصرانية العربية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر لم تصل الى درجة اسبانية او شمالي افريقية او حتى الامبراطورية البيزنطية من حيث نقل المؤثرات العربية الى الغرب . ومع ان الاسلام في سورية اُثر في النصرانية الاوربية عن طريق اتصاله المباشر بالصليبيين وبواسطة اصداء ذلك الاتصال في الغرب وبواسطة ما رشح او تسرب عن طرق التجارة فان آثاره الروحية والفكرية لم تكن ملحوظة . وعلمنا من الوجهة الاخرى ان نذكر ان ثقافة الافرنج في سورية كانت دون ثقافة اعدائهم وكانوا في الغالب عدا ذلك جماعات من العساكر الاجنبية نازلة في قلاع ومناجح وعلى اتصال وثيق بطبقة الفلاحين والصناع وليس بطبقة العلماء والمفكرين الرافقين . زد على هذا انه قامت موانع قومية ودينية وعداوات متأصلة حالت دون تبادل الافكار والثقافات . ولم يكن عند الافرنج من العلم والفلسفة ما يعلمونه ابناء البلاد . اما المقابلة في الطب عند الفريقين فتمثلها بعض النوادر التي رواها اسامة ابن منقذ^(١) بشيء من الفن واللباقة . وقد هزأ اسامة ايضاً من طرق الافرنج القضائية وكيف كانوا يعتمدون في محاكمتهم على المبارزة والرمي في الماء .

ولا يخلو الامر من حوادث أو امثلة صريحة تدل على انتقال الافكار العلمية والفلسفية . ففي القرن الثاني عشر وفد الى المشرق ادلارد اف باث الذي اسلفنا الاشارة الى ترجماته الفلكية والهندسية من المصادر العربية وزار انطاكية وطرسوس . وبعد نحو قرن زار مصر ليوناردو فيبوناشي اول عالم بالجبر في اوربا وقد قدم رسالة في الاعداد المربعة لفرديريك الثاني . وكان فرديريك هذا طامعاً في التوفيق بين الاسلام والنصرانية وقد شمل برعايته عدة نقلة عن العربية . وترجم اسطفان الانطاكي وهو من اهل بيزا كتاب الجوسي الهام في الطب وذلك في انطاكية عام ١١٢٧ . وهذا هو المؤلف العربي الوحيد الذي حمله الافرنج معهم . ولما صرنا نرى عدداً من دور المعالجة والبيمارستانات وبنوع اخر من دور البرص تنشأ في القرن الثاني

(١) ص ١٣٢ وما يلي .

عشر في جميع أنحاء أوروبا أصبح من الجائز لنا الاستدلال على أن طريقة التداوي المنظم استمدت بعض حوافزها من الشرق الاسلامي . وإلى هذا الشرق نفسه يعود الفضل في استعادة أوروبا للحمامات العمومية وقد كانت هذه الحمامات رائجة في عهد الرومان إلا أن النصرانية لم تحبذها . وكان في إيطاليا أيضاً أن عثر فيليب الطراباسي في عام ١٢٤٧ على مخطوطة عربية هي « سر الاسرار »^(١) او قد نسبت خطأ الى ارسطو وقيل انه أنشأها لارشاد تلميذه العظيم الاسكندر . فنقلها فيليب هذا الى اللاتينية فأصبحت أكثر كتب المصور الواسع في المتاحرة انتشاراً .

الآداب

وكان أثر الصلة في الآداب اوسع مدى . ففي الاساطير الموضوعة حول قصة الكأس التي استعملها المسيح في العشاء الاخير عناصر لا ريب في انها سورية الاصل . والراجع ان الصليبيين سمعوا قصص « كليله ودمنة » فحملوها معهم الى اوطانهم . وما حكاية نشوسر Chaucer المسماة « Squieres Tale » الا قصة من « الف ليلة وليلة » . ومن الحكايات التي تنوالت سماعاً استمد بوكاشيو Boccaccio حكايات شرقية ادخلها في كتابه « ده كامرون » (Decameron) . وإلى زمن الحروب الصليبية يعود اقبال الارشادات التبشيرية في أوروبا على دراسة اللغة العربية وسواها من اللغات الاسلامية ونشوء رجال مثل ريموند لى « Raymond Lull » (المتوفى ١٣١٤) اقتنعوا من فشل الصليبيين بأن الطرق الحربية لا تجدي فتياً في نشر الدين المسيحي . وكان لى من اهل كاتلونيا وهو اول اوروبي سعى الى تشجيع الدراسات الشرقية واتخاذها واسطة لتجريد حملة صليبية سلمية يحل الاقتناع فيها محل الارغام . وفي عام ١٢٧٦ اسس في ميرامار Miramar كلية للرهبان لدراسة اللغة العربية . والراجع انه هو الذي اثر على مجلس فيينا حين قرر هذا في عام ١٣١١ ان يتدرب اساتذة لتدريس العربية والترجمة في جامعات باريس ولوفين وسلامسكا .

(١) فهرست برناردون عدد ٧٧٩ ، ٧٨٠ .

فن الحرب

أما في ميدان الحرب فقد كان الأثر كما هو منظر أشد ظهوراً . فاستعمال النشاب المصلية وانباع الفرسان عادة ليس الدروع والباسا دوابهم أيضاً واستعمال الموائد القطنية تحت السلاح في أوربا - كانت كلها من أصل صليبي . وقد جرى الأفرنج في سورية على استعمال الطنبور في جوقات الموسيقى الملحقة بالجيش ولم تكن تستعمل قبلاً إلا البوق والصور . وقد تعلموا من أهل البلاد استخدام حمام الزاجل (١) . لإرسال المعلومات الحربية واقتبسوا عنهم عادة إشعال الأنوار احتفالاً بالنظف وأجراً حفلات السبق ولعب الخيل ورمي الجريد . والواقع أن جانباً كبيراً من مبادئ الفروسية نشأ في سهول سورية . أما انتشار استعمال الأوسمة وشارات الفرسان فقد نتج عن الاحتكاك بالفرسان المسلمين . ونذكر من تلك الشارات النسر ذا الرأسين (٢) وزهرة الزنبق (٣) والمفتاحين فقد كانت من بعض عناصر الفروسية الإسلامية وشاراتها في تلك الحقبة . والراجح أن صلاح الدين كان قد اتخذ النسرشارة له كفارس وكان أكثر الممالك يسمون بأسماء الحيوانات وقد زينوا رؤوسهم بصور تمثلها . وكان لامراء الممالك كتاب متنوعة فضت في أن تميز الواحدة عن الأخرى بواسطة الشارات النوعية (الرنكية) تنقش على التروس والأعلام والأوسمة والطرز . وكانت شارة بيبرس الأسد اسود بآن طولون قبله . أما شارة السلطان برقوق (المتوفى ١٣٩٨) فالبازي . وقد ظهرت في أوربا الجبسة العسكرية بشاراتها المختلفة (coat of arms) بشكلها الأولي في آخر القرن الحادي عشر . أما بدء حركة الفروسية في اسكتلندا فيرجع الى أوائل القرن الثاني عشر . ولعل النجمة والمسلال والأسد والشمس هي كل ما تبقى من هذه الشارات . وتشهد لفظة azure (لازوردي) وسواها من الألفاظ المستعملة في لغة الفروسية على العلاقة بين هاتين الحركتين في أوربا والعالم الإسلامي .

(١) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت نشر شيخو (بيروت ١٨٩٨) ص ٦٠-٦١ ؛ الظاهري ، زبدة كشف الممالك ، نشر رافيس (باريس ١٨٩٤) ص ١١٦-١١٧ ؛ قابل البيوطي ، حسن الحاضرة ج ٢ ص ١٨٦ .
(٢) أن نفوذ زنكي التي وجدت في سنجار تظهر هذا الرمز الذي يرجع الى أيام سومر القديمة .
(٣) أن هذه الزهرة من أشهر عناصر الزخرفة وقد كانت معروفة في آشور L. A. Mayer, *Saracenic Heraldry : A. Survey* (Oxford, 1933), pp. 23-4.

البارود

وقد نشطت هذه الحروب الصليبية أيضاً علم الحيل الحربية الحصارية وحسنه بما فيه من طرق الهدم واللقم واستخدام المجانيق والكبوش والاعتماد على أنواع المشتعلات والمفرقات. والظاهر أن البارود اخترع إما في سورية أو في أوربا اللاتينية كما يرجح وذلك في آخر هذه الحقبة. أما نسبة اختراعه إلى الصين فلا دليل يؤيدها. ولكن لم يستعمل بقوته الانفجارية لرمي القذائف أي لم تخرج الأسلحة النارية - وهي الأمر الذي يهم في هذا الصدد - قبل الربع الثاني من القرن الرابع عشر. ونجد أول وصفة أوربية للتركيب البارود في ذيل كتاب وضعه نحو سنة ١٣٠٠ رجل اسمه مارك الأغرقي. أما الوصفة المنسوبة إلى ياكب فزيرة. وقد ظهر حسن التمام نجم الدين الأحدث قبل سنة ١٣٠٠ وأعله سوري فالف رسالة موضوعها « الفروسية والمناصب الحربية » (١) ورد فيها ذكر ملح البارود وهو من المواد التي يتكون منها البارود. وفي الرسالة وصفات مختصة بالمواد النارية بينها وبين الوصفات المنسوبة إلى مارك شبه عظيم. ومن أقدم ما ورد من الاشارات إلى استعمال البارود عبارات في كتاب المعري (٢) المتوفى ١٣٤٨.

في هندسة البناء

وقد نقل الصليبيون معهم إلى المشرق من إيطاليا ونورمنديا فوائد كثيرة تتعلق بأصول البناء الحربي وقد أوصلوا بعض هذا العلم إلى العرب على ما يستدل من فن العمارة في قلعة القاهرة. أما أهم محاربات الصليبيين فالحصون والكنائس. ولا تزال قائمة حتى اليوم معظم قلاعهم ومنها حصن الأكراد والرقب وشقيف أرنون. أما في بيت المقدس فإن أقساماً من كنيسة القيامة و « اسطبلات سليمان » بالقرب من الجامع الأقصى وغيرها من الأسواق المشوقة هي من عمل الصليبيين. ونشأت في الغرب أبنية اعتمد بناتها تقليد بعض المعابد ككنيسة القيامة وقبة الصخرة وهي من النوع المستدير ومنها أربعة موجودة في أنكلترا

Reinaud and Favé, *Journal asiatique*, ser. 4, vol. xiv (1849), pp. 527-527 | 1
vol. xii, pp. 103 seq.

(٢) تعريف (القاهرة ١٣٦٢) من ٢٠٨.

وغيرها في فرنسا واسبانية والمانيا . اما في بيروت فان المسجد العمري بناه بلديون الاول سنة ١١١٠ وسماه كنيسة القديس يوحنا . والقنطرة الصليبية هي على العموم ذات شكل مروس والعقد بسيطة من النوع المصلب . واهم بقايا الفن الافرنجي في القاهرة بوابة اخذت سنة ١٢٩٣ من كنيسة بعكا وهي الآن في مسجد الناصر .

الزراعة والصناعة

أما في الزراعة والصناعة والتجارة فقد توصل الصليبيون الى نتائج اعظم مما وصلوا اليه في العلوم . منها انتشار نباتات جديدة في البلدان الواقعة في غربي البحر المتوسط مثل السمسم (١) والخروب والذرة البيضاء والارز والليمون والبطيخ والشمش وبصل عسقلان «scallions» وهذه النباتات اسماء اوربية محرفة عن لغات الشرق . اما الشمش فكانت الغريبيون يسمونه اول الأمر «خوخ دمشق» وظل معروفاً بهذا الاسم سنيهاً كثيرة . وكذلك فن اشجاراً أخرى ومنتجات شتى انتشرت في الحقة نفسها في نواحي اسبانية الاسلامية وصقلية . ويصعب في بعض الحالات ان نقطع في هل كانت سورية هي الطريق لهذا الانتقال أم بلد آخر من هذين البلدين .

وفي أثناء اقامة الافرنج في بلاد الشرق اكتسبوا اسواقاً جديدة اخصها ما يتعلق بالروائح العطرية والتوابل والخلويات وسواها من حاصلات البلاد الحارة التي تمتاز بها بلاد العرب والهند والتي كانت اسواق سورية زاخرة بها . ثم ان هذه الاذواق الجديدة أدت فيما بعد الى انعاش التجارة في المدن الايطالية ومدن البحر المتوسط . فراجت انواع البخور وسواها من صمغ الجزيرة العربية الزكية الرائحة ، وماء الورد الدمشقي ، والروائح العطرية التي امتازت بها دمشق وانواع من الزيوت والعطور الخفيفة الزكية الرائحة التي اشتهرت بها فارس واستطبت كلها . ومن العقاقير الجديدة التي اخذوا يعرفونها حجر الشب والند . وعند الاستيلاء على قيسارية في سنة ١١٠١ استلم الجنويون فيما يروى اكثر من ستة عشر الف ليبرة من القفل كحصاة من الغنائم التي اصابتهم . وقد اخذ يشيع استعمال كبش القرنفل

(١) اللقطة من اصل اشوري وقد انتقلت بواسطة اليونانية .

بأنواعه والتوابل الزكية والطيب وسواها من التوابل في الغرب خلال القرن الثاني عشر، ومنذ ذلك العهد أصبحت الوان الطعام لا تستقيم في أي مادة دون أن يكون بينها ما كولات دخلت فيها التوابل . وقد تعرف الصليبيون في مصر إلى الزنجبيل وأخذوا يضيفونه إلى الوان طعامهم . وكان أهم من كل هذا السكر فقد كان الأوربيون قبلاً يستخدمون السكر لتحلية أطعمتهم . وعلى ساحل سورية حيث لا يزال الصبغة إلى اليوم يتصون قصب السكر تعرف الأفرنج إلى هذا النبات الذي أخذ منذ ذلك الحين يلعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية وفي تركيب الوصفات الطبية . وقد ظهر ولیم الصوري^(١) (المتوفى نحو ١١٩٠) وكانت بحسن العربية والف أفضل بيان طبي للحروب الصليبية (من سنة ١٠٩٥ - ١١٨٩) فترك لنا معلومات قيمة في شأن مزارع قصب السكر في مسقط رأسه . وهكذا فقد كان السكر أول الأطياب التي أدخلت إلى الغرب ولم تجد الأذواق الغربية مطعماً أطيب منه . وقد أدخل معه الأشرية الخفيفة والماء المعزج بخلاصة الورد والبنفسج وسواها من الزهور العطرة وجميع أنواع القندی والخاويات وقد نقلت مع معظم هذه المواد اسمائها العربية إلى لغات الأفرنج .

النواعير

ظهرت الطواحين الهوائية لأول مرة في نورمنديا سنة ١١٨٠ وهي ثم عن أصل صليبي ولقد كانت النواعير معروفة في أوروبا قبل هذه الحقبة ولكن الصليبيين عادوا إلى الغرب ومعهم نوع مستحدث منها . وهذا النوع سوري لا تزال نماذج منه تستعمل في ألمانيا والنمسا وبيروت . أما نشوؤه في سورية فراجع إلى أيام الرومان مع أن المهندسين العرب حسّنوا صنفه كقيصر ابن مسافر تعاسيف (المتوفى ١٢٥١)^(٢) المصري الذي كان في خدمة حاكم حماة وهو صانع كرة سماوية^(٣) تعد أقدم ما خلفه العرب من هذه الآلة باستثناء واحدة

(١) « Historia rerum » in *Recueil : occidentaux*, vol. i, p. 339; Jacques de Vitry, (٢) « Historia Hierosolimitana », in Bongars, p. 1075.

(٢) في ابن بطوطة ج ٤ من ٢٥٥ إشارة إلى النواعير في كاتون ، العين .

(٣) هي الآن في المتحف الوطني ببابولي .

فقط . ومنذ عصر ياقوت (١) (المتوفى ١٢٢٩) وابي القداء (٢) (المتوفى ١٣٣١) كانت
حمة مشهورة بنواحيها . تلك الدواليب التي نامت على انينها المتواصل اجيال لا تحصى من
النجارين وهي لا تزال الى يومنا من ايجاد تلك المدينة .

ولما تكن كل الاخواق الجديدة التي اكتسبها الغربيون مقتصرة على المأكول . فقي مضار
الازياء والملابس وأثاث المنازل نشأت عندهم مطالب وعادات جديدة . وانتشرت في ذلك
العهد عدة تربية اللحى . وأدخل الصليبيون المائدون الى اوطانهم انواع البسط والسجاد
والانسجة الموشاة التي امتازت بها آسية الغربية والوسطى مدة طويلة . اما الاقشة الموصلية
والبنمداية (baldachin) والدمشقية (damask) والشرقية (sarcenet) والاطلسية والحملية
والخريرية والزيتونية (٣) فقد كان اقبال الناس عليها عظيما . واصبحت الحلي التي كان يصوغها
اليهود في دمشق والقاهرة مع ادوات الحمام والمسابيق رائجة مرغوبة . وصنعت المرايا الزجاجية
الاطلية القفا بمعدني قاحتلت مكان الفولاذ الصقيل المستعمل حتى ذلك العهد . وشاع
بين الناس استعمال الخلة وانواع القرو والوبر وشاعت السبكة . وارسل الخجاج الاوربيون الى
اوطانهم صناديق عربية تحفظ فيها الدخائر النصرية . وانتقل مع الملابس الانيقة والمصنوعات
المعدنية محلول الملك في الكحل والاصباغ الفيلية والالوان الجديدة كالليلك والقرمزي (٤) .
وظهرت بالتدريج مراكز في اوربا لصناعة الخزف والسجاد والانسجة تقليدا لما في الشرق من
اقشة . من ذلك ما نشأ في مدينة اراس التي صارت منسوجاتها عزيزة مرغوبة . اما
الشبايك الزجاجية الملونة فان استعمالها اخذ يشيع يومئذ في الكنائس . ولقد ذكر بنيامين
التوديلي (٥) الذي زار انطاكية في عهد الافريج صناعة الزجاج فيها . اما المصنوعات الفنية
الشرقية في الزجاج والفخار والذهب والفضة والمينا . فقد اصبحت نماذج لمصنوعات اوربا .

(١) ج ٢ من ٢٣١ .

(٢) نفوس من ٢٦٣ .

(٣) لفظة « زيتوني » العربية هي تحريف « تسوتونغ » وهو اسم مدينة في الصين كان الحرير يستخرج
منها .

(٤) وقد نقل الافريج اسماء هذه الالوان الى لغاتهم .

(٥) Tr. Asher, p. 58. (٥)

التجارة

وان ظهور اسواق جديدة في اوروبا لمنتجات الزراعة الشرقية والمصانع الصناعية وضرورة نقل الحجاج والصليبيين في اسفارهم ذهاباً واياباً قد نشطت حركة الملاحة البحرية والتجارة العالمية الى درجة لم تكن معروفة منذ العهد الروماني . فأخذت مرسيليا توأمت مدنت إيطاليا - الجمهوريات المستقلة - كمركز لشحن البضائع واخذت تشاركها في الثروة الناجمة عن تلك الحركة . وقد اوجبت الحاجات المادية الناشئة عن تطور الحال انجساد اوفر كمية من التقدم وتداولاً فيه اسرع وأعم فنتج عن ذلك طريقة استعمال الخوالات المالية . وظهرت شركات الصيرفة في جنوى وبيزا وصار لها فروع في المشرق . وصارت القروض الدائرية تستعمل الصكوك المالية وتأخذ الاموال المستودعة اليها وتدين المال وتنفق على عنه الربا . ولعل اقدم النفود الذهبية التي سكها اللاتين تلك التي ضربها البندقيون في البلاد المقدسة حاملة كتابة عربية . وظهرت لأول مرة وظيفة القنصل وهي في الاصل وظيفة تجارية لا سياسية . واول قنصل التاريخ كانوا من اهالي جنوى ارسلتهم دولتهم الى سكا عام ١١٨٠ . ثم تلاهم اولئك الذين ارسلوا الى مصر .

الحك

كان الحك من الاختراعات الخطيرة التي لها علاقة بهذه الحركة الصليبية البحرية . والراجح ان الصينيين هم اول من اكتشف ما للابرة المغناطيسية من طبيعة الاتجاه الى جهة معينة . ولكن المسلمين الذين سبق لهم في عصر متقدم ان تعاطوا التجارة ما بين الخليج الفارسي وبحار الشرق الاقصى كانوا اول من وضع ذلك الاكتشاف في حيز العمل اذ استخدموا الابرة في الملاحة . وقد جرى ذلك في أغلب الظن في القرن الحادي عشر او قبله ولكن الاسباب التجارية قضت بحفظه سراً . وكان بحارو إيطاليا هم اول من استعمل الحك في أوروبا . والواقع ان استعماله كان قبيل ورود ذكره في المؤلفات واولها كتاب اسلامي جمعت فيه نوادر فارسية تحت موضوع « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » ^(١) صنفه محمود العوفي

^(١) Muhammad Nizāmu' d-Dīn, *Introduction to the Jawāmi'* ... (London, ١٩٢٩), p. 251.

نحو عام ١٢٣٠ . بقي احدى قصصه ان المؤلف وهو يبحار استدل عن ناحية سيره بواسطة محكمة حكمها بقطعة مغناطيس . واول اشارة الى الخلق في المصادر اللاتينية ترجع الى اوائل القرن الثالث عشر اي قبل الاشارة الفارسية المذكورة .

امتزاج الشعبين

يصعب تعيين عدد الافرنج الذين اذابتهم سورية ومنها فلسطين وهضمتهم وجعلتهم قسماً من كيانها القومي . وليس غريباً اليوم مشاهدة عدد من الناس من ذوي العيون الزرق واشعر الاشقر في مدن مثل اهدن في شمالي لبنان وبيت لحم والعريش . وهناك أسر اغليها لبنانية نصرانية مثل عائلة كرم وفرنجية وصليبي قد حفظت تقاليد تحدرها عن اسلاف افرنج . ويقال ان اسماء بعض الأسر الاخرى كصوايا مأخوذة من سافوا «Savnie» والدويهي من ده دوي «de Donai» . اما بردويل فليس من شك انه تحريف بلدوين «Baldwin» ويظهر الاسم الأخير في اسماء الاماكن في فلسطين وسيناء . ومن اسماء القرى بفلسطين منجل التي خلدت اسم سانت جيل «Saint Gilles» وقرية أخرى هي الزينة من رنود «Renoud» . اما ادعاء بعض الدروز ان اسمهم ذو علاقة بالكونت ده درو «de Dreux» فانه وهم شائع لا يقره اساس علمي (١) .

الفصل السابع والأربعون

الممالك آخر دول العالم العربي في العصور الوسطى

يصعب على المرء ان يتصور في غير التاريخ الاسلامي نشوء دولة كالممالك وبلوغها اوج التلاحق . حتى في العصور الاسلامية فان نشوء هذه الدولة لامر عجيب يكاد ان يكون فريداً في بابه . فالممالك كما يدل اسمهم دولة انشأها ارقاء مختلفو الاجناس والقوميات جعلوا من انفسهم طبقة عسكرية حاكمة في بلاد غريبة . وقد اطلع هؤلاء السلاطين الارقاء في تطهير مملكتهم المصرية السورية من بقايا الصليبيين . وصدوا الى الابد تقدم جيوش المغول الخفيفة التي قادها هولاء كور ونيسور . ولولا الممالك لكانت هذه الجيوش قد غيرت مجرى التاريخ والثقافة في غربي آسية ومصر . وبذلك وفرت هذه الدولة على مصر الولايات التي نزلت بسورية والعراق ومهدت للبلاد سبيل التنعم بثقافة متصلة وانظمة سياسية مستمرة لم تتحقق لاي بلد اسلامي خارج الجزيرة العربية . وقد سيطر الممالك نحو مشتين وسبعين سنة (١٢٥٠ - ١٥١٧) على بقعة كانت من اكثر البقاع فتناً واضطراباً وحافظوا طوال تلك الحقبة على مميزاتهم الجنسية . ومع انهم كانوا بوجه عام دون ثقافة وقساء سفاحي دماء فان عنايتهم بالفن والعمارة كانت تعادل عناية اي دولة متمدنة ، وقد جعلت القاهرة الى اليوم من اجمل البقع في العالم الاسلامي . واخيراً قام السلطان سليم العثماني فغلبهم على امرهم سنة ١٥١٧ وبذلك سقطت آخر الدويلات المحلية التي نشأت على انقاض الخلافة العربية ومهد السبيل لقيام خلافة جديدة غير عربية هي خلافة الأتراك العثمانيين .

نشوء الدولة

ولقد وضع اساس سلطنة الممالك امرأة هي شجر الدر امسلة الصالح الابوي (المتوفى

(١٢٤٩) وقد كانت في اول نشأتها امة تركية او ارمنية ثم صارت جارية للخليفة المستعصم وبعدها دخلت في جوارى الصالح فأعتقها بعد ان ولدت له صبياً . ولما وئيت الحكم ارسل سيدها السابق الخليفة يعاتب امراء مصر في ذلك قائلاً : « ان كان ما بقي عندكم رجل تولونه فتولوا لنا لترسل اليكم رجلاً » (١) . واقامت شجر الدر في السلطنة ثمانين يوماً وهي المرأة المسلمة الوحيدة التي حكمت بلاداً في شمالي افريقية وغربي آسية وظلت تمارس سلطتها المطلقة في تلك البلدان التي انجبت فيها مضي من العصور ككلية باطرة وزنوبيسا . وضربت النقود باسمها (٢) وامرت بان يخطب لها يوم الجمعة من على المنابر . ولما اختار الامراء شريكها وقائد جيشها اتى اليك العسكر عز الدين ايبك (٣) سلطاناً تزوجت منه . وانصرف ايبك في اوائل سني ملكه الى سحق الحزب الايوبي المطالب بالملك في سورية فخلع الاشرف وهو طفل وتخلص من قائده الخاص الذي كان قد امتار في جهاده ضد نويس التاسع . ولم يستفد السلطنة في اثناء ذلك كله بمشاركة ايبك في الملك بل سعت الى فرض ارادتها عليه . ولما بلغها انه يريد الزواج من امرأة ثانية دبرت له مكيدة فقل بها في الحمام الملكي بقلعة القاهرة بعد عودته من لعب الكرة . فبين ان شجر الدر نفسها لم يعال عمرها بعد ذلك اذ قتلت هي بدورها بايدي جوارى زوجة ايبك الاولى ضرباً بالقباقيب وأُخرجت جثتها من برج القلعة (٤) .

الممالك البحرية والبرية

كان ايبك (١٢٥٠ - ٥٧) اول سلاطين المماليك وهم ينقسمون عادة الى دولتين : البحرية (١٢٥٠ - ١٣٩٠) والبرية (١٣٨٢ - ١٥١٧) وكان اصل المماليك البحرية من الحرس الذين كان اشقراهم الصالح الايوبي (٥) واسكنهم في شكنات بنجيزة الروضة في

(١) السيوطي ، حسن الحاضرة ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) باستثناء بعض النقود الضرورية في الهند وفارس فهذه فريدة من حيث ظهور اسم امرأة مسلمة عليها .

(٣) كان تركياً كما يدل اسمه (اي = قر + بك = أمير) . (Maqrizi, tr. Quatremère, vol. i. (pt. 1), p. 1.)

(٤) المصدر نفسه ص ٧٢ ؛ خطب المقرئ ج ٢ ص ٢٣٧ ؛ ابو القداء ج ٣ ص ٢٠١ .

(٥) ابو القداء ج ٣ ص ١٨٨ ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧٣ .

النيل (١) . وكان اكثرهم من الترك والمغول (٢) . وقد سار الايوبيون على خطة خلفاء بغداد واتبعوا سياسة استخدام الارقاء الاجانب حرساً فجنوا من جراء ذلك ما جناه بنو العباس واصبح الارقاء قواد الجيش ثم صاروا سلاطين الدولة بعد ذلك .

اما المالك البرجية فقد جيء بهم الى مصر بعد البحرية . وكانوا في اول امرهم ايضاً حرساً خاصاً ولكن لملك هو قلاوون (١٢٧٩ - ٩٠) من سلاطين المالك البحرية . وكان معظمهم ارقاء ثمرا كسة وكانوا يقيمون في ابراج القلعة بالقاهرة . وكان عدد السلاطين البحرية اربعة وعشرين (٣) باستثناء الملكة شجر الدر . اما البرجية فقد كانوا ثلاثة وعشرين . ولم يترك المالك البرجية قاعدة الاستخلاف الوراثية ولا مارسوا عادة محاربة الاقرباء واختصاصهم بالولاية بل كان عرشهم ملكاً لمن استطاع ان يغلب منافسيه عليه او من قدير على اقناع الامراء بانتخابه . وكثيراً ما حدث في الدولتين البحرية والبرجية ان يثور العرش عند موت السلطان احد ممالكه لا احد ابنائه . وكان من سلاطينهم نفر كبير لا قوا احدهم قتلاً وهم صغار السن . وكان معدل السنين التي ملكها الواحد منهم لا يزيد عن الست .

صدر الايوبيين

وكانت اول ما ترتب على الدولة الجديدة جمع شمل المملكة والذب عن نفوذها . وقد قضى ايبك معظم ايامه في ساحة القتال في سورية وفلسطين ومصر . وتمسك المظفر سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ٦٠) وهو لا يزال نائب السلطنة ان يرد هجوم السلطان الايوبي الراحل عليه من الكرك . ثم خلع المنصور علي ابن ايبك واغتصب العرش لنفسه . وكانت الأسرة الايوبية في سورية تدعي انها الورثة الشرعية لملك اقبانيا في مصر . ولم يكد قطز يرد الايوبيين عن مصر حتى وصل جيش هولاء كوكب التتري بقيادة كتيبة الى سورية وهدد

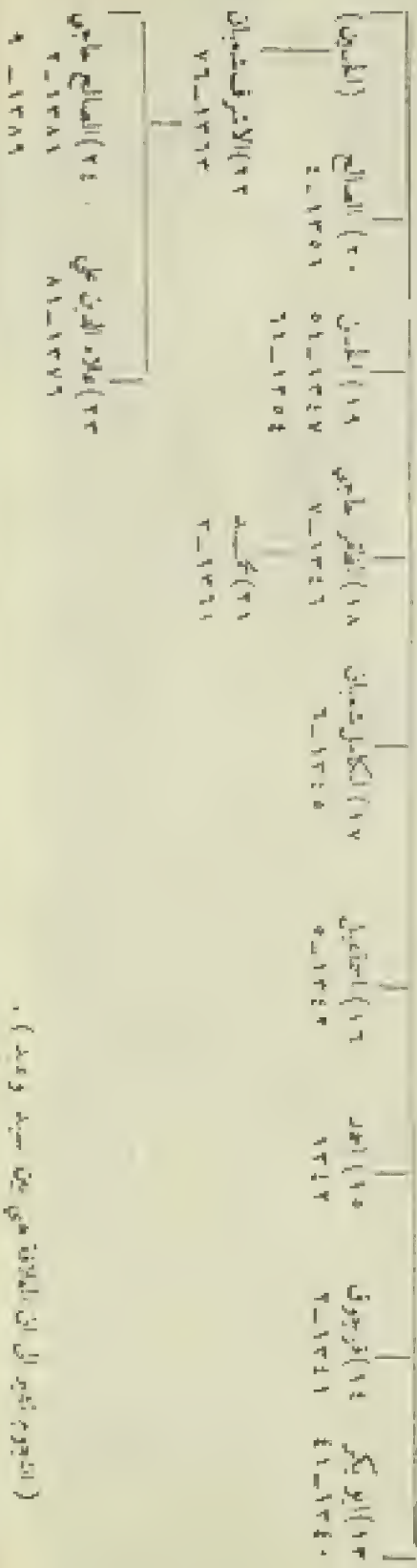
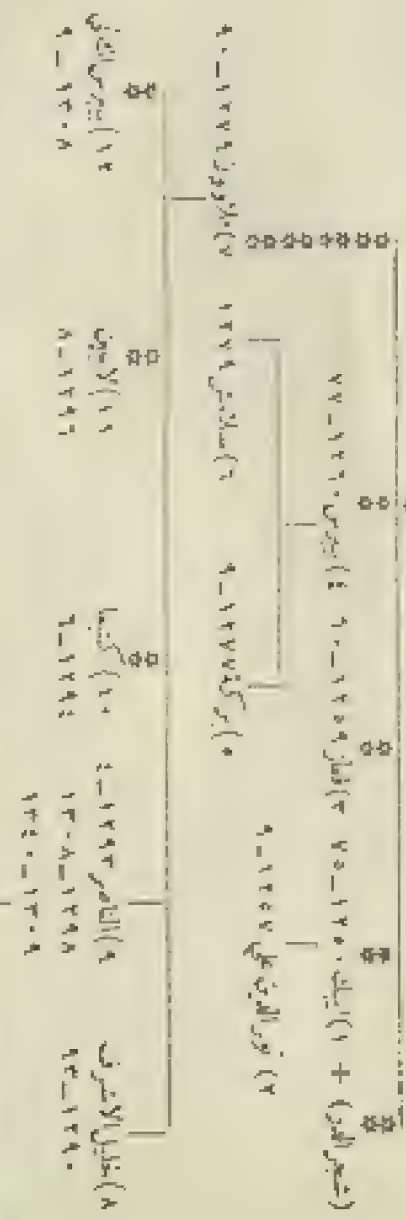
(١) البحر عند القاهرة .

(٢) ابن خلدون ج ٥ ص ٣٦٩ و السبكي ، حسن الخاضعة ج ٢ ص ٨٠ و سباهيهم ، دولة الانراك .

(٣) المظفر في الصفة التالية شجرة المالك البحرية .

الممالك البحرية

الصالح ارب



(التاريخ الكبير الى ابن الاثير في تاريخ سيد و عبيد)

مصر . اما وصل هولاءكو (١) الى قطز فقد لاقوا حقنهم قتلاً على يده ثم حسم الخلاف بين الفريقين في وقعة عين جالوت (١٢٦٠) وقد تولى بيبرس في هذه المعركة قيادة طليعة الجيش المصري وابلى بلاءً حسناً ، ولصكن قطز تولى قيادة الجيش بنفسه قبيل انتهاء القتال . وانهزم جيش التتار وقتل قائده كشيغا وعدد من الزعماء ، وبذلك سلت مصر من الدمار الذي حل بجارتها سورية عندما وطأها التتار ، واحتل المماليك سورية . وكان بيبرس يأمل ان ينال حليفاً مكافئة له على بلائه في الحرب ولصكن السلطان قطز خذله . ولما كان قطز عائداً من سورية الى الديار المصرية اتفق بيبرس مع مملوك على قتله . وكان قطز في الصيد هو وبيبرس فاهوى المملوك على يد قطز بقبليها وقبض عليها فحمل بيبرس على قطز ووجاه بالسيف في عنقه فقتله (٢٤ تشرين الاول ١٢٦٠) (٢) وخلفه في السلطنة . وكان قطز يدعي انه حفيد اخت احد شاهات خوارزم (٣) ويقال ان التتار قبضوا عليه ثم باعوه في دمشق حيث اشتراه أيبك .

بيبرس

كان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (١٢٦٠ - ٧٧) اعظم سلاطين المماليك واشدهم . وقد كان في الاصل رقيقاً تركياً اشراه في صغره احد اهالي دمشق بمائة درهم ثم ارجعه لصاحبه لعيب في احدى عينيه الزرقاوين . اما نعمته بالبندقداري فتسبب الى مولاه البندقدار (الرامي بالنشاب) الذي كان عنده في حماة قبل ان يشتريه الصالح الايوبي (١٤) . وقد اتدبه الصالح اولا بقيادة جماعة من حرمه الخاص ثم ارتقى من هذه الوظيفة الى اعلى منصب في البلاد . وكان طويل القامة اسمر اللون جهوري الصوت شجاعاً نشيطاً يمتاز بصفات الزعامة .

ويعتبر بيبرس اول المماليك العظام ومؤسس سلطان المماليك الحقيقي . وقد فاز في اول

(١) ان الكتاب الذي حمله محفوظ نصه في القرزي : السلوك ترجمة كاترمير . vol.ii (pt.1), pp.101-2.

(٢) ابو الفداء ج ٣ ص ٢١٦ ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٨٠ ؛ قابل القرزي المصدر نفسه p. 113.

(٣) السبوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٠ .

(٤) ابو الفداء ج ٤ ص ١١ ؛ الكندي ج ١ ص ١٠٩ .

عهد في قهره المغول في عين جالوت كما اسلفنا . ونستند عظامته بالاكثير الى الحملات الموفقة التي جردتها على الصليبيين - تلك الحملات التي كسرت ظهر المقاومة الافرنجية ومهدت السبيل للانتصارات الاخيرة التي جناها خلفاء قلاوون والاشرف . بل قد نسى له في احدي غاراته الاخيرة في شمال سورية ان قضى على سطوة الحشاشين قضاءً ابدياً . وفي الوقت نفسه قام قواده بنشر سلطانه غرباً على البربر وجنوباً على النوبة (١) التي اصبحت بعد هذا تحت حكم السلطة المصرية الدائم .

ولم يكن بيبرس رجل حرب فحسب ولم تنحصر مجاهده في تنظيمه الجيش وتعميره الاسطول وتحصينه قلاع سورية فقط بل تجاوز ذلك الى حفر الاقنية وتأمين الموانئ وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصلحة برية منظم سريع يصل بين المدينتين في اربعة ايام . وكانت الخيل تقف على أهبة الجري في شوطها في كل محطة للبريد . وقد تمكن السلطان من لعب البولو في كلتا العاصمتين خلال اسبوع واحد . وقد اتقن الماليك عدا البريد العادي مصلحة استعمال الحمام الزاجل وكان يربى منذ أيام الفاطميين وتحفظ أسنانه في سجلات خاصة وأشط بيبرس الاشغال العامة وحسن الجوامع وانشأ المؤسسات الدينية والخيرية . اما الابنية التي شيدها (٢) فلا يزال باقياً منها الجامع الكبير (١٢٦٩) والمدرسة التي تحمل اسمه . وقد جعل نابليون هذا الجامع قلعة ثم اصبحت القلعة فيما بعد مستودع ارزاق الجيش الاحتلال البريطاني . ونقوم المكتبة الظاهرية في دمشق اليوم في بناء شيده هذا الماهل ودفن تحت قبته . وكان بيبرس اول سلطان بمصر عين اربعة قضاة يتناولون مذاهب السنة الاربعة . ورتب امور الحمل المصري على أسس منظمة دائمة . وكانت حياته التي جرى فيها على طريق السنة وغيرته الدينية والمجد الذي أكسبه الاسلام في جهاده من الامور التي جعلت اسمه صنواً لاسم هاروت - الرشيد . وقد بلغ صيته في الاساطير والأدب الشعبي اكثر مما بلغ صيته صلاح الدين . ولا يزال الاقبال الى اليوم في الشرق العربي على « سيرة بيبرس » و « سيرة عنتر » اشد

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٠٠ .

(٢) راجع السكيتي ج ١ ص ١١٢ - ١١٥ .

من الأقبال على « الف ليلة وليلة » .

ومن سميات عهد بيبرس المحالفات العديدة التي عقدها مع ملوك المغول وملوك أوربا . ومنها محالفة عقدها بعد تغلبه السلطنة بعدة يسيرة مع زعيم خانات المغول في قيشاق من وادي القولكا . وكانت تلك السياسة نتيجة اتفاق مصلحة الجانبين على معاداة المغلات فارس . وسارت رسل مصر بطريق القسطنطينية حيث أباح ميخائيل باليولوغوس (Michael Palaeologus) عدو المسيحية اللاتينية المصريين ترميم الجامع القديم الذي كان الصليبيون قد ألغوه خلال احتلالهم تلك المدينة . وأرسل بيبرس نبيه لطلب الامبراطور - بطريكاً للقسطنطينية يرعى شؤون النصارى الممكئين فيها وفي مباحثاتها . وأمضى اتفاقات تجارية مع شارل ده آنجو (١٢٦٤) ملك صقلية وشقيق لويس التاسع كما أمضى اتفاقات مع جايكس ملك أراغون والقونسو ملك الشبيلية .

مسألة الحدود

ومن أشهر الحوادث في ملك بيبرس اقدامه على تجديد الخلافة العباسية وتكريسه سلسلة من الخلفاء حكموا بالاسم . وكان قصده من ذلك أن يجعل سلطته شرعية ويكسب بلاطه تفوقاً في نظر بقية الاقطار الاسلامية ويتبع الفتن التي كان يوقدها بمصر الملوكون منذ ايام الفاطميين . وقد استقدم لهذا الامر من دمشق في حزيران ١٢٦٦ عم المستعصم آخر خلفاء بغداد العباسيين وابن الخليفة الظاهر وكان قد نجح من مذنبعة بغداد وجعله خليفة . وبايع له بيبرس والناس على طبقانهم وكتب الى النواحي بأخذ البيعة له والخطبة على المنابر ونقش اسمه في السكة . واتخذ الخليفة لقب المستنصر^(١) وكان قدومه الى مصر من سورية صحبة جماعة من امراء الاعراب . وخرج السلطان لقائه ومعه الوزراء والعلماء والاعيان والشهود والنوذنون ونفقوه وكان يوماً مشهوداً وخرج اليهود بتورانيهم والنصارى بانجيلهم ودخل من باب النصر

(١) القرظي ترجمة كترمير (Quatremère, vol. I (pt. I), pp. 140-68) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٨٢-٣٨٣ ابو الفداء ج ٢ ص ٢٢٢ السيرافي ج ٤ حن الجاذبة ج ٢ ص ٤٩-٥٢ ابن ابيس ج ١ ص ١١٠-١١١ .

بابية عظيمة . وأثبت نسب الخليفة وأشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة أمام قاضي القضاة ومجلس العلماء . ثم جاء دور السلطان فألبسه الخليفة بيده شارات السلطنة وفوض اليه الأمور في البلاد الإسلامية وقلده على مصر وسورية وديار بكر والحجاز واليمن والبلاد القرائية . وتوجه ببيرس بعد ثلاثة أشهر من القاهرة ومعه الخليفة إلى المشرق طمعاً في إعادة بغداد إلى أملاك الخلافة ولكنه لم يرافقه إلا إلى دمشق فودعه فيها وعاد إلى مصر وقبل أن يصل المستنصر إلى بغداد أغار عليه حاكم المغول ببغداد في الصحراء فكان ذلك آخر عهد به .

وبعد سنة وصل القاهرة عباسي آخر قيامه ببيرس وأُغيب بالخليفة الحاكم وتعاقب بنوه على كرسي الخلافة مدة قرنين ونصف القرن وليس لهم منها إلا الاسم وقد قنعوا بنش اسمائهم في السكة والخطبة لهم من على منابر مصر وسورية . وباستثناء واحد منهم فإنه لم يخطب لهم من على منابر مكة قط . وتحصرت واجباتهم في إدارة شؤون الأوقاف والتصدد في الاحتفال بتثبيت السلطان . وقد استلم منهم وثائق التقليد في الولاية بعض الأمراء المسلمين من حكام الهند والسلطان العثماني بايزيد الأول (١٣٩٤) ولكن هذه الوثائق هي في الواقع دون قيمة . وفي عام ١٤١٢ عند وفاة السلطان الناصر البرقي أعلن الخليفة العادل المستعين نفسه سلطاناً فحكم بضعة أيام إلى أن خلعه المنويز شيخ (١٤١٢ - ٢١)^(١) . ومن الخلفاء من عزل بحجة عدم الوفاء للسلطان علي البحري (١٣٧٦ - ٨١) والبرقوق (١٣٨٢ - ٩٨) وابنل (١٤٥٣ - ٦٠) البرجيين . وعندما انتزع السلطان سليم العثماني مصر في عام ١٥١٧ من أيدي المماليك نقل معه إلى القسطنطينية الخليفة المتوكل آخر هذه الأسرة .

فردوره

يعتبر الملك المنصور سيف الدين قلاوون (١٢٧٩ - ٩٠) أعظم سلاطين المماليك بعد ببيرس . وهو مثل ببيرس من حيث الأصل وقيق تركي من قبشاق حيء به في حدائقه إلى مصر وبيع للصالح أيضاً حسبما يستدل من نسبه - الصالحى . أما نسبه الأخرى - الألفى -

(١) ابن تيمري بردي ج ٦ قسم ٢ ص ٢٦٧ - ٢٠٣ - ٢١ : الديلمي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨ - ٧٦ : ابن الجيس ج ١ ص ٢٥٧ - ٩ .

فاشارة الى انه اشترى بالف دينار (١). وفي ذلك ما يدل على ان هؤلاء السلاطين لم يأنفوا من ذكر اصلهم الوضع . وقد استولى قلاوون على العرش بعد ان خلع سلامش (١٢٧٩) ابن بيبرس وكان هذا ابن سبع سنين وكان قلاوون وصياً عليه . اما سلامش فقد ملك بعد اخيه بركة (١٢٧٧ - ٩) المتهتك الذي خلع نفسه وله من العمر سبع عشرة سنة . وتفرد قلاوون بين المماليك في انه السلطان الوحيد الذي دامت السلطنة في ذريته اربعة اجيال . وكان آخر المماليك البحرية الصالح حاجي ابن حفيد قلاوون .

وما كاد يستوي قلاوون على العرش حتى قام ايلخانات المغول القرس يهددون نفوذه في سورية . وكان من هؤلاء اباقا (١٢٦٥-٨١) ابن هولاكو وخلفه وارغون (١٢٨٤-٩١) ابن اباقا قد عرفا بتمويل نصرانية فاتصلا بالبابا وملوك اوربا وحثاهم على تجريد حملة صليبية ترمي الى اقصاء المصريين عن سورية . على ان ذلك لم يتحقق فان جيش اباقا على كثرة عدده وانضمام الارمن والافرنج والكرج اليه قد انكسر في عام ١٢٨٠ عند حمص (٢) . وبعد هذا بامد يسير اعتنق المغول الاسلام . ونشط السلطان الى تقوية العلاقات الودية بينه وبين قبائل التتر المسماة بـ « القوم الذهبي » واميراطور بيزنطة وجمهورية جنوى وملوك فرنسا وكاستيل وصقلية . حتى امير سيلان فانه ارسل الى بلاط القاهرة رسلاً معهم كتاب لم يستطع احد في القاهرة ان يقرأه . اما ارمينية الصغرى فقد نهبا قلاوون اقتصاصاً لما قام به اهلبا من مساعدة المغول ثم فتح قلاع الصليبيين ايضاً . وذلك ابنة طرابلس الى الارض ولكن اعيد بناؤها بعد بضع سنين انما في غير موضعها السابق بل على بعد عدة اميال من البحر في الموقع الذي تظهر فيه اليوم على ضفتي نهر ابي علي (قادش) . واصدر قلاوون في آخر عهده الاوامر مانعاً استخدام وعساياه النصارى في مناصب الدولة .

مستشفى قلاوون المعروف بالمستشفى المنصوري

وامتاز قلاوون في ميادين اخرى فقد اُعيد بناء قلاع حلب وبعليك ودمشق وابقى في

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٠ : القرظي ترجمة كاتر. ج ١ (pt. 3), vol. ii (٢) ابو الفداء ج ٢ ص ١٥-١٦ : القرظي ترجمة كاتر. ج ١ (pt. 3), vol. ii

القاهرة مستشفى ملحقاتاً بجامع ومدرسة وعمرة (١) لا يزال عليها الى اليوم آثار من التوشية العربية والتبسيط الرخامي النفيس . غير ان البيمارستان المعروف بالمارستان النصوري هو هو اعظم ما اثره في البناء . وتعد آثار هذا البيمارستان اقدم ما وصل اليها من البيمارستانات الاسلامية . وقد قيل انه اوحى الى السلطان ابن يني هذا البيمارستان خلال اقامته في البيمارستان النوري في دمشق مصاباً بوجع البطن فنذر ان ينشئ مثله في القاهرة اذا ابل من مرضه . وقد اكمل البناء ومنه المستشفى الرئيسي والجنحة الملحقة به والجامع والمدرسة عام ١٢٨٤ . وكانت في المستشفى اقسام خاصة بفصل المرضى فيها حسب امراضهم فالحميات في مكان خاص وهكذا الرمد والاسهال وغيرها . وفيه مختبرات وصيدلية وحمامات ومطابخ ومخازن . وكان رئيس الطبابة فيه يلقى الدروس في غرفة مجيزة باللوازم . وكانت للمستشفى وقف يدر عليه ما يزيد عن مليون درهم في السنة وفيه خدمة من الرجال والنساء واجوابه مفتوحة لداواة المرضى من الجنسين (٢) . وبلغ من مساعدة هذا السلطان للطب واتصاله الشديد بامر معالجة المرضى وشفايتهم ان اصبحت جيبته المحفوظة في قبره بعد وفاته مقصد الآلاف من الاولاد انفوس والنساء العاقرات والموبوءين بالمسوخ مؤملين ان ينالوا الشفاء بمجرد لمسها .

الاشرف

ابن قلاوون وخلفه الملك الاشرف خليل (١٢٩٠ - ٩٣) فقد كانت مقفوره الوحيدة فتح عكا في ايار عام ١٢٩١ . وقد نجم عن فتحها سقوط المرافق القليلة الباقية في قبضة الافرنج . وساء مكنون حراين موحش على منطقة الساحل كلها - تلك المنطقة التي كانت تعج بالحوادث وتردد اصدااء الحوار العالمي (٣) . وفي سنة ١٣٠٢ قام الناصر بعد الاشرف وهو اخوه الاصغر فقهر الداوية الذين كانوا قد تمركزوا للمرة الاخيرة في جزيرة ارواد قبالة

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٠٣ .

(٢) الميرزى ، المخطوط ج ٢ ص ٢٠٦ - ٧ .

(٣) Gibbon, Decline, ed. Bury, vol. vi, p. 265 .

الشاطي، السوري وطردهم منها بعد ان معن فيهم تقشيراً.

عهد المغول

كان الملك الناصر محمد يشاطر التمسك بفضل التفرد في انه ارتقى كرسي الملك في ثلاث دورات : ١٢٩٣ - ٤ - ١٢٩٨ - ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ - ٤٠ . وقد كانت في سن التاسعة اول ما اعتلى العرش ومن هنا فقد كان عهده اطول عهود سلاطين المماليك ومن اطول عهود الملوك في التاريخ الاسلامي . وفي ولايته جرت آخر غارات المغول بزعماء الايلخان غازان محمود واصبح الاسلام في عهد غازان دين الدولة في مناطق الايلخانات . وكان يقدر الجيش المصري بنحو ثلث عدد الجيش المغولي فاندحر (٢٣ كانون الاول ١٢٩٩) امامه شرقي حمص وكان عدد المغول يقدر بنحو مئة الف (١) يساندتهم جموع من الارمن والكرج . وواصل المغول زحفهم ظافرين وفي مطلع عام ١٣٠٠ احتلوا دمشق دون ان يهبوها . اما بقية سورية الشمالية فقد ازلوا فيها ألواناً من الخراب والدمار . وفي آذار من تلك السنة جلوا عن العاصمة السورية التي كانوا قد احتلوها دون ان يستولوا على قلاعها وعاد المصريون فاحتلوا البلاد بكاملها . وبعد ثلاث سنين عاد غازان بحملة اخرى فقهره المصريون عند مرج الصفر جنوبي دمشق (٢) . وهي المرة الرابعة التي قوي المماليك فيها على التتكيل باشد عدو عرفته مصر منذ الفتح الاسلامي ، ولم يجرأ احد من خلفاء غازان على مقاتلة المصريين بعد ذلك .

وبعد ان جلا المغول عن دمشق بأمد يسير نشط الناصر لمعاوية دروز لبنان الذين كانت رمايتهم الاثنا عشر الفاً قد اوقعوا البلاء بجيشه المكسور قبل اشهر فاقص منهم ونكل بهم تنصيحاً . ومن الفرق الاخرى التي ازل بها القصاص العلويون في كسروان . اما موارنة جبل لبنان فسكاد سحقهم . وفي سنة ١٣٠٢ وما بعدها والى الغارات على بلاد الارمن المتكودة (٣) ووضع على رعاية التصاري واليهود احكاماً مرهقة جددت عهد الاحكام البالية

(١) الفريزي ترجمة كاترجه Vol. II (pt. 4), p. 106

(٢) ان لا القراء (ج ٤ من ٤٠) وهو مدني الناصر الذي عاد اليه اشارة اجداده فيما بعد انه شاهد بعينه الجيش الهاجم بر زيادة حافة مسقط رأسه .

(٣) ابو الفداء ج ٤ من ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١

التي كان عمر الثاني والمتوكل قد اصدراما في شأنهم .

ولكن الناصر في عهده الطويل اشتهر بما اثره في ميدان السلم لا الحرب . وكان السلطان قصير القامة اعرج الا انه امتاز بشذوقه للجمال وبتمتعه بأنواع النعيم والبذخ في حياته وتزيينه جميع ما يحيط به بالزخارف الباهرة . وقد حدث مرة عند عودته الى مسكنه في القلعة بعد رحلة خارج البلاد ان فرش له اهل خاصته السجاد والطنافس الثمينة على الارض فوطأتها فرسه مسافة اربعة آلاف ذراع . وكان في صحبته عند خروجه الى الحج اربعون رجلاً يحمل محار الخضروات مزروعة فكان في كل منزلة ينزلها في صحراء العرب يقدم له من تلك الخضروات مع الطعام ^(١) واستهلك من السكر يوم الاحتفال بزواج ابنة ١٨ الف رأس ، وبيع من الحيوان ٢٠ الفاً واضاء البلاط الملوكي بثلاثة آلاف شمعة احقرت كلها . اما قصره الابلق ^(٢) فقد بناه على طراز دمشقي . وكان له ولم خاص بالالعاب والصيد والليل وقد ترك لنا كتاباً في تربية الخيل ولم يتردد عن دفع ٣٠ الف دينار ثمناً لحصان اعجبه ^(٣) .

مصر في أوج تفتتها

ولم ينحصر اسراف الناصر في اشباع شهواته الشخصية بل كان له من المنشآت العامة ابنية عديدة جميلة سخر مهرة الصناع في بناء بعضها . ومن هنا فقد حق لعهد ابن يعز بثقافة هي ارق ما عرفه عهد المماليك . وحفر قناة اشتمل فيها مئة الف عامل وصلت الاسكندرية بالنيل ، وبنى (١٣١١) مجرى للمياه يسير من النيل الى قلعة القاهرة وانشأ في انحاء مملكته نحو ثلاثين مسجداً غير عدد من الرباطات والسبل والحمامات والمدارس . وشمل مكة بنوع خاص من بذخه . اما جامع الخاض في القلعة فانه زوَّقه (١٣١٨) بمواد نقلها اليه من انقاض كاتدرائية عكا . ولا تزال المدرسة التي اكملها سنة ١٣٠٤ المعروفة بالقاهرة - على اسمه - قائمة في القاهرة الى يومنا هذا . ومثل جامع ما تمثله المدرسة من اوجه المعاني التي ابدع فيها

(١) أبو الفداء ج ٤ ص ٨٩ .

(٢) انقريزي ، الخطط ج ٢ ص ٢٠٩ - ٢١٠ ؛ قابل السعدي ، التنبيه ص ٢٥٨ .

(٣) وهناك مخطوطة غريبة في وصف الحصان كتبها بحروف مذهبة كاتبه الحسيني وقدمها له . انظر فهرست المخطوطات العربية في برنسون عدد ١٠٦٦ .

المسلمون في فن العمارة . أما الفنون القرعية فإنها نشطت في عهده ايضاً وبلغت درجة عالية من الجودة لم تكن معروفة من قبل كما يظهر من قطع البرونز والمصنوعات النحاسية والقناديل الزجاجية المطلية بالميناء والمصاحف المزخرفة المحفوظة في المتحف العربي بالقاهرة ودار الكتب المصرية .

المراعاة والطاعة

على ان النفقات الثقيلة في عهد الناصر الطويل أثقلت كاهل الشعب بالضرائب الباهظة وادت الى سقوط هذه الدولة . واتخذ السلطان تدابير اقتصادية خاصة حاول ان يخفف بها وطأة الضنك الشديد فشجع التجارة مع اوربا ومع الشرق ، وامر ان يعاد مسح البلاد ، والغى الضرائب على الملح والدجاج وقصب السكر والسفن والرقيق والتبيل ومنع شرب الخمر . وامر بحل الخبازين الذين يرفعون ثمن الخبز . فلم يكن لذلك سوى اثر وفتي . وجاءت بعد ذلك الحروب الاهلية والحجاعة والطاعون فزادت في تعاسة الشعب . وحل « الموت الاسود » الذي اصاب اوربا سنة ١٣٤٨ - ٩ في مصر ولزمها نحو سبع سنين فاهلك من أهلها ما زاد على ضحايا اي طاعون آخر . واذا اعتبرنا ارقام ابن ايس المبالغ فيها فان عدد الموتى من هذه الكارثة بلغ في العاصمة وحدها ٩٠٠ ألف (١) وهرب السلطان وكل من استطاع . ويقال ان غزه فقدت من سكانها ٢٢ ألفاً في شهر واحد . وكانت يموت في حلب كل يوم خمسة .

سقوط المماليك البحرية

أما السلاطين الاثنا عشر الذين خلفوا الناصر على التعاقب طوال اثنين واربعين سنة (١٣٤٠ - ٨٢) فإنهم لم يكونوا سلاطين الا بالاسم اذ كان يقوم باعيان الحكم امراؤهم وكان هؤلاء الامراء ينصبون السلاطين ويعزلونهم او يقتلونهم حسبما توحيه احوالهم . ولم يكن من هؤلاء السلاطين من امتاز في أي ميدان من ميادين العمل وايس لهم مخلعات سوى

(١) ابن ايس ج ١ ص ١٩٦ .

مسجد السلطان حسن ابن ناصر الذي تم بناؤه سنة ١٣٦٢ ويعد من اجمل الجوامع البنّية على شكل مصلب .

وكان الصالح حاجي ابن شعبان ((١٣٨١ - ٢٢ ١٣٨٩ - ٩٠)) ابن حفيد الناصر آخر السلاطين البحرية وكان طفلاً ودام ملكه سنتين متقطعتين اذ ان برقوق الشركسي عطل ولايته اولا واعاده بعد زمن ثم اقصاه عن الحكم اخيراً . ويعتبر برقوق مؤسس دولة المماليك الجديدة اي البرجية (١) . وكان في اول عهده رقيقاً لا بناء الاشراف شعبان (٢) . ويجب ان نشير في ختام هذا الفصل الى انه قد قام شركسي آخر قبل برقوق هو بيبرس الثاني (٩ - ١٣٠٨) مملوك قلاوون فكان احد السلاطين الثلاثة الذين ملكوا في فترات معروفة خلال حياة الناصر وبذلك كانوا نذراء لظهور الدولة الجديدة .

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٧٢ ؛ ابن تقي بردي ج ٦ قسم ٢ ص ١ .

(٢) انظر جدول المماليك البحرية في هذا الفصل ص ٧٩٦ .

الفصل الثامن والأربعون

الحركة الفكرية والفنية

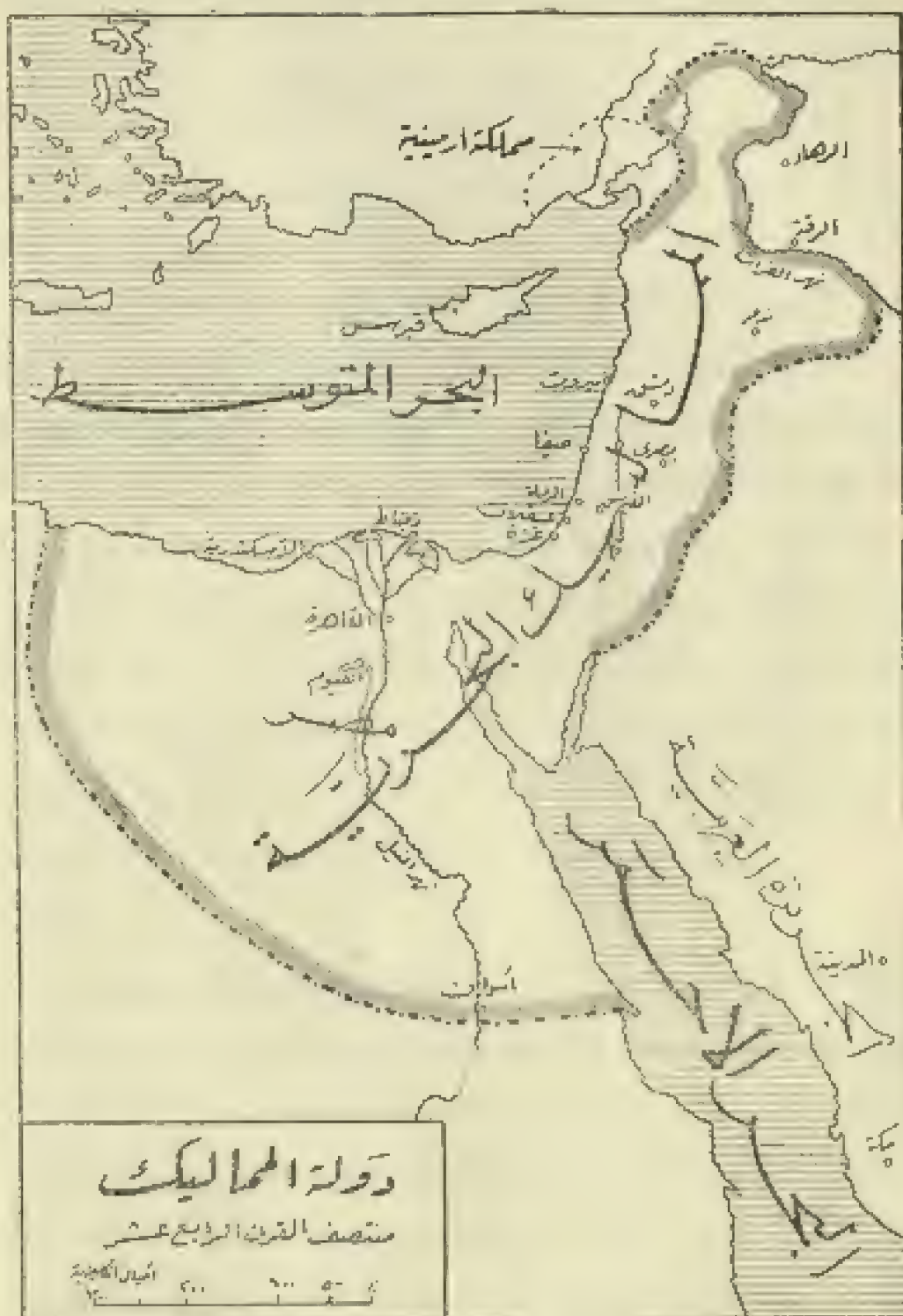
استقلت مصر عهدها في ظل المماليك تحت راية سلاطين ظافرين فخورين فقد فازوا بتطهير سورية من بقايا الأفرنج وتمكنوا من الخيلولة بين الممولى والدويخ العالم . غير أنه ما وافت نهاية هذا العهد بما فيه من حكومة عسكرية مهيمنة والتحزبات بين الجماعات المتنفذة والعملة المتدنية والضرائب الباهظة وتوارد الأوبئة والطاعون والجماعات والثورات حتى كاد الخراب يعم مصر ومجتمعاتها سورية . وقد استمرت في وادي النيل بنوع خاص العادات البالية والخرافات القديمة وأنواع السحر وتعاخت مع العقائد الدينية الرجعية وروح المحافظة فلم تسترك للتقدم العلمي مجالاً للسير . ومن هنا فإنه لم يكن ممكناً في مثل هذه الأحوال نشوء حركة فكرية راقية . والواقع أن جميع أنحاء العالم العربي اخذت في مطلع القرن الثالث عشر تفقد سيادتها العلمية التي تمتعت بها منذ القرن الثامن (١) . وأصبح العياء الفكري الذي سببه أجيال الجهاد والعناء الأدبي الناجم عن تراكم الثروة والسلطة باديين في كل مكان .

الحركة العلمية

ولم يبق للعرب مكانة في العلم بعد منتصف القرن الثالث عشر إلا في فرعين : العلوم الفلكية والرياضية ومنها علم المنشآت وعلوم الطب ولا سيما طب العيون . أما في علوم الفلك والرياضية فإن خدمة العرب العلمية تمت على أيدي الفرس وقد كان مركز حركتهم هذه في مرصد الأبلخانات ودار الكتب بمرافقة التي كان يرأسها نعيم الدين الطوسي (١٢٠١-٧٤) الشهير . وجدير بالذكر أن الجاثليق السرياني اليمثوي أبا الفرج ابن الميري (١٢٢٦-١٢٢٦)

(١) انظر Sartun, Introduction, vol. II. ولا يظن بنوع خاص العمل الأتباعي . وقد وافت هذا الأعطاط العام في التعاون الإسلامية أكثر المصور الوسطى .

(٢) كثرت الاستعارات في هذا الكتاب وتاريخ (ابن الميري) تاريخ بمصر المولى ، نشر صالحاني (جروت ١٨٩٠)



٨٦) المعروف كمؤرخ وهو آخر رجال الادب السرياني انما كانت محاضراته في ذلك المركز العلمي سنة ١٢٦٨ في اقليدس وسنة ١١٧٢ - ٣ في بطليموس .

الطب

ولكن هذه التملكة المصرية السورية قد تزعمت حركة العلوم الطبيعية . فالمارستان المنقن الذي بناه قلاوون يدل على مقدار اهتمام مصر بالطب . وكان محمد هذا المارستان ابو الحسن علي ابن نفيس قد درس في دمشق حيث مات بعدئذ (١٢٨٨ - ٩) وقد ترك لنسا في كتابه « شرح تشریح القانون » صورة واضحة عن الدورة الدموية الصغرى وذلك قبل سرفيتس البرتغالي الذي ينسب اليه اكتشافها بثلاثة قرون . وقدم ابو بكر ابن المنذر البيطار (المتوفى ١٣٤٠) القائم بشؤون تربية الخيل للسلطان الناصر ابن قلاوون رسالة في البيطرة الى سيده هي من الرسائل العربية القليلة في هذا الموضوع عنوانها « كامل الصناعتين : البيطرة والزرقطة » (١) . وان لفظة بيطار العربية المأخوذة من « hippiatrus » اليونانية تدل على ان العرب وان كانوا منذ بدوهم على شيء من الالمام والمعرفة العملية للثبينة على الاختبار في معالجة امراض الابل والخيول فانهم قد استمدوا معرفتهم المنظمة في هذا الميدان والفرق الثبينة من المصادر البيزنطية . وكان لاكثر المالك ومنهم قلاوون ورفوق اسطبلات خاصة لتربية الخيل . وهناك كتب عديدة تأتي على ذكر الاخبار والتقاليد الاسلامية في موضوع الخيل وترجع الى هذه الحقبة . ومن هذه الكتب « فضل الخيل » لعبد المؤمن الدماطي (المتوفى ١٣٠٦) وهو من قاموا بالتدريس في المدرسة المنصورية التي بناها قلاوون .

الطباء يهود

وكانت زعامة الطب المصري منذ ايام الياويين بأيدي اطباء يهود حافظوا على التراث الجيد منذ ايام ابن ميمون ، على اننا لا نجد ابتكاراً فيها قام به الاطباء مسلمين كانوا ام يهوداً .

(١) او د. انصاري ، ترجمة بيرون M. Porron, *La Nuziri : la perfection des deux arts* au traité complet d'hippologie et d'hippiatrie arabes, 3 vols. (Paris, 1852 ED).

وقد أُنْف في الصمدلة اليهودي المصري المعروف بالكوهين العطار رسالة وضعها في القاهرة نحو عام ١٢٦٠ بعنوان « منهاج الدكان ودستور الاعيان » وهي لا تزال الى اليوم ذات قيمة وفائدة في الشرق الاسلامي .

وكانت هذه الحفظة خصبة بوجه خاص في انتاجها ذلك النوع من المؤلفات النسوية الغرامية الذي نسميه اليوم بـ « الأدب الجنسي » على ان الأدب العربي كان في كل عصوره ادب رجال لا ادب نساء ، تكثر فيه النوادر والنبكات والاشارات التي تبدو في عصرنا الحديث بذئنة . ومن القادة في هذا الميدان التيفاشي المصري الطير في الجواهر وقد زها في اواسط القرن الثالث عشر . ونلاحظ في هذا الزمن اهتماماً خاصاً ايضاً فيما يسميه العرب « الطب الروحاني » او « النفساني » ويقابل اليوم ما يعرف في الانكليزية بـ « سيكوثراي » (psychotherapy) ومن رواد هذه المدرسة طبيب يهودي كان عند صلاح الدين اسمه حبة الله بن جميع ، وعنوان مؤلفه الرئيسي « الارشاد لمصالح الانفس والاجساد » . وروى ان ابن جميع جلس يوماً في دكان بفسطاط مصر فمرت به جنازة فلما نظر اليها قال ان صاحبها لم يمت ولما مثل من اين علمت اجاب نظرت الى قدميه فوجدتهما قائمتين واقدام الذين قد ماتوا تكون منبسطة (١) .

امراضه العيون

وكانت طبابة العيون من الانظمة التي بكَر العرب في اتقانها وقد تعاطوها في سورية ومصر طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر على اساس علمي لا يعادله شيء في اي موضوع آخر . ففي القرن الثاني عشر ألف أبو الفضائل ابن النافيد (٢) (المتوفى ١١٨٨ - ٩) أهم كتاب عربي في هذا الموضوع عنوانه « المجربات » . وكان أبو الفضائل يهودياً محترفاً طب العيون في القاهرة . ولكن سورية تسلمت الزعامة بعد ذلك ، وفيها وضع الكتابان العليسان الوحيددان لهذه الحقبة : « الكافي في الكحل » خليفة ابن ابي الحاسن الحايي الذي زها حوالي عام ١٢٥٦ و « نور العيون وجامع الفنون » (٣) لصلاح الدين ابن يوسف الذي مارس طب

(١) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٥ - ١١٦ .

(٣) مابني خلفه ج ٦ ص ٢٩٣ .

العيون في حاة حوالي ١٢٩٦ . وكان خليفة المذكور من الثقة بنفسه في فن الجراحة ما جعله لا يتردد عن اخراج الماء الأزرق من عين اعور . وجدير بالذكر ان العلماء السوريين في عصر المماليك زهوا في مدن الداخل لان الساحل كان خربه الصليبيون ومن بعدهم قلاووت وخلفاؤه الذين كانوا يخشون عودة الافرنج .

درج الطب

اما كبير مؤرخي الطب الذين انجسهم العالم العربي فموفق الدين ابو العباس احمد ابن ابي اصبهنة (١٢٠٣ - ٧٠) وقد نفع في دمشق في اول حقبة المماليك وكان هو نفسه طبيباً . وكان ابيه دمشقياً يتعاطى تطبيب العيون . وقد درس موفق الدين الطب في مسقط رأسه وفي القاهرة ، وزامل ابن البيطار الشهير في جمع النباتات ودرسها . وكان يكتاب العالم الطبيب عبد اللطيف البغدادي . وكان خير كتبه كتاب « عيون الانبياء في طبقات الاطباء » (١) وهو مجموعة متقنة لأربع مئة سيرة من سير رجال الطب من عرب ويونان . ولما كان أكثر هؤلاء الاعلام قد جموا بين الطب والفلسفة والفلك وعلم الطبيعة والرياضيات اصبحت هذا الكتاب مصدراً ثميناً لا يستغني عنه دارس تاريخ العلم العام عند العرب . ويؤكد هذا السفر ان يكون فردياً في الأدب العربي . ولا بد ان يهوى كتاب « اخبار العلماء باخبار الحكماء » للقنطري . وقد وصلنا هذا الكتاب الاخير مختصراً (٢) وقد ولد علي ابن يوسف القنطري في صعيد مصر (١١٧٢) كما يشهد اسمه ولكنه قضى معظم حياته في حلب وفيها تولى الوزارة في عهد سلاطينها الايوبيين حتى وفاته عام ١٢٤٨ .

علم الاجتماع : السير

وكانت أهم ما أثر عصر المماليك العلمية في علوم الاجتماع ولا سيما في موضوع السير . وبرز من عرفهم الاسلام من كتاب السير شمس الدين احمد ابن محمد ابن خلكان سليل يحيى

(١) نشره امرو القيس ابن الطعان [اوغست ملر August Müller] في مجلدين (القاهرة ، ١٨٨٢) ثم اعاد نشرها في مجلدين (كونتسبرغ ، ١٨٨٤) مع بعض الاصلاحات وصحفات مضافة وفهرس .
(٢) نشره يوليوس لبرت (لايبتز ، ١٩٠٣) .

ابن خالد البرسكي وقد ولد في اربيل عام ١٢١١ ولعب في دمشق خلال هذا العصر . تلقى ابن خلكان العلم في حلب ودمشق وعين عام ١٢٦٠ قاضي قضاة الشام وكانت دمشق مقره . وظل في هذه الوظيفة حتى قبيل وفاته عام ١٢٨٢ باستثناء فترة سبع سنوات . اما كتابه « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان »^(١) فمجموعة دقيقة رائعة تحتوي ٨٦٥ سيرة لأحبار المسلمين في التاريخ . وهذا اول كتاب عربي محيط جامع لسير الاعلام عانى مؤلفه مشقة ضبط الاسماء وتحقيقها وتعيين التواريخ ورد الانساب وتمحيص الحقائق وايراد مزايا الرجال الشخصية وذكر الحوادث الخطيرة وابرار الامثلة من شعر اصحاب السير ونوادرهم . فكانت نتيجة ذلك كله في رأي احدهم « افضل ما كتب في السير عامة »^(٢) .

التاريخ

ولم يكن عصر المائيك خصياً بكتب السيرة فقط بل كان غنياً ايضاً الى حد في موضوع التاريخ على العموم . ومن الذي اشرنا اليهم كثيراً فيما سبق ابو الفداء وابن تغري بردي والسيوطي والمقرئ وكلهم مؤرخون ينتمون الى ذلك العصر . اما ابن خلدون (المتوفى ١٤٠٦) المشهور الذي كان استاذاً وقاضياً في زمن السلطان برقوق وتراًس وفداً ارسله السلطان فرج لمفاوضة نيمور في الصلح بدمشق فان علاقاته السابقة وآثاره الادبية تربطه باسبانية والمغرب . وقد كان ابو الفداء المؤرخ الجغرافي (١٢٧٣ - ١٣٣١) سليل اخي صلاح الدين وامير حماة في زمن السلطان الناصر وقام بتلخيص تاريخ ابن الاثير الضخم تحت عنوان « مختصر تاريخ البشر »^(٣) وقد اوصله الى عصره وله في الجغرافية « تقويم البلدان » . وكان ابو الحسن ابن تغري بردي (١٤١١ - ٦٩) ابن موظف كبير في بلاط المائيك وكانت امه مملوكة تركية ليرقوق وكانت له علاقات حسنة^(٤) مع عدد من السلاطين واكبر مؤلفاته « النجوم الزاهرة

(١) صدر في طبعات متعددة وقد استعملنا طبعة القاهرة ، ١٢٩٩ في ثلاث مجلدات .

(٢) Nicholson, *Literary History*, p. 452 .

(٣) الطبعة التي ترجع اليها هي في ٤ مجلدات (القسطنطينية ، ١٢٨٦) . اما حقايقه تقويم البلدان فقد نشرها ريتو وده سالان (باريس ، ١٨٤٠) وترجمها اوينو في مجلدان (Paris, 1848)

(٤) ابن تغري بردي ج ٦ قسم ٢ من ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

في ملوك مصر والقاهرة»^(١) وفيه تاريخ مصر منذ الفتح العربي حتى عام ١٤٥٣ . ثم جاء جلال الدين السيوطي^(٢) (١٤٤٥ - ١٥٠٥) وكان كاتبا الجوزي وابن حزم والطبري من أغزر مؤلفي الاسلام مادة الا ان مؤلفاته خالية من الابتكار . وهو بلا جدال أبرز شخصية ادبية للقرن الخامس عشر . وقد جري قلمه السيل في جميع ميادين العلوم العربية : القرآن والحديث والفقه والفلسفة والتاريخ وفقه اللغة والبيان الخ^(٣) . واتصلت بنا اسماء كتب من تأليفه لا يحل عددها عن الخمسة . منها « باوع المآرب في قص الشارب » و « التعظيم والمنة في ان اجري رسول الله في الجنة » و « رسالة في جيب قميص النبي صلعم » . ويظهر انه كان خطاطا وربما نسب الى نفسه مؤلفات غيره بعد ان نسخها بيده . واهم مؤلفاته : « الانقاس في علوم القرآن »^(٤) وهو في علم التفسير ، و « المزهري في علوم اللغة »^(٥) وهو رسالة في فقه اللغة ، و « حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة »^(٦) .

وكان ألح مؤرخي المماليك بلاريب نقي الدين احمد القرينزي (١٣٦٤ - ١٤٤٢) . وقد ولد في القاهرة من اسرة بعلبكية الاصل فتقلد عدة مناصب سامية كوكالة القضاء والتدريس في مسقط رأسه وفي دمشق . اما شهرته فتقوم على كتابه المسنن « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار »^(٧) وقد خصصه للبحث في طوبوغرافية مصر وتاريخها واترياتها . اما معاصره السخاوي^(٨) فقد اصاب في اتهامه بانتحال جريء شامل في اخراج هذا الكتاب . بيد ان الانتحال كان شائعا في تلك الايام .

المؤلفات وعظمى اللغة

لقد اشتهر في هذا العصر انسان من كتاب النوسوعات المصريين وقد كثرت الاشارة

(١) نصره جون بل وماتس بجلدين (اليد ١٨٥٥ - ٦١) وواحد من ٣ مجلدات (بركبي ١٩٠٩ - ٢٩) .

(٢) ولد في اسبوط بالوجه القبلي من مصر .

(٣) قابل لانحتها في كتابه « نظم المقامات في اعيان الاعيان » نشر حتى (نيويورك ، ١٩٢٧) من خ ، د .

(٤) صدرت عدة طباعات منه في القاهرة وهي غير عادية .

(٥) الطبعة التي تراجع اليها هي في مجلدين (القاهرة ، ١٣٢٥) .

(٦) الطبعة التي تراجع اليها هي في مجلدين (القاهرة ، ١٣٢١) .

(٧) الطبعة التي تراجع اليها هي في مجلدين (بولاق ، ١٢٧٠) .

(٨) « النور المبيوك في ذيل الملوك » (بولاق ، ١٨٩٦) من ٢٢ .

اليهما في هذا الكتاب هما احمد النويري (المتوفى ١٣٣٢) مؤلف «نهاية الأرب في فنون الأدب» (١) واحمد القلقشندي (المتوفى ١٤١٨) مؤلف «صبح الاعشى» (٢) وهو كتاب مدرسي يستعمله اصحاب الوظائف في دواوين الحكومة طافح بالمعلومات التاريخية والجغرافية التي تدور بالاكثر على احوال مصر وسورية . اما بقية المؤرخين في هذه الحقبة فقد صرفوا عنايتهم الى الدراسات الاسلامية والفنية باستثناء احمد ابن ماجد (٣) التجدي الذي يقال انه ريان سفينة فاسكوده غاما في عام ١٤٩٧ في رحلته من افريقية الى الهند . ومن مؤلفات احمد هذا ملخص في الملاحه نظري وعملي .

ويجب ان نذكر في علم اللاهوت تقي الدين احمد ابن تيمية (٤) (١٣٢٨ - ١٣٦٣) الحراني مولداً الدمشقي اقامة . وكان ابن تيمية محافظاً لا يذعن لمرجع في امور الدين سوى القرآن والحديث وسنة الجماعة وشدد الحجة على اهل البدع واستنكر عبادة الاولياء والنذور وزيارة القبور وكان من اتباع ابن حنبل وقد تبنى الوهابيون مبادئه . وكان من ابرز رجال الحديث في هذا العصر ابن حجر العسقلاني (١٣٧٢ - ١٤٤٩) مؤلف «الاصابة في تمييز الصحابة» (٥) قاضي القضاة بالقاهرة وقد حفظ القرآن فيما يقال وهو دون التاسعة من العمر . اما في الشعر فانشخص الوحيد الذي يستحق الذكر هو شرف الدين محمد البوصيري (٦) (١٣١٣ الى نحو ١٣٩٦) البربري النسب ناظم قصيدة «البردة» الشهيرة تذكراً لشافته العجيب من ضربة الفالج اذ ألقى النبي عليه برده في الرؤيا . وليس بين قصائد العربية ما بلغ شهرة «البردة» . وقد وضعت عليها شروح لا تقل عن التسمين في العربية والتركية والفارسية والبربرية . ونقلت هذه القصيدة الى الفارسية والتركية والامانية والفرنسية والانكليزية والاطالية . ولا يزال الناس يرددون ابيانها تعاويذ من الشر ويقرواها الدروز

(١) في ٩ مجلدات (القاهرة ١٩٢٣ - ٣٣) ولم يكمل بعد .

(٢) في ١٤ مجلداً (القاهرة ١٩١٣ - ٢٢) .

(٣) كتاب الفوائد في اصول الشعر والقواعد نشر ج . فرانك (باريس ١٩٢١ - ٢٠) .

(٤) من الم ٥٠٠ كتاب المنوية (٩) لم يبق سوى ٦٤ . راجع التكني ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٥) في ٨ مجلدات (القاهرة ١٩٢٣ - ٧) .

(٦) ولد في أبو صير .

الى هذا اليوم في جنازتهم .

الفصل

ولنذكر هنا أن سيري عنتر وبيبرس اللتين لا تزالان سلوى الجماهير الى اليوم في مقاهي الشرق الاسلامي انما وضعنا في شكلهما المعروف خلال عصر المماليك . كذلك قل في « الف ليلة وليلة » وهي دون السيرتين المذكورتين انتشاراً في بلدان الشرق غير انها قد احتلت بواسطة ترجماتها مركزاً رفيعاً بين القطع الخالدة في الأدب العالمي وكانت حتى ذلك الزمن لم تتخذ شكلها النهائي . وتنافس المماليك في مناصرة الألعاب والسيقات والرماية والرياضة والصيد والقروسية فكانوا مثال البطولة لاسيما من عصر الصليبيين منهم . وقد اكدت الاساطير من ذكر مفاخرهم واعمالهم واوردت أخبارهم بقالب منسق فنان . وان وصف « الفارس » في « الف ليلة » يمتثل للحارب المتوار كما عهد عصر المماليك لا عصر العباسيين . كذلك فان عادات القوم واخلاقهم انما أخذت من الحياة الاجتماعية التي فيها الكائن في القاهرة ايام المماليك .

خيال الظل

وظهر في القرن الثالث عشر كتاب يدل على تطور كبير في ادب خيال الظل عنوانه « حليف الخيال في معرفة خيال الظل » (١) وضعه محمد ابن دانيال الخزاعي الموحي (نحو ١٢٦٥ - ١٣١٠) . وكان المؤلف طبيباً مسلماً ولعله كان في الاصل يهودياً او نصرانياً . وقد زها ابن دانيال في زمن بيبرس ، وكتابه هذا هو المثال الوحيد المحفوظ في الشعر الروائي الذي خلفه الاسلام في العصور الوسطى . ولعل استنباط روايات خيال الظل يرجع الى الشرق الاقصى . الا ان المسلمين قد استمدوها على الراجح من الهند او من فارس . وفي آخر القرن التاسع شرع قصاصو العرب في ادخال ممثلي الصفات الوطنية الى حكاياتهم وفي السعي الى ابراز السخرية في رواياتهم . وما أن وافى القرن الثاني عشر حتى استعملوا الدمى تديرها

(١) نشر قسمته جورج جاكوب في ٣ مجلدات (اولتين ، ١٩١٠ - ١٢) انظر الكتاب ج ٢ ص ٢٣٧ .

أيدي خفية على المسرح . وقد أشار ابن خزم (١) في أسبانية (القرن الحادي عشر) في عبارة مجازية الى « خيال الظل » . وانتقلت هذه الروايات من غربي آسية ومصر (٢) الى القسطنطينية حيث برز « الفراقوز » (أسود العينين) ومنه اسرت الى سائر اوربا الشرقية . ومن خصائص الملهي الصغير التركي ما يدل على انه مستمد من « الف ليلة » . وليس غريباً ان تكون شخصية « الفراقوز » التركية قد اثرت في نوع الممثلين المعاصرين ككتشارلي تشابلن .

العمارة وهندسة البناء

وكان من ايهج المفاجئات التي ظهرت في عصر المماليك على ما كان فيه من حروب وأهوال الاتعاج الباهر في فن العمارة وهندسة البناء على اسلوب لا قرين له في تاريخ مصر منذ ايام البطالة والفراغة . ففي المساجد والمدارس والاضرحة التي شادها قلاوون والناصر والحسن بلغ فن العمارة الاسلامية ابيه مظاهره . كذلك تمت الحقبة البرجية بالابنية التي شادها برقوق وقائباي والتوري . ولم نشاهد البلدان العربية بعد ذلك بناء ذا أهمية عالمية .

وتعود مبادئ مدرسة المماليك في فن العمارة الى اصول تورية وايبوية كما ان موارث سورية وعراقية اتصلت بها عندما أصبحت مصر في القرن الثالث عشر مأوى الفنانين والصناع المسلمين اللاجئين اليها من الموصل و بغداد ودمشق قبل فتوحات المغول . ولما انتهت الحروب الصليبية انفتحت الطريق للحصول على حجارة البناء من مقالعها في الشمال واعتدى بالحجارة عن الأجر في بناء المساجد . واتقن البنائون الى حد الكمال اسلوب تشييد الجوامع المدرسية ذات الشكل المصاب وظهرت القبة في هيئة تتحدى كل الاشكال المنافسة من حيث الخفة والظرافة والناقة الزخرفة . اما العمارات ذات الخطوط المألوفة - ومنها القصر الابق - فهي ناجمة عن استعمال حجارة ذات ألوان مختلفة في خطوط متساوية وهي من اصل روماني او بيزنطي . ويحذر ان نلاحظ هنا ظهور المتديلات السقفية (المقرنصات) في هذه الحقبة . وقد برز في هذا العصر ميزتان اتصف بهما فن الزخرفة الاسلامية : الاشكال الهندسية والحروف

(١) الاخلاق والسير ، نشر عمصاني (القاهرة) ص ٢٨ .

(٢) انظر ابن الجاسر ج ٢ ص ٣٣ .

الكوفية وكانت الاشكال الحيوانية طوال العصور الاسلامية أقل استعمالاً في مصر وسورية منها في اسبانية وفارس . وان افضل امثلة العبارات الراجعة الى عصر المماليك باقية لحسن الخط حتى اليوم وهي من امتع المشاهد التي يقصدها السياح وطلاب العلم .

الفن

ارتبطت كل فروع الفن العملي تقريباً بفن العمارة ولا سيما العمارة الدينية . ومن الامثلة الباقية ابواب جوامع مصنوعة من البرونز المزرق وشماعات برنزية عليها رسوم عربية دقيقة وغلافات ذهبية للمصاحف مرصعة بالجواهر ومحاريب فيها يدع القسيساء . اما دقيق الصناعة النحشية فظاهر في المنابر ^(١) . وقد اكتست معظم ابواب المساجد الكبيرة بالحجم بحلة معدنية من صنع دمشق . اما قناديل المساجد والشبابيك المصبوغة فقد كانت تصنع من ابداع انواع الزجاج الملون وعلمها رسوم الزهور وكتابات عربية . وتحلى داخل جدران المساجد بالفخري ضروب الآجر المزرق المطلي . وفي المآذن بجامع الناصر بالقلمة (١٣١٨) اقدم نماذج الآجر الراجعة الى عهد المماليك وهي من الفخار الملون الصقيل المستخدم في العمارة . وفي ايام المماليك البرجية درجت صناعة الترصيع حسبما يظهر من الابواب والمنابر في جامع قانقباي . اما صناعة القسيساء وحفر العاج والمينا فقد حذفها الاقباط منذ العصور السابقة للإسلام .

زخرفة المنظومات

وليس في الفنون الفرعية ما يفوق زخرفة المخطوطات اظهاراً للمواهب الفردية والنبول الاسلامية الفنية وكادت هذه الزخرفة ان تنحصر في المصاحف وهي صناعة نستدعي من الدقة والاداة والمهارة في تنظيم الالوان والملائمة بين عناصر الزخرفة ما يجعل الزخرفة لا تزيد عن صفحتين او ثلاث حتى في اجمل النسخ الخطية . وفي هذا الباب ايضاً كانت انفس مجموعات المصاحف المزخرفة تخص سلاطين المماليك وتحتوي دار الكتب المصرية في القاهرة

(١) انظر رسوم بعض المنابر في Gaston Wiet, Catalogue général du musée arabe du Caire: lampes et bouteilles en verre émaillé. (Cairo, 1929).

جانباً منها نقل اليها من جوامع المدن المختلفة .

عبارة البندغ

على ان معاني الرقة والجمال الفنية الدقيقة لم تقتصر على المواضيع الدينية فقط بل ظهرت في غيرها ايضاً وقد اتصلت بها ادوات مختلفة تتجلى فيها مظاهر انترف من كؤوس وطاسات واطباق ومباخر تدل على صدق انورخين المعاصرين الذين عرضوا لوصف الحياة في ذلك العصر . فقد كانت الاميرات الملكيات يتجملن بحلى من خلاخل واقراط وعقود واساور وتمائم لا تختلف كثيراً عما تلبسه المصريات المعصريات . وكانت مادب الممالك تناووها حفلات أنس وسمر تظهر فيها الرافصات والشعوذون ومناو خيال الغال . وكان في عداد ضباط البلاط شخصيات سامية لها وظائف عليا كأستادار وامير سلاح وامير آخور وساق خاص (١) ثم ان برقوق اسس ما بين دمشق والقاهرة محطات لنقل الثلج الى مصر على ظهور الجمال (٢) . وافق جقمق (١٤٣٨ - ٥٣) - وهو من الممالك البرجية - في مدة ثلاث سنوات ثلاثة ملايين دينار على الرقيق الذي اشتراه والهدايا التي وزعها في الناس (٣) .

وبفتح العثمانيين لسورية ومصر اخذت كل فتوت الممالك الصناعية تضمحل . وقد ارسل السلطان سليم الى القسطنطينية عدداً من مهندسي البناء وحذاق الصنائع والنجارين . ولكن فرعاً واحداً هو الآجر المطلي أصبحت صناعته في العهد التركي افضل مما كانت عليه قبلاً كما يظهر من مجموعة الآجر الدمشقي المطلي المحفوظة في متحف سوث كنسنتون (South Kensington) بلندن . اما الاطباق المحفورة والطاسات والشعاذ واحص الزهر وسواها من انواع الآنية الفخامية المصنوعة اليوم في دمشق فانها تصنع بالاكتر على غرار الماذج المملوكية .

(١) القفص سي ج ٤ ص ١٨ وما يلي + القرمزي : المخطوط ج ٢ ص ٢٢٢ : الظاهري ص ١١٤ وما يلي ؛
Gautefroy - Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks* (Paris, 1923), pp. l. seq.

(٢) الظاهري ص ١١٧-١١٨ ؛ العري ص ١٨٤ وما يلي .

(٣) ابن قري بردي ج ٧ ص ٢٤٦ .

الفصل التاسع والأربعون

استثناء دور الممالك

كانت السلاطين البحرية أتركا أما البرجية فشركية باستثناء اثنين : نخستقدم (١٤٦١ - ٧) وبنمربغا (١٤٦٧) فهما روميان (١) وقد شدد البرجية أكثر مما شدد البحرية أنفسهم على عدم التسليم بقاعدة الاستخلاف الوراثي فالسلطان في عرفهم لم يكن إلا أميراً بين أمراء أكفاء والسلطة الحقيقية هي بأيدي قواد الجيش . ومن السلاطين البرجية الثلاثة والعشرين الذين طالت مدة حكمهم مئة واربعاً وثلاثين سنة (١٣٨٢ - ١٥١٧) ملك تسعة منهم مئة واربعاً وعشرين سنة . وهؤلاء هم برقوق وفرج والنويسد شيخ ورسباي وجقمق وإبنال ونخشدقم وقانقباي وقانصوه الغوري (٢) . أما الباقيون وهم أربعة عشر فقد كانوا كلهم تقريباً قليلي الأهمية وقد ملك منهم بالتتابع في سنة واحدة ثلاثة سلاطين . ولم يكن عهد قانقباي (١٤٦٨ - ٩٥) أطول عهد في هذه الدولة فحسب بل كان من بعض النواحي أعظم عهد وأكثره فلاحاً (٣) .

(١) ابن نوري بردي ج ٧ ص ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ .

(٢) بفتح الفين كما ورد على طبر مصنف منسوخ في (Moritz, Palaeography, vol. i, pl. 83) ما التهجئة المألوفة فيضم الفين .

(٣) لائحة الممالك البرجية :

١ (الظاهر سيف الدين برقوق ١٣٨٢	١١ (الظاهر سيف الدين جقمق ... ١٤٣٨
(الترغ ذاك منته حاجي البحري ١٣٨٩ - ٩٠)	١٢ (النصور قنر الدين عثمان ... ١٤٥٣
٢ (ناصر ناصر الدين فرج ١٣٩٨	١٣ (الاشرف سيف الدين إبنال .. ١٤٥٣
٣ (النصور عز الدين عبد العزيز ... ١٤٠٥	١٤ (المؤيد شهاب الدين أحمد ١٤٦٠
الناصر فرج (ثانية) ١٤٠٦	١٥ (الظاهر سيف الدين نخشدقم .. ١٤٦١
٤ (الحايفة العادل المستعين ١٤١٢	١٦ (الظاهر سيف الدين باباي ... ١٤٦٧
٥ (المؤيد شيخ ١٤١٢	١٧ (الظاهر بنمربغا ١٤٦٧
٦ (الناصر أحمد ١٤٢١	١٨ (الاشرف سيف الدين قانقباي. ١٤٦٨
٧ (الظاهر سيف الدين طاهر ١٤٢١	١٩ (الناصر محمد ١٤٢٤
٨ (الصالح ناصر الدين محمد ١٤٢١	٢٠ (الظاهر قانصوه ١٤٢٨
٩ (الاشرف سيف الدين ورسباي .. ١٤٢٢	٢١ (الاشرف جان بلاط ١٤٢٩
١٠ (المؤيد جمال الدين يوسف ... ١٤٢٨	٢٢ (الاشرف قانصوه الغوري ... ١٥٠٠
	٢٣ (الاشرف طوماني باباي ١٥١٦ - ١٧

نماذج من السلاطين البرميين

١ كل الماليك البرمجي ما بدأ به البحرية في الحقبة السابقة من أعمال الفتنة وسفك الدماء والنهب فكان عهدهم من اظلم عهود تاريخ مصر وسورية . وكان عدد من سلاطينهم بفساة سفاحين ومنهم من كان منقطاً سافلاً ولم يحرز اكثرهم شيئاً من الثقافة . فهذا المؤيد شيخ (١٤١٢ - ٢١) الكبير الذي كان من جملة من اشتراهم برفوق من تاجر شركسي قد افترف جسام الفياض (١) . وليس فيهم من كان ابوه مسلماً (٢) غير برفوق ، اما برسباي (١٤٢٢ - ٣٨) وهو من ممالك برفوق في الاصل فلم يكن يعرف اللغة العربية . ومن مساوئه انه امر بطبيبيه فقطع رأسهما حين تعذر عليهما شفاؤه من داء مميت . وهذا اينال (١٤٥٣ - ٦٠) وهو من ممالك برفوق ايضاً كان امياً يجهل القراءة والكتابة . وقد قال معاصره ابن تغري بردي (٣) : « ولعله كان لا يحسن قراءة الفاتحة ولا غيرها من القرآن العزيز » . وعلى طول مكثه في السلطنة فانه لم يهتد الى توقيع اسمه على المناشير والمراسيم الا بعد ان يرسم الموقع له رسماً خفياً عليها فيعيد هو على ذلك بالقلم . وقد انهم بحب الغلمان كما انهم يبرس قبله . وقد أحيا سلاطين الماليك عادة اقتناء الغلمان والقوا حياة الفسق التي فشت زمن العباسيين . اما بلباي (١٤٦٧) فلم يكن امياً فحسب بل مجنوناً (٤) . ثم ان قائلبسي (١٤٦٨ - ٩٥) الذي كان برسباي قد اشتراه بخمسين ديناراً ثم اعتقه جعق فانه امر بالسكياوي علي ابن المرشوشي ان تقلع عيناه ويقطع لسانه لعجزه عن تحويل نخب المعادن الى ذهب . ووضع ضريبة مرهقة على تجار الذرة زادت في بؤس الناس .

على ان الفساد لم يقتصر على السلاطين بل تعداهم الى جميع افراد الحكومة . وقد تفرق امراء الماليك وارقاؤهم شيعاً واحزاباً مختلفة متعادية نشأت اولاً في الحرس الخاص على دور برفوق وفرج وشيخ و برسباي ولم يكن هم الحزب الواحد الا الاستحواذ على كل ما في البلاد

(١) ابن تغري بردي ج ٦ ص ٢٢٢ وما يلي :

(٢) السوطي ، حسن الخافرة ج ٢ ص ٨٨ .

(٣) ج ٧ ص ٥٥٩ .

(٤) ابن تغري بردي ج ٧ ص ٨٣١ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ .

من ثروة وثقود .

ازدياد الحالة الاقتصادية سروراً

وزاد في سوء الحالة الاقتصادية انصراف السلاطين الى تطبيق سياستهم على مصالحهم الشخصية . من ذلك ان برسباني منع استيراد التوابل واليهارات من الهند ومنها القفل المرغوب كثيراً وقبل ان ترتفع اسعارها وضع يده على الكميات الموجودة منها في البلاد وباعها للناس باسعار ضخمت له ربحاً فاحشاً . كذلك احتكر صناعة السكر . وبلغ به طمعه ان حظر زراعة قصب السكر زمناً لكي يؤمن لنفسه ارباحاً طائلة . وفي زمنه اجتاحت الطاعون مصر والبلدان المجاورة وهو ضربة فكبت بها البلاد غير مرة . وكان السكر يؤخذ دواء خاصاً لعلاجه . ومع ان الطاعون لم يقتل مثل « الموت الأسود » الذي اصاب اوربا فقد توفي من جرائه فيها يقال نحو ثلاثمائة الف نفس خلال ثلاثة اشهر . وتخوف السلطان من الوباء فحسبه عقاباً من الله على انتشار المعصية في الناس واعتبر خروج النساء الى الاسواق والطرق علة ذلك البلاء فتعمن من ذلك (١) . وسمى الى التكفير عن سوء اعماله بوضع الضرائب من جديد على النصارى واليهود . واقصى غير المسلمين عن مناصب الدولة وأجري بحقيهم نظام ارتداء الملابس المميزة . وكان عدد من اسلافه قد نفذ هذه الاحكام بحق النصارى واليهود كما نفذها ايضاً جقمق وخشقدم (٢) . وضرب كثيرون من اسلاف اينال نقوداً من الفضة ناقصة وعمدوا في احيان كثيرة الى التلاعب بقيم المعادن الكريمة .

على أن الخريف لم يقتصر وقوعه على غير المسلمين . ولما كانت الحكومة لا تعرف نظاماً معيناً لجباية الضرائب فلم يكن لهؤلاء السلاطين سبيل الى جمع الاموال اللازمة لحملاتهم الخيرية ولا سرافهم الفاحش في البلاط وتبذيرهم المال في تشييد الابنية الكبرى الا باقتراضهم اموال الرعية ومصادرة اموال ذوي المناصب في الدولة الذين اتروا على حساب الجمهور . وفضلاً عن ذلك كانت قبائل البدو في الدش والمجرى شرقاً تُنير على الفلاحين الآمنين في مزارعهم في

(١) ابن تيمية بردي ج ٦ ص ٧٦٠ .

(٢) ابن تيمية ج ٧ ص ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ .

وادي النيل الضيق فيعم البلاد الخراب والدمار ، ثم ان الجراد كان كاللاوثة يزور البلاد بين
آن وآخر حتى كاد الجوع ان يصيح ضربة مزممة وتفاقم شره في سني الطاعون والجفاف
الثاني ، عن قلة الماء في النيل وفي زمن فرج وشيخ كثير موت الناس جوعاً . ويُقدر ان
سورية ومصر خسرتا من مجموع سكانهما في عهد المماليك نحو المئتين (١) .

وعرف البنية راتعة

وفي آخر هذه الحقبة دخلت بعض العوامل العالمية واخذت تزيد البلاد فقراً وتعاسة .
ففي سنة ١٤٩٧ دار الملاح البرتغالي فاسكوديه غاماً بحراً حول رأس الرجاء الصالح ، وكانت
هذا حادثاً خطيراً في تاريخ المملكة السورية المصرية اذ كثرت بعد ذلك غارات الاسطول
البرتغالي وسواه من اساطيل اوربا على سفن المسلمين في البحر الاحمر والمحيط الهندي . وليس
هذا فحسب بل تحولت تجارة التوابل وسواها من الحاصلات الاستوائية التي امتازت بها
الهند وبلاد العرب من المرافىء السورية والمصرية الى غيرها من المرافىء وبذلك نالني الى
الايد كذلك المورد الذي كان يدر على البلدين ايراداً كبيراً . وبعد ان اشتبك اسطول الغوري
مراراً مع سفن البرتغاليين قبالة ساحل الجزيرة العربية اندر الغوري اليابا بتخريب الاماكن
المقدسة النصرانية اذا لم يرتدع البرتغاليون عن شرهم فلم يجد الا انذاراً قليلاً . وفي سنة ١٥٠٠
ثبت البرتغاليون اقداسهم في كلكتا على الشاطئ الغربي من الهند وبعد ثلاث عشرة سنة
ضرب قائدهم النونسو دا البوكري (٢) بلدة عدن .

البنية راتعة

وكانت الحسنة الوحيدة في هذه الحقبة ظاهرة البناء - وكانها جاءت كفارة عن نقائص
الحكام - وتتمثل هذه الظاهرة في ابنية راتعة لا تزال باقية الى اليوم كدليل ناطق على روعة
هندسة البناء الاسلامية . منها جامع برقوق وضريح النخعي ومسجد قانتباي وجامع الغوري .

(١) قابل ابن تفرجي بردي ج ٦ قس ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) من « ابو القرف » العربية .

اما الجامع التذكاري الذي شاعه قاتباي فانه يحوي جامعاً وضريحاً وسبيلاً ومدرسة وفياعداً تألف
اللونين اللذين يزينان قبة - الاحمر والابيض - فانها مزخرفة بشبكة جميلة رائعة من اوراق



مدرسة قاتباي في القاهرة

النبات والورد مرسومة حسب الرقي المألوف حينذاك . وقد حافظ هذا البناء وغيره من ابنية
الماليك على التقليد المألوف من حيث الاناقة والقوة وهو التقليد الذي وضعت مدرسة الايوبيين
في سورية .

ولقد اتبع البرجيون العادة القديمة في تزيين المذبح الفنون الجميلة الفرعية بالكتابة العربية
المنمقة . وقد كان عصر قاتباي في هذه الصناعات كما كان فن الحارة اغنى عصور الماليك منذ
زمن الناصر ابن قلاوون .

المعوقات الأجنبية

وكان الماليك البرجية في علاقاتهم الخارجية أقل حظاً منهم في شؤونهم الداخلية . إذ قبل انتهاء دور ملكهم الأول بدا في الاقنى الشمالي شيخ غاز مغولي جديد في شخص تيمور الذي كان جديراً في ان يخلف هولاء كوجنكيز خسان . وكانت سورسة طوال هذه الحقبة عرضة لتورات قام بها احكامها الوطنيون يتحريض من المغول . وقد ظهر الآن عدا تيمور عدو فتاك اشد خطراً على المملكة هو بنو عثمان في الاناضول .

فتح قبرس

وكانت الناحية الوحيدة المنيرة في هذا العصر المظلم هي فتح برسباي لقبرس بين سنتي ١٤٢٤ و ١٤٢٦ . وكانت الغاية من الحملة المصرية على هذه الجزيرة في البحر المتوسط منع القرصان الذين كانوا يغيرون على المراكب السورية مراراً من اتخاذ مقر لهم فيها . وكانت قبرس في ايدي الاقريق منذ احتلها آشرد في عام ١١٩١ . وقد نزلها القربان الداوية اولاً ثم ابناء بيت لوسينيان (Lusignan) . ومن هنا فقد كانت حليفة قوية للصليبيين وخطراً دائماً يهدد الماليك . وفي عام ١٢٧٠ خرج بيبرس لأول مرة محاولاً الانتقام من اهل قبرس الذين كانوا يغيرون على ساحل الاسلام ولكن استطاع انكسر بالقرب من اللامسون (Limassol) . اما الآن فقد انفذ برسباي لفتحها طوائف قوية من غزاة المسلمين فأخذوا قلعة اللامسون ثم تقدموا حتى مدينة الافقسية (الافقوسية) وهي عاصمة قبرس فاستولوا عليها وغلبوا الجيش اللوسينياني واسروا ملكها جينوس (Janus) . ثم ركب الغزاة المراكب عائدين الى الديار المصرية ومعهم الاسرى والغنائم ومن جعلتهم الملك نفسه . ودخل جينوس واعلامه منكسة وخيله نقاد من وراء النشائم وبعده الاسرى وهم ازيد من الف . ومشى جينوس ومشى معه الامراء من الغزاة والحجاب ورؤوس النوب وهو يرف في قيوده لكثرة الزحام . فلما رأى متمالك قبرس السلطان وهو جالس على المقعد في موكنه قبلى الارض (١) . ثم غشي عليه وسقط الى

(١) كان المرء الحارفة الفاطمي اول من امر بتعيق الارمن بين يدي السلطان ثم قام برسباي فكان اول من

الأرض فحمل إلى القلعة . ولقد حضر ابن تغري بردي (١) بعدئذ فجلس جينوس الأسير وأورد وصف شاهد عيان لما كان من أمره . وانتهى الأمر أخيراً أن التزم قنصل البندقية وسواه من القناصل عن جينوس بالذل لعدائهم فقرر الصلح بعد أيام على أن يعود ممتلك قبرس إلى عرشه بعد أن يدفع للسلطان مئتي ألف دينار ويقدم في كل سنة عشرين ألف دينار جزية . وعقد برساي صلحاً مع رودس أيضاً التي كان فرسان القديس يوحنا فيها يناصرون أهل قبرس في غاراتهم على ساحل مصر . وقبرس هي كل ما بسط المائليك البرجية نفوذهم عليه طوال حقبتهم . على أن الجزيرة لم تكن شيئاً مقابل ما أضاعوه .

نيمور

ولد نيمور ملك سنة ١٣٣٦ فيا وراء النهر وكان أحد أسلافه وزيراً لابن جنكيزخان إلا أن امرته ادعت لها متحجرة من جنكيز نفسه . أما ابن عرشه (٢) الذي كتب سيرته وشنع الكلام فيه فيقول أنه وإياه من الفدادين ثم يضيف : « وقيل كان أبوه اسكافاً فقيراً جداً . ولما كان به من القلة اندفع إلى ارتكاب الجرائم فقي بعض الليالي سرق غنمة فضر به الراعي في كتفه بسهم فأبطلها وثنى عليه في فخذه بأخرى فأبطلها فإزاد كسره على فقره فسعى «ملك» أي «اعرج» . وفي سنة ١٣٨٠ سار على رأس أفوامه القتر فشرع في سلسلة حملات متواصلة الحلفاء فتفتح بها أفغانستان وبلاد المعجم وفارس وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغداد وفي مدة سنتين دوح أرض الرافدين . وفي تسكرت مسقط رأس صلاح الدين أنشأ هزماً من جماعه ضحايا . وحمل في سنة ١٣٩٥ على أرض قبايق واحتل موسكو فقام بها أكثر من سنة . وبعد ثلاث سنوات غزا الهند الشمالية وقتل ثمانين ألفاً من أهالي دلهي . وكانت رسلة هم الذين تجرأ برقوق في آخر عهده على الفتك بهم مع أنهم جاءوا في مهمة سلمية .

أمر بالكف عن ذلك وجعل يعله تعبيل اليد حتى ذلك اليوم ثم جعل يعله تعبيل الأرض ولكن بطريق آخر كان ينحى الرجل كالراية ويضع أطراف أصابع يده على الأرض ولا يقبلها بده أبداً ابن تغري بردي ج ٦ قسم ٢ ص ٩٠٠٠٠ .

(١) ج ٦ قسم ٢ ص ٦١٢-٦١٥ . ٦٢٠ .

(٢) عجائب المنصور في أخبار نيمور « (الطبعة ١٢٨٥) ص ٦٠٤ .

وفي سنة ١٤٠١ اكتسحت جيوشه سورية الشمالية واستولت على حلب واستباح تيمور
المدينة ثلاثة ايام نهباً واسراً وتقتيلاً وبنى من رؤوس القتلى المسلمين فيها تلالاً مستديرة محيط
الواحدة نحو عشرين ذراعاً وارتفاعها نحو عشرة وقد جعلت الوجوه فيها بارزة يراها من يمر
بها (١) وكان فيها ما يزيد على عشرين الف راس . وهدمت بعض بيوت حلب وهدم ما
فيها من مساجد ومدارس تعود الى عصر التورين والايوبيين . ثم رحل تيمور عنها الى جهة
دمشق فمر بحماة وحصن وبعليك فاخذها . وانهزم الجيش المصري الذي كان يقوده السلطان
فرج وسقطت دمشق بأيدي التتر بعد ان دافعت قلاعها شهراً . واقام تيمور في دمشق
وسبأ اهلها واحرق عمارتها حتى سقطت سقوف جامع بني امية من الحريق وزالت ابوابه
ولم يبق غير جذره قائمة (٢) . ولما كان تيمور يدعي الاسلام ويتولى الى مذهب الشيعة فقد
ارغم العلماء على ان يفتوا باستحسان تصرفه في دمشق . واخذ طائفة من خيرة علماء دمشق
وحذاق صناعاتها وفنانيتها فحملهم معه الى عاصمته سمرقند وبذلك انتقلت اليها طائفة من الفنون
الفرعية التي فقدتها العاصمة السورية منذ ذلك الحين . ولقد خاف لنا ابن تغري بردي (٣)
الذي كان اوجه مقدم حاملي السلاح للسلطان فرج صورة رائدة تيمور هذه . اما ابن
خلدون فانه رافق فرجاً من القاهرة وتصدر الوفد الذي انقذه الدمشقيون للمفاوضة مع تيمور
في السلم . واخيراً غادر هذا القابع الفاسم دمشق مسرعاً الى بغداد يثأر من اهلها لقتلهم بعض
رجالهم فنكل بهم تنكيلاً وفكك بخلق كثير وبنى مئة وعشرين برجاً في انحاء المدينة من
رؤوس القتلى .

وفي السنتين التاليتين زحف تيمور على آسية الصغرى ف سحق جيش العثمانيين عند اقرة
(٢١ تموز ١٤٠٢) واخذ السلطان بايزيد الاول اسيراً . واستولى ايضاً على عاصمتهم بروسيا
وعلى الزمير . وحمل الاسير العظيم فكان يكبل بالقبود في الليل ويسار به في هودج على

(١) ابن تغري بردي ج ٦ قسم ٢ ص ٥٢ .

(٢) ابن تغري بردي ج ٦ قسم ٢ ص ٦٨ .

(٣) ج ٦ قسم ٢ ص ٥٠١ وما يلي . قابل ميرخواند تاريخ روضة العناء (طهران ، ١٢٢٠)
الكتاب السادس .

حصانين يحيط به قضبان الحديد « قفص » . وقد أدت لقطة قفص وعبارة أوردها ابن
عرشاه (١) لم يفهمها البعض الى اسطورة مغلوطة بان بايزيد انما حبس في قفص من حديد
وكان حسن طالع دولة المالك ان مات تيمور بعد سنتين (١٤٠٤) في اناء زخفه شرقاً
لتحقيق أمنية اعظم الا وهي فتح الصين ولا يزال قبره معروفاً الى اليوم في سمرقند .

التيموريين

ودارت بين ابنه شاه رخ (١٤٠٤ - ٤٧) الذي خلفه وبين برساي مراسلات عنيفة
ادعى فيها الاول انه نذر ان يكسو الكعبة بالكسوة الشريفة وطلب الى برساي ان يبعث
اليه من يستلم الكسوة . ولما كانت هذه من حقوق المالك الذين كانت لهم السيادة بين امراء
الاسلام فقد عقد السلطان مجلساً بين يديه بالقضاة الاربعة بسبب نذر شاه رخ ابن تيمور
وبعد مشاورتهم ارسل الى شاه رخ جواباً فحواه ان اراد الملك وفاة نذره فليبع الكسوة
ويتصدق بشئها على فقراء مكة (٢) . ولكن شاه رخ انفذ رسولا آخر معه خلعة لبسها
السلطان على انه نائب عنه في ولاية مصر . فأمر برساي بالخلعة فزقت تمزيقاً وبالرسول فضرب
ضرباً مبرحاً وسحب الى بركة ماء بالاسطبل فلقى فيها منكوساً . وكان ذلك اليوم شديد
البرد وكان ابن تقري بردي (٣) من الذين شاهدوا هذه الحادثة عياناً . وافنى بنو تيمور بعد شاه
رخ قواهم في الفتن الداخلية التي مهدت السبيل لقيام الصفويين وعودة الامبراطورية العثمانية .

الترك العثمانيون

ولقد سبقت الاشارة الى ان اصل الترك العثمانيين في بلاد المغول واختلاطهم بالقبائل
الارمنية في آسية الوسطى والى نزولهم آسية الصغرى حيث حلوا تدريجياً محل ابناء عمومتهم
السلاجقة واذا بهم في كيانهم حتى اذا جاء مطلع القرن الرابع كانوا قد اُنشأوا مملكة كتب
لها ان ترث الامبراطورية البيزنطية والخلافة العربية . وكان بايزيد الاول (١٣٨٩-١٤٠٢)

(١) ص ١٤٦ .

(٢) ابن تقري بردي ج ٦ قسم ٢ ص ٧٢٢ - ٧٢٥ .

(٣) ج ٦ قسم ٢ ص ٧٤٣ .

ابن حفيد عثمان (١٢٩٩ - ١٣٢٦) مؤسس الدولة . وفي عهده ضاعت المنطقة الاسيوية من يد الترك بأسرها وكانت تمتد من الحدود السورية الشمالية الى الدانوب . ولكن محمداً الاول (١٤١٢ - ٢١) استرجع في السنين العشر التالية هذه المنطقة من اوربا واعادها قاعدة للملكة . ثم ان المشكلة العثمانية جابهت سلاطين مصر بصورة مقلقة في زمن بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) وهو ابن حفيد بايزيد الاول - ومعاصر قائلباي . وقامت العداوة بين الجانبين حتى ظهرت الى حيز الوجود في شكل مناوشات وقعت بين العمال التابعين لها على حدود آسية الصغرى وسورية وفي سنة ١٤٨١ تولد لقائلباي مشكل جديد اذ سمح لابني بايزيد الثاني المدعو جم بالالتجاء الى مصر وكان جم يدعي عرش آل عثمان . ثم رحل جم هذا الى رومنة ففاوض سلطان المماليك ايضاً البابا في امر ارجاعه الى مصر . فسير ان اتساع الخرق بين الترك والمماليك يرجع الى سبب مباشر هو أن فانصوه الغوري عقد تحالفه سرية مع عدو الترك اللدود شاه اسماعيل الفارسي (١٥٠٢ - ٢٤) .

الصفويون

اما اسماعيل هذا فهو مؤسس الدولة الصفوية (١٥٠٢ - ١٧٣٦) وهي اعظم دول المسلمين الفرس وأكثرها مجداً . ويرجع اسمها الى الشيخ صفي الدين الذي كان اسماعيل هذا سادس خلفائه . وارجعت الاسرة أصلها الى الامام السابع موسى السكاظم وكانت شريعة شديدة الحراسة في عقيدتها وقد اعلن مؤسسها لدى ارتقائه العرش مذهب الشيعة (وبنوع أخص الاثني عشرية) ديناً للدولة الفارسية وهي لا تزال عليه الى الآن . اما اشتباكه الحربي مع سليم الاول (١٥١٢ - ٢٠) العثماني السني ابن بايزيد الثاني فقد وقع في ٢٣ آب سنة ١٥١٤ شرقي بحيرة ارمية حيث انهزمت فرسانه امام الانكشارية (١) وقد تفوقوا عليه بفضل مدفعيتهم القوية ثم احتل الترك تبريز عاصمة اسماعيل والعراق وقسموا من ارمينية (١٥١٥) .

(١) بني تيموري في التركية اي جنود جديدة وهو اسم اطلق على الشاة النظامية واكثرهم في الاصل من اطفال النصارى الذين كان اولياء الامر العثمانيون يقبضون عليهم . وقد كانوا عمدة الجيش في الفتوحات العثمانية .

معركة مرج دابق الخامسة

وفي ربيع السنة التالية سار قانصوه الغوري - وكان في أصله عبداً لقبايقباي - إلى حلب بحجة التوسط بين الفريقين المتحاربين ولسكنه كان في الواقع يسعى إلى إيجاد حليلة الفارسي . ولكي يفعل مهمته ذات صفة سلمية اصطحب معه المتوكل ، الخليفة بالاسم ، ورؤساء القضاة في مملكته . غير أن هذه الحيلة لم تنطل على السلطان سليم فقد كانت له شبكة تجسس وكانت تصله أخبار سلطان المماليك من عيون وجواسيس الذين بنهم حوله . وما لحق رسول قانصوه بمعسكر سليم خلقت لحيته ، وهي اهانة عظمى ، وأرسل على بغلة مرفوقاً بإعلان الحرب . أما مرفوقه فاعدموا . ولم تكن هناك وسيلة بيد قانصوه لتجنب الكارثة . ومع أن قانصوه كان يومئذ يهاجر الخامسة والسبعين فإنه كان لا يزال شيطاً وقد برهن طوال ملكه على شيء من القدرة بيد أنه لم يجد إلى الاعتماد على ولا ، حكماء في شمالي سورية سبيلاً ولا على مناصرة كثير من أمراء المصريين .

وفي ٢٥ آب سنة ١٥١٦ التقى الجيشان في مرج دابق على مسيرة يوم من حلب شمالاً وعهد قانصوه بقيادة ميسرته إلى خاترك حاكم حلب الخائن ولم يصمد ينشب القتال حتى يادر هذا إلى الخزيمة مع جنده . ولم يلبث قانصوه الشيخ است انقلاب من على جواده ومات لسانه بداء السمكة (١) . وكان ظهر العثمانيين باهراً . وقد امتاز الجيش التركي بمدته الحديثة من آلات الرمي والبندقيات وسواها من الأسلحة ذات المرمى البعيد التي لم يكن مثلها عند المصريين وكان جيش المماليك يضم أفواجا من البدو السوريين ممن لا عهد لهم بمثل هذه الأسلحة . وقد جرى الترك على استعمال البارود قبل ذلك العهد ، أما السوريون والمصريون فقد احتفظوا بنظرتهم القديمة التي تذهب إلى أن البطولة الشخصية هي العامل الحاسم في القتال ودخل السلطان سليم مدينة حلب ظافراً فاحتل به أهلها واعتبروه منقذاً من فظائع المماليك . وأحسن السلطان العثماني إلى الخليفة . ثم أنه وجد في قلعة حلب كتورا طائفة تقدر بتلابين الدنانير كان سلطان المماليك وأمر أوزم قد اخزنوها فيها ، وحوالي منتصف تشرين الأول زحف

على دمشق واستولى عليها وكان أكثر قوادها قد انضموا اليه. بينما التجأ الباقون الى وادي النيل. وبذلك انتقلت سورية الى ايدي العثمانيين حيث ظلت طوال اربعة قرون.

فتح مصر

ومن سورية زحف القائد العثماني جنوداً فدخل مصر. وكان طومان باي مملوك قانصوه قد أصبح سلطانها. والتقى الجيشان خارج القاهرة في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٥١٧ ودافع طومان باي اول الامر دفاعاً عظيماً ولكن الفساد الذي كان قد دب الى جيشه والتحاسد بين الاعزاء وفقدان المال وقلة الاسلحة النارية وتفوق المدفعية العثمانية - كل هذه - كان لها اثرها في تقرير مصير العراق. واخيراً تم تسليم - تسانده افواج البدو - ان يدخل القاهرة ويعمل فيها النهب وقد قتل كل من وقع يديه من المماليك. والقوت مدافعه من ضفة النيل فذاتقها على من تبقى من الجيش. وهرب طومان باي لاجئاً الى احد زعماء البدو. ثم غدريه وشنق (١٥ نيسان) على احد ابواب المدينة (١). وبهذا تحطمت سلطنة المماليك الى الابد. وأفل نجم القاهرة عاصمة الاسلام الشرقية منذ ايام صلاح الدين واصبحت مدينة من مدن الامصار. وانضمت مكة والمدينة طوعاً الى الامبراطورية العثمانية. وخطب خطباء الجوامع من على منابر مصر قائمين: « وانصر اللهم السلطان ابن السلطان مالك التبرين والبحرين وكاسر الجيوش وسلطان العراق وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصراً عزيزاً وافرحه فرحاً مبيناً يا مالك الدنيا والآخرة رب العالمين ». (٢)

الحموة العثمانية

وبعد ان لبث القناخ العظيم في وادي النيل حتى خريف السنة وزار الاهرام والامسكندرية واماكن اخرى شهيرة عاد الى القسطنطينية وهي عاصمة العثمانيين منذ سنة ١٤٥٣ مصطحباً الخليفة الشوكل. واقامت على الخليفة بعدئذ تهمة التلاعب باموال ائمن عليها فسيق الى

(١) ابن نياس ص ١٢٩ وما يلي.

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٠.

السجن ولم يسمح له بالعودة الى القاهرة حتى عهد سليمان القانوني ابن سليم وخليفته، وفيها مات عام ١٥٤٣ . وبوفاته ختم آخر فصل في تاريخ الخلافة العباسية المشرقية . وسواء أصبحت الدعوى القائلة انه اوصى بالخلافة الى السلطان العثماني ام لم تصح فالواقع هو ان امير القسطنطينية التركي اكتسب تدريجياً امتيازات الخلافة ثم اتخذ أخيراً لقب الخلافة نفسه . ومع ان بعض خلفاء سليم تسموا بالخلفاء وخطبوا بقب الخلافة فان هذا اللقب لم يكن الا من قبيل التيجيل ولم يعترف به خارج مناطق نفوذهم . واول وثيقة دبلوماسية معروفة اشير فيها الى السلطان العثماني بقب الخلافة واعترف فيها بسايطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هي المعاهدة الروسية التركية الموقع عليها في كوشوك كينرجي عام ١٧٧٤ .

واصبح الآن سلطان القسطنطينية الخليفة اعظم ملوك الاسلام ولم يكن وريثاً لخلفاء بغداد فحسب بل كان ايضاً وريثاً للأباطرة بيزنطة . وبتخليم سلطة السالك وتوطيد اقدام الترك على البوسفور انتقل مركز الاسلام غرباً . والواقع ان مركز الحضارة العالمية كان قد انتقل في هذا الزمن ايضاً الى الغرب حيث ان اكتشاف امريكا والطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح حدا الى ان تسلك التجارة العالمية في خطوط جديدة ، فأخذت البلدان الواقعة في شرقي البحر المتوسط تخسر مركزها الخطير واخذت تنهار . وهنا ينتهي تاريخ الخلافة العربية والدول الاسلامية التي نشأت في العصور الوسطى على انقاض الامبراطورية العربية . ويبدأ التاريخ الحديث لامبراطورية الخلفاء العثمانيين .



القسم السادس
تحت الحكم العثماني

THE
LIBRARY OF THE
MUSEUM OF NATURAL HISTORY
AND
ZOOLOGY
OF THE
CITY OF BOSTON

الفصل الخمسون

البلاد العربية تصبح أقاليم تركية

تأسست الدولة العثمانية في الأناضول حوالي سنة ١٣٠٠ على انقاض المملكة السلجوقية وعلى حساب الامبراطورية البيزنطية . ومر على تأسيسها نحو ثلثي قرن لم تكن في اثنائها سوى اماراة على الحدود فحسب (١) . وظلت هذه الدولة طيلة هذه المدة في حالة حشد عام خوف الحرب وكانت في بعض الاحيان عرضة للخطر وكانت عاصمتها منذ سنة ١٣٢٦ مدينة بروسا (برسا) وفي سنة ١٣٦٦ أصبحت اركان الامة اكثر ثباتاً . وغنمت الامة قطعة من الارض الاوربية اضافتها الى ممتلكاتها وضمت هذه كلها بحيث أصبحت مملكة عاصمتها ادرنة (٢) . وقد كان احتلال محمد الثاني الفاتح (١٤٥١ - ٨١) للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ فاتحة عصر جديد هو عصر الامبراطورية . وقد تركز هذا الجبار الجديد على حافتي البوسفور

(١) جدول النسب للحكام العثمانيين الاول :

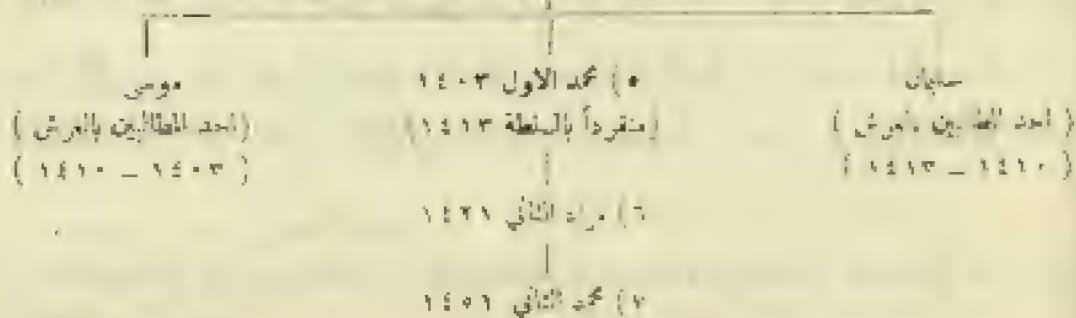
١ : عثمان الاول ١٢٩٩

٢ : اورخسان ١٣٢٦

٣ : مراد الاول ١٤٥٩

٤ : بايزيد الاول ١٣٨٩ - ١٤٠١

(٢) رجال الدور الثاني :



واضعاً قدماً في آسية واخرى في اوربا . وقد جعلته مملكته المتسعة وريث بيزنطة . وليس هذا فحسب بل استطاع بعد ان قضى على سلطة المليك (١) ان يصبح وريث الدول التي خلفتها في البلاد العربية . وقد لازم هذا الارث السياسي الذي تحدر الى الدولة الجديدة ارث آخر فكري يقابله ولعل هذا التراث المزيج قد حل في ثيابه اهم الحقائق وأعقبا في تاريخ تركيا العثمانية .

افريقيا الشمالية

واخذت دول عربية اخرى في القرن السادس عشر تدخل في حظيرة اهللال التركي ، وكانت اولها الجزائر . ففي سنة ١٥١٨ وهي السنة التالية لفتح مصر هاجم خير الدين بربروسا واخوه بلاد الجزائر - وكانا قرصانين عثمانيين يونانيين الاصل - واجلبا الأسباب عنها ومنحاهما ثياب العالي فكافأ الياب العالي خير الدين في ان منحه لقب « بيلاربي » (٢) . وافتتح خير الدين عهد ارسقراطية عسكرية قوامها الفرقة الانكشارية ونظم كذلك لاسطان اسطولاً تام العدة فيه رجال متمرنون قد مارسوا الحروب اكثرهم من النصارى المارقين من ايطاليين ويونان . وكان هذا الاسطول على اتم الاستعداد لتنفيذ سياسة الاحتلال او الفتح في جميع انحاء البحر المتوسط . ونشر هذا الاسطول الرعب من الاتراك وحمله غرباً حتى شواطئ اسبانية بينما نقل الانكشارية الرعب شرقاً حتى شواطئ دجلة . وهكذا تمركز جاز خطر غربي تونس (افريقية الرومان) . وكانت هناك خصومة في تونس حول الاستخلاف على العرش التونسي فاجتمعت خير الدين الفرصة واحتسل تونس موقتاً سنة ١٥٣٤ والسكن البلاد لم تخضع بكلبيتها للاتراك او تصبح ايلة تركية الا بعد ذلك باربعين سنة . فقد سار اليها عند ذلك سنان باشا على رأس قواته البرية واخضعها . وكان سنان باشا قائداً ممتازاً من أصل الباني . وكان في سنة ١٥٦٨ - وهو حاكم مصر - قد سیر حملة على بلاد

(١) انظر ص ٨٢٩ من هذا الكتاب .

(٢) لفظة « بيلاربي » من « بيليك » التركية الشرقية وهو لقب شرف لا يزال مستعملاً في ايلانها في بعض البلاد العربية لاسبانيا في مصر .

العرب الجنوبية وأخضع اليمن وأضافها إلى ممتلكات بني عثمان (١). وكان يبري رئيس وهو أمير بحر تركي من أصل مسيحي فيما يرجح وقد قام ببعض الأعمال الخيرية قبل سنة ١٥٥١، وتعد حتى رأس الخليج الفارسي. وفي خارطة له اكتشفت حديثاً وهي الخارطة المعروفة بخارطة كوليس يظهر المحيط الأطلسي وأميركا (٢). وكان الحاكم في تونس أول الأمر يدعى «باي» وظل الحكم يتمتعون بهذا اللقب ثم أصبح الحاكم بعد ذلك يدعى «داي» (٣). وظلوا كذلك أكثر من قرن بعد ١٧٠٥. وكان سنان باشا وإثنان آخران من أمراء الجيش الأتراك قد أخرجوا فرسان القديس يوحنا (المالطيين) من طرابلس الغرب قبل انتهاء الحكم الإسباني والحكومات الوطنية في تونس. وقد استطاعوا في سنة ١٥٥١ أن يحتلوا مدينة طرابلس نفسها. وقد اكتسبت هذه المدينة اسمها من ثلاث مستعمرات قرطاجية كانت هي والأراضي المجاورة تشكل مقاطعة طرابلس (ترونتانيا) التي حكمها روماً. وكان عنصر البربر فيها أضعف عنصر. وهكذا دخلت دول البربر (٤) في حضيرة الدولة العثمانية ما عدا مرا كش الجبلية (الغرب الأقصى - موريتانيا الرومانية تقريباً) التي كان نصف سكانها «لو أكثر بربراً». والظاهر أن نسبة البربر بين السكان بوجه عام تزيد كلما اتجهت غرباً أو جنوباً.

(١) فابسل، Joseph von Hammer, *Geschichte des osmanischen Reiches*, vol. iii, (Pest, 1828), p. 551: وقابل أيضاً فعل الدين للكي البرق العاني في القصة العثمانية. ترجمة سلقه ده ساسي في: *Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale*, vol. iv (Paris, 1791-6), pp. 468 seq. وراجع أيضاً عن اليمن: حسين العريشي، «توقع الترم في شرح ملك الحتام»، نشر انشاس الكرملي، (القاهرة، ١٩٣٩)، ص ٥٠-٥٠.

(٢) Paul Kahle in *The Geographical Review*, vol. xxiii, (1933), pp. 621-38: وقابل حجي خلفه ج ٢ ص ٢٢-٢٣ وراجع *Plei Be'is, Hahsiyah*, ed. Paul Kahle, 2 vol. (Berlin, 1926). (٣) من «داي» التركية بمعنى خال.

(٤) كان البربر يطلقون اللفظة بربري على كل الشعوب التي يعيش خارج نطاق الحضارة اليونانية. وأطلق الرومان هذه اللفظة على الحضارة الواقعة غربي مصر.

وقد أصبحت طرابلس وتونس والجزائر في ذلك العهد مراكز حكومات أقليمية تابعة بالاسم للباب العالي ولكنها في الواقع شبه مستقلة . وظلت مدة طويلة وعلى كل منها حاكم من أهل البلاد أو من الذين استوطنوها . وكان الحكم ينتقل بطريقة الوراثة الى ذرية الحاكم نفسه . وكانت الحكومات في هذه المقاطعات الثلاث تحت سيطرة عسكرية فردية . وكانت الطريقة التي يظهر بها الحاكم الفرد الوطني اعترافه بحق الباب العالي في السيادة هي إرسال نوع من الجزية كل سنة ، ولكنها كانت في الاكثر ترسل بشكل هدية . وكانت تنشب في هذه الدول أحياناً فتن داخلية يثيرها عمال اخصاء للعثمانيين . وقد حكم طرابلس من سنة ١٧١١ الى ١٨٣٥ اسرة قرمانلي . وكان ضعف الاسطول العثماني ابتداء من القرن السابع عشر فيما بعد داعياً الى تقاض نفوذهم في المقاطعات الافريقية بحيث أتاحت الفرصة لحكام هذه المقاطعات باشوات كانوا أو بايات أو غير ذلك ان ينالوا قطعاً اوفر من الحكم الذاتي ويصبحوا أكثر استقلالاً من زملائهم في مصر وسورية .

دول القراصنة

وتطورت هذه الدول مع الزمن الى دول قرصنة وكانت أعمال القرصنة موجهة بنوع خاص ضد التتاري . وقد ظهرت اول الأمر بشكل جهاد ثم أصبحت كالجندية مهنة خاصة وكانت هذه المهنة تعود بالربح على الحكومة والشعب معاً . وكانت تفرض ضريبة خاصة على الاسرى والغنائم فيحتفظ بالاسرى حتى يُفقدوا أو يباعوا ارقاء . وقد ظل الدخول من هذه القرصنة طيلة نحو ثلاثة قرون المصدر الرئيسي لواردات الخزينة في الدولة . وكانت مراكز القرصنة في بعض الأحيان تشترك كوحدات مع الاسطول العثماني . ودخل كثير من المتقنين (١) من اسبانية في صفوف القراصنة في البحر الابيض وعانوا فساداً فيه وتشرروا الرعب (٢) . وبانت هذه الحركة اشدها في النصف الاول من القرن السابع عشر وغمرت شواطئ ايطاليا

(١) انظر من ٦٤٩-٦٦٠ من هذا الكتاب .

(٢) الاستزادة راجع : Stanley Lane-Poole, *The Story of the Barbary Corsairs* (New York, 1891).

وفرسا واسبانية . واخذت تقوم انكلترا وفرنسا في النصف الثاني من القرن المذكور بعمليات بحرية استطاعتا اثرها ان تفرض على القراصنة احترام رايتهما . اما الدول الصغرى فقد ظلت تشتري سلامة رعاياها ونجارتها بحرية سنوية ، ولم تكن هذه السلامة راهنة او مضمونة في كل الاحوال . وهكذا كانت الحال مع هولندا والدمرك واسوج ، حتى الولايات المتحدة قائما التمسّت السلامة بدفع الجزية واضطرت في سنة ١٧٨٣ أن تدخل في حرب مع الجزائر المقر العام لقراصنة البحر . وفي سنة ١٨٠١ اصر « داي » طرابلس القرمانلي على ان تزيد الولايات المتحدة الجزية التي كانت تدفعها سنويا منذ سنة ١٧٩٦ وهي ٨٣ الف ريال ونتج عن اصراره هذا حرب دامت اربع سنوات . وفي سنة ١٨١٥ جاء الى طرابلس اسطول عدائي آخر من اميركسا وكانت هذه العمليات والاشتباكات البحرية مع دول البربر من العوامل التي ساعدت على تقوية الاسطول الاميركي .

عظمى الفسطاطية

كانت اكثر الفتوحات في افريقيا الشمالية قد تمت في عهد سليمان الاول (١٥٢٠ - ٦٦) وهو ابن فاتح سورية ومصر . وكان سليمان هو العاهل الذي بنيت الامبراطورية العثمانية في ظله اوج مجده (١) . ففي عهده اخضعت اكثر بلاد هنغاريا وحوسرت قينا وفتح رودس . وامتدت السطة العثمانية من بودابست على نهر الدانوب حتى بغداد على نهر دجلة ومن القرم حتى شلال النيل الاول ، وهي اعظم دولة اسلامية في العصور الاخيرة . وليس هذا فحسب بل

٢ | محمد الثاني ١٤٤١

٣ | يزيد الثاني ١٤٥١

٤ | سليم الاول ١٥١٢

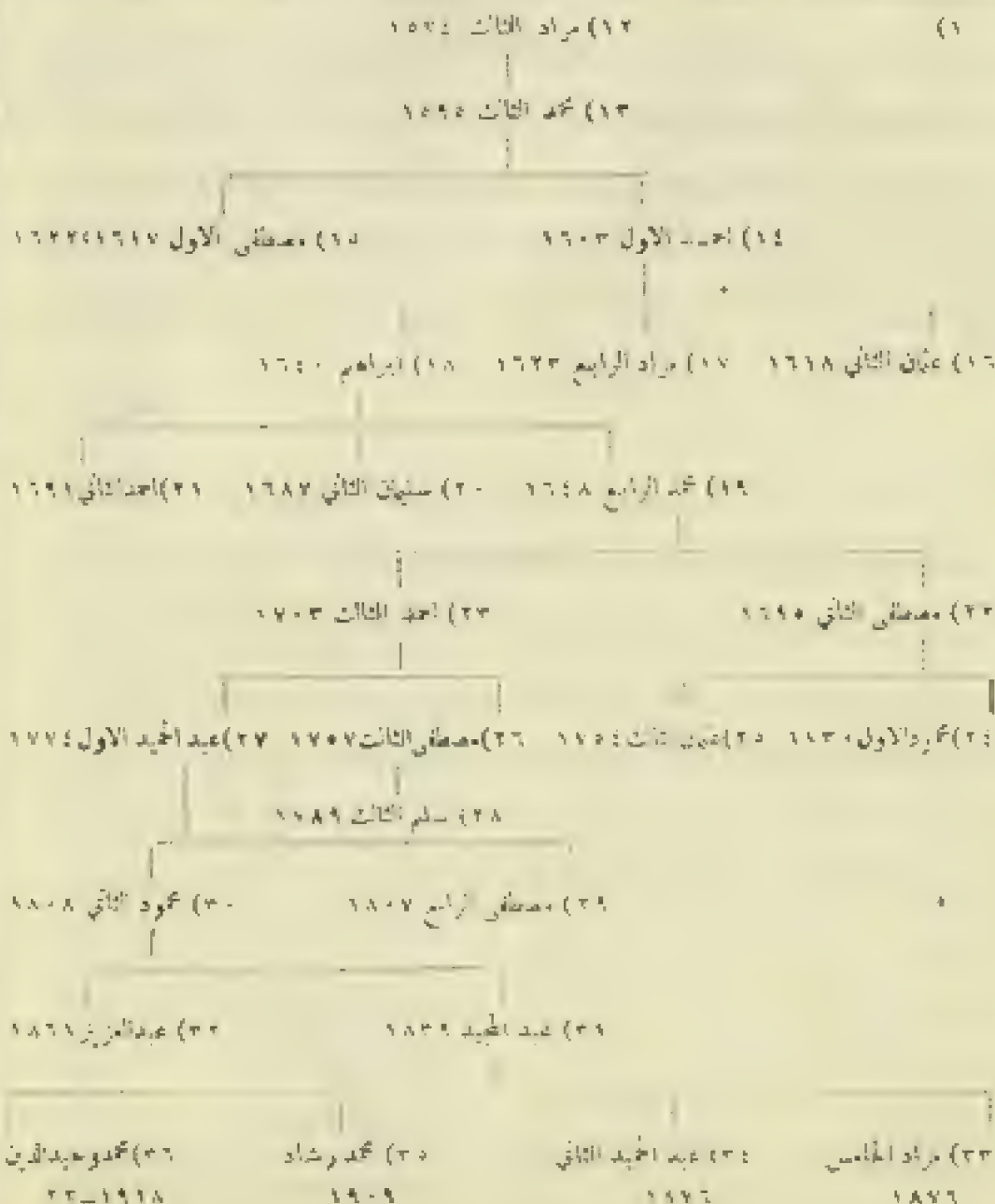
٥ | سليمان الاول ١٥٢٠

٦ | سليم الثاني ١٥٦٦

٧ | مراد الثالث ١٥٧٤

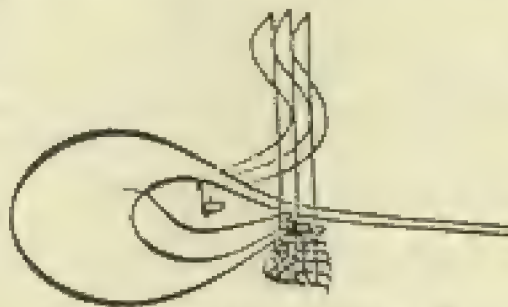
كانت هذه الدولة من أطول الدول الإسلامية عمراً . فقد تتابع على عرش الملك فيها ما لا يقل عن ستة وثلاثين من السلاطين وقد تحددوا جميعاً من عدنان عن طريق آبائهم وملكوا من سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٩٣٢ (١) .

وأخيراً أصبح سليمان معروفاً عند بني قومه بـ « القانوني » وهو لقب رفيع وذلك للتقدير



الذي نالته الشرائع التي قرنت باسمه (١) من أبناء الأجيال اللاحقة . وقد عهد الى ابراهيم الحلبي (١٥٤٩) في وضع كتاب في الشريعة هو ملتقى البحر . وقد ظل هذا الكتاب العمدة في امور الشريعة العثمانية حتى عهد الاصلاحات التي تمت في القرن التاسع عشر (٢) .
لما الأوربيون فقد عرفوا هذا الماهل باسم سليمان الكبير وقد كان كبيراً حقاً وكان بلاطه دون نزاع من أفخم البلاطات في أوربا وآسية . وانظر اليه كيف يكتب الى فرنسيس الاول ملك فرنسا :

« انا سلطان السلاطين وملك الملوك مانح التيجان للملوك على وجه البسيطة ظل الله في الأرض . سلطان البحرين الأبيض والأسود وخاقان التبرين وملك الرومي والآناضول وبلاد انكرمنا وبلاد الروم وراكندرية وديار بكر وكرديستان وأذربيجان وفارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة والقدس وكل البلاد العربية واليمن وبلاد كثيرة اخرى افتتحها آياي الاشرف واجهادي الامجاد نور الله مراقدهم بقوة سلاحهم وجملتهم جلالي المعظمة تابعة لسيدي المنسوب ومهتدي لمنتصر انا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان أبعث اليك انت فرنسيس ملك بلاد فرنسا » (٣) .



سيف يحمل اسم السلطان سليمان الكبير

وقد زين سليمان عاصمته وأنشأ فيها وفي كثير من المدن الاخرى الجوامع والمدارس والمستشفيات والملاجئ ، والجسور والأقنية ومحطات القوافل والحمامات العامة . وقد بنى من الحمامات سنان مهندسه انفاص وحده مئتين وخمسة وثلاثين . وكان سنان

(١) M. Cavid Baysun , « El-Essau ud Elendi » , *Islam Archaeological* . (٢) Hitti, *History of Syria Including Lebanon and Palestine* (Macmillan, 1930) p. 664 . (٣) Roger B. Merriman, *Suleiman the Magnificent* (Cambridge, 1911) p. 130 .

نصراني الأصل من الأياضول وقد نزل القسطنطينية مع من نزلها من المماليك النصارى العثماني (١) فما لبث أن أصبح المجمع مهندس انجنيته تركيا . وكان أروع ما تخلف عنه من البناء الجامع الكبير المعروف بالسليمانية تخليداً لاسم صاحبه . وكانت غايته أن يجعله أعظم من جامع اياصوفيا . وقد زاد ارتفاع قبة العظمى على قبة كاتدرائية يوستنيان بنحو خمسة أمتار . وقد زين المحراب والحداد الخلفي بالحرف الجليل على الطريقة الفارسية . وبينما كانت الأنوار تنير المدينة على اليوسفور كانت المدينة ذات المجد القديم ودمشق وبغداد والقاهرة - العواصم السابقة للإمبراطوريات العظمى والمراكز اللامعة للثقافات المختلفة - مقرات للحكام الإقليميين والحاميات المساحة المرسلات من القسطنطينية تلك المدينة نفسها التي وقف أمام أسوارها في أربع مناسبات تاريخية سابقة جيوش عربية تهددها من الشام وبغداد .

الاندلس العثمانية

كانت الثقافة التركية بكليتها مزيجاً عجيباً من العناصر المتنوعة المتباينة فقد أخذ الترك عن الفرس كثيراً من الموضوعات الفنية والاصطلاحات الأدبية وبعض الأفكار السياسية كتمتعهم الملك مثلاً وكانت لهم بهم صلة حتى قبل هجرتهم إلى غربي آسية . وكانت مما منحتهم إدانة آسية الوسطى للترك النزعة للحرب والفتح والميل للاختلاط بالآخرين والامتزاج بهم (٢) وقد انتقل إلى الترك أيضاً من البيزنطيين عن طريق سلاجقة الروم بعض المؤسسات الحربية والحكومية . ولكن العرب كانوا قبل الجميع معطي الأثر كما كان اليونان معطي الرومان . فقد أخذ الترك عن العرب علومهم ودينهم بما فيه من المبادئ الاقتصادية - الاجتماعية والنمراذج المقدسة ، وأخذوا أيضاً الحروف العربية للكتابة فظلت شائعة حتى سنة ١٩٢٨ بينما لم يكن الأثر في آسية الوسطى سوى اليسير من الأدب النثري وكانوا يكتبونه بالحرف السرياني الذي أدخله النصارى السوربون إلى تلك البلاد . وباعتناق الترك دين الإسلام

(١) انظر ص ٨١٩ من هذا الكتاب .

(٢) Albert H. Lybyer, *The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent* (Cambridge, 1913), p. 18.

واقترعهم الحروف العربية انتقل اليهم من اللغة العربية الوف الاصطلاحات الهندية والعلمية والشرعية والأدبية . ولا يزال كثير من هذه الاصطلاحات في قلب اللغة التركية رغم المحاولات القومية الأخيرة لإخراجها منها . وكانت لتترك آثار مبتكرة هامة في ثلاثة ميادين خاصة : ميادين السياسة وميادين هندسة البناء وميادين الشعر .

نظام الامبراطورية

كانت الامبراطورية العثمانية كلاً من امبراطورية الرومانية والامبراطورية العباسية من قبل عسكرية في جوهرها تركز على الأسرة في كيانها ونظامها . وكان الهدف الرئيسي فيها ليس مصلحة الرعايا بل مصلحة الدولة كما تمثل بشخص السلاطنت الخليفة . وكانت الرعايا في الدولة مجموعة متنوعة من أبناء القوميات والبلدان المختلفة من عرب وسوريين وعراقيين ومصريين وبرزبر وكرد وارمن وسلاف ويونان والباينيين بادياهم المختلفة ولغاتهم وطرق معيشتهم المتباينة وكان يجمعهم معاً سيف عثمان . حتى الفلاحون الاتراك فقد كان يمكن اعتبارهم من طبقة الرعايا ذلك انهم كانوا يختلفون عن افراد الطبقة الحاكمة الذين كانوا يؤثرون ان يدعوا بالعثمانيين (عثماني) . وظل الاتراك انفسهم وجه عام اقية مسيطرة في مملكتهم الواسعة الاطراف دون ان يقوموا بأي محاولة لاستعمار الاراضي في البلاد العربية او احوال جاليات تركية فيها . غير انهم كانوا يجددون الدم التركي بالزواج من غير المسلمين وبنح الرعاية الشاملة لكل من دخل الاسلام من رعاياهم وسلكم التركية بدل لغته وانضم الى البلاط . وكان استخدامهم لثمن غير المسلمين من أبناء رعاياهم طبقة الخدمة التي دام فيها هذا الاستخدام عاملاً على تقوية روح الخدمة العسكرية والمدنية وتجدد الدم التركي عن طريق الامتزاج بهذه العناصر الشحيطة من زهرة الشباب وهضمها . وقد جذبت العاصمة بهذه الطريقة اصحاب احسن المواهب من أبناء الامم التي غلبتها فانتقلوا اليها واقتبسوا دينها واستتركوا واصبحوا آلة لتقدم الدولة المسيطرة ومجدها . وقد بلغ كثير من الجراكسة واليونان والالبانيين والسلاف والطلين حتى الارمن اعلى المراكز في الدولة ومنها العداولة العظمى .

عوامل الضعف الداخلي

إن دولة يوضع نظامها لغرض حربي دون الالتفات إلى مصلحة الشعب وتوسع رقعتها فتتبدل إلى حدود بعيدة وتشمل مساحات غير متشابهة أو مترابطة أو متصلة بوسائل منظمة لنفس ، وفيها خليط من السكان غير متجانسين بل مختلفون شيعاً وأحزاباً دينية وطائفية وعنصرية بحيث ناهض المسلم التركي أخاه المسلم العربي وناهض المسيحي من هذه الطائفة أخاه المسيحي من الطائفة الأخرى - إن دولة مثل هذه تتحمل في طيات كياناتها الأساسي بذور الانحلال والتفكك ، فإذا جابهها عالم انحصرت فيه القومية ساءت حالها وتخاذلت أمامه . وقد ازداد الضعف الداخلي في جهاز الدولة من استعوار النظام المعروف بنظام الملة وامتداده بحيث أصبحت كل طائفة تتمتع بقدر لا بأس به من الاستقلال الذاتي - وأصبح هذا النظام القاعدة التي حاول الإسلام بواسطتها أن يحل مشكلة الأقليات ، وتركيز السلطة العليا ، ولو اضطر على الأقل ، في يدي رجل واحد هو السلطان الخليفة . وكذلك زاد في ضعفها عدم الموضوع في قضية الاستقلال . والتي ، المدهش حقاً هو أن الانحلال لم يبدأ قبل ذلك العهد بالزمان .

ولم ينقض وقت طويل على موت سليمان حتى أخذت الامبراطورية في طريق التدهور وكان طريقاً شاقاً وطويلاً . ويمكن أن يعتبر الفشل الذي كان نصيب الجيش في محاولته الاستيلاء على قينا سنة ١٦٨٣ أول النهاية . فقد توقف بعده توسع تركيا في أوروبا ، وانقلب التركز ظهر الجحش ، فأصبحت القضية عندهم هي كيف يمكن لهم أن يحتفظوا بما كانوا فتحوه لا كيف يفتحون بلاداً جديدة . وأصبح دور القوى المسلحة دور دفاع لا دور هجوم . وكانت هناك فوق عوامل الانحلال والتفكك الداخلية عوامل خارجية أخذت تظهر في القرن الثامن عشر حين شرعت فرنسا وإنجلترا والنمسا وروسيا تطالب « مناطق نفوذ » لها ، وبدأت كل منها تطمع في الاستيلاء على بعض ممتلكات رجل أوروبا المريض . غير أن التحاسد فيما بين هذه القوى المتنافسة وعدم اتفاقها على عمل موحد أفسح في أجل المريض غير مرة .

ضباغ دول إفريقيا الشمالية

وكانت بلاد إفريقيا الشمالية أول بلاد عربية تخسرها الامبراطورية العثمانية . وتشكل هذه البلاد كتلة واحدة متميزة عن غيرها من البلاد العربية . فقد كانت قريبا من اوربا الجنوبية وبعدها من مركز الاسلام وقلبه في آسية الغربية وضعف التقليد الاسلامي عندها والنسبة العالية للدم البربري والاوربي فيها داعيا يدعوها منذ نشوئها الى ان تتخذ طريقا خاصا بها .

وكانت الجزائر بنوع خاص أول بلد اسلخ عن الامبراطورية . وقد وقع ذلك في سنة ١٨٣٠ حين نزل شواطئها جنود فرنسي بحجة وضع حد لاعمال القرصنة ومعاقبة اصحابها والانتقام للاهانة التي ألحقها الحاكم حسين بالفنصل الفرنسي . وبعد ذلك ثمانية عشر عاماً ألحقت الجزائر بفرنسا وأعلن انها ارض فرنسية وان المنطقة الشاطئية جزء لا يتجزأ من فرنسا نفسها . ولقد احتج لافال حين تزايدت الجنود الاميركية في تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ مدعياً ان المنطقة كلها هي من تديدات الارض الفرنسية الطبيعية (١) . وللجزائر الحق - كما لغيرها من الدوائر في فرنسا - في ان ترسل مندوبين عنها لبرلمان الفرنسي . وهي في الواقع تفعل ذلك . وقد اتبع الفرنسيون فيها سياسة خاصة غرضها اذابة البلاد وهضمها او صهرها في البوثة الفرنسية . ومن هنا فقد وضعوا العراقيين في سبيل لغة البلاد الاصلية ودفعوها الى التخلص من قوميتها .

والتمهي توسع فرنسا الاستعماري شرقاً سنة ١٨٨١ باحتلال تونس حيث طبقت السياسة نفسها الى حد كبير . فحلت الفرنسية بدل العربية كلغة اديبة لأهل البلاد . ومع ان مركز تونس السياسي كانت عبارة عن محمية فانها كانت في الواقع من الممتلكات الفرنسية من كل الوجوه الا اسمياً . وكان يُعين لها مقيم عام افرنسي يحكم مع الباي الوطني ويسيطر على كل المصالح العامة غير ان قريبا من مصر ساعد على ان تبقى التقاليد الاسلامية القومية قوية فيها

نوعاً ما . وقد استقر في كلا البلدين الجزائر وتونس الوف من أبناء الجاليات الافرنسية . وقد تعددت المشكلة التونسية بوجود جاليات ايطالية كثيرة العدد لها مستعمرات كثيرة . وليس من شك في ان كلاً القطرين تونس والجزائر قد تمتعا بنفسط وافر من الامن والصحة العامة والقسيميات في المواصلات في ظل الفرنسيين . اما طرابلس الغرب وهي ارض صحراوية قاحلة يتخللها خط من الواحات عند الشاطئ فقد كانت آخر مركز للاتراك في بلاد البربر . ولكنها انتزعت منهم على اثر الحرب التركية الايطالية ١٩١١ - ١٢ ونجعت مستعمرة ايطالية ثم ضمت الى القيروان سنة ١٩٣٤ واصبحت تلك المنطقة كلها تعرف بليبيا الايطالية .

وفي سنة ١٠٩١ بدأ فتح الفرنسيين لمراكش التي لم تخضع لحياتها للترك^(١) وكانت في قديمها مركز دولتي البربر القويتين . وقد تم انزعاع منطقة منها بين ١٩٠٧ و ١٩١٢ . وكانت اسبانية في الوقت نفسه متهمكة في انزعاع حصه لها في العدو المقابل للارض الاسبانية تماماً . وهكذا فان كل افريقية البيضاء التي تفصلها الصحاري عن افريقية السوداء قد سقطت في اثناء الاثنتين والثمانين سنة التي مرت بعد سنة ١٨٣٠ في ايدي دول جنوبي اوربا اللاتينية الثلاث . واذا استتبنا الثورة التي قام بها عبد الكريم على الاسبان والفرنسيين في مراكش في اول العقد الثالث من هذا القرن^(٢) ، والثورة التي اثارها السنوسي على الايطاليين مدة الحرب الكبرى وبعدها فان الروح القومية في هذه الاقاليم ظلت ساكنة وغير منتظمة بوجه عام ومقصورة على بعض الافراد المتعلمين حتى اشجار الحرب العالمية الثانية .

(١) انظر ص ٨٣٧ من هذا الكتاب .

(٢) راجع Arnold G. Toynbee, *Survey of International Affairs*, 1925, vol. 1: *The Islamic World* (Oxford, 1927), pp. 410-63.

الفصل الحادي والخمسون

مصر والبهلال العسري

ومع أنب مصر من الناحية الجغرافية هي جزء من إفريقية فإنها كانت من الناحيتين التاريخية والثقافية خلال العصور المتتابعة جزءاً من آسيا الغربية . وهي تشكل مع سورية الكبرى والعراق كتلة عربية تتميز عن الكتلة الإفريقية الشمالية من جهة والجزيرة العربية من جهة أخرى .

الممالك أصماب السط

لم يغم السلطان سليم الآبشي، فليل من التغيير الاساسي في النظام الاداري بمصر غير انه عين على مصر باشا من العثمانيين نائباً له ووضع فيها جيش احتلال مؤلفاً من نحو خمسة آلاف انكشاري . وقد وقع اختياره على خاتري (بيك) ليكون نائب السلطان في مصر وكان خاتري بيك حاكم حلب التركي الذي خان اسياده المماليك كما مر معنا (١) . وقضى سليم بضعة ايام في القاهرة يتمتع بنفسه فيها ثم عاد الى عاصمته وقد اضطرب معه رواية من روايات الظل (٢) لتسليمة ابنه سليمان ولي العهد (٣) وظلت سناجق (٤) مصر الاثنا عشر بايدي حكامها المماليك القدماء وقد أحاط كل بيك من هؤلاء المماليك نفسه بطائفة من الخاويين القدماء ياتمرون بأمره وينفذون سلطته . وظل دم المماليك يتجدد باستيراد الارقاء من الخارج لا سيما من القوقاز . وكان المماليك يحبون الضرائب كما كانوا يفعلون في العهد السابق ويتخذون الناس لسكرتهم اصبحوا الآن يعترفون بسلطة العثمانيين وذلك بدفع جزية سنوية .

(١) ص ٨٢٩ من هذا الكتاب .

(٢) فليل ص ٨١٥ من هذا الكتاب .

(٣) ابن ايس ص ٥ من ١٨٨ .

(٤) مفردتها بالتركية سناجق ومعناها لواء . رابسة .

ولم يلبث الأمر طويلاً حتى أخذ الباشا العثماني المبعوث من القسطنطينية يفقد سلطته الحقيقية في الأمور الداخلية . وكان جهله باللغة البلاد المحكية وعاداتها من الأمور التي حالت دون نجاح مهمته ، فكانت مدة حكم الباشا الواحد قصيرة الأمد حتى في أحسن الأحوال . فقد تعاقب على الحكم في مدي الثلاثين والثلاثين سنة من عهد العثمانيين في مصر لا أقل من ستة من هؤلاء الباشوات (١) . وكان التمييز المستمر هؤلاء الحكام داعياً لأن تضعف سيطرتهم على الجند بحيث أصبحت حالة هؤلاء فوضى وفقد النظام في صفوفهم . واخذت تظهر الفتن بينهم منذ أول القرن السابع عشر . وكثرت المنازعات بين الباشوات والبيكوات وأصبحت أمراً مألوفاً في تاريخ البلاد السياسي . وكان الباشا يغتصم الفرصة ويقوي مركزه حين يظهر النزاع ونشبت المنازعات على الرعامة بين البيكوات انفسهم . وفيما كانت السلطة المركزية في القسطنطينية في طريق التدهور الذي سلكته كانت مكانة الولاة او نواب السلطان في الامصار تتضاءل ويضعف نفوذهم ويقل احترام الرعايا لهم .

وفي ظل هذا الحكم الثنائي كان الأهليون ينحدرون الى هوة البؤس والفقر والشقاء . وكانت الفلاح يستغل من قبل الباشا والبيك ويهان ويذل ويدفع الى حالة من الانحطاط والبؤس ناله لا يوازيها الا حالته في العهد السابق . وعم الفساد والرشوة في كل مكان . وزاد الطين بلة المجاعة واضطراب الأمن وانتشار الاوبئة . فقد اهلك وباء ١٦١٩ نحو ثلث مليون نفس من سكان مصر . وافنى وباء ١٦٥٣ نحو مئتين وثلاثين قرية أصبحت بعده خاوية خالية (٢) . وقد ذكر الاسحقاقى (٣) وكان معاصراً لهذه الحوادث انه حين كان وباء ١٦١٩ يحتاج القاهرة كانت اكثر حوائشها ومتاجرها مقلقة ما عدا تلك التي كانت لبيع الاكفان فقد ظلت مفتوحة ليلاً نهاراً . وتناقص عدد سكان مصر بحيث أصبح في آخر القرن الثامن عشر أقل من ثلاثة ملايين بينما بلغ عدد السكان في عهد الرومان نحو ثمانية ملايين .

(١) قابل بيدوهم في : Zambaur, pp. 166-8

(٢) قابل جرجي زيدان تاريخ مصر الحديث ، الطبعة الثالثة (القاهرة ، ١٩٢٥) ج ٢ ص ٣٩١ ، ٣٩٠ .

(٣) الخبار الاول في من تصرف في مصر من الدول (القاهرة ، ١٢٩٦) ص ٢٥٨ .

علي بيك يصبح سلطاناً في مصر

وبلغت سلطة المماليك أوجها في سنة ١٧٦٩ وذلك حين استطاع علي بيك أن يطرد الباشا العثماني ويعان استقلاله عن الباب العالي . وكانت علي بيك فيما يقال ابن كاهن نصراني من القوقاز وقع في صباه بأيدي الاشقياء فداعوه واصبح من الارقاء . واستطاع وهو مملوك في مصر ان يبلغ من القوة ما مكنته ان يستقل بالسلطة في مصر . وكان في تلك الاثناء أن اشتبكت تركيا مع روسيا في نزاع خطير . فبعث السلطان الى علي بيك ان يمدد بالجند فاخذ علي بيك بمشدد الجنود ، وبهذا الجيش نفسه الذي جنده سار الى سورية والجزيرة العربية ففتحها وغنمها لنفسه . وقد دخل صهره ابو الذهب (١) الذي كان يساعده في هذه الحرب الى مكة ظافراً في تموز سنة ١٧٧٠ (٢) فعزل شريفها - وكان يحكم مكة دائماً أحد الاشراف من ذرية النبي (٣) - ووضع في مكانه أحد المدعين لحق الولاية فيها فانعم هذا بدوره على علي بيك باللقب الفخم « سلطان مصر وحاكم البحرين » (المتوسط والاحمر) . ولم يكف علي بيك



عشرون بارة فضية من عهد علي بيك وقد ضربت في مصر سنة ١١٨٣

بانتحال لقب سلطان مصر بل مارس كل الحقوق المتعلقة به ومنها سك النقود وذكر ١٨٣٤ من علي المنبر في الصلاة الجمعة . وفي سنة ١٧٧١ سار ابو الذهب على رأس ثلاثين الف مقاتل الى سورية وفتح كثيراً من مدنها وفي مقدمتها دمشق (٤) . وبدأ له وهو في فورة النصر

(١) كان يدعى بهذه السكينة لانه لم يكن يمنح المجتدين او يعطي الطالبين سوى قطع من الذهب .

(٢) الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار (القاهرة ، ١٣٢٢) ج ١ ص ٤٢٢ ، ٢٠٢ .

(٣) انظر الحاشية ٣ في ص ٢٣٠ من مسفا الكتاب .

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٧ .

انت يخون سيده فاحضد يقاوض الباب العالي سرّاً وافق معه وانقلب هو وجيشه على مصر فهرب علي بيك (في نيسان ١٧٧٢) والتجأ عند زميله الفلسطيني في عكا الشيخ ظاهر العمر (١) . ووصل الى علي بيك وهو في عكا مدد من السلاح ونجدة من الرجال قوامها ثلاثة آلاف الباني امدته بها المراكب الحربية الروسية الراسية في الميناء . فعاد يحارب لاسترداد عرشه المفقود . ولم يلبث انت جرح في بعض المعارك ومات سنة ١٧٧٣ إما من جرحه او او من سم دس له . وعند ذلك جمع ابو الذهب مملوكه السابق بين اللقبين - الباشا (وهو اللقب الذي ناله من الباب العالي) وشيخ البلد (وهو لقب المتزعم بين المماليك) . وكانت الوظيفة العليا الثانية بعد شيخ البلد عند المماليك هي وظيفة امير الحج . وكانت امير الحج هو الموكل بامور الحج الذي يجري كل سنة . وقد كشف ظهور علي بيك ووصوله الى الحكم الضعيف في مركز العثمانيين بالرغم من أن حكمه لم يدم طويلاً . وكان تنصيب ابي الذهب في وظيفته تنازلاً عن حق المماليك في ان يصبح الواحد منهم نائباً للملك .

نابليونه بوناپرت

ودام النزاع على كرسي الحكم في مصر بين زعماء المماليك حتى اواخر القرن الثامن عشر وذلك حين هاجم مصر غسان قوي غريب هو نابوليون بوناپرت ونزل الاسكندرية في تموز سنة ١٧٩٨ . ولقد ادعى نابوليون عند نزوله في بيان (٢) نشره باللغة العربية انت غرضه من غزو مصر هو اعادة سلطة الباب العالي ومعاقبة المماليك الذين اتهمهم في انهم ليسوا مسلمين صالحين مثله ومثل جماعته الفرنسيين . اما غرضه الحقيقي فقد كان اسديد ضربة قاضية الامبراطورية البريطانية بقطع خط مواصلاتها مع الشرق والسعي لسيطرة العالمية . وكانت

(١) انظر ما سبق عن ظاهر العمر من ٨٦١ من هذا الكتاب .

(٢) يذكر الجبرتي نص البيان ج ٣ من ٤٥٠ وبيده على الطريقة الاسلانية باسم الله الرحمن الرحيم . وقد خصه الشرفاوي في كتابه « تنقيح الظفرين » من ولي مصر من الولاة والسلاطين « (القاهرة : ١٢٨٦)

من ٤٠٥ وهناك ترجمة انكليزية في : *Copies of the Original Letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, Intercepted by the Fleet under the Command of Admiral Lord Nelson, II the ed., vol. I (London, 1798), pp. 235-7.*

تخطيط الأسطول الفرنسي في خليج « ابوقير » (١ آب ١٧٩٨) وإيقاف الحملة الفرنسية
المكشودة الحظ في عكا (١٧٩٩) (١) وانكسار نابليون في واقعة الاسكندرية (٢١ آذار
١٨٠١) داعياً لصد مطامحه في الشرق وارغام جنوده على الجلاء عن مصر . وبعد ان كانت
مصر قليلة الاهمية في مسرح السياسة العالمية لا تلعب سوى دور بسيط اهم ما فيه انهما من
مصادر الدخل لتركيا وقاعدة العمليات التي كان يقوم بها الاتراك لحفظ سيطرتهم على سورية
والجزيرة العربية دفعت الآن بغته الى ميدان السياسة الدولية واصبحت باباً الطريق الهند
والشرق الاقصى (٢) .

لقد فتحت حملة نابليون انظار اوروبا الى خط المواصلات البري للهند - المنسي نوعاً ما -
وانارت سلسلة من الحركات والمناورات جعلت الشرق الادنى في وسط العاصفة التي كانت
تثيرها السياسة الاوربية ومؤامراتها .

محمد علي مرمس مصر الحديثة

كان في الجيش التركي الذي ساعد على طرد نابليون من ارض مصر ضابط شاب الباني



محمد علي الكبير

الاصل أمن مواليد مقدونية اسمه محمد علي . وقد منحه الباب العالي رتبة باشا سنة ١٨٠٥ وأصبح

(١) انظر ادنام ٨٦٣ - ٨٦٤ .

(٢) انظر بحث الأثر الثقافي في الفصل الأخير من هذا الكتاب .

سيد مصر الجديد وكان خاضعاً بالاسم للباب العالي . وإن تاريخ مصر في النصف الاول من هذا القرن هو في الواقع سيرة هذا الرجل الفرد فهو مؤسس هذا البيت الذي لا يزال يحكم وادي النيل ويعتبر بحق أباً لبلاده على الأقل من ناحية تاريخها الحديث . ولنا نجد من يوليه بين الرعاء المسلمين الذين عاصروه فيما أظهره من نشاط ومبادرة وحيوية وبعد نظر فقد كانت عظيماً في حالتي السلم والحرب . وقد أصبح صاحب البلاد الاوحد بفضل مصادراته للاطيان التي كان يملكها افراد معينون والمقاول الصناعي الفرد بفضل ما اوجده من احتكار لمنتجات البلاد وهي اول محاولة لتأميم المنافع العامة في العالم العربي . وتطبيقاً لسياسته الاقتصادية اخذ يشق الآقية ويشجع الزراعة العلمية وهو الذي ادخل زراعة القطن الى الدلتا من السودان سنة ١٨٢٢ . ومع انه لم يكن متعلماً فقد رعى العلم وانشأ وزارة خاصة للمعارف ومجالس للمعارف والثرية وانشأ اول مدرسة للمهندسة في مملكته (١٨١٦) واول مدرسة للطب (١) . واستجلب الاساتذة والاطباء من فرنسا بالاكثـر . ودعا الارشاليات العسكرية والتهديبية الى بلاده لتدريس ابنائها وبعث البعثات العسكرية والتهديبية للدرس في اوربا . وتدل الوثائق المحفوظة انه قد ارسل بين ١٨١٣ و ١٨٤٩ (سنة وفاته) (٢) ثلاثمئة واحد عشر طالباً مصرياً الى ايطاليا وفرنسا وانكلترا والنمسا فكتفوا الدولة ٢٧٣٣٦٠ جنيهاً (٣) . وقد فتحت لحولاء الطلاب بيت خاص في باريس لخدمتهم وامور عيشهم . وكانت الدروس المرفوعة الدروس العسكرية والبحرية ودروس الهندسة والطب والصيدلة والآداب والفنون . وتتمتع اللغة الفرنسية منذ ذلك العهد بمركز ممتاز في النهاج المصري . ولا يزال الى اليوم عدد الطلاب في المدارس الاجنبية في مصر يفوق عددهم في مدارس اي من الجاليات الأجنبية الأخرى (٤) .

وكان هناك كولونيل فرنسي اسمه سيف (Seve) اعتنق الاسلام ودعي سليمان باشا وقد

(١) أصبحت سنة ١٨٢٧ وهم اليوم قدم من جامعة فؤاد الاول : انظر ماثيوز وعقراوي في :
Roderic D. Matthews and Mulla Akrawi, *Education in Arab Countries of the Near East*. (Washington, 1949). p. 80.

(٢) انداجيت الحكومة المصرية ذكرها بمناسبة مرور مئة سنة على وفاته بتأسيس جامعة في اسبوط سنة ١٩٤٩ على اسمه .

(٣) عمر طوسون ، البعثات العلمية (الاسكندرية ، ١٩٢٤) ص ٤١٤ .

(٤) Matthews and Akrawi, p. 116.

اعاد تنظيم الجيش المصري على الطريقة الحديثة وساهم في الحملة على سورية . ولا يزال اسمه مخدراً في احد شوارع القاهرة الرئيسية . وقد اختلطت ذريته بالبيت العلوي بواسطة الزواج . وهناك فرنسي آخر كان مهندساً بحرياً وهو الذي انشأ البحرية المصرية . وكانت اول عملية حربية قد وقعت سنة ١٨١١ ، وقد وجهت الى بلاد العرب الوهابية ، ولم تنته تلك الحرب حتى سنة ١٨١٨ . وكان عدد الجند في هذه الحملة نحو عشرة آلاف وكان يرأسهم طوسون ابن محمد علي حين كان لا يزال في السادسة عشرة من عمره . واقام محمد علي وليمة في قلعة القاهرة احتفالاً بمغادرتهم دعا اليها جمعاً غفيراً من الاعيان ومنهم المالك بالطبع . وقد اقتيد المالك الى مقر عند البوابة الرئيسية وقتل بهم الواحد بعد الآخر . ولم ينج من الاربعة والسبعين مملوكاً سوى بضعة افراد . وكانت المذبحة في القلعة على النل اشارة عامة للقتل بهم دون تفريق في كل البلاد المصرية . ثم صودرت ممتلكاتهم وحلت مشكلة المالك في مصر الى الابد بعد ان بلغ عمرها نحو سنة قرون .

ووجهت سلسلة الحملات الحربية الثانية جنوباً وركزت العلم المصري الظافر سنة ١٨٢٠ في بلاد النوبة في السودان الشرقي . واكمل الفتح خلفاء محمد علي . ونشأ عن ذلك مشكلة لا تزال موضوع تنازع شديد بين المصريين والبريطانيين - هي مشكلة السودان . وفي الحركة الحربية الثالثة اشترك الجيش المصري والبحرية مع قوى الباب العالي ضد اليونان الذين كانوا يجاهدون انيل استقلالهم . وكان سلطان تركيا يومئذ محمود الثاني (١٨٠٨ - ٣٩) اشتهر باصلاحاته الجريئة وقضائه على الانكشارية . وقد انكسر الاسطول التركي المصري عند نافارينو (٢٠ تشرين الاول ١٨٢٧) وحطمه الاسطول الانكليزي الفرنسي الروسي الموحد . ولم يبق عائماً على وجه البحر من السبعة والاثنتين والمان مراكياً سوى تسعة وعشرين . وكان الباب العالي قد وعد حليفه سلطان مصر ولاية سورية والوربا لقاء مساعدته وما لم يحقق وعده انقذ محمد علي ابنه ودرعه ابراهيم سنة ١٨٣١ الى سورية ليحتلها . وكانت ابراهيم هو الذي قصاد الحملات الناجحة على الوهابيين بين سنتي ١٨١٦ و ١٨١٨ والحملة الفاشلة على اليونان . وكانت هذه الحملة الأخيرة على سورية آخر المشاريع الحربية التي تميز بها عهد محمد علي واعظمها . وبعد

ان احتل جيش محمد علي سورية نحو عشر سنوات وكذا يقضي على الامبراطورية العثمانية بأسرها ويبدد لها الضربة الاخيرة اضطر محمد علي نفسه بإيعاز من الدول الاوربية ان يسحب جيوشه الى الارض المصرية^(١). لقد كانت الدول الاوربية قد قررت - في سبيل مصالحها الخاصة - ان تبقى على الامبراطورية العثمانية فلم تسمح في ان تتعرض لللاذى والهلاك. وقد اعتبرت هذه الدول قيام دولة فنية نشيطة شديدا يهدد نفوذها وخطوط مواصلاتها في الشرق. وصدر فرمان في ١٣ شباط ١٨٤١ يجعل اليانوية في مصر وراثية في اسرة محمد علي الكبير^(٢). وصدر فرمان آخر في التاريخ نفسه يسند الى محمد علي حكومة السودان^(٣). وبهذا انتهى الحلم بتأسيس امبراطورية مصرية اسبوية نهائية غير محيطة.

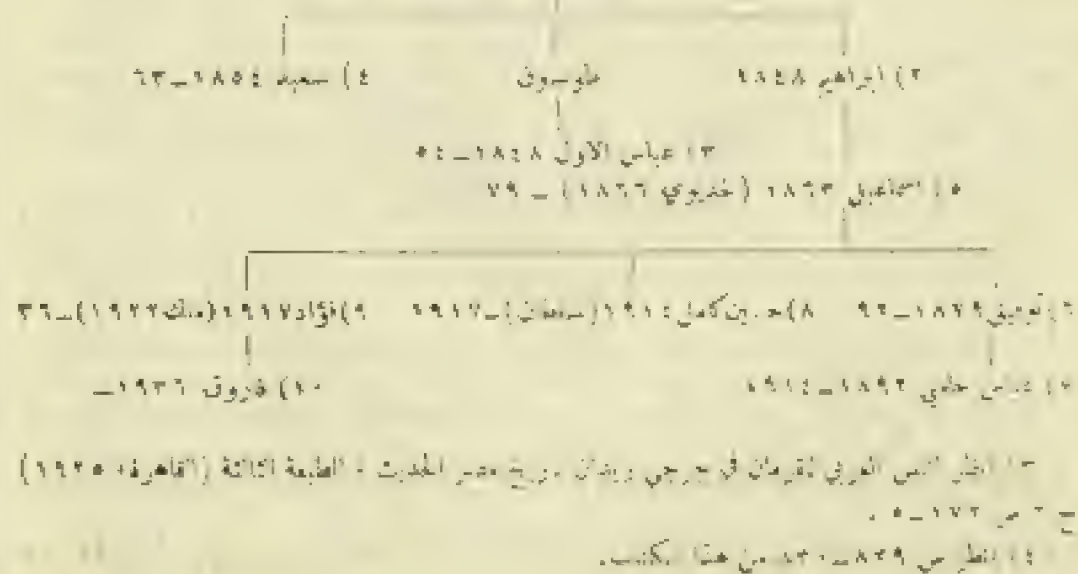
سورية

لم ينتج عن احتلال السلطان سليم الاول^(١) (١٥١٦) لسورية شيء عظيم من التغيير الداخلي في ادارة البلاد او سكانها. وقد أطلق على كائن من الاقسام الادارية اسم جديد هو «ولاية». وكانت ولاية دمشق وقد ضمت اليها القدس وصفد وغزة قد أسندت الى

(١) انظر ص ٨٦٦-٦٧ من هذا الكتاب.

(٢) جدول تحت العناوين «مصر».

(٣) محمد علي ١٨٠٥-١٨٤٩



جان بردي الغزالي حاكم حمّة الغادر الذي كان كخائن بيك قد خان سيده السلطان الغوري في واقعة مرج دابق الخامسة (١). وبهذا أصبح الغزالي في الواقع نائب السلطان في سورية (٢) ولما لم يكتب بهذا فإنه عند موت السلطان سليم (١٥٢٠) أعلن نفسه ملكاً مستقلاً وانتحل لنفسه لقب الملك الأشرف وضرب النقود باسمه ودعا زميله المصري خائن بيك الى ان يعمل مثله. غير ان السلطان سليمان بادر بسرعة فارسل الاسكشارية فخر بها قسماً كبيراً من العاصمة السورية والمناطق المجاورة لها وانزلوا بالاهالي عقاباً ذكر الناس بايام تيمور (٣) ووضعوا لاساس الرعب الذي لا يزال يساور نفوس السوريين كلما ذكر لهم اسم الانكشارية.

الولاية الوظيفية

واخذ الباشوات الأتراك في ذلك العهد يتعاقبون في الحكم بسرعة فائقة بحيث حكم منهم في دمشق (٤) لا اقل من مئة وثلاثين في مدة مئة واربع وثمانين سنة. وهو تحسن ضئيل بالنسبة الى ما عرف في مصر (٥). وقد شاعت حلب وجود تسعة ولاة في مدة ثلاث سنوات فقط. وكان اكثر هؤلاء الموظفين قد اشتروا بالتعمل الوظيفة واعتبروها اداة لاثراء مواردهم وتعبيد انفسهم. ولم يكن في بعض الاحيان من سلطة قوية للباب العالي حتى على موظفيه انفسهم. اما الرعايا فقد كانوا في نظر السلطة رعايا حقاً - قطعان غنم ترعى وتجرّ وتخاب. وكانوا مصنفين على اساس طوائفهم الدينية (الملة) بحيث كان في سورية مثلاً مجموعة من القوميات الصغيرة المنعزلة. حتى الأوروبيون الذين كانوا يسكنون البلاد فانهم كانوا يعاملون بنظام الملة فيخضعون لرؤساء دينهم ويتمتعون فوق ذلك بحقوق اخرى منحتهم اياها الامتيازات الاجنبية. وكان اهل البندقية اول من نالوا الامتيازات الاجنبية. فقد وقع معهم

(١) انظر ص ٨٢٩ من هذا الكتاب د ابن ايس ج ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧ : عهد الدين ، تاج الوارث ج ٢ (القسطنطينية ، ١٢٨٠) ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢) اعدت السلطة العثمانية الاسم القديم « سورية » وطلبت استعمال الشام .

(٣) ابن ايس ج ٥ ص ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) Jammeis, vol. II, p. 62

(٥) انظر ص ٨١٩ من هذا الكتاب .

سليمان سنة ١٥٢١ معاهدة دُوت بنودها في ثلاثين فصلاً . وبعد ذلك بأربع عشرة سنة نال الأفرنسيون امتيازاتهم ونالها الإنكليز في سنة ١٥٨٠ . وكانت هنالك محاولات ضعيفة لتحصين حالة الرعايا في الامبراطورية قام بها ثلاثة من المصلحين الجريئين بين السلاطين هم سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨ - ٣٩) وعبد الحميد الاول (١٨٣٩ - ٦١) ولكن لم يكن لهذه المحاولات أثر محسوس . ولم تتخذ تدابير فعالة للتنظيمات (نظم الإصلاح) التي وضعت . وكان الغرض من هذه النظم إلغاء الضرائب على الزراعة وضمان سلامة الرعايا وممتلكاتهم وشرفهم بقطع النظر عن عقائدهم او قومياتهم . واعتبر جميع هؤلاء يعرف القانون متساويين .

التدهور الاقتصادي

ولم يكن سوء الادارة العثمانية العامل الوحيد في التدهور المستمر الذي لحق الحياة الاقتصادية في سورية فقد كان اكتشاف الخط البحري من أوروبا الى الهند حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ قد حول مجرى التجارة العالمية عن الشرق العربي ودفع بالبرتغاليين لان يكونوا العملاء والوسطاء لهذه التجارة بدل العرب والسوريين . وهكذا أهملت البلاد العربية تجارياً . وكان اكتشاف العالم الجديد سنة ١٤٩٢ قد نقل مركز النقل في الشؤون العالمية غرباً واصبح للبحر الابيض - الذي كان متوسطاً بالاسم وبالفعل - مكانة ثانوية . وكان لا بد لهذا البحر ان يستظر ثلاثة قرون ونصف قرن قبل ان تعود اليه مكانته التي كانت له كمر كبير للتجارة العالمية . وذلك بفضل شق قناة السويس سنة ١٨٦٩ وهو العمل الذي قام به اسماعيل (١) خايفة محمد علي الكبير . وكانت فلسطين في القرن الثامن عشر قليلة السكان وكان الدخول من مواسم الحج اليها أهم مورد فيها . وفي منتصف ذلك القرن أصبحت السهول المعروفة بتخصيبها بين حلب والقرات صحراء قاحلة (٢) كما نرى اكثرها اليوم وكانت من قبل تنسل من الري ما يكفيها . وفي آخر القرن تناقص عدد سكان سورية كلها بحيث لم يزد عن مائتين

(١) انظر ادنهام تحت موضوع « شق قناة السويس » .

(٢) Christina P. Grant, *The Syrian Desert*, (New York, 1938), p. 161.

مليون ونصف تقريباً كان منهم نحو مئتي ألف أو أقل في فلسطين^(١) . وكان في القدس في أوائل القرن التاسع عشر نحو ١٢ ألف نفس فقط وفي دمشق في منتصف القرن نفسه نحو ١٥٠ ألفاً وفي بيروت ١٥ ألفاً وفي حلب ٧٧ ألفاً^(٢) .

وبينما أخذ التجار السوريون ينمون تجارتهم البرية في القرن الأول من العهد العثماني أصبحت حلب محطة في نهاية الخط الذي يربط سورية بالعراق وبالعالي بفارس والهند فزدها فيها كثير من الجاليات الأوروبية وفي مقدمتهم جالية الهندية . واستمدت الجالية الفرنسية قوة من الامتيازات الأجنبية التي منحها سليمان ١٥٣٥ قرابس الأول ، ومن معاهدة ١٧٤٠ بين محمود الأول وفرنس الخامس عشر التي أوضع كل التصاري بموجبها تحت حماية فرنسية^(٣) . وأسست بعد ذلك مصانع فرنسية انتشرت في مدن سورية أخرى . ونسج التجار الاتسكيز على منوال الفرنسيين وحاولوا جميعاً ان يلبوا طلب الغرب لأطياب الشرق ومنتجاته التي كانت معروفة في العصر الصليبي . ولما كان المسلمون ينظرون الى الاجنبي على انه احط منهم فقد أخذ الاجانب في أوائل ذلك العهد يلجأون الى ارتداء الثياب الوطنية بحيث لا يعرفون فيقل ما كان يمكن ان يلحقهم من اهانة او ضرر . وافتى أثر التجار الاوربيين مرسلون اوروبيون ومعلمون وسياح وزوار . وتنتج عن نشاط الارسلات المسيحية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وكانت اكثرها يسوعية وكبوشية وعازرية ان تأسست كنائس كاثوليكية تابعة للبابا بعضها سريلية كاثوليكية وتستعمل اللغة السريانية في طقوسها الدينية وبعضها روم كاثوليك وتستعمل اليونانية . وكان عهد الامير فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٥) عهد تقدم وحرية ونور وقد فتح الباب على مصراعيه لتأثيرات الثقافة الغربية .

نسر الدين امير لبنان المثقف

لقد سمي هذا الامير باسم جده فخر الدين الاول (المتوفى ١٥٤٤) وكان حين اشتدت

(١) تابل ١٠ Alfred Bonné, *The Economic Development of the Near East* (New York, 1945) p. 10.

(٢) Bonné, p. 4.

(٣) F. Charles-Roux, *France et chrétiens d'orient* (Paris, 1939), pp. 68-77.

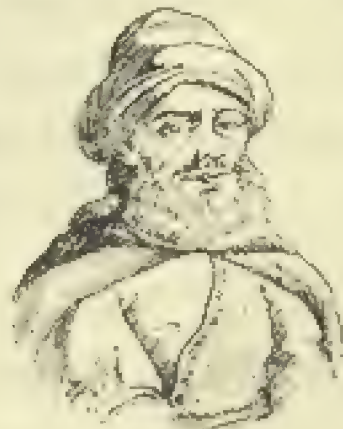
المعركة في مرج دابق بين الترك والمماليك للسيطرة على سورية قد نصح اتباعه ان يقرئوا ويرقبوا الموقف حتى يتجلى وينضموا حالاً الى الفريق المنتصر . فلما ظفر سليم تقدم فخر الدين هو وجناخته من الزعماء اللبنانيين وقبائل الارض امام الفلاح والقي بين يديه خطبة حماسية بايعة^(١) جعلت السلطان يرضى عنه فثبت امارته واقرب وزلاء الامراء والشيوخ في اقطاعاتهم ومنحهم امتيازات الحكم الذاتي نفسها التي تمتعوا بها في ظل العهد السابق ولم يفرض عليهم سوى جزية بسيطة . ولقد أدرك الاتراك منذ اول عهدهم ان لبنان يسكانه الفروز والموارنة الجبليين القساة حقاً بمعاملة خاصة تختلف عن معاملة سورية . وكان الوالي التركي في دمشق عموماً هو ضابط الاتصال بين الباب العالي والزعماء الاقطاعيين اللبنانيين . وكان هؤلاء بوجه عام مستقلين في الامور الداخلية يورثون اقطاعاتهم لذريتهم ويفرضون على اتباعهم الضرائب والرسوم ولا يقومون بالخدمة العسكرية للسلطان .

وبلغت سلطة المعنيين^(٢) ذروتها في ظل الامير فخر الدين الثاني . وكان الامير نفسه اعظم شخصية في تاريخ لبنان العثماني ان لم نقل في تاريخ سورية كلها . وكان قزماً قصيراً بحيث زعموا انه لو وقعت بيضة من جبينه الى الارض لما انكسرت ، ولكنه كان ذا قلب كبير طموح . وكان حلمه الاكبر مشعباً له فروع ثلاثة : اولاً - تأسيس وطن اكبر او لبنان اكبر من لبنان الحالي . ثانياً - قطع العلاقات بينه وبين الباب العالي . ثالثاً - وضع لبنان في طريق التقدم والعمران . وبالفعل كاد يحقق حلمه كله ، فقد تسلم من الباب العالي منبجتي بيروت وصيدا ، وانتزع من جيرانه في الشمال طرابلس وبلبك والبقاع . وخضعت له من منطقة جبرانه في الجنوب صدد وطبرية والناصرية . ثم اخذ بعد ذلك يتطلع الى ما وراء البحار فوقع في عام ١٦٠٨ معاهدة مع فرديند دوق توسكاني الاكبر المديني وفيها بنود

(١) ذكرت في تاريخ الامير حيدر الشهابي نشر نعوم منبج (القاهرة ، ١٩٠٠) ص ٤٦١ ؛ اسطفان الدويهي ، تاريخ الطائفة المارونية نشر رشيد الشرتوني (بيروت ، ١٨٩٠) ص ١٥٢ ؛ طئوس المديني ، تاريخ الاعيان في جبل لبنان (بيروت ، ١٨٥٩) ص ٢٥١ . انظر Hist. of Syria, pp 663-6

(٢) وهم قبيلة عربية .

حررية سرية موجهة ضد الباب العالي (١). وسير اليه جيش تركي من دمشق يطلبه ففر من البلاد مع عائلته وحاشيته ولجأ الى فلورنسة عاصمة حليفه الايطالي . وبعد ان اقام في اوربا خمس سنوات (١٦١٣ - ١٨) عاد الى مملكته التي ورثها من آبائه مصممًا اكثر من قبل



الامير فخر الدين

على نوسيبيا وجعلها عصرية . وفي عام ١٦٢٤ اعترف به الباب العالي سيداً على بلاد العرب (عربستان) من حاب حتى حدود مصر . واستجاب من ايطاليا البنادين والمهندسين والفخراء الزنوجيين وشجع الامم التي تزرع في رعاياه الفلاحين (٢). وكانت من مشاريعه تخفيف المستنفعات في البقاع . وفوق ذلك فقد رحب بالمرسايين النصارى وبالاخص الكاثوليك الافراسيين فأسسوا مراكزهم في بيروت وحيدا وطرابلس وحلب ودمشق وكثير من القرى اللبنانية . وكان يظهر الاسلام امام السلطات العثمانية ويظهر الدرزية امام شعبه ولكنه أبدى شعوراً وعطفاً على النصرانية بحيث قيل انه نعمد (٣) . وعاش في امارته الدروز والنصارى سلام . وكان عطفه على النصرانية داعياً لان تنبه اليه عين الباب العالي . فسير اليه مرة ثانية جيش من دمشق وبعد ان ابدي شيئاً من المقاومة هرب ولجأ الى مغارة في الجبل قرب

(١) راجع بشأن هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات : P. Carlo Carali, *Fakhr ad-Din II e la corte di Toscana* (Rome, 1936-8), vol. I, pp. 146 seq; vol. II, 159 seq; G. Mariti, *Storia di Faicardino gran-emir dei Drusi* (Livorno, 1787), pp. 74 seq.

Carali, vol. II, p. 52 seq. (٢)

Carali, vol. II pp. 510 seq. (٣)

جزين حيث ألقي القبض عليه وقيد بالسلاسل وسبق الى القسطنطينية في شباط سنة ١٦٣٥ (١) وهناك قطع رأسه ورؤوس ابنائه الذين رافقوه وعرضت جثته مدة ثلاثة ايام امام احد الجوامع ومحاول بعد ذلك امير آخر هو الامير بشير الشهابي (١٧٨٨ - ١٨٤٠) تحقيق ما كان يحل به ويسعى اليه الامير فخر الدين - لبنان الاكبر المستقل - ولكنه لم يستطع ذلك تماماً ولم يحقق هذا الامر تماماً حتى عام ١٩٤٣ . ويرجع الشهابيون الذين خلفوا المعنيين عام ١٦٩٧ اصلهم الى اشرف القبائل العربية - قریش . وكان مؤسس هذه الاسرة اللبنانية الشهابية الحاكم يومئذ صهر آخر حاكم معني .

١١ العظم في سورية

لم يأخذ الحكام الوطنيون السوريون في تثبيت مكانتهم وهيبتهم حتى القرن الثامن عشر . وكان في طليعة هؤلاء اسماعيل باشا العظم وهو شامي عین عام ١٧٢٤ والياً على دمشق مدبنته . وقد عين ابنه بعده والياً ايضاً فكان متميزاً اكثر من والده وهو صاحب القصرين في دمشق وحماة اللذين يعدان من اجمل الآثار المتخلفة عن العصور الاخيرة ويعرضان على السياح والمسافرين . وكان هناك افراد آخرون من عائلة العظم عينوا حكاماً على صيدا وطرابلس فكانوا بخلاف الامراء اللبنانيين مخلصين للباب العالي برغم سوء المعاملة التي كانت تبذرو منه . وقد سجن اسماعيل قبل موته وقتل اسعد غدرأ (١٧٥٧) في الحمام بناء على اوامر وردت من القسطنطينية (٢) .

١٢ فلسطين مظلمة المستبدية

وبما كانت الامبراطورية العثمانية في خلال القرن الثامن عشر نسلت طريق التدهور والانحلال من حيث السلطة والمقام والاسم كان عدد الزعماء المحليين الذين يطلبون الاستقلال ويصلون اليه يزداد باطراد . وكانت فلسطين كما كان لبنان ومصر مسرحاً لنشاط بعض

(١) القويون من ٢٠٤ - ٢٠٥ شدياق من ٣٣ - ٣٤ : Carali, vol. II, pp. 310-36.

(٢) عند كرد علي ، خطط الشام ج ٢ (دمشق ، ١٩٢٥) من ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ : حيدر الشهابي تاريخ ، نشر مقبب من ٧٦٩ .

هؤلاء الزعماء وكان من أبرزهم الشيخ ظاهر العمر وهو في الأصل بدوي كان حاكماً لبناني الشامي قد عين أباه شيخاً على منطقة صفد . وبدأ ظاهر حياته السياسية وهو فتى في حدود ١٧٣٧ حين ضم طبرية إلى مشيخته (١) . ثم خضعت له مدن أخرى . ولم تات سنة ١٧٥٠ حتى كانت هذا المقتصب قد ثبت مركزه في عكا . وكان قسم من هذه المدينة خرباً منذ أيام الصليبيين فحصنها وأصبحت مركزاً تجارياً هاماً . وحكم هذا الحاكم الجديد بيد من حديد فحما أعمال الشقاوة والفساد وشجع زراعة القمح وصناعة الحرير والقطن وعامل رعاياه النصارى باللين والتساهل . وقد قال عنه مؤرخ سيرته (٢) : حتى المرأة كانت تسافر في عهده حاملة الذهب بيدها دون خوف من ان تعرض لأذى .

وبما استقر له الأمر في مركز سلطته الدكتاتورية عقد محالفة مع علي بيك حاكم مصر . واستطاع بمساعدة المراكب الروسية التي كانت تقوم بتداولاتها في البحر المتوسط الشرقي ان يحتل صيدا (٣) في جنوبي لبنان سنة ١٧٧٢ . وكانت روسيا في تلك الحقبة مشتبكة في نزاع عنيف مع تركيا . وبعد ذلك بثلاث سنوات تحالف أمير لبنان الشمالي مع والي دمشق وهاجما الشيخ ظاهر في عاصمته وحاصرها مستعينين بكتيبة جند من القسطنطينية . وقتل الشيخ ظاهر في أثناء الحصار بيد واحد من رجاله كان قد استوخر لهذا الغرض . وكان في الجيش السوري الذي حاول الدفاع عن صيدا ضابط صغير اسمه أحمد الجزار فعلى الشيخ الظاهر وأمر بما بعد دوراً أهم من دوره .

كان الجزار في الأصل نصرانياً من البوسنة وقد ارتسكب في صباه جرماً اخلاقياً فهرب إلى القسطنطينية حيث باع نفسه من تاجر يهودي وانتهى أمره في أن يصبح مملوك علي بيك في القاهرة . وكانت الخدمة الممتازة التي قدمها لسيدته كجلاذ قد اكسبته لقب الجزار .

(١) Volney, Voyage en Syrie et en Egypte 2nd ed. (Paris, 1787) . vol. II, p. 86 .

الشدائقي ص ٣٦٠ : حيدر ص ٨٠١ : ميخائيل الصباغ (المكلاوي) تاريخ الشيخ ظاهر الأمير الزيداني نشر قسطنطين الباشا : حريصا ص ٣١ - ٣ .

(٢) الصباغ ص ٥٠ .

(٣) الصباغ ص ١١٥ ، الشدياق ص ٣٨٩ .

وهرب الجزائر من مصر الى سورية . واعترافاً بالعمل الذي قام به في صيدا ضد الشيخ ظاهر عيّن حاكماً على تلك المدينة (١) . واخذ الجزائر تدريجياً يوسع سلطته شمالاً في لبنان وجنوباً في فلسطين حيث خلف الشيخ ظاهر في عكا واحاط نفسه هنا بجيش من البشناق والالبيين وآخر من المشاة المغاربة وحصّن المدينة بالعمل الاجباري وانشأ اسطولا صغيراً في مينائها . وفي عام ١٧٨٠ رأى الباب العالي من الحكمة ان يمنع عامله هذا ولاية دمشق جاعلاً اياه بالتفعل نائب السلطان في سورية وحاكم لبنان . ومع أنه كان يعترف بالاسم بسلطة الباب العالي فقد اعتمد رسول السلطان سليم الثالث دون أن يخشى عقاباً . واحمد الجزائر هذا هو الذي استطاع ان يصمد امام حملة نابليون ويردها عن عكا بمساعدة الاسطول البريطاني الذي كان يفوده السرمدني سمث كما مر معنا . وكان هذا الدكتاتور المنصب شديد القساوة في معاملته اعدائه ومن يرتاب بهم . وقد اشتهر عنه انه كان يرغب في تطبيق اسمه ، وبالتفعل طبق ذلك . وقد ذكر عنه مواطن معاصره (٢) انه ارتاب مرة في سلوك بعض حريمه فلم يخصيانه ان يحرقوهن كلهن وعددهن سبع وثلاثون الى بحرقه فوق كومة حطب حيث احرقن جميعاً . ولا يزال ذكره في البلاد حياً ولا يزال اسمه مرادفاً للرعب والقساوة . وفي سنة ١٨٠٤ انتهت سيرة هذا الطاغية الغاشم بحبلة ظهيمية دون ان يتفحص عيشه او يكدره فشل او انكسار . وهي ظاهرة نادرة .

بشير الشرايبي

كان سيد لبنان ايام الجزائر الامير بشير الثاني الشرايبي (١٧٨٨ - ١٨٤٠) . وكان حين هاجم نابليون عكا قد عجز او قصّر في ارسال مدد لالجزائر صاحب عكا فعلت عليه نعمته . واضطر الامير بشير ان يهرب من وجهه الى مصر على متن احد المراكب الانكليزية . وكذلك اضطر الامير بشير ان يهرب مرة اخرى عام ١٨٢١ حين ضم البقاع الى لبنان واشتدّت

(١) جابر من ٨١٦ - ٨٢٧ .

(٢) ميخائيل مشافقة ، مشاهد الاعيان بحوادث سورية ولبنان ، نشر فيم عهد عبد الواس شخاشيري

(القاهرة ، ١٩٠٠) ص ٥٥ .

في نزاع مع والي الشام وطرابلس . وفي أثناء اقامته في مصر عقد اواصر الصداقة مع نائب السلطان محمد علي الكبير . وحينما هاجمت الجيوش المصرية سورية عام ١٨٣١^(١) بقيادة ابراهيم باشا كان لها من الامير بشير ورجاله خير حليف فقد كانوا على أتم استعداد النصر بها . وقد ساعد اللبنانيون الجيوش المصرية في اكتساح عكا التي كان ابراهيم قد حاصرها بعد احتلاله يافا والقدس . وكان الدروز امام اسوار دمشق حين استسلمت . وبالكسر الجيش التركي في حصن وهزيمته افتتح الطريق امام ابراهيم لأسية الصغرى . وجاز الجيش المصري جبال طورس وقد وسعت الممرات فيه في بعض المواضع ليسهل مرور المدفعية المصرية . وفي عام ١٨٣٢ انصر الجيش المصري في قونية ومهدت الطريق امامه للقسطنطينية . ونصبت اخيراً الخيالات المصرية عند كوتاهية على مرمى النظر تقريباً من مضيق البوسفور فحرك هذا روسيا وساور انكلترا وفرنسا الريب في حركة روسيا . وكانت فرنسا حتى هذا الوقت تشجع محمد علي في مطامحه للتوسع . واضطرت ان تعمل على ايقافه بعد ان تقاعثت مع السلطان . وهكذا احبطت المطامح المصرية .

وقد تودد ابراهيم الى رعاية السوريين اكدساباً لعظمهم لاسيما النصارى منهم وذلك بحفظه للامن ونشره للمدانة وادخاله لكثير من الاصلاحات الاجتماعية . ولم يكن مسيحي قبل ذلك العهد في مدينة كدمشق مثلاً يخرجوا على ان يظهر امام الناس راكباً حصاناً او لاساً عامة بيضاء او حمراء او خضراء . ولم يكن مسيحي ان يشغل وظيفة من الوظائف الهامة في الدولة . وقد ازيت كل هذه العقبات يومئذ . غير ان ابراهيم باشا اضطر بعد ذلك بنساء على تعليمات والده ان يزيد الضرائب بحيث أصبحت ثلاثة اضعاف ما كانت عليه ، وان يعمل الحرير وكثيراً من الاصلاحات في البلاد احتكراً بيد الدولة كما كان الامر في مصر^(٢) . وكان أسوأ ما في هذه التعليمات اصراره على ترويج السلاح من ايدي الاهالي وتجنيدهم ، فليس هناك من يمكن ان يغيبط السوريين و بنوع اخص اللبنانيين كهذا الامر . واندلعت السنة الثورة في

(١) انظر ص ٨٥٣ من هذا الكتاب .

(٢) انظر ص ٨٥٢ من هذا الكتاب . وقد أسس اول مصنع حديث لتحرير في بئار في لبنان سنة ١٨٤١ وكان التأسيس فرنسياً .

فلسطين وانتشرت الى كل اجزاء سورية . وكان في البيان الذي اصدره نواب لبنان في ٨ حزيران ١٨٤٠ انهم يشكون قبل كل شيء نزع السلاح والتجنيد (١) . وقد منح لبنان في ذلك الوقت امتياز خاص في ظل امير الخليف . وكان محمد علي يأمل ان يبني اسطوله من اخراج لبنان وكان الاسطول المصري قد أريد تقريباً في نافارينو (٢) كما مر معنا . ولا تزال آثار استقلال المصريين للفحم في قرنايل والحديد في مرجيا في المينى ظاهرة حتى اليوم . وقد شجعت هذه الحركات الثورية السلطان محمود فارسل للمرة الثانية جيشاً عام ١٨٣٩ لحطم عند نزب في شمالي سورية ووقعت الامبراطورية العثمانية مرة ثانية عند اقدام احد عمالها . ولكن الدول الأوروبية تدخلت مرة اخرى وارغمت محمد علي في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٤٠ على الجلاء عن سورية . وفي ٢٩ كانون الاول شرع ابراهيم باشا في العودة من دمشق سالكاً طريق غزة . وفي الوقت نفسه كان الامير بشير علي مركب بريطاني في طريقه الى مالطة (٣) . وكان من نتيجة هذه الحوادث السورية - المصرية ان قويت المصالح البريطانية في الشرق من الناحية الدولية وكان ذلك على حساب فرنسا .

البعثات استعمل لبنانه دولياً

واقترنت السلطات العثمانية أخيراً ان الطريق الوحيد لوضع لبنان تحت سيطرتها المباشرة هو إثارة الفتن والحزبات بين الدروز والموارنة . وكانت نكباتهم أيام الامير بشير وفخر الدين قبله قد قامت على اساس حزبي لا طائفي وكانت المنازعات الداخلية حتى ذلك العهد منازعات اقطاعية لا دينية . ولم يكن الاثراك اول من اتبع قاعدة « فرق تسد » القديمة العهد . وكانت تركيا في ذلك الوقت تقوم بسياسة جديدة تضبط المقاطعات - سياسة

(١) اسد رستم ، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي ج ٢ بيروت ١٩٣٤ ص ١٠١-١٠٢ . وانظر أيضاً للزائف نفسه : *The Royal Archives of Egypt and the Disturbances in Palestine* (Beirut, 1938), pp. 47-51 ; وراجع أيضاً سليمان ابو عزالدين ، ابراهيم باشا في سورية (بيروت ،

١٩٢٩) ص ٣١٣ وما يلي .

(٢) Asad J. Rustam, *The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian* (٢

Expedition to Syria (Beirut, 1936), pp. 63-6 وانظر ص ٨٠٢ من هذا الكتاب .

(٣) الضيق ص ٦٢٠ ، رسالة ص ١٣٢-١٣٣ .

المركرية - وكان عامة الشعب من النصارى والدروز ويتنوع أخص النصارى في حالة ارتباك واستياء وتضرع من اسيادهم الاقطاعيين . وقد حرك الاكليروس الماروني الفلاحين اللبنانيين في الشمال قثاروا سنة ١٨٥٧ على اسيادهم الاقطاعيين وعزموا على تقسيم اقطاعاتهم فيما بينهم . وكان الامير بشير وهو من اقوى الحكام الذين عرفهم لبنان قد حقق العدالة ونشر الامن بين رعاياه وشتى طرقاً جديدة وشجع على نشر الثقافة والترقية الغربية ولكن سميه وخلفه كانت خلاف ذلك (١).

وبلغت الاضطرابات والفتن الداخلية بين النصارى والدروز ذروتها عام ١٨٦٠ وكان الاتراك قد اداروها منذ عام ١٨٤١ . وكان السلطات ايام هذه الحركة الاخيرة عبد المجيد الاول . وقد قتل في تلك المذبحة فيما قدروا احد عشر الفا من النصارى اكثرهم موارسة ، واحرق نحو مئة وخمسين قرية . ولا يزال الفلاحون اللبنانيون يؤرخون بعض الحوادث في تاريخهم من تلك السنة سنة الحركة كما يسمونها (٢) . وقد دعت تلك الحركة الى تدخل الاوربيين واحتلال الفرنسيين للبنان . وبالتالي زال الجبل نظاماً عام ١٨٦١ فتح بعد ثلاث سنوات وسمح له فيه بممارسة الاستقلال الذاتي تحت ادارة حاكم عام مسيحي (متصرف) من الطائفة الكاثوليكية يعين لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد، وذلك كله بموافقة الدول الموقعة على هذا النظام . ولم يكن في متصرفية جبل لبنان الجديدة هذه حامية تركية ولم تدفع ضرائب تخزينة القسطنطينية ولم يكن على اللبنانيين ان يقوموا بالخدمة العسكرية . وكان المتصرف الاول في الجبل داود باشا (١٨٦١ - ٨) وقد اطلق اسمه على كلية الصبيات التي أنشئت بالحكومة في عييه عام ١٨٦٢ وهي اليوم مؤسسة درزية تعرف بالداودية .

وسار لبنان في مضمار التقدم في ظل متصرفه ومجلسه الاداري المنتخب سيراً لم تعرف مثله اي مقاطعة اخرى مجاورة . وقد عد هذا الحكم في لبنان كآحسن مثال للاستقلال طبق في

(١) قد الفى الامير بشير ذاتي واساؤه العام وابسوا مثل المصريين الطرايش الغربية القصيرة ذات المراويب الغليظة ولا يزال يلبسها من الشيوخ في سورية ولبنان من أبناء الجبل القديم . قابل حيدر من ١٩٣٥ - ٦٠ .

مقاطعة تركية (١). فنية بلغ استتباب الامن العام ومستوى الحياة السياسية والاجتماعية درجة لم تبلغها اي مقاطعة اخرى في الامبراطورية كلها (٢). واخذ سكان الجبل يزدادون وكان المنفذ لازدياد السكان الهجرة الى مصر واستراليا والاميركتين حيث لا تزال جاليات كبيرة من ابناء اولئك المهاجرين تعيش مزدهرة الى اليوم . وظل لبنان محافظاً على استقلاله حتى الحرب العالمية الاولى حين انتزعه منه الاتراك . وقد اجتذب لبنان المستقل الى حظيرته من المعلمين الغربيين والوعاظ والاطباء والتجار ما لم تجذبه اي بلاد اخرى في الشرق الادنى . وكون الاكثرية فيه مسيحية جعله اكثر قبولاً للأفكار وطرف العيش الاوربية والاميركية . وقد اصبح الآن اكثر مما كانت ايام بشير وفخر الدين النافذة التي يتطلع منها العالم العربي الى العالم الخارجي .

العراق

كانت سيرة العثمانيين في وادي الفرات التي بدأت سنة ١٥٢٤ موازية لسيرتهم في وادي النيل . فالباشوات الاتراك والزعماء المحليون والماليك يتنازعون على السيادة بينما كانت عامة الناس والجاهل تشقى من الفساد واضطراب الامن وامتناع العدالة . وقد اخذت سلطة الحكام الاقليميين تتضاءل هناك ايضاً كما تضاءلت في كل موضع آخر في اواخر القرن السادس عشر بعد أن انقضت فترة ازدهار الامبراطورية . ودارت اخراصات تاريخية حول الشخصيات والديانس في بغداد . وبغداد أهم الولايات الثلاث التي قسمت البلاد اليها . وكانت الولايات الاخرى ان البصرة والموصل . وهكذا فان تلك البلاد التي اشتهرت قديماً في عهد حمورابي وعهد نبوخذ نصر ونمت في العصور الوسطى في عهد الرشيد والمأمون قد أصبحت في عهد الاتراك مجهولة ومنسية لدرجة لم تعدها ، ربما ، في كل ادوار تاريخها .

وكانت الظواهر التي تميزت بها وضعية العراق منبثقة عن اغلبية العنصر الشيعي في

(١) William Miller, *The Ottoman Empire 1801-1927* (Cambridge, 1908), p. 386 .
(٢) *Syria and Lebanon* (handbook under the direction of the historical section of the Foreign Office (London, 1920), p. 37 .

سكانه وصعوبة المواصلات مع مقر الدولة في القسطنطينية وقربه من بلاد فارس الشيعية والخلاف وبعد الشقة بين المدينة والقبيلة فيه . وكان العراق في هذا العهد كما كان في أيام البيزنطيين موضوع نزاع بين القسطنطينية وفارس - كل يريد امتلاكه . وكان أيضاً أهم معقل للشيعة بصفته مركز المشاهد المقدسة عندها - مشهد الحسين في كربلاء وعلي في النجف والامامين السابع والتاسع في الكاظمين . وكان أبناء الشيعة ينظرون الى الخلفاء السنيين كالسلطان العنانيين مثلاً نظرهم الى معتصمين يفتأ كانوا يعتبرون الفرس اصدقاء وحلفاء . وقد جمعت قضية الشيعة بين العراق وفارس وكانت لها رابطة وثيقة ، وكانت فارس وتركيا طيلة القرن السادس عشر في حالة أشبه ما يكون بالخصومة ان لم تكن الخصومة حقاً . وفي مناسبتين اولاهما في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٦٢٣ نجح الشاه في احتلال بغداد بفضل خيانة احد العصاة الانكشارية . وظل العراق خمس عشرة سنة امانة تابعة للمملكة الصفوية . وكذلك سمل احد ولايات بغداد دخول الفرس مرة اخرى الى بغداد وذلك سنة ١٧٧٣ . واذا استقينا ما كان يحويه الاراك من العراق فاز أهم مصالحهم فيه كانت تدور على استعماله كقاعدة تواجه الشواطيء الشرقية في الجزيرة العربية هذه الشواطيء التي لم يستطيعوا ان يحكموا السيطرة عليها . وقد ألحقت الحروب التركية الفارسية الضرر باقتصاديات البلاد وأعاقت الحج الى مشاهد الشيعة وكان الحج مصدراً هاماً من مصادر التدخل الوطني . وكان ظهور شركة الهند الشرقية البريطانية في اوائل القرن السابع عشر قد وضع العراق في مركز استراتيجي على الطريق البري بين الشرق والغرب . ولم يأت آخر ذلك القرن حتى كان الانكليز قد فازوا على منافسيهم البرتغاليين والهنولنديين في التسابق على السيادة البحرية التجارية في الخليج الفارسي . وزاد في أهمية العراق الاستراتيجية اكتشاف البترول في تربته وقد منحت شركة النفط العراقية الامتياز لاستخراجه واستثماره سنة ١٩٢٥ لمدة ٧٥ سنة . وكان البدو مصدر ازعاج دائم بسبب غزواتهم وتعدياتهم وسوء تصرفاتهم وكانت المواصلات التركية بين عاصمة الدولة ومركز الولاية تحت رحمة ابناء الصحراء ورجال العشائر في الجبال . ففي منتصف القرن الثامن عشر عقد كثير من قبائل البدو في الفرات

الاسفل حلقاً فيما بينهم وانحدوا معاً تحت اسم المتفق وسبوا متاعب كثيرة لا لباشوات بغداد
فحسب بل للماليك المحليين ايضاً والسكان المدن .

وكان الماليك بالاكثير ارقاء جراكسة الأصل وكانت حكومتهم حكومة عمال مستقلين
ولم يكونوا نواباً عن السلطان ، وكان اولهم سليمان اغا^(١) (وبعدئذ باشا) ابولي قد
نال السلطة سنة ١٧٤٧ . وكان آخر ملوك اسمه داود (توفي ١٨٣٠) وكان مثقفاً لدرجة
انه بنى مدارس في بغداد . وكانت البلاد في قبضة حكومة افراد من الماليك اكثر من
ثمانين سنة . وحاولت القسطنطينية بعد حرب القرم (١٨٥٣ - ٦) ان تدعم مكانتها فيها
وثبتت هيبتها فركزت في بغداد حامية قوية . وارسلت سنة ١٨٦٩ مدحت باشا والياً عليها
وكان من افضل سياسيين تركيا وارقاها واكثرهم حباً للتقدم والحرية . وقد حاول مدحت ان
يوقف الاعمال الاجرامية التي كانت ترتكب والتعديات وأن يحضر البدو ويحسن اعمال الري
ويحدث نظاماً لتسجيل الاراضي واملاكها . وكان هذا الموظف التركي اميناً لدرجة انه
اضطر ان يبيع مائة جيبه فيما قيل اسكي يحصل على ما يكفيه من نفقات السفر الى القسطنطينية
حين عاد اليها^(٢) . وكانت ادارته القصيرة الامد الناحية المشرقة الوحيدة في تلك الصورة
القائمة . وقد اضاف الى مآثره مآثره اخرى حين وضع اول دستور لبلاده .

الجزيرة العربية

كانت الجزيرة العربية كتلة مستقلة بذاتها متميزة من كتلة افريقية الشالية وكتلة الهلال
الخصيب ومصر . وقد أحاطت بالجزيرة بصفتها مهد الاسلام هالة من القدسية ومن هنا صار
لها مكانة خاصة في قلوب المسلمين في كل العالم . وقد طبعها قدسيتها هذه وانعزالها الجغرافي
ومواصلاتها غير المنظمة بطابع العصور الوسطى الذي لا يزال يميزها حتى الآن . وقد غير
الحجاز واليمن تنوع خاص بالانعزال والاقطاع عن الافكار والتأثيرات الغربية وهما اكثر

(١) كانت هذه السكفة في الاصل تركية شرقية يعني الشيخ اكبر فاسماعيليا العثمانيون اولاً بمعنى سيد او
مول ثم أطلقت بعد ذلك كلاب على كل ضابط في الجيش من ادى رتبة حتى رتبة رئيس .

(٢) Stephen H. Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*. (Oxford, 1925), p. 300. (٦)

اجزاء الشرق الادنى عزله وانطواء على النفس .

ومع ان اليمن لم تكن مرة جزءاً من مسرح حياة النبي فانها كانت متعزلة منطوية على نفسها كالحجاز ان لم يكن اكثر . وسكان اليمن زيدية من اتباع زيد حفيد الحسين القنول عام ٧٤٠ في ثورته على الامويين . ومع ان الزيد قد تفرعوا عن الشيعة فانهم لا يتمسكون بكل عقائد الشيعة وقد أصبحوا من هذه الناحية اقرب ما يكون الى السنة . وكانت احد زعمائهم واسمه القاسم قد استطاع عام ١٦٣٣ ان يطرد الوالي التركي من اليمن ويؤسس امامة وطنية دامت مع تقلبات الزمن حتى ١٨٧١ . غير ان البلاد عادت عام ١٨٤٩ فاصبحت ولاية تركية دامت حتى قيام الامام يحيى عام ١٩٠٤ . وفي عام ١٩٠٥ احتل الامام صنعاء التي أصبحت فيما بعد عاصمته ولكن الباب العالي لم يعترف باستقلال حكومة الامام في اليمن حتى عام ١٩١١ . وفي الواقع لم ينسحب الاتراك بالكلية من اليمن حتى السنة الاخيرة من الحرب العالمية الاولى . وقد اغتيل الامام يحيى كما مر معنا في شباط عام ١٩٤٨ بدسيسة دبرت في القصر . وقد زار اليمن في السنوات الاخيرة رحالة شامي مسلم وكان يرافقه فيها حرس خاص من قبل الامام يحيى نفسه ومع ذلك فقد كاد يهاجمه الاهلوت عند مأرب لانسب الاله ظهرهم كالترب (١) . وقد كتب الرحالة القسائي الاميركي امين الرحاني انه في كثير من الظروف حين كانت يقدم الى الفقهاء في اليمن التي زارها في اوائل العقد الثالث من هذا القرن كان بعضهم يعمدون حذرا الى النظارات القاتمة يضعونها على عيونهم كي لا تلتوث برؤيته .

وفيما عدا المملكة العربية السعودية ومملكة اليمن وحما الدولتان الوحيدتان المستقلتان استقلالاً حقيقياً في الجزيرة العربية فانما نجد فيها من الاقسام السياسية مستعمرة عدن ومحيطها وسلطنة سقط وعمان ومشيجات شاطئ الهند (Trucial coast) ومشيخات الكويت وقطر والبحرين وكل هذه المناطق تعتمد بدرجات متفاوتة على بريطانيا العظمى وتتمتع بنوع من الحماية البريطانية . اما عمان والشاطي، الجنوبي الشرقي فقد كانت من

(١) تربية العظم . رحلة في بلاد العرب المعجزة (القاهرة - ١٩٢٧) ص ٢٠ .

قبل تحت النفوذ البرتغالي ثم أصبحت بعد ذلك تحت النفوذ البريطاني ولكنها بخلاف الحجاز
ومجد واليمن لم تخضع مطلقاً لتركيا^(١). وكانت سلطتها المستقلة بالاسم ومركزها مستط قد
حافظت مدة قرن ونصف على العلاقات بينها وبين الحكومة البريطانية. وقد بُدِئت
هذه الروابط في معاهدة أمضيت عام ١٩٣٩. وأما الشاطئ الممتد على الخليج الفارسي من
الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة قطر جنوباً إلى مسافة نحو أربع مئة ميل المعروف
سابقاً بشاطئ القرصنة فقد كانت يخص شيوخ شاطئ الهدنة. وبعد فترة من النزاع مع
شركة الهند الشرقية أمضى هؤلاء الشيوخ مع الحكومة البريطانية معاهدة عامة تنص على
السلم وإيقاف أعمال القرصنة وتجارة الرقيق. ولا تختلف علاقة قطر مع الحكومة البريطانية
عن علاقة المشيخات جنوبيها وقد نظمت هذه العلاقة بمعاهدة أمضيت عام ١٩١٦. وكذلك
وضعية البحرين فهي مماثلة لها. وقد أضيف إلى صناعة استخراج اللؤلؤ في الجزيرة^(٢) صناعة
اخرى في عام ١٨٣٢ أكثر نمواً وجدوى هي صناعة استخراج الزيت وقد أُسندت إلى
شركة نفط البحرين المسجلة في كندا. وقد اكتشف الزيت أيضاً في الكويت التي اعترفت
الحكومة البريطانية باستقلال مشيختها في تشرين الثاني عام ١٩١٤ ويملك الزيت فيها
شركة بريطانية اميركية.

وتمتد محمية عدن من مستعمرة عدن متجهة شرقاً وتضم لحج وحضرموت ومهرة وسقطرة.
وكانت المنطقة حتى منتصف القرن الثامن عشر تحت حكم امام صنعاء. وتعتبر عدن
مفتاح المدخل الجنوبي للبحر الاحمر وقد أُخضعت بالامبراطورية البريطانية عام ١٨٣٩.

الوهابية

لا يبدأ تاريخ الجزيرة العربية الحديث حتى ظهور الموحدين في منتصف القرن الثامن
عشر. وكانت حركتهم حركة احياء المدين وتمسك شديد بنصوصه بدأها نجد من العينة اسم
محمد ابن عبد الوهاب (المتوفى ١٧٩٣) فبعد ان طاف ابن عبد الوهاب في الحجاز والعراق

(١) انظر ص ٨٣٧ من هذا الكتاب.

(٢) كان لهذه الصناعة شهرة عالمية وقد اخذت تدهور اليوم.

وسورية عاد الى وطنه وقد تأثر كثيراً بفكرة هي ان الاسلام كما يدرسه معاصروه قد
انحرف كثيراً عملياً ونظرياً عن طريق السنة التي استنبها القرآن والنبي وقرر ان يدقيه هو
نفسه ويعيده الى حالته البدائية زمن السلف الصالح . وقد استمد إلحاحه من ابن حنبل كما
شرحه ابن تيمية (١) وقد وجد هذا المصلح الجديد الملهم في محمد ابن سعود (المتوفى ١٧٦٥)
خير نصير . وكان هذا زعيماً من زعماء اواسط الجزيرة واصبح صهراً لابن عبد الوهاب .
وهذه حادثة أخرى يقرن فيها الدين والسلطة وقد نتج عنها انتشار سريع لحركة الموحدين
وتفوذ ابن سعود في كل وسط الجزيرة العربية وشرقها . وكانت خصوم هذه الحركة
باعتبار اتباعها وهابيين فلتق بهم الاسم . وفي غيرة هؤلاء . والدفاعهم لتقنية الاسلام من
عقيدة تكريم الاولياء وغيرها من البدع اجتاحتها كبر بلاد عام ١٨٠١ وفتحو مكة عام
١٨٠٣ والمدينة عام ١٨٠٤ وهدموا القبور التي كانت تزار وتكرم وطهروا تلك المدن كما
قال ابن بشر من كل ما يشتم منه رائحة الوثنية (٢) . وفي السنة التالية هاجموا سورية والعراق
ويوسعوا ملكهم من تدمر حتى عمان فكانت اكبر ملك في الجزيرة منذ ايام النبي . وقد
فسر نجاحهم على انه اشارة من الله سبحانه وتعالى الى انه غير راض عن البدع التي يأتونها
السلطان سليم الثالث (٣) . ولما خاف الباب العالي عاقبه الامر طلب الى محمد علي ان يقوم
بحملاته التي افضت عام ١٨١٨ الى تحطيم قوة الوهابيين وذلك عاصمتهم الدرعية وهدمها من
اساسها (٤) . غير ان العقائد الوهابية ظلت تنتشر وظل اثرها ملفوساً من سومطرة شرقاً
حتى نيجيريا في الغرب .

...العزيز الذي هو

وإذا استثنينا فترة قصيرة من استعادة النشاط في حركة الموحدين بدأت عام ١٨٣٣ فإن

(١) انظر ص ٥٥ و ٥٦ من هذا الكتاب .

(٢) عثمان ابن بشر، عنوان الجبل في تاريخ نجد (مكة: ١٣١٩) ج ١ ص ١٢١ - ١٢٢، Musul, Northern Negd, pp. 261-7.

(۳) انظر من ۸۰۶ من هذا الكتاب .

$\frac{1}{2} \times \frac{1}{2} = \frac{1}{4}$

هذه الحركة ظلت هادئة حتى بعثها مرة ثانية زعيمها الحالي عبد العزيز ابن سعود معيد الدولة الوهابية ومنفذ سلطان أسرته. وقد بدأ عبد العزيز سيرته مقصياً في الكويت ثم استطاع بعد ذلك في الربع الأول من القرن العشرين أن يخطط لنفسه مملكة - انزعها من آل الرشيد في حائل وعائلة الشريف حسين في مكة - تمتد من الخليج الفارسي الى البحر الأحمر. وكان الملك حسين قد أعلن عام ١٩١٦ باعاز من الانكليز انه ملك العرب ثم اتخذ لنفسه في ١٩٢٤ لقب خليفة المسلمين (١). أما ابن سعود فقد قضى على سلطة آل الرشيد عام ١٩٣١ ثم فتح مكة ١٩٢٤ والمدينة وجدة ١٩٢٥ وأوجد في عام ١٩٣٢ المملكة العربية السعودية التي لا يزال يرأسها (٢). وقد منع ابن سعود الغزو بين القبائل، وحدد رسوم نقل الحجاج، وحقق الأمن بصورة لم يسبق لها مثيل، وأدخل الراديو واللاسلكي والتلفون والسيارة لبعض المناطق في مملكته، وحاول أن يقر دعائاه البدو في الأراضي الزراعية ويعلمهم أخواناً (٣). ولكنه لم ينجح تماماً في تخضيرهم. وبعد أن كان الخليج أهم موارد الدخل أصبح الزيت الآن أهم مورد للحكومة والشعب. وقد نالت الشركة العربية الأميركية امتيازها الأول لاستخراجها في عام ١٩٣٣ ولا يزال أثرها في شر الحضارة الحديثة في الجزيرة مستمراً بنجاح.

النشاط الفكري

لم يكن يُنتظر أن يصدر أي أثر فكري عظيم في البلاد العربية في مثل تلك الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي اقتتها تحت الحكم العثماني. ولكن سبب البلا، كان عمق من هذا فقد أطفئت شعلة الابتكار الإسلامية قبل ظهور الأتراك بقرون (٤). وكان الانتصار التام الذي أحرزته طريقة الفقه المدرسية ابتداء من القرن الثالث عشر وتقوق السنة

(١) انظر تفصيل ثورة الحسين على الأتراك في: ابن سعود، «ثورة العربية الكبرى» ج ١ (القاهرة، ١٩٣٩) ص ١٢٠ وما يلي.

(٢) انظر التفصيل في: St. J. B. Philby, Arabia. (London, 1930), pp. 160 seq.

(٣) K. S. Twitchell, Saudi Arabia (Princeton, 1947), pp. 121. seq.

(٤) انظر ص ٨٢٠ - ٨٢١ من هذا الكتاب.

والمصوفية في الناحية الروحية واخلال الروح العلمية وانتشار مبدأ تقديس القديم دون تمحيص
لوقته والتمسك بالتقاليد - كل هذه - كانت عاملاً على إعاقة البحث العلمي والانتاج الصحيح.
وهكذا وضعت القيود للعقل العربي ولم يبدأ انحلالها حتى أول القرن التاسع عشر وذلك
بشأنير الغرب (١).

لقد كانت كتاب هذه الحقبة في الأغلب من المفسرين والمقتبسین والمخلصين وكانت
الشكلية الأدبية والصلابة الفكرية تميز انتاجهم. وكان حجي خاقه (المتوفى ١٦٥٨) المص
كتاب العربية الاتراك. وقد دعاه بنو قومه «كاتب جاني» (كاتب صغير) وكانت من
القسطنطينية وبدأ حياته أول الأمر كمكاتب حر في الجيش العامل في بغداد والشام. ويعتبر
كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (٢) من أعظم المؤلفات عن الكتب
والابحاث والدراسات العامة في اللغة العربية وأصعبها.

وكان يمثل النشاط الأدبي في مصر عبد الوهاب الشعراني (المتوفى ١٥٦٥). وهو صوفي
لم تنفصر تأليفه على الصوفية بل تعدتها إلى العلوم القرآنية واللغوية. وقد نسبوا إليه أنه كان
يحدث الملايكة والانبيا (٣) وأنه الفقيه المحافظون بالزندقة وامتحنوه لذلك. وترك
طائفة كبيرة من المؤلفات (٤) أصبح لبعضها شهرة رغم انعدام الجودة والابتكار فيها
وقد نخص في كتابه الطبقات السكبري (٥) سير أشهر الصوفيين (٦) وكانت مصر أيضاً
مسرحاً للنشاط العلمي الذي أظهره لغوي مشهور هو السيد مرتضى الزبيدي. وقد ولد
الزبيدي سنة ١٧٣٣ في شمال غربي الهند ولما تفاعد عن عمه مع الحكومة أخذ في تأليف

١ انظر من ٨٧٦ من هذا الكتاب وما يلي.

٢ ترجمه وترجمه غفراني في ٧ مجلدات (البرنج ولفن ١٨٣٢ - ٤٨).

٣ الاثر الأدبي في بيان آداب المودبة - على هامش طبقات السكبري (القاهرة ١٩٢٥) ج ١
من ٣ وما يلي.

٤ راجع عنها: Brockelmann, Geschichte, vol. II, pp. 33-8.

٥ في مجلد (القاهرة ١٩٢٤).

٦ راجع عن الصوفية وسيطرتها في مصر المعاصرة كتاب «الصوف في مصر ابن العصر المعاصر»
لدرويش الطويل (القاهرة ١٩٤٦) من ١ - ٤٦ - ٢٠٠ - ٢٣٢.

شرحه على قاموس^(١) الفيروز آبادي الكبير في القاهرة وانها موسيعة تاج العروس^(٢) . ولم يثبت ان مات في الطاعون الذي اجتاحت القاهرة سنة ١٧٩١ . ولعل عبد الرحمن ابن حسن الجبرتي (المتوفى ١٨٢٢) أهم المؤرخين المصريين الذين استعنا بهم في كتابة هذا الفصل . وهو منسوب الى جبرت في الحيشة فتمها وقد اجداده الى القاهرة . وكانت الجبرتي استاذ علم الفلك في الازهر وقد عينه نابليون عضواً في المجلس « الديوان » الذي انشأه . وكان الفرنسيون يأملون ان يحكموا البلاد بواسطة هذا المجلس . اما الجبرتي ان الجبرتي فشل عند عودته الى بيته بأمر من محمد علي لانه انتقده فلبس له اساس من الحقيقة . واما كتابه « عجائب الآثار في تراجم الأخبار »^(٣) فان قسماً منه تاريخي والقسم الآخر في التراجم . وكان من المؤرخين اللبنانيين الذين اخذنا عنهم ايضاً في هذا الفصل ثلاثة من الموارد اولهم اسطفان الدويهي^(٤) (المتوفى ١٧٠٤) وقد تعلم في مدرسة اللاهوت التي انشأها لهايا غريغوري الثالث عشر في رومة عام ١٥٨٩ لاعداد الطلاب الموارد للعمل الاكبركي . وقد وصل الدويهي الى أعلى وظيفة في كنيسة واصبح بطريركاً . والثاني الامير حيدر^(٥) (المتوفى ١٨٣٥) احد افراد الاسرة الشهابية الارستقراطية التي امتدت لبنان بكبر من حكمه الاقطاعيين . والثالث طنوس الشدياق^(٦) (المتوفى ١٨٥٩) وقد ولد في جوار بيروت وعين قاضياً زمن الشهابيين . غير ان أعظم عالم ماروني بل لبناني في ذلك العصر دون منازع هو يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ - ١٧٦٨) وكانت ايضاً من خريجي مدرسة اللاهوت في رومة . فبمساعي هذا العلامة اللبناني تيسر للإبحاث الشرقية لاسيما من حيث علاقتها بالعلاقات المسيحية ان تعم في الغرب . وقد نتج عن عمله في مكتبة الفاتيكان است ازدادت كثيراً مجموعة المخطوطات الشرقية التي تعد اليوم من أغنى المجموعات الخطية في العالم . وأروع

(١) معنى هذه الكلمة الأسس المخطوطة او الاوفيانوس ولكنها أصبحت الآن مرادفة لكلمة قاموس .

(٢) في ١٠ مجلدات (القاهرة : ١٣٠٧) .

(٣) ان الطبعة التي استعنا بها من في ١ مجلدات (القاهرة : ١٣٢٢) .

(٤) من كتابه تاريخ الطائفة المارونية ، نشر رشيد الشرتوني (بيروت ، ١٨٩٠) .

(٥) من كتابه تاريخ الامير حيدر نشر عموم مغيب (القاهرة : ١٩٠٠) .

(٦) « اخبار الاعيان في جبل لبنان » (بيروت ، ١٨٥٩) .

آثاره كتاب « المكتبة الشرقية »^(١) *Bibliotheca Orientalis* وفيه دراساته عن تلك المخطوطات نفسها السريانية والعربية والعبرانية والفارسية والتركية والحشية والارمنية ولا يزال هذا الاثر الى اليوم مصدراً رئيسياً للاخبار عن المكتاس في الشرق .

وهناك في سورية كتابات يمكن ان يعتبرها خير ممثلين للروح الاديبية في ذلك العصر وهما الحبي والنابلسي وقد كانا كلاهما من دمشق الشام وكتبهما كثيراً . فاما الحبي (المتوفى ١٦٩٩) فقد تعلم في القسطنطينية وكان قاضياً ماعداً في مكة لمدة قصيرة واستاداً في دمشق مسقط رأسه . وأهم آثاره كتاب في التراجم يحتوي ألفاً ومئتين وتسعين سيرة لأعيان القرن الحادي عشر للهجرة (١٥٩١ - ١٦٨٨) اسمه « خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر »^(٢) . واما عبد القوي النابلسي (المتوفى ١٧٣١) الفلسطيني الاصل كما يستدل من اسمه فقد كان رحالة صوفياً وقد تخلف عنه طائفة من الآثار العلمية اكثرها لم ينشر بعد^(٣) . وقد سيطرت الصوفية على حياته وتفكيره . غير ان أهم خدماته للعلم تنحصر في اختيار رحلاته برغم العناية التي اولاهها فيها لمقامات الاولياء والاساطير المتعلقة بها .

(١) 4 vols. (Rome, 1719-28)

(٢) في ٤ مجلدات (القاهرة، ١٩٢٨) .

(٣) من الكتب الاخيرة التي نشرت له كتاب « ذخائر الموارث في الالة على مواضع الاحاديث » ٤ في ٤ مجلدات (القاهرة ، ١٩٣٤) .

الفصل الثاني والخمسون

المشهد المتغير: تأثير الغرب

نقد كان نزول نابوليون أرض مصر فاتحة عصر جديد من نواحي عديدة فهو يؤرخ أول العهد الذي وقعت القطيعة فيه مع الماضي . وقد استجلب القائد الفرنسي معه إلى القاهرة معدات كثيرة منها مطبعة عربية كان قد نهبها من الفاتيكان . وكانت هذه المطبعة الأولى من نوعها في وادي النيل وأصبحت فيما بعد معروفة بمطبعة بولاق المشهورة التي لا تزال مطبعة الحكومة الرسمية . ونقد استعان بها الفاتح الفرنسي لإصدار نشرة للدعاية في اللغة العربية . وأثقف فوق ذلك شبه مجمع علمي أو أدبي ومكتبة للطباعة . وكان الناس في العالم العربي حتى ذلك العهد يحبون حياة العزالية تقليدية قوامها المحافظة على القديم والتمسك به لا يعرفون التقدم ولا يفتشون إلى ما حققه العالم الخارجي منه ولا يشعرون برغبة في التغيير . فكان هذا الناس المقاحي ، بالغرب بمثابة أول قرعة ساعدت على إيقاظهم من سباتهم العميق وقدحت الشرارة الفكرية الأولى التي قدّر لها أن تشعل زاوية من العالم الإسلامي .

انتفاذ نفوذ إلى مصر

وأدرك محمد علي الإمكانيات التي كانت هذه الصلة الثقافية الأولى فشرع في حركة التعليم بدعوة الضباط من الأفرنسيين وغيرهم من أهل أوروبا للتدريب جيشه ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فأرسل بعثات من الطلبة للدرس والتدريب في أوروبا (١) . وقد جرى في ذلك على منوال الأتراك الذين سبقوه في هذا السبيل . وكانت نقطة الاختلاف في كلنا الحائنين - قضية التعليم العسكري - ولكن اللغة وهي من متطلبات التدريب العسكري إذا انفتحت كان فيها المفتاح لخزائن المعرفة - الفكر الغربي في هذه الحالة وما فيه من المبادئ الوطنية

والديمقراطية والعلمية والعلمانية وغيرها من الأفكار المتفجرة ، وقد أخذ مؤسس مصر الحديثة بإنشاء مدارس في أرض وطنه لا للعلوم العسكرية فحسب بل للطب أيضاً والصيدلة والهندسة والزراعة غير أنه مع الأسف لم يبق من هذه المؤسسات التربوية التي أنشأها محمد علي إلى ما



مسجد محمد علي الكبير

بعد وفاته سوى قليل جداً . حتى أن الكثير من المؤسسات التي أنشأها ابنه اسماعيل (١٨٦٣-٧٩) لم تعمر طويلاً . وكان اسماعيل أول من أنشأ مدارس للبنات في مصر . ورغم عطفه نحو الغرب ونصرته ان مصر جزء من أوربا فقد أصدر سنة ١٨٦٦ مرسوماً أغلق فيه المدارس الالمانية المسيحية . أما المدارس الحكومية التي أنشئت فلم تكن مجهزة حسب الأصول ولا مدعومة بقوة ولم يكن لها وظيفيات ولا مورد من المعلمين المدربين تختار منهم اساتذتها

ولم يتمكنوا ان تستند الى انتاج غير منقطع من الكتب المدرسية في اللغة العربية - لغة التعليم .
غير ان هناك مؤسسة واحدة أنشأها اسماعيل وعاشت حتى الآن وهي المكتبة الخديوية التي
بدأها بيضة كتب جالسا من القصور والجوامع وهي الآن مكتبة كبرى تضم نحو نصف
مليون مجلد .

وقد أسس في عهد اسماعيل كلية اميركية في اسبوط سنة ١٨٦٥ ولا تزال تعمل الى
الآن . وقد بدأت كلية البنات الاميركية عملها في القاهرة كمدرسة ابتدائية منذ سنة ١٨٦١ .
وكانت الارشالية المشيخية المتحدة الاميركية قد شرعت في عملها قبل ذلك بسبع سنوات .

الى سورية ولبنان

كانت حقبة الاحتلال المصري السورية (١٨٣١ - ٤٠) عهداً جديداً في تاريخ البلاد
الثقافي (١) فقد زعم ابراهيم باشا سلطة الزعماء الاقطاعيين المحليين (المقاطعية) وطبق امر
فرض الضرائب المنظمة وارغم الجميع على الاعتراف بحقوق غير المسلمين في الوظائف المختلفة
في دوائر الحكومة المحلية (٢) . وكان منشوره سنة ١٨٣٩ الذي يقول بالمساواة بين افراد جميع
الطوائف امام القانون قد طبق ونفذ حالا بخلاف المنشورات السابقة التي كانت تصدر عن
السلطين العثمانيين (٣) . ولم يتردد في استعمال القوة مع مسلمي دمشق وفسد الذين اعترضوا
على تغيير حالة مواطنيهم الذميين وارغمهم على قبول النظام الجديد . وبينما لم يستطع القنصل
البريطاني قبل هذا المنشور بربع سنوات ان يدخل دمشق راجياً دون حرس لحايشه الصبح
بعد صدوره بسنة يركب اتي شاء في دمشق دون اي حرس (٤) .

وكان من اثر هذه السياسة الرحبة الجديدة والحرية والأمن ان أخذ الاوربيون يفسدون
الى البلاد اكثر من قبل فعاد اليسوعيون الذين كان البابا قد أوقف منظماتهم سنة ١٧٧٣

(١) انظر من ٨٥٣ و ٨٦٣ من هذا الكتاب .

(٢) انظر من ٨٦٣ من هذا الكتاب .

(٣) انظر من ٨٥٥ - ٨٦٦ من هذا الكتاب .

(٤) Syria and Lebanon, p. 27.

واستقروا في البلاد بعدد اوفر (١). ونجت الارسلات الانجيلية (البروتستانتية) - الامريكانية - الاميركية - اقدامها في الاراضي اللبنانية . وتأسست في سنة ١٨٣٨ الكنيسة الانجيلية الوطنية السورية . وفي السنة نفسها قام عالم اثري اميركي اسمه ادورد روبنسن بدورة اثرية في فلسطين



مدخل القدس من باب العامود وقد كانت هذه المدينة في القرن التاسع عشر بما فيها من مشاهد مختلفة وما يحيط بها من الاراضي المقدسة قبل اختار علماء الآثار الغربيين

كانت الاولى من سلسلة حوادث انتهت بكشف كنوز قيمة من تاريخ هذه البلاد وشرحها للناس وتعميمها بينهم . وقد انتقلت قبل ذلك بثلاث سنوات مطبعة الارسالية الاميركية من مالطة الى بيروت . وتأسست سنة ١٨٥٣ المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في الجانب الآخر من المدينة . ولا تزال هاتان المطبعتان في مقدمة المطابع العربية في غربي آسيا . وقد ظهرت ترجمات عربية لعصرية للكتاب المقدس عن هاتين المؤسستين . وعرفت سورية قبل هذا العهد مطبعتها العربية الاولى وذلك في حلب سنة ١٧٠٢ وقد أدخلها اليها المسيحيون . ولعل المحافظة او التسلك الديني عند المسلمين فيما يتعلق بكلام الله أعاق انتشار صناعة الطباعة.

ولا يزال الى اليوم نرى كيف ان القراءات الكريمة يكتب ويطلع على الحجر ولكنه لا يطبع كتبه من الكتب بواسطة حروف منضدة . اما المطبعة الخلبية التي اشرفنا اليها فلا يزال اصلها محاطاً يستار من الغموض ولعلها قد تفرغت من اخرى اوربية . وقد ظهرت اول مطبعة عربية في اوربا في (فلان) من اعمال ايطاليا برعاية الباشا على الارحيج . ولا يزال لدينا من اصدارها كتاب صلاة يرجع عهد طبعه الى ١٥١٤ . وكان للبنان في احد ادبرته - دير قزحيا - مطبعة سريانية يمكن ان يكون قد استجلبها من روما واحد من هؤلاء العلماء الموارنة الذين درسوا هناك (١) . ولدينا من هذه المطبعة نسخ من المزامير في اللغة السريانية واخرى في العربية ولكن بحرف سرياني (٢) . ويجب ان نذكر ان السريانية كانت لا تزال لغة محكمة في لبنان الشمالي حتى آخر القرن السابع عشر (٣) .

وتوجد مؤسسات التربية الاميركية مساعيا سنة ١٨٦٦ بتأسيس الكلية السورية الانجيلية وهي اليوم جامعة بيروت الاميركية ، وبلغ نشاط اليسوعيين التربوي الذي بدأ في اول القرن السابع عشر (٤) ذروته سنة ١٨٧٤ بتأسيس جامعة القديس يوسف في بيروت . ولا تزال هاتان الجامعتان محافظتين على زعامة حركة التربية في ذلك الجزء من العالم العربي . وقد تأسست في بيروت قبل الجامعة الاميركية مدرسة اميركية للبنات وكان ذلك عام ١٨٣٠ ولا تزال مزدهرة حتى يومنا هذا . وبدأت الارشالية العازرية عملها في دمشق منذ عام ١٧٥٥ . ثم اخذت بعد ذلك بنحو عشرين سنة في تأسيس مدرسة للصبيان هي اقدم مدرسة عصرية في تلك المدينة . وقد سبقت هذه المدارس في ظهورها كل المدارس العصرية الحكومية وكانت نموذجا للمؤسسات المتأخرة العامة والخاصة . ولا يزال رجال التهذيب الى اليوم يبذلون عناية خاصة في تدريس اللغات الاجنبية حتى في المدارس الوطنية . واستعمل الافرنسية او

(١) انظر ص ٨٧٤ من هذا الكتاب .

(٢) « كرسوفي » انظر Hitti, History of Syria, p. 546 . وراجع لويس شيخو « تاريخ فن الطباعة في الشرق » الشرق ج ٣ (١٩١٠) ص ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٣) فابسل D'Arvieux, Mémoires, (Paris, 1735), vol. II, p. 407; وص ٤٤٢ من هذا الكتاب .

(٤) انظر ص ٨٥٧ من هذا الكتاب .

الانكليزية غالباً كلفة للتعليم في المدارس العالية والدروس المهنية . وقد تمتع أبناء الجاليات الغربية بمعاملة خاصة وحماية بفضل الامتيازات الاجنبية .

واخذت تظهر المدارس الوطنية والمطابع والصحف والمجلات والجمعيات الأدبية على غرار المافج العربية . وظهر في مصر اول جريدة عربية سنة ١٨٢٨ وذلك حين أسس محمد علي جريدة الوقائع المصرية التي لا تزال جريدة الحكومة الرسمية . وظهرت في سورية اول جريدة سنة ١٨٢٥ هي جريدة حديقة الاخبار التي أسسها خليل انطوري في بيروت . وبعد ذلك بثاني عشرة سنة انشأ بطرس البستاني (١٨١٩ - ٨٣) في بيروت مجلة سياسية عظمى أدبية نصف شهرية اسمها الجنان . وكان البستاني رأس مدرسة وطنية ويساعد المرسلين الاميركان في اعمالهم . ولم تكن الجنان النشرة الوحيدة التي انشأها فقد انشأ عدداً كبيراً من الصحف سواها . وكان شعار الجنان « الوطنية من الايمان » وهي فكرة جديدة في اللغة العربية . وبدأ البستاني في عام ١٨٢٦ في نشر موسوعة عربية - دائرة المعارف - اكمل منها هو نفسه المجلدات الستة الاولى (١) ووضع معجماً وطائفة من الكتب المدرسية في الرياضيات والفحو . ولقد مهدت كتابات هذا الكاتب الماروني الطريق لتنبه الوعي القومي وبدء ظهور حركة القومية العربية . وقد بلغ لبنان اعلى نسبة في التعليم بين البلاد العربية وذلك في الاكثر بفضل مساعي المؤسسات التهذيبية الاجنبية والخاصة لا المدارس العامة الحكومية (٢) . ولا يزال التعليم العالي محصوراً حتى اليوم في المدارس الاميركية والفرنسية . وقد برهن لبنان انه يتقبل هذه الثقافة المتنقلة اليه من الغرب وذلك لان حضارتيهما وانماختلفتا في بعض النواحي الهامة الخاصة فلا تزالان تعتبران فرعين من مجرى رئيسي واحد وكذلك فعلت بعض البلاد العربية الاخرى فحضارة اوربا وحضارة الشرق الأدنى تشتركان في ارث واحد مشترك من التقاليد اليهودية المسيحية واليونانية الرومانية . وقد حوفظ على الصلات التجارية والاجتماعية بنسب متفاوتة منذ اقدم العصور . وفي الواقع كان الفرق بين الشرق والغرب حتى القرن

(١) لزيادة التفصيل عن البستاني راجع جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر

(القاهرة ١٩٠٣) ج ٢ ص ٢٤ - ٣١ .

(٢) Matthews and Akrawi, p. 407

الرابع عشر - أول عهد المماليك - شيئاً مصطنعاً أكثر مما هو حقيقي . ولم تقباعد الطريقة جذبتاً حتى القرن السادس عشر - أول العهد العثماني ، حين أخذ الغرب يستغل الطريقة العلمية وما يلازمها من شروط التجربة والاختبار ويرقي العلم الصناعي الفني بحيث قويت سيطرته على عالم الطبيعة بينما لم ينتبه الشرق الى شيء من هذا كله . وفي آخر القرن التاسع عشر بلغ الانفصال حده واخذت الحضارتان عند ذلك تقتربان مرة أخرى الواحدة من الثانية (١) .

ولم يكن للعراق نصيب ذو قيمة في هذا التزاوج الذي تم بين الحضارتين . وكانت قد سمح للارسلالات الكاثوليكية ان تعمل في بغداد والبصرة منذ القرن السابع عشر ولكنها لم تترك أثراً في المجتمع الاسلامي . واذا استثنينا الضباط والموظفين الذين ذر بوا في القسطنطينية فاننا نكاد لا نجد احداً بين العراقيين احتك بالافكار العصرية وأن وجد احد فهو من طبقة خاصة . غير ان البلاد كانت مفتوحة تماماً للأعمال التجارية . وبينما كان البريطانيون يشترون مركزهم في الخليج الفارسي كان نفوذهم التجاري يتغلغل في البلاد ويتغلغل معه نفوذ سياسي وهكذا اجرت البلاد الى محور الشؤون العالمية .

النفوذ السياسي

لقد اسفرت حملة ابراهيم باشا على سورية وحملة نابليون على مصر من ناحية خاصة عن نتائج متناقضة تماماً . فقد اوقفت هاتان الحملتان نظام السلطة اللامركزية القديم في كلا البلدين ودعتا الى عهد جديد من عدم الاستقلال المركزي بل قد رمتا هذه البلاد الى حظيرة مكائد الاستعمار الأجنبي فاخذت ميول الدول الكبرى الاستعمارية تتصادم فيها أكثر مما تتصادم في أي بلد آخر . وكانت المنافسة اشد ما يكون بين انكلترا وفرنسا فقد كانت كل منهما تحاول جاهدة ان تنال مركزاً ممتازاً في كل من البلدين ونفوذاً راجحاً في شؤونها للسبب نفسه الا وهو الحصول على أقصى فائدة مساعدة التجارة مع الهند والشرق الأقصى . ويمكن ان ترد كثير من حروب القرن التاسع عشر الى بعض الاصول او الاسباب في الشرق الأدنى . وقد

كان من أسباب حرب القرم (١٨٥٤ - ٦) اضطداد مطالب فرنسا وروسيا فيما يتعلق بحماية الأماكن المقدسة في فلسطين .

وكان فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ قد زاد في أهمية هذه البلاد الاستراتيجية وعجل في ادخالها مرة ثانية الى مسرح التجارة والشؤون العالمية . وقد أصبحت القناة جزءاً لا يتجزأ من خط الحياة للمواصلات الدولية وعوض عن الخسارة التي لحقت بهذه البلاد من اكتشاف الطريق الجديد حول رأس الرجاء الصالح (١) . ولقد كلف شق القناة - على طول مشة ميل - نحو عشرين مليون ليرة مصرية أجمع أكثرها من الاشتراكات العامة في أوربا وبتنوع خاص في فرنسا . وكان عدد الاسهم الخديوية ١٧٦٦٠٢ ثمن الواحد منها عشرون جنهماً مصرياً وقد اشترت بريطانيا هذه الاسهم عام ١٧٦٥ .

البريطانيون بمصر

لقد شقت القناة في عهد اسماعيل فكانت النفقات التي بذلت في سبيلها وحياة البذخ التي عاشها هذا المعامل عاملاً أدى الى افلاس الدولة وبالتالي الى التدخل الأوربي . وتقديراً للعرض السخي الذي تقدم به اسماعيل للباب العالي في مضاعفة القيمة التي كانت تدفع له منحه الباب العالي (١٨٦٦ - ١٨٧٣) ثقب خديوي (٢) وحق توريثه الى أكبر ابنه . وقد كان ذلك اعترافاً له بالملكية تقريباً . وفي عام ١٨٧٩ تدخلت بريطانيا وفرنسا وأخضع الخديوي وصارت السلطة بيد الدولتين المذكورتين . وفي الوقت نفسه اخذ الجيش يظهر استياءه من الحالة وكان ضابطه بالأكثر من الجراكسة واخذ الفلاحون يتذمرون من الضرائب الباهظة والتجنيد ونظام السخرة الذي كانت الحكومة تطبقه على الذكور المقتدرين لتنفيذ بعض المشاريع العامة القليلة النفع . واخذت حركة النعمة تلبور واشتد فأصبحت فتنة وكان بطلها ضابط في الجيش اسمه أحمد عرابي من أبناء الفلاحين (٣) . وأخذت ثورة عرابي بغتة بانتصار الانكليز

(١) انظر ص ٨٢٢ من هذا الكتاب .

(٢) من خديو العباسية بمعنى سيد أو - كم . وانظر نس الفرمان بالعربية في زبدان ، تاريخ مصر ج ٢

ص ٢٠٦ - ٨ .

(٣) لزيادة التفصيل عنه انظر زبدان ، تراجم ج ١ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

عند النيل الكبير في ١٣ أيلول عام ١٨٨٢ وانتهى امرها بقضي عراقي (١) . وقد مهدت هذه الفرصة الطريق للبريطانيين لاحتلال البلاد غير ان هذه ظلت تحت الحكم التركي اسمياً حتى ما بعد انتصار الحرب العالمية الاولى بقليل ، وذلك حين اعلنت بريطانيا حمايتها لمصر . وقد اقصي عندها الخديوي عباس حفي وخلفه عمه حسين كامل ولقب بالسلطان (٢) . اما فؤاد الذي خلف اخاه حسين عام ١٩١٧ فقد أصبح ملكاً في شباط عام ١٩٢٢ وذلك حين انتهى عهد الحماية واعلان استقلال مصر ووضع دستور هذا وجاء في الدستور ان الاسلام دين الدولة والعربية هي لغتها الرسمية (٣) واصبح نموذجاً لدستوري سورية والعراق . ولم يكن هذا التنازل من قبل بريطانيا قد تم دون جهاد من قبل الاهالي . وكان زعيم هذه الحركة القومية احد اتباع عراقي واسمه سعد زغلول . وكان كعراقي من ابناء الفلاحين اصلاً ولكنه كان اقدر من عراقي واكثر علماً . وكان ايضاً من تلامذة جمال الدين الافغاني واحد محرري الوقائع المصرية (٤) حين كان يرأسها محمد عبده . وكان فوق ذلك محامياً متحمساً (٥) فطالب في عام ١٩١٩ من البريطانيين اذناً في ان يغادر البلاد على رأس وفد ليدافع عن قضيتها امام مؤتمر السلام في باريس ولندن ولكنه اُهمِن وفي الى مائدة فكان من نتيجة هذا التدبير ان أصبح بطلاً قومياً . وقد توجت مساعيه ومناحي حربه بالنجاح حين أعضيت عام ١٩٣٦ معاهدة بريطانية مصرية تنص على انسحاب جيش الاحتلال البريطاني الى منطقة القناة واعفاء بريطانيا من مسؤوليتها عن حماية الاجانب وممتلكاتهم ووضع الامر على عاتق الحكومة المصرية . وتنص كذلك على وجوب المساعدة العسكرية للتبادة ضد الاعداء بما تنطوي عليه هذه المساعدة من حق استعمال المواني والمطارات ووسائل النقل . وقد ألغيت الامتيازات ولكن مسألة السيطرة على السودان ظلت معقدة .

(١) انظر دفاع احد البريطانيين عنه : Wilfrid S. Blunt, *Secret History of the English Occupation of Egypt* (New York, 1922), pp. 321-43 .

(٢) راجع الجدول في ص ٨٨٤ من هذا الكتاب .

(٣) زيادة الايضاح راجع : P. G. George Young, *Egypt* (London, 1927), pp. 258-67 ; P. G. Elgood, *The Transit of Egypt* (London, 1928), pp. 287, 324 .

(٤) انظر ص ٨٨٧ و ٨٨٨ من هذا الكتاب .

(٥) انظر خطابه ورسائله في عهد ابراهيم الحارثي ، انظر ابراهيم سعد زغلول (القاهرة ، ١٩٢٧) .

الانتداب الفرنسي والبريطاني

قد أخذ التدخل الاجنبي السياسي في الهلال العربي بعد الحرب العالمية الاولى شكل انتدابات تركّز بفضلها البريطانيون في فلسطين والعراق ، والفرنسيون في سورية ولبنان . وكانت مصالح فرنسا تقوم على اعتبارات اقتصادية وعلى سياسة المحافظة على اسمها وسمعتها مقابل النفوذ البريطاني وعلى تقاليد الصداقة القديمة التي تعود الى ايام الصليبيين^(١) . وقد ايدتها الامتيازات التي منحها سليمان الكبير الى فرنسيس الاول^(٢) ، فقد كانت الجنود الافرنسية هي التي نزلت لبنان بموافقة الدول الكبرى سنة ١٨٦٠ لتضع حداً للفتاح هناك^(٣) .

وكانت ادارة هذه الانتدابات التي جعلت من نوع أمموة « أ » قد قصرت عن بلوغ المثل الاعلى الذي وضعه ميثاق جمعية الامم وهو ان مصلحة الشعوب المنتدب عليها امانة مدنية مقدسة وان واجب الدولة المنتدبة هو مد البلاد بالنصح والمساعدة اللازمين لتصل الى الاستقلال التام . وقد بلغ تدمير السوريين واستيادتهم من الانتداب اشده فقد اتهموا الموظفين الافرنسيين في انهم استعملوا الطرق الاستعمارية نفسها التي استعملوها في شمالي افريقيا مبتذرين بحكومة وطنية وانهم لم يلتفتوا الى الروح القومية الناهضة فوضعوا العوائق امام اللغة العربية وخفصوا قيمة بلد بلاد بر بطة الى القرنك وفرقوا البلاد احزاباً وشيعاً وجعلوها تتخاصم فيماهاض بعضها بعضاً وعمدوا الى تدابير الضغط والاكرام مستعينين بوسائل الجاسوسية والسجن والنفى^(٤) . وكان من اسباب التدمير والشكوى ايضاً ان الفرنسيين قسموا البلاد الى دول متعددة لأغراض ادارية . وانهم اقتطعوا سنجق الاسكندرون ومنحوه لتركيا قبل انفجار الحرب العالمية الثانية . واذا كانت البلاد قد استفادت شيئاً من حفظ النظام والامن وتحسين المواصلات وتوسيع الاراضي الزراعية ونشر وسائل التهذيب ووضع جهاز حكومة عصرية

(١) انظر ص ٧٥٦ من هذا الكتاب .

(٢) انظر ص ٨٥٥ و ٨٥٦ من هذا الكتاب .

(٣) انظر ص ٨٦٥ من هذا الكتاب .

(٤) George Antonius, Arab Awakening (Philadelphia, 1939), pp. 372-4.

Albert, H. Hourani, Syria and Lebanon, (Oxford, 1946), pp. 176-8.

والمجتمع عصري فإن هذه الفائدة لم تكن كافية لإيقاف موجة الاستياء المتزايدة . وهكذا اندلعت الثورة في جبل الدروز في تموز سنة ١٩٢٥ ثم انقضت حالاً الى دمشق والمدن المجاورة . ولم تحمد هذه الروح التي ظهرت عندئذ حتى طرد آخر جندي فرنسي من الارض السورية سنة ١٩٤٥ . وكان لبنان قد بدأ حياته السياسية بعلاقات طيبة مع الانتداب وتمكن أخيراً من تحرير نفسه منه بالكيفية واعلان جمهوريته سنة ١٩٤٣ .

واخذ العراق قبل هذه العهود بسياسة العداء للانتداب البريطاني فنشبت ثورة ١٩٢٠ وبدأت بين القبائل على الفرات الاسفل وفي مدينتي النجف وكر بلا .^(١) المقدستين . وكان من نتيجةها ان حوّل البريطانيون حكمهم المباشر الى حكم غير مباشر . وقد توج فيصل ابن الملك حسين^(٢) ملكاً دستورياً على العراق في آب سنة ١٩٢٢ وذلك بعد ان جلس على عرش سورية من ٨ آذار الى ٢٥ تموز ١٩٢٠ . وعقدت بعد ذلك بضع معاهدات كان من أهمها معاهدة كانون الاول سنة ١٩٢٧ ، وفيها تعهدت بريطانيا ان تعترف باستقلال العراق ودخلت بمحافاة معه مدتها ٢٥ سنة . وكانت معاهدة ١٩٣٠ حاسمة فقد تخلت بريطانيا فيها عن حقها في الانتداب واعترفت بسيادة العراق اتماماً^(٣) . وبعد ذلك بسنتين ادخل العراق في عضوية عصبة الأمم وهكذا اصبحت تلك البلاد - برغم كثرة العناصر البدوية بين سكانها و برغم انقسامها الطائفي وانخفاض مستواها التربوي - اول بلاد عربية تنضم الى عصبة الأمم . وهو مثل رائع على التقدم القومي بعد الحرب .

(١) Philip W. Ireland, *Iraq : A Study in Political Development* (New York, 1937), pp. 266-76.

حسين (الحجاز)

(٢)

عبد الله (شرق الأردن)
(١) فيصل (العراق) - ١٩٣٣
(٢) غازي - ١٩٣٩
(٣) فيصل الثاني (ولد ١٩٣٥) - ١٩٥٩
(٤) Ireland, pp. 409-18 والإطلاع على نص المعاهدة العربي راجع عبد الرزاق الحسني ، تاريخ العراق السياسي (بغداد ، ١٩٤٨) ج ٢ ص ١٩٧-٢٠٤ .

مصلح مصري

وكان في حياة الشعوب العربية في هذا الزمن شيء من التناقض الظاهر . فقد كانوا يصرون تدخل الاوربيين في شؤون بلادهم بيد ويتقبلون بالآخرى الطرق والافكار الاوربية . وقد استعانوا بما اقتبسوه من اوربا في حربهم ضد الاوربيين . وكان من أقوى الافكار الجديدة الكثيرة التي استوردوها من اوربا فكرنا القومية والديمقراطية السياسية . وقد كان تمسكهم بالقومية عاملاً على تعنتهم بمبدأ تقرير المصير ودفع كلاهما بالامة الى الجهاد في سبيل الاستقلال عن الحكم الاجنبي . وكانت في الوقت نفسه المثالية العربية الجديدة وما فيها من تأكيد على القيم المادية الدنيوية والاهمية التي تعلقها على التحديدات العرقية والحدود الجغرافية تجري بطريق مناقض للتقاليد التي يتمسك بها الاسلام بما فيه من مبادئ الشمول الديني والسلطة الالهية السياسية والملكية الاختصاصية . فقد كانت الوحدة الاسلامية هي الامر الذي يجب ان يسعى لتحقيقه المسلم قبل الوحدة العربية وكان الصراع داخلياً كما كان خارجياً . وكان الجو الفكري في مصر في آخر القرن التاسع عشر قد اصبح ملائماً لاستقبال الافكار الجديدة وانماها وذلك بتأثير الكتابات والخطب التي كان يذيعها المصلح



الشيخ محمد عبده

الحري الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) وكان قد بلغ أعلى مركز ديني في انبالاد - مركز مفتي الديار المصرية . وكان محمد عبده قد تلمذ على جمال الدين الافساني (١٨٣٩ - ٩٧) .

ويعتبر جمال الدين الباعث الرئيسي الأول للروح المعنوية في الإسلام^(١). وقد ولد في أفغانستان وطاف في الهند ودار مكة والقسطنطينية قبل أن يستقر في مصر. وفي مصر تزعم الحركة التي أدت إلى ثورة عرابي^(٢). وقد نفى محمد عبده إلى سورية لاشتراكه بهذه الثورة. وكان محمد عبده حساساً فكان يؤثّر تفهمه للإسلام ويحز في نفسه كثيراً. وقد جرى ابن تيمية^(٣) في انكار الخرافات والزيادات التي لحقت بالإسلام ولوثته. وكانت يدعو إلى إحياء الدين سياسياً وعقلياً والسعي إلى الوحدة السياسية تحت زعيم واحد. وكانت هذا المصالح قد درس وعلم في الأزهر وحرر مع جمال الدين جريدة عربية في باريس، وكان يرى أنه لا يوجد أي تناقض أساسي بين الإسلام والعلم الحديث. ولقد فسر بعض الآيات القرآنية تفسيراً عقلياً وأدرك قصور الطريقة المدرسية الإسلامية^(٤). وبينما كانت جمال الدين يقول بالثورة السياسية لتحقيق الإصلاح المنشود كانت محمد عبده يرى أن النقطة الدينية هي التي تحقّقها. وقد ساهم كلاهما أكثر من أي كاتب عصري في تزييق ثوب المحافظة والرجعية الذي ألصق به الإسلام منذ العصور الوسطى. ومع أنه لا يصل أحد منهما إلى تحقيق ما أمّله فإنها قد تركا أثراً فكرياً وأثباعاً تذكر منهم قاسم أمين (المتوفى ١٩٠٨) وهو أول من هاجم بعنف تعدد الزوجات والطلاق والحجاب^(٥). وتذكر محمد رشيد رضا من عرابي الشام (المتوفى ١٩٣٥) وقد ذهب إلى مصر عام ١٨٩٧ وحرر نأيف^(٦) محمد عبده وكتب ترجمة حياته ونشر تعاليمه في مجلته المنار. ولا يزال أهل الجيل الحاضر يجابهون كثيراً من المشاكل التي لم تحل بعد وفي مقدمتها تنظيم المجتمع العربي على أساس سياسي

(١) لدروس النزعات المعنوية في الإسلام راجع H. A. R. Gibb, *Modern Trends in Islam* (Chicago, 1945), pp. 39 seq.

(٢) انظر ص ٨٨٣ من هذا الكتاب ولزيادة التفصيل عن جمال الدين راجع Charles C. Adams, *Islam and Modernism in Egypt* (London, 1933), pp. 4 seq. وزيادان، تراجم ج ٢ ص ٦٦-٥٤.

(٣) انظر ص ٨١٤ من هذا الكتاب.

(٤) لزيادة التفصيل عنه راجع محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الفخيم محمد عبده، ٣ مجلدات، (القاهرة، ١٣٢٤)، ٤-١٠-١٠٠، Adams, pp. 100-104.

(٥) لقد ترجم كتابه تحرير المرأة (القاهرة، ١٣١٦) إلى الألمانية ١. وشر O. Rescher (Stuttgart, 1928).

(٦) من أهمها تفسير القرآن الحكيم ٨ مجلدات (القاهرة، ١٣٤٦).

ديمقراطي والتوفيق بين الاسلام وروح العصر الحديث .

القومية

لقد قامت القومية العربية على قاعدة واسعة هي ان جميع الشعوب التي تتكلم العربية امة واحدة . وقد بدأت حركة القومية اول الأمر كحركة فكرية صرفة وكان دعائها الأول بالأكثر المفكرون السوريون وبنوع أخص اللبنانيون المسيحيون الذين تعلموا في جامعة بيروت الأميركية وعملوا في مصر (١) . وكان من ظواهر هذه الحركة الاولى في العقد الثامن من القرن التاسع عشر الاقبال على الأدب العربي القديم والبحث في التاريخ الاسلامي . وقد دعا شعور بمجد الامبراطورية الاسلامية القديم ومآثر العرب العلمية اللامعة الى الأمل بمستقبل الامة العربية . وقد اتت النهضة السياسية في أثر النهضة الفكرية، وحلت الايجابية السياسية محل السلبية . ورغب الناس في الحركة والتغيير بعد جهود طلال احيالا وكانت الحركة تنفذ في كل مكان من الوقوف في وجه الاستعمار الغربي .

ولم يطل الوقت حتى اخذت هذه الحركة العربية الناشئة تواجه مشاكل محلية متنوعة . وكان الاحتلال البريطاني في مصر العائق الرئيسي لها . وقد اخذت مقاومة الحكم البريطاني تسير على تفكير المصريين فكان من نتيجة ذلك ان ولدت عندئذ القومية المصرية واخذت تفرق عن القومية العربية ونصطليح بصفتها الاقليمية . واصبحت صيحة الحرب عند المصريين : « مصر للمصريين » . وبتجزؤ الشرق العربي بعد الحرب السكبرى الاولى الى دول مختلفة تجزأت فحركة القومية العربية ، فوجهت قواها في سورية ضد الانتداب المفروض على البلاد . واصبح لبنان ناقماً ايضاً على الانتداب بعد ان كان راضياً عنه اول الأمر . وكذلك الأمر في فلسطين فقد اصطفت حركة العداء للانتداب وما رافقه من صهيونية سياسية - نتج عنها اخيراً ظهور دولة اسرائيل - بصيغة قومية محلية . حتى بلاد شرق الاردن الصغيرة التي اقتطعها الانكليز في شباط سنة ١٩٢١ من جنوبي سورية وجعلوها امارة يحكمها الأمير عبد الله فقد كان لها نوع من القومية الخاصة بها . وكان الغرض من انشاء

هذه الامارة ارضاء الامير عبد الله الذي استاء من خلع اخيه فيصل عن عرش سورية وجعلها حائلا بين فلسطين والهدوء . وصار الامير في سنة ١٩٤٦ ملسكاً على شرقي الاردن وصبح في سنة ١٩٤٩ رأس المملكة الاردنية الهاشمية . اما الحركة القومية العراقية فقد نجت منذ سنة ١٩٢٠ وكانت رد فعل للاستعمار البريطاني .

وبينما كانت القومية تتصارع مع الدول الاجنبية اخذت الديمقراطية السياسية تخاضع الاقطاعية المحلية . فقد كانت للحزبية خصوم في الداخل كما كان لها خصوم في الخارج . وكانت الاقطاعية في كل الشرق العربي لا تزال الظاهرة الاجتماعية المسيطرة على نواحي الحياة بما يتألى عن ذلك من مشاكل سياسية . ومحور هذا النظام الزعماء الذين كانت بيدهم السلطة بفضل نسبهم وتحدثهم من آباء زعماء وبفضل ما جمعوه وتمسكوه من الاراضي الواسعة . وكان يسند هذا النظام جماعة من عمال الاقطاع (مقاطعية) كما كانوا يدعون في سورية ولبنان) لا يرتلون عملهم في الغالب ولكن يثابرون بالتعيين فيجمعون الاشرار والضرائب ويملسون حق فرض العقوبات . وفيما كان هؤلاء العمال يزدادون غنى أصبحت وظيفتهم مع الزمن ورائية ايضا . وهكذا لم يكن من السهل ان تنشأ حكومة ديمقراطية تقوم بتمهتها على مثل هذا الاساس او في مثل هذا الجو الذي يحيط بها . ولم ينته بعد البحث عن شكل سياسي جديد للحكم . ولا يزال الشرق العربي في طور انتقال من حيث السياسة والاجتماع والاقتصاد .

التزعة نحو الاتحاد

واذا كانت الحرب العالمية الأولى قد فصلت بين اجزاء العالم العربي في الامبراطورية العثمانية ودفعتها الى سلوك طريق قوميات او شبه قوميات خاصة فان الحرب الثانية وخطر الصهيونية السياسية التي يعتبرها العرب حركة عدائية دخيلة قد قربا بين هذه الاجزاء . وكان من نتيجة المصاحبة العامة بين الشعوب العربية والشعور المتزايد بالاتحاد ان وضعت اتفاقية

الجامعة العربية التي امضيت في القاهرة في آذار سنة ١٩٤٥ . فقد اكدت الاتفاقية على عزم الدول العربية على التضامن فيما بينها في امور التربية والتجارة والمواصلات . وقد نصت الاتفاقية على التشاور ومباداة الرأي في حالة وقوع عمل عدائي ضد اي من الدول الاعضاء وحظرت استعمال القوة في حسم أي نزاع ينشب بينها . ودول الجامعة العربية اليوم هي مصر والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن ولبنان وسورية والمملكة الاردنية الهاشمية . ولا يمكن لدولة عربية مثل تونس او الجزائر ان تصبح من اعضاء الجامعة ما لم تصل اولا الى سيادتها التامة . وهناك بين اعضاء الجامعة ثلاث ممالك دستورية فيها مجالس تمثيلية منتخبة وهي مصر والعراق والاردن وجمهوريتان هما سورية ولبنان أما التأثير الكامل للقوى العلمانية والعصرية والقومية والديمقراطية في هذه الدول العربية وغيرها من البلاد العربية فهو فصل خاص من تاريخها لم نكتب كل مواده بعد .



أبو عبيدة (ملك غرناطة) ٦٥٦-٦٥٨
 أبو عبيدة البكري ٦٧٥، ٦٧٦
 أبو عبيد (الفاسم ابن سلام) ٤٢٥
 أبو عبيدة ابن الجراح ١٩١، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨
 أبو العنابة ٣٧٨، ٤٩٣
 أبو العلاء المغربي ٤٩٤، ٥٥٦، ٥٥٥
 أبو علي (عيسى ابن زرقعة) ٣٩١
 أبو علي الفارسي ٥٦٧
 أبو الهند ١٠٢، ٤٦٩، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨
 ٧٧٣، ٧٧٨، ٧٩٠، ٨١٢، ٨٠٣ ح
 أبو الفرج الاصمغاني = انظر الاصهاني
 أبو الفرج (ابن حنيد ابن قرة) ٣٩٠
 أبو قطرس ٣٥٧
 أبو القوارس (احمد) ٥٤٨
 أبو قابوس ١٩٢
 أبو القاسم العراقي ٤٦٥
 أبو قرة (نيوشوروس) ٤٢٦
 أبو قيس (فرد يزيد) ٢٩٤
 أبو قير ٨٥٩
 أبو كامل (شجاع ابن أسلم) ٧٨
 أبو كرب (اسعد كامل) ٨٠، ٧٩
 أبو لحب ٢٥١
 أبو لؤلؤة ٢٣٥
 أبو محمد ابن أبي الحكم ٥١٥
 أبو مسلم الحراساني ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٦٢، ٣٦٣
 ٤١٧ ح ٤٠٠
 أبو معشر البلخي ٤٦٢، ٤٧٢، ٦٧٨، ٦٩٩
 أبو موسى الاشعري ٢٤٠، ٣٢٩، ٥١٨، ٥١٩
 أبو نؤاس ٣٧٦، ٤١٣، ٤١٩، ٤٢٣، ٤٢٧
 أبو هريرة ٣٠، ٤٨٠، ٤٨٤
 أبو الوفاء (الفلكي) ٥٠٩
 أبو الوفاء (مبشر ابن فاذك) ح ٧٠٠
 أبو الوفاء (محمد ابو زجاني) ٣٩٠
 أبو يحيى ابن البطريق ٣٨٦
 أبو يوسف (قاضي الرشيد) ١٠٢، ٤١٦، ٤٨٤
 أبو يوسف النصور (الخليفة الموحد) ٦٩١

ابن الهيثم ٤٥٣
 ابن واضح البعلوني = انظر البعلوني
 ابن الوحشية ٤٣٢ ، ٤٣٩ ، ٦٨٣ ج ٩٢
 ابو الاسود الدؤلي ٣٩٠
 ابو ايوب الانصاري ٢٦٥
 ابو بكر ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٨٩ - ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠
 ابو بكر ابن العربي ج ٢٩٥
 ابو بكر الخوافي ٤٦١
 ابو بكر ابن الناصر (السلطان) ٧٩٦
 ابو تمام ١٢٩ ، ٤٩٤ ، ٥٠٠
 ابو جعفر = انظر المنصور
 ابو جعفر الخازن الحراساني ٤٥٩
 ابو حسن علي الأشعري ٥٦٨ ، ٥٦٩
 ابو حنيفة (الامام) ٣١٦ ، ٣١٦ ، ٤٨٢ - ٤٨٥
 ابو حيان التوحيدي ٤٥٦
 ابو حيان (محمد ابن يوسف) ٦٦٧
 ابو داود البصري ٤٨٢
 ابو الفراء ٢٣٠
 ابو داف ٥٠٦
 ابو دعلج الجمحي ٢٩٧
 ابو الذعبي ٨٤٩ ، ٨٥٠
 ابو زيد البلخي ٤٧٠
 ابو سعيد الجبائي ٥٣٠
 ابو - غيان ١٥٨ ، ١٦٦ ، ١٩٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩
 ابو سليمان الفارابي ٥٢٣
 ابو شجاع (بويه) ٥٦٩
 ابو صيرج ٣٥٦
 ابو طالب ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ٢٥٦
 ابو العاص ٢٥١
 ابو العباس ٣٥٤ - ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٦ ، ٤٢١
 ابو العباس (أحمد القرطبي) ٤٥٨
 ابو العباس الطبري ٦٦٧
 ابو عبد الله الشيعي ٧٣١ - ٧٣٤

الاسفينية (الكناية) ٧، ٩، ٣٩، ٤٤
 اسكس ٤٧
 الاسكندر ٥٨، ٦٤، ٧٦، ١٧١، ١٩٤
 ٢٠٦، ٢١٦، ٢٢٧، ٧٨٥
 اسكندر روس ح ١٧٤
 الاسكندرون ٨٨٥
 الاسكندرية ٧٨، ٨٩، ٩٩، ٢١٥، ٢١٧ -
 ٢٢٠، ٢٢٢ - ٢٢٤، ٢٣٢، ٣٨٤
 ٣٨٩، ٣٩٧، ٤٢٦، ٤٣٦، ٤٤٣
 ٦١٠، ٦٣٠، ٦٣٢، ٦٥٢، ٦٧٦
 ٧١٤، ٧٣٣، ٧٣٥، ٧٤٨، ٧٧٢
 ٧٨٣، ٨٠٤، ٨٣٠، ٨٥٠، ٨٥١
 ح ٧٧٩، ٧٤
 الاسكوريال ٦٧١
 اسكي شهر ٢٦٧، ٧٥٤
 اسماعيل (الحديوي) ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٧٨
 ٨٨٣
 اسماعيل ابن اعد ٥٥٥
 اسماعيل ابن جعفر الصادق ٥٣١ - ٥٣٣
 ٥٣٩، ٧٣٢
 اسماعيل الصفوي = انظر شاه اسماعيل
 اسماعيل باشا العظيم ٨٦٠
 اسماعيل ابن محمد علي = انظر اسماعيل (الحديوي)
 اسماعيل ابن الناصر ٧٩٦
 اسماعيل ابن نغزاة ٦٣٩
 اسماعيل ابن نور الدين ٧٦٥
 اسماعيل ابن هاجر ٣١، ٣٩، ٥٤، ٥٥
 ١٢٤، ١٣٤، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢
 ح ١٨٤، ٣٣٢
 اسماعيلية - اسماعيليون ٥٥، ٦٥، ٣١٧
 ٤٥٥، ٤٣٢، ٤٣٣، ٥٣٦ - ٥٣٩
 ٥٨٢، ٧٣١، ٧٣٦، ٧٤٩، ٧٦٥
 ح ٥١
 اسماء بنت ابي بكر ٢٥٦
 اسوان ٥٨٥
 اسوج ٣٧٩، ٨٣٩
 الاسود المنسي ١٤٨، ١٩٢

٦٨٦ - ٦٩٠، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠١ -
 ٧٠٤، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١١، ٧١٤
 ٧١٦، ٧١٧، ٧٢١، ٧٢٥، ٧٢٧
 ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٥٢، ٧٨٤، ٧٨٨
 ٨١٢، ٨١٧، ٨٢٦، ٨٢٨، ٨٣٩
 ح ٨٤٦، ٦٠٥
 الاسبارية ٧٦٣، ٧٦٧، ٧٧٣، ٧٧٧
 اسناديس ٣٦٢
 استانبول ٥٥٧ وانظر القسطنطينية
 استنجة ٥٩١، ٦١٩
 استراليا ٨٦٦
 استوريا ٥٩٢
 استير ١٩١
 اسحاق ابن ابراهيم ٣٣٢
 اسحاق الراهب ٦١٤
 اسحاق ابن حنين ٣٨٧، ٤٨٧
 اسحاق ابن علي ٦٥٠
 اسحاق فلاسكز ٦٤٧
 اسحاق الموصلي ٥١٣، ٦١٢
 الاسحاق ٨٤٨
 اسد (بنو) ١٥٦، ١٩٢
 اسد الغابة ذك ٤٧٨
 اسد ابن القرات ٧١٥
 الاسراء ١٥٩
 الاسراء الى مقام الاسرى ذك ٦٩٦
 امراثيل ٤٤، ٥٦، ٥٦، ١٣٧، ١٨٨٩
 ح ٤٣٧
 اسرائيليات ٣١٣
 اسرار الحكمة المشرقية ذك ٦٩٨
 الاسرة الرسولية ٨٧
 اسرحدون ٤٧، ٤٨
 اسطبلات سنيان ٧٨٧
 اسطفان الانطاكي ٧٨٤
 اسطفان القويهي ٨٧٤
 اسعد العظيم ٨٦٠
 اسفار في الجزيرة الصحراوية ذك ٧
 اسفار موسى ذك ١٧١

سليمان اغا ٨٩٨
 سليمان الاول - انظر سليمان الكبير
 سليمان باشا ٨٠٢
 سليمان (الناجر السمراني) ٤٦٨٤٤٢٦
 سليمان الثاني ٨٤٤
 سليمان الجنائي ٥٣٥
 سليمان الحكيم ١١٥٢-١١٥٣-١١٥٤-١١٥٥-١١٥٦-١١٥٧-١١٥٨-١١٥٩-١١٦٠
 ١٢٩٦
 سليمان ابن عبد الملك ٢٨٦-٣٨٦-٤٦٧-٥٦٦-٦٦٦-٧٦٦-٨٦٦-٩٦٦-١٠٦٦-١١٦٦-١٢٦٦-١٣٦٦-١٤٦٦-١٥٦٦-١٦٦٦-١٧٦٦-١٨٦٦-١٩٦٦-٢٠٦٦-٢١٦٦-٢٢٦٦-٢٣٦٦-٢٤٦٦-٢٥٦٦-٢٦٦٦-٢٧٦٦-٢٨٦٦-٢٩٦٦-٣٠٦٦-٣١٦٦-٣٢٦٦-٣٣٦٦-٣٤٦٦-٣٥٦٦-٣٦٦٦-٣٧٦٦-٣٨٦٦-٣٩٦٦-٤٠٦٦-٤١٦٦-٤٢٦٦-٤٣٦٦-٤٤٦٦-٤٥٦٦-٤٦٦٦-٤٧٦٦-٤٨٦٦-٤٩٦٦-٥٠٦٦-٥١٦٦-٥٢٦٦-٥٣٦٦-٥٤٦٦-٥٥٦٦-٥٦٦٦-٥٧٦٦-٥٨٦٦-٥٩٦٦-٦٠٦٦-٦١٦٦-٦٢٦٦-٦٣٦٦-٦٤٦٦-٦٥٦٦-٦٦٦٦-٦٧٦٦-٦٨٦٦-٦٩٦٦-٧٠٦٦-٧١٦٦-٧٢٦٦-٧٣٦٦-٧٤٦٦-٧٥٦٦-٧٦٦٦-٧٧٦٦-٧٨٦٦-٧٩٦٦-٨٠٦٦-٨١٦٦-٨٢٦٦-٨٣٦٦-٨٤٦٦-٨٥٦٦-٨٦٦٦-٨٧٦٦-٨٨٦٦-٨٩٦٦-٩٠٦٦-٩١٦٦-٩٢٦٦-٩٣٦٦-٩٤٦٦-٩٥٦٦-٩٦٦٦-٩٧٦٦-٩٨٦٦-٩٩٦٦-١٠٠٦٦-١٠١٦٦-١٠٢٦٦-١٠٣٦٦-١٠٤٦٦-١٠٥٦٦-١٠٦٦٦-١٠٧٦٦-١٠٨٦٦-١٠٩٦٦-١١٠٦٦-١١١٦٦-١١٢٦٦-١١٣٦٦-١١٤٦٦-١١٥٦٦-١١٦٦٦-١١٧٦٦-١١٨٦٦-١١٩٦٦-١٢٠٦٦-١٢١٦٦-١٢٢٦٦-١٢٣٦٦-١٢٤٦٦-١٢٥٦٦-١٢٦٦٦-١٢٧٦٦-١٢٨٦٦-١٢٩٦٦-١٣٠٦٦-١٣١٦٦-١٣٢٦٦-١٣٣٦٦-١٣٤٦٦-١٣٥٦٦-١٣٦٦٦-١٣٧٦٦-١٣٨٦٦-١٣٩٦٦-١٤٠٦٦-١٤١٦٦-١٤٢٦٦-١٤٣٦٦-١٤٤٦٦-١٤٥٦٦-١٤٦٦٦-١٤٧٦٦-١٤٨٦٦-١٤٩٦٦-١٥٠٦٦-١٥١٦٦-١٥٢٦٦-١٥٣٦٦-١٥٤٦٦-١٥٥٦٦-١٥٦٦٦-١٥٧٦٦-١٥٨٦٦-١٥٩٦٦-١٦٠٦٦-١٦١٦٦-١٦٢٦٦-١٦٣٦٦-١٦٤٦٦-١٦٥٦٦-١٦٦٦٦-١٦٧٦٦-١٦٨٦٦-١٦٩٦٦-١٧٠٦٦-١٧١٦٦-١٧٢٦٦-١٧٣٦٦-١٧٤٦٦-١٧٥٦٦-١٧٦٦٦-١٧٧٦٦-١٧٨٦٦-١٧٩٦٦-١٨٠٦٦-١٨١٦٦-١٨٢٦٦-١٨٣٦٦-١٨٤٦٦-١٨٥٦٦-١٨٦٦٦-١٨٧٦٦-١٨٨٦٦-١٨٩٦٦-١٩٠٦٦-١٩١٦٦-١٩٢٦٦-١٩٣٦٦-١٩٤٦٦-١٩٥٦٦-١٩٦٦٦-١٩٧٦٦-١٩٨٦٦-١٩٩٦٦-٢٠٠٦٦-٢٠١٦٦-٢٠٢٦٦-٢٠٣٦٦-٢٠٤٦٦-٢٠٥٦٦-٢٠٦٦٦-٢٠٧٦٦-٢٠٨٦٦-٢٠٩٦٦-٢١٠٦٦-٢١١٦٦-٢١٢٦٦-٢١٣٦٦-٢١٤٦٦-٢١٥٦٦-٢١٦٦٦-٢١٧٦٦-٢١٨٦٦-٢١٩٦٦-٢٢٠٦٦-٢٢١٦٦-٢٢٢٦٦-٢٢٣٦٦-٢٢٤٦٦-٢٢٥٦٦-٢٢٦٦٦-٢٢٧٦٦-٢٢٨٦٦-٢٢٩٦٦-٢٣٠٦٦-٢٣١٦٦-٢٣٢٦٦-٢٣٣٦٦-٢٣٤٦٦-٢٣٥٦٦-٢٣٦٦٦-٢٣٧٦٦-٢٣٨٦٦-٢٣٩٦٦-٢٤٠٦٦-٢٤١٦٦-٢٤٢٦٦-٢٤٣٦٦-٢٤٤٦٦-٢٤٥٦٦-٢٤٦٦٦-٢٤٧٦٦-٢٤٨٦٦-٢٤٩٦٦-٢٥٠٦٦-٢٥١٦٦-٢٥٢٦٦-٢٥٣٦٦-٢٥٤٦٦-٢٥٥٦٦-٢٥٦٦٦-٢٥٧٦٦-٢٥٨٦٦-٢٥٩٦٦-٢٦٠٦٦-٢٦١٦٦-٢٦٢٦٦-٢٦٣٦٦-٢٦٤٦٦-٢٦٥٦٦-٢٦٦٦٦-٢٦٧٦٦-٢٦٨٦٦-٢٦٩٦٦-٢٧٠٦٦-٢٧١٦٦-٢٧٢٦٦-٢٧٣٦٦-٢٧٤٦٦-٢٧٥٦٦-٢٧٦٦٦-٢٧٧٦٦-٢٧٨٦٦-٢٧٩٦٦-٢٨٠٦٦-٢٨١٦٦-٢٨٢٦٦-٢٨٣٦٦-٢٨٤٦٦-٢٨٥٦٦-٢٨٦٦٦-٢٨٧٦٦-٢٨٨٦٦-٢٨٩٦٦-٢٩٠٦٦-٢٩١٦٦-٢٩٢٦٦-٢٩٣٦٦-٢٩٤٦٦-٢٩٥٦٦-٢٩٦٦٦-٢٩٧٦٦-٢٩٨٦٦-٢٩٩٦٦-٣٠٠٦٦-٣٠١٦٦-٣٠٢٦٦-٣٠٣٦٦-٣٠٤٦٦-٣٠٥٦٦-٣٠٦٦٦-٣٠٧٦٦-٣٠٨٦٦-٣٠٩٦٦-٣١٠٦٦-٣١١٦٦-٣١٢٦٦-٣١٣٦٦-٣١٤٦٦-٣١٥٦٦-٣١٦٦٦-٣١٧٦٦-٣١٨٦٦-٣١٩٦٦-٣٢٠٦٦-٣٢١٦٦-٣٢٢٦٦-٣٢٣٦٦-٣٢٤٦٦-٣٢٥٦٦-٣٢٦٦٦-٣٢٧٦٦-٣٢٨٦٦-٣٢٩٦٦-٣٣٠٦٦-٣٣١٦٦-٣٣٢٦٦-٣٣٣٦٦-٣٣٤٦٦-٣٣٥٦٦-٣٣٦٦٦-٣٣٧٦٦-٣٣٨٦٦-٣٣٩٦٦-٣٤٠٦٦-٣٤١٦٦-٣٤٢٦٦-٣٤٣٦٦-٣٤٤٦٦-٣٤٥٦٦-٣٤٦٦٦-٣٤٧٦٦-٣٤٨٦٦-٣٤٩٦٦-٣٥٠٦٦-٣٥١٦٦-٣٥٢٦٦-٣٥٣٦٦-٣٥٤٦٦-٣٥٥٦٦-٣٥٦٦٦-٣٥٧٦٦-٣٥٨٦٦-٣٥٩٦٦-٣٦٠٦٦-٣٦١٦٦-٣٦٢٦٦-٣٦٣٦٦-٣٦٤٦٦-٣٦٥٦٦-٣٦٦٦٦-٣٦٧٦٦-٣٦٨٦٦-٣٦٩٦٦-٣٧٠٦٦-٣٧١٦٦-٣٧٢٦٦-٣٧٣٦٦-٣٧٤٦٦-

١٤٢٤ ١٤٢١ - ١٤١٨ ١٤١٥ ١٤١٢ ١٤١١
١٤٢٧ ١٤٢٤ ١٤٢٣ ١٤٢٠ - ١٤١٨ ١٤١٦
١٤٨٥ ١٤٨٣ ١٤٧١ ١٤٦٧ ١٤٤٤ ١٤٣٩
١٣٠٩ ١٣٠٥ ١٣٠٤ ١٣٠٣ ١٣٠٠ ١٢٩٢
١٢٢١ ١٢٢٠ ١٢١٩ ١٢١٨ ١٢١٧ ١٢١٦

عمر الخيام ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٣ ١٤٩٧ ١٥٥٦
١٧٣

عمر ابن سعد ابن أبي وقاص ٢٥٣ ٢٥٢
عمر ابن عبد العزيز ١٢٦٧ ١٢٧٥ ١٢٨٥ ١٢٨٨
١٢٩٩ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٦ ١٣١٥ ١٣٢٣
١٣٢٥ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٤١ ١٣٤٩ ١٣٥٧
١٣٩٨ ١٤٠٠ ١٤٣٢ ١٤٩٤ ١٥٢٦ ١٥١٠

ج ٢٧٠

عمر ابن أبي ١٢٩
عمر و ابن عمر الخاضع - النظر الجاهل
عمر و ابن حجر ٩١٥
عمر و ابن القاس ١٦٣ ١٩٣ ٢١٤ - ٢١٦
٢١٨ - ٢٢٢ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧
٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣٩

عمر و ابن عامر ابن ماء السماء ٨٦
عمر و ابن عدي ٩٠٨
عمر و الكرمانى القرطبي ٦٧٩
عمر و ابن كاثوم ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٦
عمر و ابن مزيقية ١٠٢
عمر و ابن هند ١١٩
عمر و ابن يوسف ٦١٠ ٦١١ ٦١٩
العصري ٧٨٧
عمار (بنو) ٧٤٩
عمار ابن علي الواسلي ٧٤٥
عمواس ٢٠٨ ٢٢٧
عمود السوارى ٢١٨
عمورية ٣٨٧ ٣٨٥ ٣٧٣
عنزة ابن شداد ١٠٠ ١١٠ ١٢٢ ١٣١ ١٣٢ ١٣٧
٨١٥ ٨١٦

العنزة (قبيلة) ٤٩٣ ٥٤٤
العهد القديم « ك » ١٠ ٣٣٠ ١٧٦ ١٨٤ ٣٨٨
عوباليت ٦٤

١٤٨٠ ١٤٦٢ ١٤٦٠ ١٣٥٣ ١٣١٩ ١٣١٥
١٤٢٩ ١٥٣٢ ١٥٣١ ١٥٣٧ ١٥٤٤ ١٤٨٦
١٦٢٧ ١٦١٠ ١٤٧٧ ١٥٦٧ ١٥٦٥ - ٥٤٠
٧٥٧

علي الالهية - ٣١٧
علي البحري ٨٠٠
علي بك ٨٥٩ ٨٥٠ ٨٦١
علي ابن حزم ٦٦٢
علي ابو الحسن ٦٨٦
علي ابن سواد ٦٣٧
علي الرضا ٢٩٩ ٢٩٨ ٢٩٦
علي زين العابدين ٥٣٩
علي الشاذلي ٥٢٦
علي ابن العباسي الجوهري ١٤٦ ١٤٥ ١٤٤ ١٤٣ ١٤٢ ١٤١ ١٤٠ ١٣٩ ١٣٨ ١٣٧
٧٨٢
علي بك الرواسي ٤
علي العنبري ٤٤٦ ٤٤٧
علي ابن عيسى ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩
علي ابن محمد ٥٦٦
علي ابن المرسوثي ٨٤٠
علي الهادي ٥٣١
علي ابن يوسف ابن تاشفين ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠
علي ابن يوسف ٧٤٤
عليه (بنت الرشيد) ٤١٠
عليه (بنت المهدي) ٣٧٥
عماد الدولة ٥٦٥
عماد الدين الاصفهاني ٧٧١
العماليق ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤

١٣٧٣ ١٥٩١ ١٤٨٥ ١٥٧٢ ١٥٩١ ١٣٧٣
١٧٤١ ١٧٥٢ ١٧٠٧ ١٦٧٧ ١٦٣٠ ١٦٢٦
١٨٣٠ ١٨٣٦ ١٨٣٠ ١٨١٨ ١٨١٦ ١٧٩٩
١٨٦٣ ١٨٦٦ ١٨٦٠ ١٨٤٨ ١٨٤٧ ١٨٢٩
١٨٨٢ ١٨٧٥ ١٨٧٣ ١٨٦٨ ١٨٦٧ ١٨٦١
٨٨٨

قسطاطيوس ٨٠
قسي (بنو) ٦٩٦
قذالة ٦٧٢ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦١٥ وانظر كاساني
قذير ٣٦٣
القشيري ٤٢٣
القصر الاباق ٨١٦
القصر الابيض ٧١٠
قصر الحاج ٥٠٥
قصر القيا ٥٠٥
القصر الجعفوي ٣٧٨
قصر الطير ٣٣٩
قصر الجبل ٥٠٥
قصر المسافة ٥٠٥
قصة الام وحياتها ٣٩٥
القصور ١٠
قصور عمرة ١٢٠٣٣٦ ١٢٠٣٣٦ ١٢٠٣٣٦ ١٢٠٣٣٦
قصي ١٥٥٠١٥٥
قظام ٦١٢
قظامان ٨٠٠٧٣١٧٢٠٧٠
قظير ٨٧٠٤٨٦٩١١٧
قظير الندى ٥١٦
قظيري ابن الفجاءة ٣٧٢
قظير الطائر سيف الدين ٧٩٧ ٧٩٥ ٧٧٦ ٤٨٤
قظيرانية ٦٣٤
القظيري ٨٩٩ ٦٩٤ ٦٧٣ ٤٤٤ ٩٠٣ ٩٩٠ ٣٨٩
قلاوون ٨٠١٠٨٠٠ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٦ ٧٩٦ ٧٩٦ ٧٩٦
٨٩٦ ٨٩٦ ٨٠٩ ٨٠٦
قاب الاسد = انظر راجع د قاب الاسد
قابج ارسلان ٧٨٤ ١٥٧٩
قائمة ابن سلامة ٦٧٤
قائمة ارلون ج ٧٦٧

٧٠٧ ٧١٧ ٧٠٧ ٧١٧ ٧١٧ ٧١٧

قرطجة ١٥٨٩ ١٥٨٩ ١٥٨٩ ١٥٨٩ ١٥٨٩ ١٥٨٩
٧٠٧ ٧١٧ ٧١٧ ٧١٧ ٧١٧ ٧١٧
قرقر ٤٥
القرم ٨٣٩
قرماني ٨٣٩ ٨٣٨
قرمط = انظر حمدان قرمط
قرمونة ٤٩١
القرن الذهبي ٢٦٧
قراو ٧٣١٧٠
قرنايلي ٨٦٤
قرون حاة (معركة) ٧٦٥
القرنين ٣٩٠ ١٠٠
قراش ١٣٩ ١٣٩ ١٣٩ ١٣٩ ١٣٩ ١٣٩
١١١٧ ١١١٧ ١١١٧ ١١١٧ ١١١٧ ١١١٧
١٧٣٣ ١٧٣٣ ١٧٣٣ ١٧٣٣ ١٧٣٣ ١٧٣٣
٨٦٠ ٨٦٠ ٨٦٠ ٨٦٠ ٨٦٠ ٨٦٠
قرطبة (بنو) ١٦٢ ١٦٢ ١٦٢ ١٦٢ ١٦٢ ١٦٢
قزح (اله الزمرد) ١٨٥
قزل باش ٤٤٠
قزوين = انظر بحر قزوين
القزويني ١١٣٣ ١١٣٣ ١١٣٣ ١١٣٣ ١١٣٣ ١١٣٣
قسي ابن ساعدة ١٥١
قسطا ابن لوقا ٣٩٠
قسطا ٣٣٩
قسطاطين الاقربني ٦٨٨
قسطاطين الاول ٢٦٨
قسطاطين برفغنس ٤٠٦
قسطاطين الثامن ٧٣٦
قسطاطين الثاني ٢٢٧ ٢٢٧ ٢٢٧ ٢٢٧ ٢٢٧ ٢٢٧
قسطاطين الخامس ٣٧١
قسطاطين الرابع ٢٦٥
قسطاطين السابع ٦٨٦ ٣٧٥
قسطاطين السادس ٣٧٢
القسطاطية ٨٦ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠
١٢٠٦ ١٢٠٦ ١٢٠٦ ١٢٠٦ ١٢٠٦ ١٢٠٦
١٢٠٦ ١٢٠٦ ١٢٠٦ ١٢٠٦ ١٢٠٦ ١٢٠٦

محمد ابن القاسم ١٤٤٤، ١٤٧٣، ١٤٧٧، ١٤٧٩، ١٤٨٠
 محمد الكرجي ١٤٤
 محمد المازني ٦٧٧
 محمد ابن محمد ابن طرخان ٤٥٣
 محمد ابن مروان ٣٤٩
 محمد ابن السنصر ٧٢٩
 محمد ابن مشير البسي - انظر البسي
 محمد ابن الطاهر حاجي ٧٩٦
 محمد ابن العاصم ٥٦٠
 محمد بنظار ١٤٣٠، ١٤٣١
 محمد الزاصر ٦٤٢
 محمد ابن نصير ٥٣٩
 محمد (النفس الزكية) ٣٦٢
 محمد ابن همام المهدي ٦٣٦
 محمد ابن يوسف الكندي ٧٤٣
 محمد ابن يوسف ابن نصير ٦٤٣
 محمد علي الكبير ٦١٥، ١٤٥٦، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٦، ١٤٥٧
 ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٨٨
 ح ٣٥٧
 المجلد ١٨٦، ١٨٧
 محمود الاول ٨٥٧
 محمود الثاني ٨٥٣، ٨٥٦
 محمود السوفي ٧٩١
 محمود الفخري ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩
 محمود ابن ملكشاه ٦٨٧
 مة عدن ٨٦٩، ٨٧٠
 المحيط الاطلسي ١٢٧٠، ١٢٨٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٤، ١٢٩٤
 ٦٣٠، ٦٣٠، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٧
 المحيط الهندي ١١٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١
 نما ٦٣، ٧٣
 نجل الثاني ٣٧١
 نجل ١٣٠، ١٣١
 نجل الحكيم وعلمن الكتاب ٥ ك ٤ ج ٧٠٠
 انقذارة ٥٦٢
 نادر تاريخ البشر ٥ ك ١٢٥
 نزوح (بنو) ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨

بيان الخرائط والرسوم والجداول

الخرائط

٣	العالم الاسلامي
١٨	جزيرة العرب - شايمة صحح الارض
٨٦	لدون الغربية الشمالية قبل الاسلام
٢٠٧	سورية ونصيبها الى اجداد
٢٧٤	مقاطعات جيحون وسينجور
٢٧٦	الهند
٢٨٧	دولة الخلفاء حتى سنة ١٠٠٠
٤٠١	الخلافة العباسية في القرن التاسع
٦٢٩	شبه جزيرة الاندلس
٦٥٩	مراكش تحت حكم الموحدون
٧٦٥	امتوح الاسلام في مغربية وجنوبي ايطاليا
٧٧٥	العالم بناء على جغرافية الادريسي
٧٨٠	الاسلام والنبعية قبل بدء الحروب الصليبية
٧٦٠	دول الصليبيين في سورية
٨٠٨	دولة المماليك

الرسوم

٩٥	البيداء : القصر
٩٦	البيداء : الدبر
١٠١	شارع الامم في تدمر
١١٠	الخبر الاسود
١٢٣	مكة من جهة الشمال شرقي
١٣٣	الكعبة
٢٨٧	المنارة الرملية

٣٢٨	قواعد بعض الأعمدة في مسجد المدينة
٣٣٣	قبة الصخرة
٣٣٥	داخل المسجد الأموي
٣٣٧	قصر حمرة
٣٣٨	جزء من نقش التوجوه على حجر واجهة الشق
٣٤٠-٣٤١	القيصية في قصر هشام بن عبد الملك قرب أريحا
٣٤٧	الاسطرلاب
٤٠٥	التوكيل على قطعة نفوذ
٤٠٦	المثوبة في جامع سامرا الكبير
٧٠٠	جناح في باحة الأسود في الخراء
٧٠٦	مسجد قرطبة الكبير من الداخل
٧٢٧	وشاح التنويج الذي ليسه روجر الثاني
٧٦٨	قائمة الشقيف
٧٨١	قائمة حجاب
٨٢٣	مدرسة قائلاني في القاهرة
٨٤١	مقبرة السلطان سليمان الكبير
٨٤٩	قطعة نفوذ من عهد علي بيك في مصر
٨٥٦	عهد علي الكبير
٨٥٩	الأمير فخر الدين
٨٧٧	مسجد محمد علي الكبير
٨٧٩	مدخل مدينة القدس
٨٨٧	الشيخ محمد عبده

الجدول

٦٩	بعض الأعمدة
١٤٥	نسب النبي محمد
١٨٩	الحلفاء الراشدون وسنن حكومتهم
٢٤٢	اليهود العربية التي ولدت الخلافة
٢٤٦	أمة وعالمهم
٢٥٥	الحلفاء الأمويون السفاريون
٣٥٨	الحلفاء الأمويون الروميون
٣٥٩	العباسيون ومحمد
٣٦٢	ذرية علي
٣٦٩	الحلفاء العباسيون حتى التوكيل
٤٣١	الائمة الانا عشر
٤٤٧	ملوك الدولة الطولونية

٥٤٩	ملوك الدولة الأخشيديّة
٥٤٩	ملوك الدولة الحمدانيّة
٥٦٠	الخلفاء العباسيون الذين أقاموا بسامرا
٥٦٤	خلفاء بغداد في عهد الحكم العسكري
٥٦٨	الخلفاء العباسيون في عهد السيادة البويهية
٥٧٥	الخلفاء العباسيون الذين عاشروا حكم السلطنة السجوقية
٦١١	الأمراء الأمويون بقرطبة
٦٣٦	الخلفاء الأمويون بقرطبة
٦٤٨	ملوك دولة الراسطين الاندلسية
٦٥٦	السلطين المتأخرون من بني نصر
٧٣٩	الخلفاء القاضيون
٧٥١	سلطنة سورية
٧٧٥	السلطين الأيوبيون المصريون
٧٩٦	المماليك البحرية
٨١٩	المماليك البرجية
٨٣٥	الحكام العثمانيون الاول
٨٣٩	سلطين بني عثمان حتى مراد الثالث
٨٤٠	سلطين بني عثمان حتى آخر الدولة العثمانية
٨٥٤	العائلة الملكية المصرية
٨٨٦	ابناء الحسين

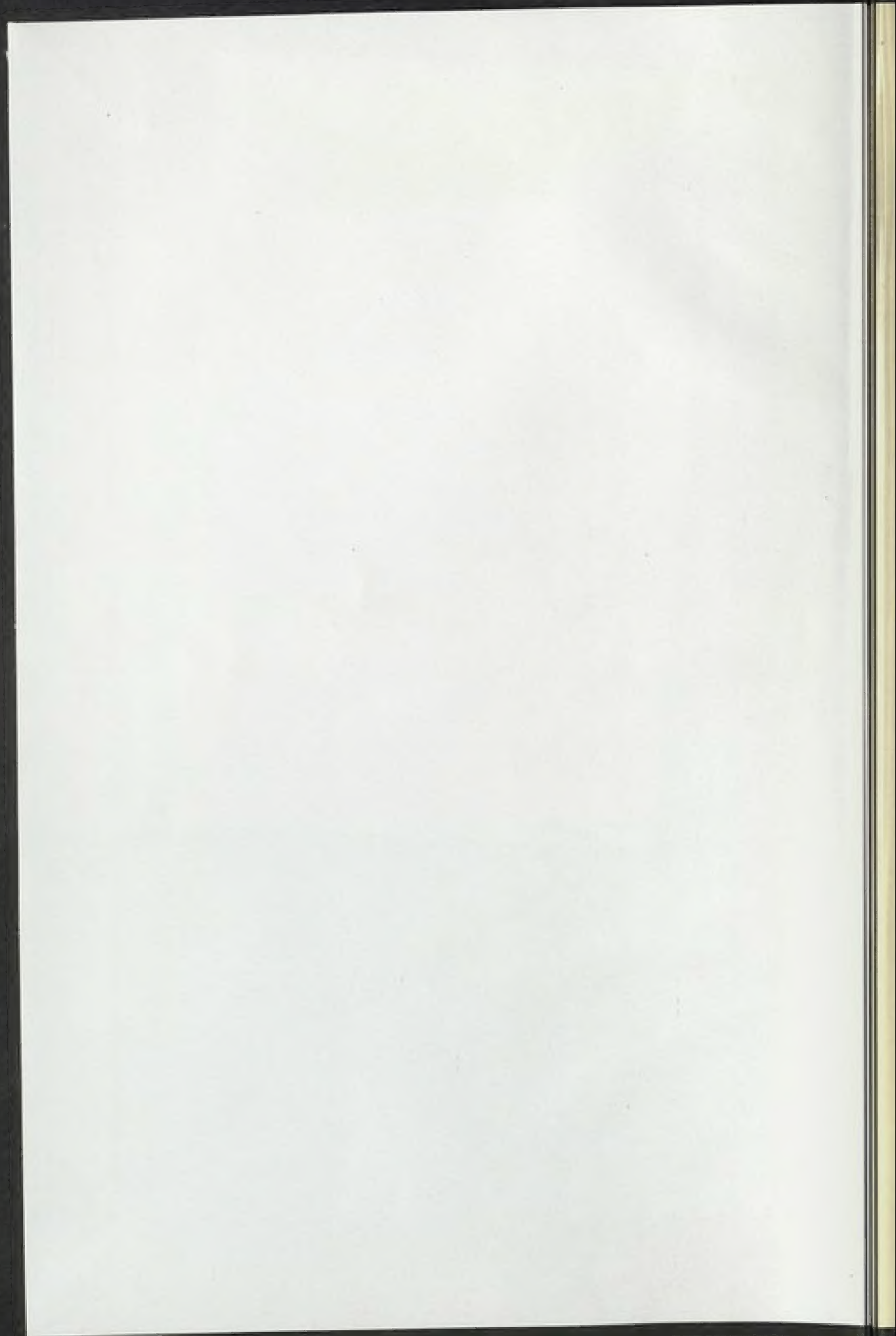
انتمى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الرشيد

للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت - لبنان

في ١٥ جمادى الاولى سنة ١٣٧٠ الموافق ٢١ شباط سنة ١٩٥١



A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00377415

